

علي مصباح

# سان دني

منشورات الجمل

رواية

مكتبة  
الفكر  
الجديد

علي مصباح

# سان دني

رواية

منشورات الجمل

علي مصباح: سان دني

ولد علي مصباح عام ١٩٥٣ بتونس. روائي ومترجم تونسي يقيم ببرلين. صدر له عن منشورات الجمل: بيتر سلوتردايك: الإنجيل الخامس لنييتشه (ترجمة) ٢٠٠٣؛ فريدريش نييتشه: هكذا تكلم زرادشت (ترجمة) ٢٠٠٧؛ فريدريش نييتشه: غسق الأوثان (ترجمة) ٢٠١٠؛ فريدريش نييتشه: نقيض المسيح (ترجمة) ٢٠١١؛ حارة السفهاء (رواية) ٢٠١٣؛ فريدريش نييتشه: إنساني مفرط في إنسانيته، الكتاب الأول (ترجمة) ٢٠١٤؛ فريدريش نييتشه: إنساني مفرط في إنسانيته، الكتاب الثاني (٢٠١٥).

علي مصباح: سان دني، رواية

الطبعة الأولى ٢٠١٥

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد - بيروت ٢٠١٥

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ - ٠١ - ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ - ١١٣ بيروت - لبنان

© Al-Kamel Verlag 2015

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

## مرسيليا ذات مساء

لم تعترضنا بنات الفرنسيس بالأحضان في ميناء مرسيليا كما كنا نعتقد، أو كما كنا نمني أنفسنا على الأقل.

مدينة مرسيليا تبدو قاتمة عند الغروب. بلون الصدا. وجوه داكنة، شاحبة. عيون لها بريق عيون الذئب. مغاربيون بهيئات غامضة تتسلل مرتابة أو متحفزة. بعضهم يبدو مترنحا. أرجل تتجرجر متلكئة. في زاوية من تقاطع شارعين تقف مجموعة من خمسة أو ستة رجال بهيئات قلقة، يتحدثون بأصوات عالية بينما أيديهم تضطرب بحركات عصبية. ينسحب أحدهم قليلاً إلى الوراء ويبصق جانباً لفافة سوداء كريهة المظهر تلتصق بالجدار عند ارتخاء وتيرة القذف التي دفعت بها من الفم المتوتر تحت شاربين أسودين نحيفين يوقعان حدة تضاريس الوجه المستطيل، الذي يبدو كما لو أنه نُحت من صخر جبلي. لفافة تبغ السعوط التي ظلت لنصف ساعة أو أكثر تختمر في حنك ذلك الرجل تستقر الآن لطخة سوداء على الجدار.

«ممنوع البول والبصاق! قانون ١٢ جويلية ١٨٨١». جملة كنا غالباً ما نراها مرسومة بالصباغ الأسود على جدران المدن التونسية في الستينات. كانت تلك على ما يبدو إحدى «الغايات السامية لرسالة فرنسا الحضارية» تجاه شعوب العالم التي ما تزال غارقة في مستنقعات البول والبصاق وشنائع أخرى أفاض في ذكرها المؤرخون. غير أنّ المغاربيين

لم يقلعوا عن عاداتهم العريقة في التبّول على الجدران والبصاق حيث يحلّو لهم ذلك، في مدن تونس والجزائر وسيدي بلعبّاس ووهران وعبّابة ووّجدة والرباط ومزّاكش وباجة وقفصة وصفاقس، أو في مرسيليا وباريس ونيس، نكاية في تلك الجملة الوقحة المرسومة بخط أسود على حيطان مدنهم. مهزومة هي الفاجرة الآن في عقر دارها، بعد أن أعلنت فشلها وهزيمتها في مدن الشمال الإفريقي التي أفلحت بالنهاية في التخلّص من سلطة الإمبراطورية الاستعمارية بعساكرها وترسانتها الإدارية وقوانينها، واستعادت استقلاليتها قرارها وحرّية ممارستها لأنشطة التبّول والبصاق والتقيؤ والخراء دون رادع أو رقيب.

ندب عبر الزقاق القاتم باتجاه محطة القطارات مثل كتيبة ماضية باتجاه معركة مجهولة المصير. يوسف يتذكر كلمات كامو وهو يدخل باريس لأول مرّة: *Paris est gris et plein de pigeons*<sup>(1)</sup>.

قائمة مدينة مرسيليا عند الغروب ولا فتيات شقراوات هناك يلوّحن لنا بمناديلهن. هناك الهيئات الغامضة للجزائريين والأفارقة الذين يوقّعون قتامة المساء بخطواتهم الثقيلة المترنّحة على الأرصفة، كما لو كانوا يسيرون داخل حلم ثقيل، والشارع الذي يصعد بمثل من الميناء باتجاه محطة الأرتال يبدو كثيبًا لا تزيده الخطوات البطيئة لعجوز متقوّس وراء كلب صغير إلّا تجمّما.

محرز غدا فجأة أخرس يتعثّر في خطواته المربّكة ولا يكاد يقدر على التّظر إلى الأشياء من حوله، بينما يوسف يلوك جملة كامو بشيء من الزهو؛ زهو العارف عندما يثبت له الواقع أنّ معرفته ليست مجرد

(1) باريس رمادية وملينة حماماً.

هراء كتب، كما هو الحال في أغلب الأحيان. أما رياض الذي كان على ما يبدو مغرماً بنوع آخر من الكتب المصوّرة التي تجعل المرء يسافر إلى كلّ مدن العالم وهو لم يغادر غرفته بالمبيت الجامعي، فقد ظلّ محافظاً على مرحه، يردّد علينا بصرامة يقين العارف أنّ كلّ الموانئ متشابهة، وهي في تشابهها الرماديّ الكونيّ لا تمتّ إلى واقع المدن بصلة. كان رياض على قناعة بأنّ المدينة تخبئ في جوفها البعيد عن البواخر والرفاعات والسفن العتيقة الرابضة مثل حيوانات هائلة الجثة محتّنة هناك، والسكك الصدئة وعربات القطارات ثقيلة الهيئة، رياضاً من الألوان والمرح والوجوه الجميلة المشرقة لفتيات شبيهات بدمى من البلّور اللطيف.

## توريسك

ألقيت بفردة حذائي في مياه الخليج والباخرة قد توغلت خارج ميناء حلق الوادي مشحونة حدّ الانفجار بهرج جموع غفيرة من الشباب الذين كانوا بالتأكيد يخفقون مثلنا (أعني مجموعتنا المكوّنة من يوسف ورياض ومحرز وأنا) بذلك المزيج المبهّم من المشاعر المتداخلة والمتناطحة في صدورنا. فرحة، أمل، خيط دقيق من الخوف، وشيء من الحزن كُنّا نجاهد في إخفائه مكابرةً أو غرورًا. رميت بفردة حذائي في البحر قائلاً بنبرة احتفالية - نبرة المنتصر توًا: لن أعود! قلت ذلك بأعلى صوتي، وعلى مسمع من الجميع. ضحك الجماعة وظلّوا يرذّدون حكاية فردة حذاء عادل سعيدان التي رمى بها في البحر وقرّر أن لا يعود. طيش؟ إفراط في الحماس؟ صرامة القرار ومنتهى الوضوح؟ في الحلق غصّة موشكة على الانفجار، وكان لا بدّ من حركة مسرحيّة وكلمة مدويّة كنت وحدي أعرف أنّها مجرد قرقعة على برميل فارغ.

بدأت أتعلّم منذ ذلك اليوم أن لا أثق كثيرًا بالحركات الاستعراضية، وبدويّ الكلمات.

سأل رياض عجوزا كان يدب أمامنا مع كلبه الذي لا يتوقف عن تشمم الرصيف عن الطريق المؤدّية إلى محطة الأرتال، وكان يبدو أكثر شطارة منا في معرفة أحوال الفرنسيين وطباعهم، حتّى أنّه ظلّ الوحيد الذي لم تبد عليه علامات الارتباك والإحساس بالغربة. ولعلّ ذلك هو



ما جعله يكون الوحيد الذي استطاع أن يفهم التفسيرات والتفاصيل المعقدة التي لا يمكن إلا لعجوز ثمانيني أن يمعن في شرحها وإعادة شرحها لمجموعة من شبان غرباء يبدو على وجوههم شيء من الذعر وشعور خفي صامت بالندم على الإقدام على مغامرة مجهولة المصير والمضاعفات.

سألنا العجوز بعد أن انتهى من تفسيراته المعقدة: "Vous venez d'une colonie؟"، وإذا محرز الذي ظلّ لما يزيد عن ساعة حبيس حالة من البكم والانطواء، ينطق أخيرًا:

- "Quelle colonie? Nous sommes un pays indépendant!"<sup>(١)</sup>

كان واضحًا من نبرة صوته المرتعشة بمزيج من الحدة والارتباك أنه يحتجّ على سؤال العجوز بسبب سوء فهم لعبارة *colonie* التي تعني مخيمًا ترفيهيًا للشباب كما تعني أيضًا مستعمرة.

انطوى محرز على صمته وكأبته من جديد بعد أن تبين له من التوضيح الذي أضافه العجوز، مرفوقًا بابتسامة رقيقة، أنه قد أخطأ الهدف لأوّل فرصة تراءت له ملائمة للخروج من حالة الذهول التي تلبست به منذ دخولنا ميناء مرسيليا. ولم ندع أنا ويوسف ورياض الحادثة تمرّ دون أن نستغلّها لمداعبة صديقنا بكثير من الخبث المرح؛ كما لو أنّ تلك الطرفة قد خلصتنا للتوّ من حالة الارتباك والذهول اللذين كانا يجمدان ألسنتنا.

نحن الآن في فرنسا!

\*

---

(١) أية مستعمرة، نحن من بلاد مستقلة.

تحوّلت الرحلة بعد مرور لحظات التوتّر الأولى إلى ما يشبه الحفل المعربد فوق جسر الباخرة. لم تكن ندري أنّ هناك حانة حتى تقدّم منا كهل قصير القامة مرّح التقاسيم والحركات، ويده زجاجة بيّرة، ثمّ قادنا إلى البار وهو ينظّ من الفرحة لأنّه عشر على من سيشاركه الحفل الذي افتتحه بعدها بقليل بالغناء والنكات والرقص والتهرّيج لمدة حوالي أربعة وعشرين ساعة دون توقّف.

الرّفرافي، ذاك الرجل المرّح يسافر للمرّة الثالثة على متن هذه الباخرة. في المرّتين السابقتين أعادت شرطة الحدود تسفيره إلى تونس دون أن يتمكّن من مغادرة ميناء مرسيليا. حدّثنا عن قسوة البوليس الفرنسيّ والإجراءات الجديدة المتشدّدة بخصوص الهجرة، وإذا رحلتنا التي كنّا نحلم بها فسحة مرحة في مدن الأحلام تتحوّل إلى ضرب من المغامرة التي لا تخلو من مخاوف ومخاطر. سألناه عن سبب إعادة تسفيره مرّتين، فأجابنا بأنّه قد ارتكب في المرّتين خطأ فادحاً عندما قال لشرطة الحدود بأنّه ينوي البحث عن عمل في فرنسا. لم يكن يعلم أنّ البلاد قد أغلقت الحدود في وجه هجرة اليد العاملة وشرعت في ترتيب المسألة على نحو صارم. ثمّ أضاف: «لقد حفظنا درسنا الآن. هذه المرّة سأقول لهم: توريسك!» - عبثاً حاولنا أن نصّح له نطق العبارة، وبقينا لمُدّة أربع وعشرين ساعة نعيد عليه السؤال وهو يجيبنا دائماً: توريسك (مخاطرة كليّة) وهو يريد طبعاً أن يقول «توريسث».

«توريسك!» - ضحكنا وفي صدورنا يتكوّر شيء شبيه بالقلق أو الانقباض، أو الخوف.

\*

الرّفرافي يغني ويرقص ولا يكف عن المشاغبة وزجاجة البيرة لا

تفارق يده. من تحتنا ماء، أمامنا ماء، وراءنا ماء. من فوقنا فراغ شاسع لم يعد يشبه السماء التي تعودنا على رؤيتها فوق الجبال وحقول القمح الشاسعة وغابات الزيتون. الباخرة تتقدم ببطء تكاد تخالها لا تتقدم شبرا واحدا داخل الفراغ المحيط. أنا الآن على ظهر باخرة تعبر بي البحر إلى قارة أخرى، أردد لنفسى ربما درأ لفكرة الفراغ الذي يبدو دون مخرج أو نهاية. مسافر في رحلة بحرية مثل جدّي الذي زجّ به عسكر الفرنسيين سنة ١٩١٥ في رحلة أخذته إلى جبهات القتال الساخنة في شمال فرنسا، ثم راح بقية عمره يروي للناس عجائب وأهوال تلك الرحلة التي ظلّ هو وآلاف من أشباهه يتخبّطون داخل ألغاز مخاوفها وهول لياليها لما لا يقلّ عن أسبوع، كما ادّعى، مبالغاً شيئاً ما على ما أعتقد، فالرحلة نفسها (من ميناء تونس إلى مرسيليا) لا تتطلب الآن أكثر من أربع وعشرين ساعة! وعلى أية حال، سواء بالغ جدّي في طول رحلته البعيدة تلك أم كان صادقا، فإن رحلتي لن تكون مثيرة مثل رحلته! وسأظلّ مهما فعلت قابعا مثل جرد حقيير في ظلّ مغامرته الكبرى، خاصة وهو يمتاز عليّ في كل الأحوال بأنه كان في وضع العسكري المغامر باتجاه حرب من أشرس حروب الدنيا على الإطلاق كانت معاركها الجحيمية تنتظره في فيردان ثم سالونيكى وشاناكله وأضنة واسكندرون. رحلة رأى فيها العجائب ووقف فيها على تخوم الموت كالسائر على خيط معلق فوق هاوية الهلاك. سيظلّ بريق المجد إذن من نصيب جدّي الذي عاد بعد ثلاث سنوات من الخدمة في عسكر الفرنسيين ييرم شاربيه ويتمايل بقامته بين أشجار الصنوبر والكالبتوس، يروّع الأرانب البرية والحجل والغربان والحطّابين والرعاة، وبندقية «سانت اتيان» لا تفارق كتفه إلا في ساعات الأكل والنوم.

عندما وصلنا إلى محطة القطارات كان الليل قد استقرّ فوق المدينة

التي لم نعد نلمح منها سوى بعض الأضواء المرتعشة في ناحية الميناء. قال رياض: لعلّ الرّفرافي قد ركب الباخرة من جديد باتجاه تونس التي لن يدخلها بسيارة فاخرة وإلى جانبه شقراء «تقول للقمر إطلع أو دعني أطلع مكانك». لم يعلّق أحد بكلمة. وفي تلك الأثناء كان محرز الغارق في صمت جنائزي ينظر بكثير من الحنين باتجاه البحر الملتفّ داخل عتمة غامضة في ما وراء فوانيس الميناء.

تفترق مجموعتنا هنا إلى فريقين. يوسف ورياض يركبان القطار الذي سينقلهما إلى باريس. أنا ومحرز نستقل القطار المتجه إلى ليون. باريس! هكذا دفعة واحدة؟ بل دعنا نتوقف في ليون أولاً، ثم نرى ما الذي سيحدث بعد ذلك. ليو، أردد لصديقي مازحا، كما كان ينطقها جدي الثاني، ذلك الذي جنده عسكر فرنسا في فترة ما بين الحربين، ولم يعد إلى البلاد يروي حكايات عن أهوال الحرب وشنائعها، بل قصصا عن ليو وساحة بيلكور، وتلك الفرنسية التي ما انفك يذكرها في أحاديثه مع أصدقائه، ويتنهد كلما ذكرها، تلك التي كادت تغويه «بنت الكلب» وتنسيه العائلة والأهل والبلاد.

## باريس

ها هي باريس! قلت ملتفتًا إلى صديقي الذي كان يجرجر قدميه ساهمًا، بل ناعسًا قليلًا، وقد يكون منكسفا شيئًا ما أو نادمًا وحزينًا. لا أدري هل كانت تلك صيحة ظفر، أم أنني كنت أريد أن أستنجد بمرافقي كي يعينني على استنطاق غوامض اللغز العمراني الذي وجدنا أنفسنا ملقّين في هدير حركته السريعة ووجوهه الغريبة التي كانت تنزلق أمام أعيننا مثل صور في شريط سنمائي سريع الوتيرة. سيارات، دراجات نارية، بنايات شاهقة رمادية ذات هيئات ثقيلة، واجهات زجاجية عريضة، مقاهٍ فسيحة، نساء أنيقات لامعات مثل دمي خارجة للتو من المصنع، شباب، عجائز، هدير محرّكات، زعيق أبواق، أقدام تنهب أرض الرصيف بعصبية، أجساد تتسلّل تنزلق تمرّ بسرعة، ونحن نجرجر حقيبتينا شبه دائخين، أو ناعسين.

باريس. ساحة الأوبرا. ها هي باريس، يا سي محرز!

لم ننم سوى سويعات معدودة منذ ثلاثة أيام. بعد ليلة في القطار الذي قذف بنا فجرا في ليون قضينا ليلتنا الثانية في غابة فونتينبلو، لأننا لم نكن نرغب في ولوج باريس ليلا. أردنا أن نلجها في ضوء النهار احتياطا وتخوفاً من كلّ المفاجآت، لذلك طلبنا من الشاب اللطيف الذي التقطنا بسيارته في إحدى ضواحي ماكون - على - الصون وهو في طريقه إلى باريس أن يتركنا في مكان آمن قبل مدخل باريس.

قضينا الليلة مرتجفين بردًا داخل كوخ صغير من الخشب في غابة فونتنبولو لا يوجد داخله سوى طاولة قديمة مغمورة بالغبار. وكان علينا لكي نتدفأ قليلاً أن نحتسي قدراً محترماً من زجاجة الباستيس التي اقتنيناها من الباخرة، ومن دون ماء، فساعدنا السكر على النوم ولم نصح إلا في حوالي الساعة صباحاً.

- هذه هي فرنسا؟ أول ليلة لنا فيها نقضيها داخل غابة مثل الوحوش!

- لسنا وحوشاً ولا بؤساء، أحببت صديقي الممتعض وأنا أرفع حقيتي وأهمّ بالتوجه إلى الطريق مرتعداً ببقايا برد الصباح اللاذع. هكذا هي بداية المغامرات دومًا؛ لا بد أن نثبت أولاً أننا جديرون بالنعيم الذي ينتظرنا في مكان ما ولا يأتي إلينا من تلقاء نفسه. استعذبت هذا الحديث الذي كنت على ما يبدو أحاول أن أدفع به أعضائي المتجمدة من برد الليلة الماضية التي قضيتها منكمشاً داخل جاكيتي فوق طاولة، فواصلت هذياني عن الدروب الشاقة والوعار وجثة الله الموعودة التي تنتظر المغامرين وحدهم دون بقية الخلق من الخاملين وضعيفي الهمة، وباريس التي غدت على مرمى حجر وهي تستعد الآن لاحتضاننا كما كانت تحتضن مدن العجائب السندباد القادم إليها من هول الأعاصير وفجائع البحار.

لمحرز بعض اعتراضات على ما رويته إلى حد الآن: ليس صحيحاً أن عادل رمى بفردة حذائه في البحر صائحاً: لن أعود! كما يدعي. بل فردة ذلك الحذاء القماشي المهترئ هي التي انزلت من يده في غفلة منه ووقعت في الماء بينما كان يهم بدس قدمه في الحذاء الجديد الذي اشتريناه له قبل ساعات ونحن في طريقنا إلى محطة تونس البحرية. ونحن نصعد الشارع الضيق باتجاه محطة القطارات في مرسيليا، كان هو

الذي استبدت به حالة من الكآبة وغدا يجز قدميه ورائنا جرا كما لو كان يقاد إلى المسلخ. أما عن فتيات مرسيليا فهذه على ما أظن حكاية لفقها الآن وهو يكتب ما يكتبه، أو في أفضل الأحوال كان حلما طفوليا ساذجا لم يداعب غير خياله هو، ولا أذكر أن أحدا منا فكر في ذلك، عدا ذلك الرجل الذي يدعى الرفرافي على ما أعتقد.

رياض يقول إنه لم يعد يتذكر شيئا من ذلك، لكنه يضيف بعد شيء من التفكير بأنه رأى محرز ينسحب إلى ركن ويشرع في البكاء عندما أطلقت الباخرة صغيراً طويلاً مسترسلاً وهي تشرع في التحرك خارجة من ميناء حلق الوادي.

أما يوسف فيؤكد أن عادل قد رمى فعلا بفردة حذائه في الماء بعد أن لبس الحذاء الجديد الذي ساهموا ثلاثهم كل بقسط من المال لشراؤه له كي لا يدخل فرنسا بحذاء قماشي مهترئ وتنن علاوة على ذلك. أما عن الفتيات فيقول إنهن كنا هناك في مدخل ميناء مرسيليا وكن " يلوحن بمناديلهن باتجاهنا، وأن واحدة منهن تقدمت منه (منه هو، يوسف) وقبلته قبلتين على خديه وهي تتمنى له إقامة سعيدة في أرض فرنسا! وعندما سألته لماذا لم نلحظ ثلاثتنا شيئا من ذلك أجابني وهو يدفع صدره مزهوا: حالما اقتربت الباخرة من ميناء مرسيليا تحولتم إلى ما يشبه طيوراً مذعورة، وتلبست بكم حالة من الذعر أنستكم العالم من حولكم. - وأنت؟ - أنا بقيت متماسكا، أردد قولة كامو قائلا لنفسي ما هذي بالبلاد التي يمكن أن تدخل علي شيئا من الارتباك!

شوفو ها الورطة يا سيدي! هاهم يشككونني الآن في كل ما أعتقد أنني أتذكره بدقة!

ومع ذلك سأواصل سرد الوقائع كما عشتها، - كما عشتها أنا!

\*

في حالة من الذهول دخلنا باريس ، ناعسين تقريبًا نحاول قدر الإمكان أن لا ندع أرجلنا تتجرجر متعبة، وأن نحث السير مثلما يفعل الجميع من حولنا. أن نكون جزءً من هذا النسق السريع، صورة من بين الصور المتحركة بسرعة في هذا الشريط الذي يشبه أفلام شارلي شابلن. نحن في باريس! فلنح ذلك أرجلنا المرتخية بتعب ليال متواصلة بلا نوم، ولتحمز أمرها قليلا كي لا تترك وتيرة الانسياب السريع السائل لحركة المدينة! ولتبع ذلك أعاونا الخاوية المتضوّرة بخواتمها يجلدتها الشريط المتنوع المنساب إليها من فرجتي العينين المفتوحتين بذهول على أصناف المأكولات المعروضة في واجهات المطاعم والمحلات في جادة الإيطاليين وبولفار مونمارتر وبولفار سان دني وشارع ريويمير وساحة شاتليه وشارع سان ميشال ودونفير روشرو، وشارع أليزيا وبولفار جوردان... فلنح أنّها في باريس فلا تتلوى زيادة ولا تخذل حركة القدمين! إنّها بالتأكيد تعي ذلك أكثر من غيرها من الأعضاء، والأنف من جهته لا يبخل عليها بما يلتقطه من روائح الشواءات والمقليّات والمطهيّات والمحمّرات وعبق القهوة الطالع من المقاهي المجاورة ممزوجة بروائح الكاراميل والقرفة والفانيليا والزبدة ومستحضرات أخرى لشتى المرطّبات والحلويات ممتزجة مع كوكتيل العطورات التي تنبعث من الهفيف السريع لفساتين السيّدات المنزلقات مثل لعب أو دمي على إسفلت الأرصفة، - يفعل الأنف أيضًا ما بوسعه!



## "Paris est gris et plein de pigeons"

خرت على رأسي حمامة في حديقة اللوكسمبورغ وأنا جالس في استراحة قصيرة خلال جولة من جولاتي اليومية بحثًا عن عمل. ضحك عليّ «الكلوشارات»<sup>(١)</sup> وشعرت بنفسي بائسًا وتعيّسًا مثل يتيم مهممل في الخلاء.

لم يعد بإمكاننا تسديد معلوم إيجار الغرفة في «دار تونس» بالحي الجامعي الدولي فكان علينا أن نغادر. بل طردونا من هناك عندما اتضح لهم أن الغرفة التي استأجرناها باسم واحد منا كانت تأوي أحيانًا أربعة أشخاص عندما ينضم إلينا يوسف ورياض في بعض الأماسي. وضعنا حقيبتينا عند شاب جزائري مقيم بدار موناكو المقابلة وانطلقنا نتسكع طوال النهار بحثًا عن عمل، وفي المساء نجلس مع مصطفى ويحيى الجزائريين أمام عتبة دار موناكو نغازل الفتيات ونتحدّث في السياسة وأشياء أخرى متنوّعة ونتخاصم مع الطلبة المصريين الذين يستمتتون في الدفاع عن أنور السادات: لا يا جماعة، حرام عليكم، السادات رجل كويس آوي! أنتم تكرهوا مصر ليه يا عمي؟ يحرق دين نفاقكم، ألا

---

(١) Clochards بالفرنسية، وتعني: المشردون الذين يقيمون في الشوارع وفي الحدائق العمومية ومحطات المترو، ولا يتوقفون عن السكر والخصام والزعيق بشتي الشتائم واستفزاز العارة ورجال الشرطة.

ترون أننا نوزع الشتائم بالتساوي على بورقيبة والحسن الثاني وفيصل والحسين... يعني زعيمكم هذا البعير الأجرب هو الذي كبر في الطريق! في ساعة متأخرة من المساء نتسلّل إلى الطابق العلويّ لننام داخل حجرات الدشّ الخالية ليلاً من المستعملين، وأحياناً ننام فوق العشب في الحديقة الفسيحة للحيّ الجامعي الدولي.

شربنا كثيراً ليلة البارحة مع مصطفى ويحيى ومجموعة فتيات سائحات من المكسيك والدانمارك. تركت الأمسية على ميزانيتنا الهزيلة أثرًا بدأ يهدّد بالويل، ولا عمل في الأفق. في هذا الوقت بالذات والمعنويات في هبوط ملحوظ تخراً على رأسي حمامة!

من أين لك أن تفهم أنّ ذلك الأمر يحدث للجميع في هذه المدينة، وأنّ الحمامة لم يكن قصدها سيئًا بالضرورة عندما فعلت فعلتها ربما دون أن تنتبه لوجودك على الكرسيّ الخشبيّ الذي تحتها مباشرة؟ ومن أين للحمامة، إن كانت متعمدة، أن تدري أنّك لست في وقت مناسب للمزاح وتقبّل الأشياء من جهة النكته والفكاهة في هذا الظرف بالذات وأنت مفلس غير قادر على ولوج مقهى أو بار أو مطعم مثلما يفعل مئات الآلاف من حولك؟ من أين لك أن تتقبّل تلك الدعابة بصدر رحب ودون أن تشعر أنّها إهانة موجّهة عن قصد لك أنت دون غيرك من المخلوقات، شعور مماثل لذلك الذي جعلك تتصبّب عرقاً عندما صدّتك الفتاة الدانماركيّة في اللحظة التي ظننت أنّها المناسبة لأوّل قبلة، فانكسفت وانكفأت وانطفأ مرحك فجأة وتبخّرت جرأتك، حتى إذا التفتك في اليوم الموالي وجدت نفسك تدير وجهك لأنك ما زلت مستاءً، أو خجولاً من نفسك، فكان عليها أن تقبل هي عليك حائرة في أمر مزاجك وأن تفسّر لك، يا رأس القرع، أنّ ذلك يعدّ من أحد شروط اللعبة الشبقيّة؛ مراودة وتمنّع وإعادة الكرة، وزيادة التحرش والتودّد

وإبداء شيء من الإلحاح الضروري الذي يبهر طقس المغازلة ويجعل الطرف المقابل يشعر بأنه مرغوب فعلا، وعلى مقدار الرغبة تزداد أو تنقص جذوة التواطؤ وحرارة الإثارة الماضية هكذا نحو الاستجابة.

هذه مسائل لا يستطيع الواحد أن يفهمها إلا فيما بعد.

\*

لم يمرّ على قدومنا إلى باريس أكثر من ثلاثة أسابيع. إمكانيات العثور على عمل ليست بالسهولة التي كنا نتوقعها، والمبلغ الزهيد الذي كان في جيبتي قد نفذ الآن نهائياً. قبل يومين طردنا حراس الليل من حديقة الحي الجامعي حيث كنا ننام كل ليلة.

سافر رياض إلى نانتي. ويوسف فضل الرحيل مع دالي إلى جنيف حيث إمكانيات العمل والسكن أفضل بكثير من باريس كما أكد له ذلك، هو الذي يحل هناك في كل صائفة قادماً من دمشق حيث كان مقيماً للدراسة آنذاك.

بعد رحيل رياض ويوسف ودالي بدت لي باريس فارغة، كبيرة وفسيحة بشكل غامض ومخيف. أدركت داخل هذا الفراغ أنني فعلا قد غادرت تونس، وأن المسافة الفاصلة بين يومي هذا وكل أيامي والسنوات السابقة من عمري قد اتسعت لتغدو شبيهة بهوة معتمة تضطرب على حافتها قدماي المستعرتان بالمشي، المشي، المشي - بحثا عن عمل، وفي بعض الأحيان لا لشيء سوى المشي هكذا بذهول داخل باريس الشبيهة بغول أتسكع داخل متاهة أحشائه المتداخلة. أمشي أحيانا برفقة محرز الذي كان يحمل ذعره قناعا من الحزن لم يعد يغطي وجهه فقط، بل يبدو كما لو أنه انسحب على كل كيانه حتى غدت هيأته كلها توحى بتعب متأصل في الأعماق يقضم نسيج غبطته الداخلية

ويفتت اعتداده بنفسه الذي عهدته فيه من قبل، ويجعل خطوته ثقيلة متلكئة وصوته ذاوتًا. أدركت أن لحظات البهجة الأولى بباريس والاحتفالات والعريضة قد انقضت. والآن، وأنا أتمشى غريبًا بالفعل ووحيدًا، شبه عارٍ، يربض أمامي مصير غامض قائم نوعًا ما، أو معتم، أدرك أنه عليّ أن أبدأ بالإمساك بمصيري بيدي حقا - ولو حدي لأول مرة في حياتي. لا أب هنا أو أخ يرفدك. لا منحة جامعية، ولا جامعة بعد، لا مسكن، ولا حتى الغذاء اليومي. هناك فقط شيء يريد أن يكون، ولا بد له أن يكون، وإلا انقطع الخيط الدقيق الذي ما زال يشدك إلى الحياة.

لا بد من عمل - أي عمل. تأمين البقاء أولا. ولا شيء أكثر من البقاء. تأمين البقاء هو الغاية الأولى، وأحيانا غاية الغايات. أفق الأحلام قد تقلص حتى صار حده النهائي ملاصقا للأنف؛ لا شيء غير الحرص على تأمين البقاء. صندوق الأحلام والمشاريع قد أُغلق وألقي بالمفتاح في قاع بئر عميقة قد تكون مسكونة بالأفاعي. شيء شبيه بورطة تبدو أحيانا بلا خلاص - أو أي أمل في الخلاص.

محرز يحلم إلى جانبي على المقعد الخشبي في حديقة اللوكسمبورغ: «أخديمة، وآبيتة و...»؛ مصغرة كل الأشياء في لغة محرز أو في أحلامه؛ يصغر أحلامه كما لو كان يتدلع بأسمائها، أو ربما كي لا يجفلها. أنهض من حالة الخدر التي كانت تشل كل الاحساسات والرغبات لدي. أسب الدين متأففا: - كفّ عن هذه التوسلات الرخيصة يا أخي! وبما أنك تريد أن تحلم وتتمنى، فلتطلب الأشياء بكليتها وكمالها على الأقل!

كنت أريد أن أكون أكثر طموحا، وإذا ما عنّ لي أن أتمنى أن لا أفعل ذلك بهيأة المتوسل المتسول.

أظن أنني كنت أكذب على نفسي، لمجرد المكابرة ليس إلا. أصرخ  
في وجه محرز، أو في وجه الأشياء المصغرة التي كان يحلم بها  
ويتمناها، كما لو كنت أدفع عني شعورا بالخجل - من أجله؟ أم بسبب  
حالة من الطمع الصغير الذي أيقظه فيّ؟

هل يعقل أن الواحد عندما يكبر أحلامه إنما يفعل ذلك لكي يهرب  
من مراودة أحلام أصغر وأقرب هي في الواقع أكثر إمكانا للتحقق؟  
هروب إلى الأمام؟ مغالطة للنفس؟  
كل شيء ممكن.

## الرفرافي

- عادل، أما زلت تتذكر الرفرافي؟

- آ، طبعا، أتذكر الرفرافي.

ما الذي جعل محرز يتذكر الرفرافي الآن، ونحن جالسان على هذا المقعد الخشبي في حديقة اللوكسمبورغ بعد ساعات من التمشي بحثا عن عمل؟

طبعا مازلت أتذكر الرفرافي والحفل المعريد، ثم انطفاء هرجه بغتة. عندما دخلنا ميناء مرسيليا كان قد فقد كلّ مرح الأربعاء وعشرين ساعة الماضية التي قضّاها في الشراب والغناء والرقص والفكاهة والنكات. الحفل الهازج الصاخب الذي أقمناه فوق جسر الباخرة قد فتر عندما بدأ مهرّجنا ينكمش شيئا فشيئا ونحن نقرب من ميناء مرسيليا. حتى ملامح وجهه المتهللة بقسمات المرح العابث بدأت هي الأخرى تتعتم. فوقها ترسم الآن ملامح ذعر طفولي مثير للشفقة.

راح يتبعنا مثل شاة وديعة ونحن ننزل مدرج الباخرة ونتّجه إلى الطوابير الطويلة أمام شبابيك شرطة الحدود بعد أن كان طوال الوقت محرّك الحفل ومهرّج السفينة بأكملها. وعندما وقفنا في الطابور في انتظار إجراءات التحقيق وختم التأشيرات كان ملتصقا بنا مثل جرو. تصاغر وتحاقر حتى صار بحجم دجاجة، وغدا وديعا يتسم بوذ حتى

للفتيات التونسيات اللاتي كان طوال الرحلة ينعتهنّ بالتنتات وكرعين المعيز، ويحاول إبعادنا عنهنّ قدر الإمكان وهو يذكرنا بالحسان الباريسيات اللاتي ينتظرنا متوهجات بالشوق إلى شمس المتوسط الملتهبة تحت جلدتنا. كفت عيناه عن الإشعاع ببريق المرح الداعر ولفتها غشاوة من حزن طفوليّ موجه، وغدا لا يكفّ عن تصفّح جوازه وإعادة التطلّع في الأختام الحمر التي تعلن رفض تأشيرة الدخول في المرّتين السابقتين. لم يكن لدينا من سبب محدّد يجعلنا نرتبك أو نخاف؛ جوازاتنا وبطاقاتنا الطلابية كانت كافية لجعل الشرطة الحدودية لا تصنّفنا ضمن المهاجرين من أجل البحث عن العمل، خلافاً للرّفايي الذي كان جواز سفره يحمل في الخانة المخصّصة للمهنة عبارة «عامل يومي». عبارة تجعله في أعين شرطة الحدود أكثر من شخص مشبوه، وقد لا تقنعهم الحجج الواهية لمراميه السياحية، إضافة إلى نوعيّة ملابسه ووجهه اليابس المغضّن الذي يحمل بصمات سنين طويلة من الحياة الشحيحة؛ ما من شيء في تلك الهيئة يمكنه أن يقنع أحداً بمزاعمه السياحية الترفيحية الخالصة.

لم يكن الرّفايي على أية حال مجرداً من نوايا الترفيه والانغماس في المرح، لأنّه منذ ما لا يقلّ عن العشر سنوات وهو يحلم باللحظة السعيدة التي سيقتحم فيها مملكة الخير والرّفاه لينتقم لنفسه من سنوات الحرمان التي حرّزت حياته ورسمت غضونها البغيضة على جبينه. كان على قناعة بأنّه سيرى حتّى ملامح وجهه ولون بشرته وهيأة جسده تتغيّر كلّها في ظلّ جنان النعمة التي تنتظره في منعرج من منعرجات باريس. وقد أقسم بأغلظ الأيمان أن لن تطأ قدماه أرض البلاد إلّا وهو في سيّارة فاخرة وإلى جانبه واحدة من تلك الشقراوات الفارهات التي «تقول للقمّر اطلع أو دعني أطلع مكانك». وعندها ستندم كلّ «الفاجرات

القميئات» اللاتي غدا يلقبهنّ وهو يشتمّ رائحة النعمة من فوق ظهر السفينة، بـ«كزعين المعيز» و«الجلود التنتة»؛ ستندم كلّ واحدة من اللاتي رفضن الزواج به لأنّه لم يكن يملك من متاع الدنيا غير ما يكسو عورته ولا يسد من الجوع غير بعض الثغرات. سيقيم حفلاً كبيراً لأصدقائه تذبح فيه الخرفان بالعشرات وتهرق فيه براميل من الشراب، وسيبني بيتاً فاخراً بحديقة فسيحة ومسبح، ويربّي داخله شتى أنواع الطيور والحيوانات البرية والبحرية، ويستجلب الكلاب السود الضخمة من فرنسا وألمانيا وطيور الكناري من جزيرة مالطة والببغاوات من جزر الكاريبي والخادّات الشقر من السويد والنرويج، «أي نعم يا سيدي من السويد والنرويج! هل لديك اعتراض؟» يعلّق بنفسه ملتفتاً باتجاه معترض متوهّم والحال أن لا أحد قد اعترض أو علّق بكلمة على شيء من أحلامه - فالأحلام بالمجان بالنهاية، خاصة عندما يكون المرء فوق باخرة قد أولت ظهرها للبلاد التي لم يعد يطيق العيش فيها.

لم تكن جوازاتنا تحمل عبارة «عامل يومي» التي تعني في أغلب الأحيان «عاطل عن العمل». ومع ذلك كانت الرعشة التي تقض جسد الرفرافي قد انتقلت إلينا أيضًا، وإن بأقلّ حدّة على أية حال، بينما أعوان شرطة الحدود يتفحصون الجوازات والوجوه، ثم الجوازات فالوجوه بنظرات صارمة ليس فيها ما يدلّ على شيء من الترحاب أو أي نوع من الودّة. لأكثر من أربعين دقيقة - بل قل أربعين سنة - نتقدم ببطء في الطابور الطويل ونحن نستمع إلى ضربات الأختام على جوازات الذين مروا أمامنا؛ نمطط أعناقنا، نحاول متابعة حركات الشرطي واستقراء ملامح وجهه المقفلة، أصابعه التي تقلّب صفحات جواز السفر بتأنّ متشفّ صارم يجعل أمعاءنا تتلوى وتنعقد. ركبنا الرفرافي المصطكتان ترُجّانني من الخلف وتحدثان فيّ خضّاتٍ رهبة لا أدري لها سببا



واضحاً. أنا أيضاً تورست مزيف، تماما مثل الرفرافي، ولي مثله أيضاً نوايا تمديد فترة سياحتي إلى ما لا نهاية، وأحلم مثله بأضواء وألوان وعطور لا أدري من أين كنا نستجدي صورها وروائحها في أذهاننا. المهم أننا كنا جميعنا نحلم - ألم نقل أن الحلم حق مشاع للجميع؟ شيء ما كان يتحرك في دواخلنا ويدفع بنا إلى حفل الحياة الذي كان يأتينا هديره من وراء البحار ولا تستورده لنا حكومة بلادنا مع زيت الصوجا ومسحوق الحليب وملابس «الروبافيكيا»<sup>(١)</sup>.

عندما اجتزنا الحاجز الحديديّ حاملين جوازاتنا المختومة مثل شهادات عبور من البرزخ إلى نعيم الفردوس كان شرطي الحدود يقلّب جواز الرفرافي الذي بدأ يرتعد مثل قشة في مهب الريح، بينما وقفنا نحن في الجهة الأخرى من الحاجز ننتظره محاولين لفت انتباهه إلى إشاراتنا التي تسعى إلى رفع معنوياته قدر الإمكان. غير أنه لم يعد قادراً على ما يبدو على رؤية أي شيء وقد زاغت عيناه الصغيرتان وتهدّلت شفته السفلى كما لو كان يهّم بالبكاء أو التضرّع. نهض العون الذي ظلّ ممسكاً بجوازه وغادر حجرته الصغيرة مشيراً إليه بأن يتبعه إلى غرفة خلفيّة. راح الرفرافي يتبعه لاويّاً عنقه باتجاهنا، وقبل أن يختفي أشار لنا بيده مودّعاً وكان بالكاد يقدر على الوقوف فوق ركبتيه المرتعشتين.

\*

- لا أظنّ أنهم أطلقوه في شوارع مرسيليا لـ«يعوم بحره» حسب عبارته، قال محرز بكثير من الحزن كما لو كان يرثيه. ولا أظنّ أنه دخل إحدى الحانات منادياً بصوته النحاسي ذي النبرة الاحتفالية: بونجور

(١) الملابس المستعملة، في اللهجة التونسية.

مسيو دام! إلينا بفرحة الحياة يا جرسون! ولا أظنه قد حشر رأسه في حجر واحدة من الشقراوات اللاتي يفضلهنّ على كلّ نساء الدّنيا، ثمّ غتى لها وحكى لها سيلاً من النوادر والتكات الداعرة فضحكت كما لم تضحك من قبل، وأعجبت به فأخذته معها إلى بيتها وأدخلته حمّامًا معطرًا وقدمت له بشكيرًا جديدًا وكسوة نوم وأغرقتة في الويسكي، وباتت ليلتها سيّدة النساء.

هل كان محرز يشفق عليه، أم تراه قد غدا يحسده على تلك العودة المجانية إلى أرض الوطن؛ برّ الأمان؟  
ترى هل محرز وحده هو الذي يتمنى الآن في السر لو أن شرطة الحدود أعادته مع الرفرافي إلى تونس؟

✱

جزني عقبة إلى أوبرفيلبي بالضاحية الشمالية وهو ينتفض غضبًا عندما علم أنني أنام في حديقة الحيّ الجامعي. محرز أيضاً فضل الهروب أخيراً ليلجأ إلى أحد أقربائه في مدينة صغيرة قريبة من باريس.

شقة صغيرة يتقاسمها عقبة مع شابّ فرنسي اسمه جاك وصديقتة التي ندعوها نونوتة. غرفتان ومطبخ وحمّام. أشعر بالضيق. أتحرّك متعثراً في الحرج وأودّ لو أنني ألبد في زاوية ولا أتحرّك البتّة. ليس سهلاً أن يتخلّص المرء بسرعة من الحذر والريبة والتوتر التي تسم علاقاتنا التاريخية بالفرنسيين. الفرنسيون كما تنطبع صورتهم في ذاكرة صباي، معمرّون متعطرّسون لم تكن بيننا وبينهم سوى علاقات سيطرة وخضوع، خوف وحذر. مزرعاتهم مناطق محرّمة على العرب، بل يقال أنّ لـ «مسيو دلبيش» كبير المعمرين الذي لا يذكره جدّي إلاّ ملحّقاً باللعنة - قبواً رطباً مظلمًا يسجن فيه كلّ مشتبه فيه من لصوص ودررايش

ومتسولين ورعاة ممن تطأ أقدامهم أو دوابهم أراضيهم الممتدة إلى ما لا نهاية، وخطابين ولقاطين تخول لهم جرأتهم أو تهوّرهم أو الحاجة الملحة ولوج حقل من حقوله لالتقاط ما تتركه آلة الحصاد من سنابل مختلطة بالتبن. مسيو دلبيش ووكيله مسيو بارتوليه العملاق ذو الرأس الحليقة والعينين البرأقتين لا يفارقهما الكرافاش (السوط) أبداً، ولا يخلان به البتة على العربان متفانين في الالتزام بمبدأ «إذا قدمت على العرب فلا تنس السوط». أساتذة المعهد الثانوي من الفرنسيين وبعض البلجيكيين قد تعودنا عليهم قليلاً بطول المعاشرة، لكنهم ظلّوا بالرغم من ذلك غريبين عنّا، بعيدين وغامضين. حتى الأب فينيال ذلك اليسوعي اللطيف والرحيم الذي كنّا نظرب لدروسه في الفلسفة، خاصة في حصص بعد الظهر عندما يأتي متعتماً بشراب الغداء فتميل رأسه قليلاً حتى تكاد تلامس كتفه ويزداد أنفه طولاً، وتأخذه نشوة لذيدة ومعربة وهو يذرع قاعة الدروس جيئةً وذهاباً ممطّطاً خطواته الواسعة راکضاً باتجاه السبورة ليخطّ بيد متوتّرة سريعة وصارمة جملة أو مقولة فلسفية يعتبرها مفتاحاً هاماً في الدرس، أو وهو ينحني بلطف بالغ برأسه ذات الخصلات المتطايرة على تلميذ يتأفف لغموض جملة أو فكرة، مردّداً له بكلّ عطف وأريحية: *mais vous n'êtes pas que cela!* (إنك أكثر من كونك هكذا!)، أو منتصباً في هيئة بروموثوسية رافعاً قبضتيه حانياً رأسه قليلاً باتجاه صدره أمام جمعنا الواجم تحت مفعول الرهبة والارتباك قبيل حصّة امتحان الباكالوريا، صارخاً بتحدُّ كأنّما يخاطب جسده فيما هو يتوجّه إلى أجسادنا التي تخضّها رعدة الخوف: *tu trembles carcasse!* (أراك ترتعش أيها الهيكل العظيم!)، حتى الأب فينيال، ذلك اليسوعي اللطيف والرحيم، هو أيضاً يظلّ فرنسيّاً رغم كلّ شيء مثل مسيو دلبيش

ومسيو بارتوليه وذلك الأستاذ الذي أتى لاختبارنا في امتحان شهادة ختم  
الدروس الابتدائية وقرأ علينا بصوته النحاسي الرخيم تمرين الإملاء:

«<sup>(١)</sup> Sur le pas de ma porte, j'ai rencontré le vieux Salamano ... »

ذلك التمرين الذي فشلت فيه فشلاً قاتلاً. حتى الأب فينيال يظل فرنسا  
بالنهاية في أعيننا، أو في لا شعورنا على الأقل!

جاك وصديقه نونوتة لطيفان جداً، ويساريان فوق ذلك، أي من  
ذلك الصنف الذي لا يولي اعتباراً للفوارق العرقية والقومية. لكن شيئاً  
في داخلي لم يكن يسمح لي بأن أقرب من هؤلاء الناس إلا بمقدار.  
كنا نسمع حكايات كثيرة عن المعاملات العنصرية ضدّ العرب في فرنسا.  
كانت تلك الحكايات تأتينا مثل شيء شبيه بالخرافات؛ مقاهي يكتب  
على أبوابها: ممنوع على الكلاب والشمال إفريقيين. وهذا واحد يعود  
من سفر إلى مرسيليا أو ليون أو ستراسبورغ يروي كيف رفض جرسون  
هذا البار أو ذاك أن يخدمه لأنه عربي... كلام كثير لا يفعل سوى تأكيد  
أفكارنا القديمة عن هؤلاء الناس الذين عرفناهم معمرين قساة متجبرين.  
لكن لا شيء من هذا كان ليمنع أحداً منا من الحلم بدخول هذه البلاد.  
لعلهم كانوا يحرسون بتلك العدوانية والعنصرية كنوزاً من المتع  
يحرسون كلّ الحرص على عدم اقتسامها مع غيرهم من الناس. ذلك  
السلوك العدواني كان يبدو لنا الباب المنيع الذي يوصدونه على الكنوز  
التي لا يرغبون في اقتسامها. تماماً مثل ما يرد دوماً في القصص  
والخرافات الشعبيّة؛ الكنز أو السرّ دائماً وراء الباب الأخير الذي لا  
يجوز الاقتراب منه. الباب الممنوع الذي يستثير فضول المغامرين على  
الدوام ويشحذ الرغبة في إتيان أعمال الطيش.

(١) «على عتبة بيتي وجدت العجوز سالامانو» جملة من بداية رواية «الغريب» لألبير كامو.

مغامرون كثيرون من أبناء جلدتنا يتجرأون على فتح الباب الممنوع؛ بعضهم يعود إلينا في زيارات قصيرة يخطر زاهياً وقد تغيرت حتى بشرته وغدت أكثر طراوة وأقل جفافاً وقاتمة. البعض منهم ترافقهم سيدات؛ زوجات، صديقات، خليلات. لا يهمن أن تكون الواحدة متقدمة في السن شيئاً ما، أو بدينة بحجم بقرة هولندية. المهم أنها امرأة فرنسية تتحدث بصوت عال وتضحك ملء شديقيها، وتجلس في المقاهي والمطاعم والفنادق مثل أميرة شقراء بدينة ومشعة بالغبطة وبثقة في النفس ساحقة في بعض الأحيان. وعندما تكون متمشية تخطر إلى جانب صديقها أو زوجها أو عشيقها الذي من بني جلدتنا وقد تغيرت جلدته قليلاً، تلتفت إليها كل الرؤوس وتلتوي باتجاهها كل الأعناق: الأطفال المعجبون بثقل جثتها أو ببريق عينيها الزرقاوين، والكهول المبهوتون باهتزاز رديفها الثقيلين وكفلها العالي العريض المرتج، والنساء اللاتي يلعن أولاد الهمل الذين «يتمرغون في نفايات الكفار» كما لو أنّ بلادهم خلت من النساء والفتيات من ذوات «الزّين والعين والأصل والفصل والحياء والدين!»، ولا يمنعهن ذلك على أية حال من إطلاق صيحات الإعجاب بين الحين والحين: «يكتب سعدا ما أحلى روبتها(فستانها)!» أو «ياوخيتي، شعرها كأنه لحاف من حرير، أو ذهب!» لتضيف واحدة منهنّ تحاول إعادة الأمور إلى نصابها: لكنهنّ جميعهنّ فاسدات وسهلات المنال، ورجالهنّ باردين باهتين مثل الطين! يتكالبن كالذباب على أولادنا يلتهمهم مثل الشوكولاتة. في تلك البلاد الرجال فاترون والنساء لا تشبع. بعث الله إليهن بأولادنا خبزة في سوق الكلاب!

## مائدة البروليتاريا

لم تكن لجاك بشعره الطويل وأنفه المعقّف ووجهه الشاحب النحيل حياة مسيو دلبيش، أو برتوليه أو مسيو فينولار أستاذ العلوم الطبيعية الذي كان يحلو له أن يدقّ رؤوسنا بمسطرته الغليظة ولا ينفكّ ينصحنا بالعودة إلى قرانا وجبالنا لرعي الماعز والبقر. جاك يرتدي بنطلون جينز وقميصًا بسيطًا، أو تي شيرت، وليس في هيأته وهندامه المهمل وسلوكه وأثاث بيته ما يدلّ على شيء من التفوّق. أكيد أنّ هناك شيء من الافتعال في هيأته المهملة، كما في قراره بمغادرة مقاعد الجامعة والتحوّل إلى عامل بسيط في مصنع بهدف الاقتراب من الطبقة الشغيلة ومعايشة أحوالها وظروف عملها ومعيشتها. «الالتحام بالطبقة الشغيلة» كان شعار غالبية مناضلي الأحزاب اليسارية والحركات الثورية آنذاك وبصفة خاصّة حركتي التروتسكيين والماويين اللتين تجمعان في صفوفهما شبابًا أغلبهم ينحدرون من عائلات موسرة أو من الفئات الوسطى التي لا علاقة لها بعالم العمل اليدويّ والمصانع. رومانسية حاملة؟ طيش شباب؟ رغبة في الخروج عن السبيل المسطّرة والطرق المعبّدة؟ حلاوة كسر الحدود والعبور إلى المناطق المجهولة؟ متعة مذاق ذكورية تُستوحى من أزيز الآلات وزبوت المحرّكات وكسوة العمل الزرقاء، من الأصابع المحرّزة والمورّمة الملطّخة التي بدأت تسلخ عن قشرتها الناعمة وليونها الطفولية، البرجوازية؟

كنت لأكثر من ثلاثة أسابيع لا أتغذى إلا من خبز وحليب عملاً بمبدأ أنّ الحليب غذاء كامل بينما باريس من حولي تفتقاً العينين بطيبات الدنيا ممّا تعرف عيناى ومما لم تر إلا هنا. خلال تجوالي اليوميّ الطويل بحثاً عن عمل ألج عدداً لا يُحصى من المطاعم، البسيطة منها والفاخرة، التي تعرض واجهاتها أصنافاً خياليّة من الأطباق؛ لحوم متنوّعة؛ كستليات، شرائح لحم العجل الملفوفة في الدقيق على الطريقة الميلانية أو الفيينية، شرائح بيفتاك، دجاج، سمّان، بطّ، أسماك بيض فضيّة وزرق ووردية، ثمار البحر، محار، سرطان البحر العائم حيّاً في أحواض من الزجاج، غلال طازجة تبدو نازلة للتوّ من غياض الجنّة، بينما تفوح في فضاء تلك المطاعم روائح ممّا يمكن أن يقال عنها حسب العبارة الخرافيّة الشهيرة أنّها «تعيد الرّوح وتجعل الشايب شباب والعجوز قدّ الباب». كنت في ذلك التسكع اليوميّ الطويل مثل قطّ محكوم عليه بالتجوّل صائماً بين شتى أصناف المأكولات. عندما تحفر معدتي الروائح الشهية ويدوخي طول النظر إلى ذلك المعرض المتنوّع وتشرع ركبتي في الارتخاء أتجه إلى أوّل مخبزة لأقتني نصف رغيف وعلبة بنصف لتر من الحليب ثمّ أتهاوى على كرسيّ في إحدى الحدائق لتناول وجبتي حالماً باليوم الذي سيصير لي فيه عمل مثل الجميع وحافضة نقود تخوّل لي دخول تلك المطاعم لا طالب عمل بل غازياً لموائدها الفردوسية.

تنهار معنوياتي أحيانا ويقتحمني اليأس فأشعر بشيء من الندم على فعلتي الطائشة التي دفعت بي إلى التشرّد في هذه المدينة وأنا أتخيل موائد الطعام في بيت عائليّ وبيوت أصدقائي بمقليّاتها وشواءاتها ومرقها المبهّر ولفلها الحارّ ويطيخها المبرّد. يمرّ أمام عينيّ مشهد حانات تونس بموائدها العامرة بزجاجات البيزة الباردة والخمرة الحمراء والبيضاء والوردية وأطباق السمك واللحوم المشوية، شرائح الستيك في مطعم

«طونطونفيل»، أطباق الشواءات في مطعم «البوليرو» الصغير الذي يعجّ بالموظّفين والطلبة والمدرّسين والصحفيّين والكتّاب والشعراء، صحوون العجّة بالمرقاز أو بالمخّ في بار نهج الرتل، أطباق الكلويفيس (المحار) في حانات حيّ لافايات، قطع البيزا في بار «شي ماكس»، سمك التريلية المقلّي اللذيذ في حانة «المارينون»، رؤوس الخرفان المحمّرة المبهّرة بالثوم والكمّون مزينة بالبصل والمعدنوس في حانات شارع فرحات حشّاد، كستيليات العلّوش<sup>(١)</sup> والكبد والطحال والكلّي والمرقاز الحازّ المبهّر في دكاكين الشوائين في مدينة زغوان... تغرغر أمعائي وتقلّص وتتلوّى داخل بطني ويصيّبني شيء من الدّوار شبيه ببخارٍ ثقيلٍ عطّين يصعد من جوفي المتعفّن بالحليب وعجين الخبز وتغيم الأشياء رويدًا رويدًا أمام عينيّ: واجهات المحلّات والسيدات الأنيقات الضاربات بكعوب أحذيتهنّ على الرصيف والعجائز اللاتي يجرجرن كلابهنّ الصغيرة التي تحرسهنّ من شبح الوحدة والموت الحائم فوق رؤوسهنّ، والجوع يتمطّط في بطني مثل ثعبان ويبثّ أبخرته السامة في صدري ثم يصعد إلى رأسي قبل أن يغزو كلّ خلايا جسمي فترتخي مفاصلي وتضطرب ركبتي وأجذني أتحرّك ببطء وصعوبة فائقة داخل عالم يبدو لي مثل كوكب غريب كلّ ما يتحرّك داخله يصيّبني بالبهتة والذهول. أتفحص الوجوه مثل أبله كما لو كنت أجهد نفسي في استقراء ملامح الناس من حولي، سرّ حركاتهم السريعة وأصواتهم المتداخلة مثل معزوفة غريبة لم تستأنس لها أذناي بعد. كلّ شيء غريب غامض؛ الضحك والمرح والأزواج السائرون في عناق طويل في الشوارع وممرّات الحدائق، وهياكل الشيوخ والعجائز المتهالكة على الكراسي

(١) هكذا يسمّى الخروف في تونس.



الخشبية تنثر الحبّ أو فتات الخبز للحمام المتحلّق حولها في هرج وغبطة، العمّال المنهمكون في حفر الأرصفة وتجليّة التراب، العربات التي تضع أمام الدكاكين والمطاعم صناديق المشروبات، المازّة الذين يبدون سائرين إلى حفل في مكان ما؛ رجال ببذلات أنيقة ونظيفة ووجوه مشرقة، سيدات بفساتين زاهية الألوان، صدور متوهّجة، عيون مشعّة بالبهجة، فتيات بتتورات قصيرة وبنطلونات جينز ضيقة تجعلهنّ في هيئة السمك الطريّ، الشبان المتمشون بكسل ولا مبالاة جيئةً وذهابًا كأنّما خلّقوا للتمشي هكذا جيئةً وذهابًا في شوارع هذه المدينة دون هدف محدّد، حالمين، ضاحكين مغمورين بغبطة لا أدري لها سببا ولا مصدرًا. بعيدًا يتراءى لي كلّ ذلك العالم، وأنا الذي لا يحفر الأرصفة ولا يجلّي التراب ولا ينزل البضائع من عربات الشحن ولا يخدم الحرفاء في المطاعم والمقاهي، ولا يجلس إلى طاولة ولا يشرب بيرة باردة صافية ولا نبيذًا أحمر ملتهبًا مثل الياقوت، ولا يأكل آيس كريم ولا يتمشى حالماً لا مبالياً، لا يعانق أحدًا ولا يعانقه أحد، أنا هناك مثل كائن لا مرئي تنزلت من حوله الكائنات الأخرى ولا تراه، ولا تشعر بوجوده أصلا. أتحنّس تذكّرة العودة بالباخرة من مرسيليا إلى تونس وجواز سفري في جيبي. توريسك! توريسك فعلا يا رفرافي! وأظنّ أردّد مثل الأبله المخبول:

*Tu l'as voulu, Georges Dandin! Tu l'as voulu, Georges Dandin!*<sup>(١)</sup>

طبعًا، أردت ذلك طوعًا واختيارًا، وأنا مصرّ على البقاء هنا مهما كان الثمن. البطولة، مثلها مثل الجبن، لا تتحقّق للمرء إلا عندما لا يكون له من خيار غيرها. ليس لي من خيار غير البقاء والصمود،

(١) ما يعادل: على نفسها جنت براقش.

فبتعمدي الانسحاب من امتحانات نهاية السنة الجامعية كنت أعرف أنني لا أفعل سوى حرق جسور العودة. إذن! في الأفق تلتمع من وراء غيمة اللحظة الكدرة وعود بحلم غزو باريس، ولا بأس أن تظلّ الفاتنة تتمتع وتتفتّح؛ لن يزيد لها ذلك إلا إثارة وشبقاً. أحلم بالجامعة؛ قاعات المحاضرات، الأساتذة المهيبون الذين تتألق هيئاتهم ببريق عراقية المعرفة، حجارة الجدران السميقة لتلك البناية الجامعية التي كنت أمر من أمامها أحياناً، أتوقف طويلاً لأنظر إليها بعينين ملوّهما الرجاء والأمل؛ البوابات الضخمة التي تعطي انطباعاً بولوج عالم سحريّ غامض مجلّل بوقار العلم وهيبة سلطانه، الطالبات الباريسيّات الشبهات بحوريات الجنة؛ ترى هل سيكتب لي أن ألجها يوماً طالب معرفة، أن تأخذني الطريق إليها لا مشرداً هائماً على وجهه دون هدف، بل قادماً إليها قدوم صاحب البيت إلى بيته؟ تأخذني النشوة، أدوخ ببهارات موعودة تترأى لي الآن في متناول اليد... أدوخ فعلاً. أشعر بخدر يلف بخاره برأسي، ينسرب إلى مفاصلي، ينحدر إلى ركبتيّ وقدمي؛ لم أعد قادرًا على المشي ولا على الوقوف، أستند إلى جدار، أتنفّس بعمق، أخرج رجليّ حتى أبلغ كرسيًا خشبيًا على بعد بضعة أمتار تترأى لي مثل مسيرة شاقّة وعسيرة لا تنتهي، أتهالك على الكرسيّ، سرب حمام بأكمله يطير من بين قدميّ محدثاً برفيف أجنحته دوامة شبيهة بعجاجة تحمل في لفافتها قشًا وأوراقًا وكواغذ وأغصان أشجار ودفاتر وأشياء أخرى كثيرة متنوّعة تُحدث طقطقة تتحوّل دويًا داخل رأسي، تغيم في رأسي ملامح جامعة السوربون والطالبات المزقزقات مثل عصفير الجنة وكلّ الوعود التي كانت تدغدغ قلبي منذ حين... قابعا على كرسيّ خشبي في حديقة اللكسومبورغ لا أحد ينتبه إليّ، لا الشيوخ المستون ولا العجائز ولا الكلوشارات ولا أزواج العشاق المتلاحمين في عناق

لذيد طويل قاس عليّ قسوة هذا الخشب الذي ترتجف فوقه ركبتي،  
والصوت النحاسي الصارم لصاحبة المطعم وهي تنتهرني تقريباً: لانريد  
طلبة، لسنا في حاجة... بنت القحبة! كما لو أنني جئت أتسول، أو أريد  
أغتصابها! لا أحد في حاجة لطالب يريد عملاً؟ من يعمل إذن في كل  
هذه المطاعم والبارات والفنادق والمحلات التجارية الكثيرة؟ لا أحد  
يريدني! ما الذي دفعني إلى القدوم إلى هذا البلد الخراء؟ تفو، تفو،  
تفو!

\*

طبعاً لم تعترضنا بنات الفرنسيين بالأحضان. مجرد كلام طائش،  
ربما رغبة في تزويق الحديث لا غير؟ لا بنات فرنسيس تحتضني ولا  
هم يحزنون؛ أجلس في حديقة اللوكسمبورغ جاتعاً خائر القوى ومبتسماً  
حدّ الرغبة في البكاء. خرت على رأسي حمامة فضحك عليّ  
«الكلوشارات» المتحلّقون في جلبة معرّبة غير بعيد مني. وبينما كنت  
أمسح الذرق عن شعري بقطعة من الورق كان واحد منهم يقول لي  
مقهقهاً: الخراء فأل خير. خراء الحمام يجلب الحظ!

- فأل خير؟ يا ابن العفنة! خذ إذن من الحظ وفأل الخير ملء أنفك يا  
وسخ!

دسست له الكاغذ في لحيته وهربت مسرعاً قبل أن يهشم رأسي  
بالقارورة الفارغة التي كان يشهرها باتجاهي وهو يلاحقني.

جلست أستريح على كرسي خشبي بعد أن تأكدت أنّ الكلوشار  
الغاضب قد توقّف عن ملاحقتي مفضلاً العودة إلى الزجاجاة التي قد  
ينهيها الآخرون في غيابه، ألهث وألعن كلّ فصيلة الحمام وخاصة تلك  
التي لم يحل لها الخراء إلا فوق رأسي وعلى ياقة قميصي الوحيد. لو

أنها تقع في يدي فسترى ما الذي أفعله بها، بنت ال... سألوي عنقها - لن أذبحها، لأنه ليست لي سكين - سأحزّ رقبتها بزجاجة مهشمة أو بقطعة من الصفيح الحاذ، أنزوي بها في ركن من حديقة اللوكسمبورغ وأريشها، بعدها أشويها، أحمرها في الزيت، أسلقها، أضعها في الفرن، أطهيها في مرق من الطماطم وهريسة الفلفل الحارّ مع كثير من البهار حتى تلين جلدها، تكاد تهترى، ويقتحم البهار الشديد والفلفل أقصى أقاصي نسيج لحمها ليزيح عنه زفر الكائنات التي تعيش على بقايا أكل الآدميين من سندويشات بالجبن والجمبون وكعك بالزبدة والبيض وبطاطا مقلية بزيت قديمة مستعملة عطنة وسجق لحم خنزير مدخن وفتات من لحم دجاج مشوي وهمبورغر ملفق من موادّ عديدة غامضة لا يعرف الشيطان نفسه تركيبها الحقيقية، وترف من سمك كان مجمداً سنوات عديدة وآيس كريم وشكلاطة وفتات خبز داسته الأقدام مرّات عديدة ...

حمام مشوي فوق أعواد من الحطب أجمّعها في زاوية من الحديقة. لكن أين هو الحطب؟ كأنّ أشجارهم لا تنيس! وأين هو القش؟ إنّها باريس لا حطب فيها ولا قش ولا تراب! حمامة مصليّة في الفرن محشوة بالرزّ والبندق(الصنوبر) والزبيب مع قليل من الفلفل الأسود - لكن قليلاً فقط - وشيء من جوز المسك والزنجبيل. حمامتان، ثلاث حمامات، أربع حمامات محشيات مدلكات بمزيج من زيت الزيتون والزعفران وقليل من العسل - لحم بعسل؟! أي نعم يا سيدي، شيء من العسل على جلد الحمام، أووه! ذلك المزيج الغامض والدقيق من الحارّ والحلو الذي يتقنه الآسيويون؛ حلاوة تكاد لا تُدرك، وحرارة ناعمة دقيقة واهية مثل كذبة! - تُحشر الحمامات كلّها في بطن خروف لم يُفطم بعد؛ حليب أمه ما زال يتدفق بين شرايينه وعبر خلايا لحمته الوردية

الطرية. خروف محشيّ بحمام محشيّ، مخترق من الدبر حتى الرقبة  
 بسيخ محكم فوق منصب فولاذي، تحته جمر فحم من خشب الصنوبر  
 ذي الرائحة الذكيّة. تدير ذلك السيخ الطويل يد متأثية بارعة موزونة  
 الحركة معدلة على نسق حركة عقرب ساعة ثابتة ومنتظمة الدوران؛  
 السيخ يلفّ والخروف يلف وفي بطنه الحمامات المحشيّات تدور  
 بدورانه، والسيخ يلفّ في حركته الموزونة البطيئة، البطيئة جدًا جدًا،  
 والدهن يقطر ببطء على جمر فحم الصنوبر ذي الرائحة الذكيّة؛ تمتزج  
 الرائحتان، بل روائح عديدة؛ كوكتيل روائح وبهارات، فيها الخردل  
 والكزبرة والثوم والزعتر وجوز المسك والفلفل الأسود وهريسة الفلفل  
 الأحمر الحارّ والزعفران والكركم ومعجون المنّعة المبهّرة على الطريقة  
 الآسيوية وصلصة الصوجا ونكهة خفيفة حائمة مثل خيط دقيق من  
 معجون الفستق السودانيّ، والسيخ يلفّ، الخروف يلفّ، في بطنه تلفّ  
 بدورانه الحمامات المحشيّة، الخروف يلفّ، السيخ يلفّ واليد البارعة  
 الواثقة تلفّ ورائحة الدهن المتقاطر على جمر فحم خشب الصنوبر  
 تلفّ، والمجمرة تلفّ، الجمر يلفّ دوامة حمراء مشعة مشعشة،  
 والروائح تلفّ واليد تلفّ، بل الرجل بكلّيته غدا يلفّ منتشيًا  
 والكلوشارت المتحلّقون غير بعيد حول زجاجة نبيذ يلقون...

اختفى كل شيء داخل لفافة واحدة بخارية داكنة مزيج من خرفان  
 كثيرة تلف على الأسيخ وحمام مشوي وكلوشارت يقطر الدهن من  
 لحيم الشعثاء وزجاجات نبيذ وأقدام عجائز ومؤخرات الدجينز وكؤوس  
 بيرة وأيس كريم وريش حمام... الدنيا كلها تلففففففففففففف...

\*

كان جاك ونوته يعدّان الغداء عندما دخلت صحبة عقبه. عرض علينا

بيزة وشراب باستيس ثم سألني إن كنت أريد أن أتغذى معهم فشكرته مدعيًا أنني أكلت قبل قليل. لم يُعد عليّ السؤال ولم يلخ. لم يعلق عقبة، ولا أعاد عليّ عرض جاك. عقبة يعرف بالتأكيد أساليبنا العادية ومراوغاتها وكترها وفرّها، والمكابرة والحرص على حفظ ماء الوجه. كنت مقتنعًا أن الأمر العادي سيحصل عندما توضع المائدة. واصلنا احتساء البيزة، ثم الباستيس والرائحة القادمة من المطبخ تعد بوليمة سخية. غدا الوعد شبه متحقق إذن، حتى أنني كدت أنسى أنهم سألونني ورفضت، فأقبلت على تناول المزيد من الباستيس دون تحفظ، وكان جاك، والحق يقال سخيا يشرب بسرعة ويعيد ملء كؤوسنا بسخاء وهو يدندن ويرطن بصوته الأجنس مرافقًا موسيقى باكو إيبانيز الإسباني أو ليو فيري الفوضوي الذي كان يصرخ ويزعق كأنه ينبج.

شرعت نونوتة في ترتيب المائدة ووضع الصحون بينما جاك وعقبة منهمكان في آخر الإعدادات داخل المطبخ. وضعت ثلاثة صحون كبيرة، ثم ثلاثة صحون صغيرة فوقها، ثم ثلاث شوكلات، وثلاث سكاكين وثلاثة مناديل! جاءت بطبق السلطة، ثم بطنجرة مغلقة يبدو أنها ساخنة لأنها كانت تمسك بها بمنديلين سميكين. طنجرة ثانية وضعها جاك على المائدة وعاد إلى المطبخ. هل أنهض من مكاني وأعرض عليهم مساعدتي؟ لا، سيكون ذلك أمرًا شبيهًا بالتطفل، وهم على أية حال ثلاثة والمطبخ الصغير لا يتسع لأكثر منهم. جاك يطلّ من الباب ويده أكواب شراب جديدة، يسألني: هل تريد نبيذًا أحمر؟ علامة خير! أوافق، وبشيء من الحماس أيضًا. جاء طبق آخر عليه قطع لحم محمّر مع شرائح بصل. ترى ما الذي تحويه الطنجرتان المغلقتان؟ وماذا يعدّ عقبة الذي لم يخرج من المطبخ منذ ما لا يقلّ عن نصف ساعة؟ أكلة تونسية إضافية احتفاء بي؟ دخلت نونوتة ويدها طبق عليه أربع قطع

كبيرة من الجبن وشرائح من الجومبون والسلامي. وليمة ضيافة حقيقية إذن! جلست نونوتة أولاً، ثم جاك؛ كلاً أمام صحنه وشوكته وسكينه وأنا ما أزال جالساً في مكاني على الأريكة. لم يدعواني. لكن ماذا يفعل عقبة يا للشيطان؟

أخيراً دخل عقبة. جلس إلى المائدة وشرع في تناول السلطة. هل يعقل أنه غدا هو الآخر وغداً حقيراً؟ فرنسيًا سافلا هو أيضًا؟ ربما ينتبه إليّ... لكن متى؟ يا عقبة، يا ولد ال...! يرفعون كؤوسهم، وأرفع أنا أيضًا كأس معهم من مكاني على الأريكة. نشرب نخب الصحة والعافية ووليمة البروليتاريا في يوم عطالتها التي أشترك فيها بنبيذ بدأ يمزق أمعائي مثل النصال، وأولاد الكلب يأكلون ويتحدثون، ومن حين لآخر يتوجه أحدهم إليّ بالكلام، أو بسؤال. أي كلام يا أولاد الخراء وأي حديث، وأية بروليتاريا قحبة؟ أكاد أصرخ: يا جماعة، يا جماعة أنتم مجانين؟ أوغاد وأولاد همّل وسفلة؟ أم أغبياء؟ أم ماذا؟

نهضت من مكاني مصطنعًا الذهاب إلى الحمام. شربت من الحنفية مباشرة ما لا يقل عن نصف لتر من الماء. فكّرت بأنه لم يعد لي غير الماء لملء أمعائي وتبديد شيء من مفعول الشراب الذي بدأ يبهذلني. ثم اتجهت إلى غرفة عقبة ورحت أحاول إلهاء نفسي بتصفّح بعض المجلات وأشربة الموسيقى. لم تكن هناك كتب، ولا حتى صور لنساء عاريات كما يرى المرء عادة في أغلب بيوت الشبان المهاجرين من العزّاب. عندما عدت إلى غرفة الجلوس كانوا قد وصلوا في طقسهم الطويل الشنيع إلى جبن الكامببير بالخبز الأسمر، والروكفور، وجبن الماعز الطري. مرّت أكثر من ساعة من الزمن وهم يجرشون ويلوكون ويتحدثون ويضحكون. حديثهم يبدو لي الآن قادمًا من مكان بعيد. هم أيضًا قد أصبحوا عالمًا بعيدًا وغريبًا عني، عدوانيًا ساحقًا.

كان عليّ أن أتجلّد على محنة النقاش الطويل الذي يَمَطِّط طقس الغداء إلى ما لا نهاية. وكان عليّ أن أكابر وأنضبط وأنا أرمق بعيني كلب بائس مائدة البروليتاريا التي تُفرت فوقها أمعاء النظام الرأسمالي ويشترح فوقها الهيكل المتفكك للبرجوازية ورببيتها البرجوازية الصغيرة، بينما تلمّع صفحة البروليتاريا مثل مرآة يجلّي عنها الصدأ المتراكم عليها لقرون عديدة. البروليتاريا هم طبعاً جاك ونونوتة وعقبة الذين يكثّدون داخل مصانع الضاحية الشماليّة لباريس، الذين لا تطلع الشمس على تمللمهم بكسل في الفراش إلاّ مرة في الأسبوع؛ في هذا الأحد المقدّس الذي لم يعد يوم عطالة الربّ، بل فسحة للبروليتاريا تضمّد فيها جراحها حول مائدة حافلة بشتى أصناف المأكولات والمشروبات والنقاشات الطويلة حول أفضل وأقصر السبل للإطاحة بعرش رأس المال. يوم الأحد الماضي كان يوم استراحة البروليتاريا لدى واحد من أصدقاء الطفولة وثلاثة شبان مهاجرين تونسيين آخرين يتقاسمون شقة صغيرة في سان دني، يوماً معربداً صاخباً بدأ بالتزاحم صباحاً على بيت الحمام للاغتسال وحلق الذقون وتلميع بشرة الوجه داخل رائحة قهوة طازجة وأنغام موسيقى تونسيّة وقرقعة أواني في المطبخ وسعال ونحنحات تختلط بصوت صنبور الماء وفحيح مجفّف الشعر. بعدها فطور سريع قبل الخروج للتسوق، أو للتمشي هكذا دون تسوّق داخل زحمة المتسوّقين والآخرين المتمشّين دون تسوّق أيضاً والذاهبين أو العائدين من الكنيسة بعد قدّاس الأحد يملؤون أسماعهم بالنغمات المتعدّدة المتنوعة المتداخلة لباعة الخضار والغلّال والسمك والجبن واللحوم والملابس والأواني المنزليّة وعارضي الآلات المنزليّة الكهربائيّة الزاعقين في الأبواق، وشباب آخرين صارخين دون أبواق بحناجر شديدة الحماس يوزّعون مطبوعات عرفت من بعد أنها مناشير سياسيّة،



يعرضون صحفا صغيرة الحجم على المارة الذين لا يهتمون بهم وبالكاد يقذفونهم بنظرات سريعة ويمرون. بعدها ساعتان أو ثلاث ساعات بين الحانات الممتلئة حدّ الانفجار بالمعطلين المتكالبين بشراهة ونهم على كؤوس البيرة والنيبيذ الأبيض والباستيس داخل جلبة تلعلع فيها أصوات المتجادلين بحماس حول رهانات «التيارسي» لسباق الخيل. أرقام وأسماء جياد يعرفونها كما لو أنهم ربوها بأيديهم في اسطبلات بيوتهم، صراخ، محاججات، مشاحنات، مداعبات بالسباب والشتائم وذكر الأعضاء الحميمية، بذاءات باتجاه الجرسون والنادلة اللذين يردّان بأوسخ منها، قهقهات مجلجلة تمتزج في جو احتفالي معربد مع أزيز آلة القهوة ورنين الكؤوس في حوض الغسيل والموسيقى الصارخة من آلة «الجاك بوت».

المائدة نظيفة والصحون مجلّاة، وجاك يأتي بالقهوة وزجاجة كالفادوس، يضع قدحا أمام البرجوازي الصغير، الطالب الذي ستهترئ مؤخرة بنظراته على كراسي الجامعة، والذي يتكوّر الآن على نفسه بالقرب من مائدة البروليتاريا محاولا الضغط بكلّتي يديه على أمعائه كي لا تخرج من بطنه. البرجوازي الصغير الحالم بالانسلاخ، الفاز بجلده أو من جلده في رحلة طائشة تدفعه رياح الفضول أو تجذبه عطورات وبريق عواصم الرأسمال المتواقح المتصالف بالبهجة وشتى المغريات، ليجد نفسه بمحض صدفة أو خطأ يجلس إلى مائدة البروليتاريا في يوم عطالتها يناقش ويجادل ويحاجج في جزئيات النظريات الماركسية المفرّخة في كل الاتجاهات ويفضّل مع الرفاق في الفوارق بين اللينينية منها والتروتسكية والستالينية والماوية والجيفارية والتحريرية، والطاولة نظيفة؛ أي نعم *faisons table rase!* وجاك يسكب سائل الكالفادوس وهو يعالج آخر التدقيقات في إعادة ضبط رزنامة التواريخ في رأسي؛ الأحد

لم يعد يوم عطالة الرب، بل يوم استراحة البروليتاري، وعيد الميلاد لم يعد يؤرخ له بشهر ديسمبر بل بأكتوبر المجيد الذي شهد ميلاد أول دولة للعمال والفلاحين، وفتح مايو هو الفصح الجديد، جاك ينفض يديه ذات الأظافر السود والأصابع المحززة الملطخة بزيوت الآلات من مجمل التاريخ البرجوازي والإقطاعي ويملاً فناجين القهوة وكؤوس الكالفادوس التي ستدقر ما تبقى من الأمعاء المتضورة للبرجوازي الصغير المتختم الآن بالوليمة الإديولوجية الدسمة:

*Du passé faisons table rase!*

*Groupons nous et demain,*

*L'Inteernationaaaaaaaale*

*Sera le genre humain!*<sup>(١)</sup>

---

(١) المقطع الأول من نشيد الأممية.

## سان دني

شعرت بالارتياح للقاء علي الذي عرّفني به عقبه في صبيحة يوم الأحد في سوق سان دني المجاورة لأوبرفيلّي. قال لي: تعال سأعرّفك على شخص نادر الوجود، لكن عليك ألاّ تفعل وألاّ تغضب إذا ما بدا لك حاذ المزاج شيئاً ما. إنه يبدو متكبراً وعدوانياً لكنّه في الحقيقة رجل طيب وكريم.

كان وجهه يشعّ فعلاً بنوع من الاستعلاء الساحق توقّعه الاختلاجات العصبية للفكّين والنظرة الجانبيّة التي يستقبل بها الناس، كلّ الناس تقريباً. لم يكن عقبه مبالغاً في شيء بشأن حدّة مزاجه ذلك أنّ الجملة الأولى التي سمعتها منه وهو يمدّ يده لمصافحتي بشيء من اللامبالاة كما لو كان يفعل ذلك لمجرّد روتين بارد، كانت: لستُ تونسيّاً ولا عربيّاً ... ولا فرنسيّاً. اسمي علي التومي وكفى!

سمعته من بعدها يرّد تلك الجملة العديد من المرّات وهو يكاد يصرخ محتجّاً متهتجاً كلّما حاول عقبه أن يذكره بلهجة مؤنّبة بضرورة عدم التنكر للأصل والجدور، وأشياء من هذا القبيل. - «إن كنت تريد أن نظل أصدقاء، عليك أن تنسى هذا الموضوع!» ثمّ يولّع سيجارة «جيتان» بعد أن يكون قد أطفأ السابقة بعصية وأصابعه ترتعش. ينفث الدخان دفعتين متتاليتين، واحدة من الشقّ الأيمن لفمه والأخرى من الشقّ الأيسر. تهذّل شفته السفلى باتجاه الجانب الأيمن لذقنه ويرتفع حاجبه

الأيسر ليتخذ وجهه حياة على غاية من الاشمئزاز والاستعلاء. نوع من الاستنفار الدائم كما سيتبين لي في ما بعد. كلّ آخر خصم محتمل في عيني علي، إلى أن يأتي ما يخالف ذلك. كلّ واحد يمرّ أمامه أو يقف بجواره وهو يتكئ على مقصف البار خصم، وغد وحيوان قدر، أو حمار سائب حسب عبارته المفضلة التي يسحبها على الجميع تقريباً. المهاجرون «خوروطو» ودوابّ تسعى. وكلّ امرأة بقرة.

«لا تحلو لي مضاجعتهنّ إلا على طاولة في بار، أو في حديقة عمومية. أكره ما أكره هو أن تتمدّد امرأة إلى جانبي في الفراش، مثل ميتة». لا يستطيع ذلك الأمر إلا وهو يفعله بوحشية، عندما تغدو المرأة فعلاً بقرة ويكون هو ثوراً في ذروة التهيج، أو عندما يكونا كلباً وكلبة سائبين. وكان يحبّ أن يردّد جملة لمغنيه الفوضويّ المفضل ليو فيري:

*Nous sommes des chiens!*

*Nous sommes tous des chiens!*

*Alors laissez nous les chiennes!*<sup>(١)</sup>

تلك المسألة غدت معروفة لدى كلّ اللاتي يترددن على حانات سان دني الليلية. هناك من تعجبها المسألة وهناك من لا تعجبها. وهناك من تستطبيها في المرّة الأولى لما يمنحه عنصراً المفاجأة وكسر العادة من إثارة إضافية، لكنّها لا تستطيع أن تقبل بها نمطاً قارّاً. جانيت، إحدى الحريفات القارّات في «كافي دو مارشي»، الذي يتحوّل بعد الساعة الثامنة مساءً إلى بار ليليّ معتمّ قليلاً لم يصبها الملل من عادة الخروج

(١) نحن كلاب/ نحن كلاب حيميننا/ لتتركوا لنا كلباتنا إذّا!

مع عليّ إلى حديقة الكنيسة عندما يتعتعها السكر وتكون مداعباته الفاحشة قد أذابت قشرة الجليد التي تلفّ جسمها وروحها في حالة الصحو. يتغامز الحرفاء الدّائمون ومدام روز عندما يرفع عليّ ياقة الجاكيته الجلديّة السوداء ويتّجه نحو الباب فتتململ جانيت فوق التّابوريه العالية، ثمّ تستند بكفيها على المبسط وهي تطلب الحساب متنهّدة: آه! لا بدّ أن أذهب إلى الفراش يا عزيزتي روز! بينما عيناها الواسعتان تبرقان باتجاه الباب. - آ، معك حق، الفراش...! الفراش شيء جميل، خاصّة في فندق الكنيسة تحت لحاف النجوم!، يقذف باتجاهها هذا أو ذلك من الحرفاء الذين لم تعد تخفى عنهم المسألة. فتفتعل جانيت الصمم أحياناً كي لا تتورّط في مشاكسات لا تنتهي مع أولئك السكّيرين الذين ليس هناك ما يسليهم مثل التحرشات الساخرة والتقاذف بالمداعبات الفاحشة. أحياناً تلتفت إلى صاحب الملاحظة الخبيثة أو الدّعابة الغامزة ملوّحة في وجهه بالوسطى المرفوعة من قبضتها الصغيرة السمينة التي لا يتجاوز حجمها كرة التنّس، ثمّ تندفع باتجاه الباب وعيناها تلتهمان الشارع وساحة الكنيسة الفسيحة بحثاً عن عليّ الذي قد يكون في انتظارها في زاوية من الزوايا المعتمّة قليلاً.

كلّ تحرّكاته وعاداته اليومية معروفة لدى رواد البارات، لا حرفاء «كافي دو مارشي» فقط، بل كلّ بارات سان دني. عندما يسكب آخر جرعة من كأسه بحركة عصبيّة ويقول وهو يرفع ياقة جاكيته الجلديّة السوداء: *Au suivant!* - اللي بَعْدو - إلى الموالي فهو لا يعني كأساً أخرى، بل يعلن عن نيّة دفع حسابه والتوجّه إلى بار آخر.

لا يستطيع أن يشرب أكثر من كأسين في بار واحد إلاّ في حالات نادرة. وعندما يطلع الفجر وينتهي سهرته بخصومة صاحبة عنيفة، أو بمضاجعة امرأة سكرانة في حديقة أوفي مدخل عمارة، أو في زاوية

معتمة يكون قد لفّ بما لا يقلّ عن عشر حانات، وشم أكثر من نصف الزبائن، وقد وضع يديه بين ما لا يقلّ عن عشرين فخذًا، ودفعته أباد عديدة، وقبلت رأسه الأجدد أكثر من عاهرة أو عانس سكرانة حزينة.

هو الذي ألخ علينا بأن نتغذى معًا في بيته. بعد الغداء خرجنا إلى الحانة من جديد. كان عقبة يناوشه بين الحين والآخر: لن تموت إلا على مقصف بار سكران وبائسا. وكان يجيبه: أما أنت فلن تموت إلا مرفوسًا تحت آلة من آلات مصنع وسخ نتن. ثم يلتفت إليّ: لا تستمع إلى هرائه إن كنت تريد أن تعيش سنوات لذيذة في باريس، لأنه سيسعى جهده لإبعادك عن كل أماكن الفرح والبهجة. اشرب يا رجل، اشرب وامرح وسبيك من الخرافات والأوهام. قل لي بربك، ما الفرق بينك وبين أيّ بغل حرّاة؟ كلّ كلاب الدنيا تجري وراء كلباتها، والحمير وراء إناثها، والديكة وراء دجاجاتها. الدنيا كلّها قائمة قاعدة على هذه المسألة إلا حضرتك: احشم، لا تضايق الناس، هذه عنصريّة، وتلك عاهرة وقذرة، والأخرى شريفة لا يحقّ التحرش بها؛ لو كان الرجال كلّهم مثلك لانتحرت جميع النساء احتجاجًا وضجرًا من الحياة!

سألني عن ظروف إقامتي ومعيشتي في المدينة التي ما زالت جلّ أبوابها مغلقة في وجهي. ثم عرض عليّ أن أنتقل للسكن في بيته الصغير ريثما تثبت قدمي في البلاد وأجد عملا وبيتًا: ليس ضروريًا أن تزعج الفرنسيين، صحيح أنّ جاك ونونوتة طيّبين، لكن لطيبة الفرنسيين حدود، ونحن على أيّة حال نفهم بعضنا أكثر ونستطيع أن نتحمل بعضنا في كل الظروف.

\*

أعجبني الطقس الغريب الذي كان عليّ ينتعش داخل نسقه السريع

والمتميّز على الدوام. ذلك الجري من بار إلى بار، تغيير الديكور وتبدل الوجوه. بدا لي كما لو كان يلتهم المدينة بنهم من كل جوانبها. يغير زوايا النظر على الدوام. يراود المدينة المنغلقة على أسرارها. يتوسلها فيما هو يتنقل من بار إلى آخر متجسسا مداخلها الممكنة كلها.

باريس فعلا مدينة لا تمنح نفسها بسهولة. ذلك الأمر لا يدركه إلا من أطال الإقامة فيها ومعاشرتها عن قرب. تنقل في البداية بين أحياء عديدة من المدينة قبل أن ألتقي به في تلك الضاحية الشمالية (سان دني) التي انتخبها مستقرا له بالنهاية. ضربت من التكتيك الجديد بمقتضاه يقطع الغريب له جزءاً من المدينة ويركز عليه من أجل رمي الجذور. غير أنه، حتى وهو ينحاز إلى ذلك الجزء من المدينة دون غيره، ظل مسكوناً بهاجس التنقل الدائم. لم يكن هنالك من شيء يشده في الواقع إلى مكان محدد. وكان كل شيء، في كل مكان يضجره، وكان من الصعب تحديد الأمر الذي يضجره ويدفع به دوماً إلى ذلك التنقل اللاهث. صحيح أنّ حانات سان دني لم تكن تمنح للزائر من إمكانيات التواصل إلا طابعاً سطحياً صاخباً بالهذيان والمزاحات والدعابات الفاجرة والمشاكسات التي قد تبدو في البداية مرحة إلى حد ما، لكنّها سرعان ما تنقلب إلى مناوشات ليست بريئة بالضرورة. هنا يمكن لممازحة عادية أن تنقلب بسرعة إلى استفزاز رخيص، فخصومة حادة وكريهة مشحونة بأحقاد استعمارية قديمة وعنصرية متجددة. وإذا علي يخرج عن طوره ويطلق العنان لسيل سبابه المتدفق. وهو على أية حال يمتلك قاموساً ثرياً في هذا المجال وقدرة فائقة على تصريف الشتائم اللاذعة والتفتن في تنوعها بحيث يكون بإمكانه مخاصمة ما لا يقل عن خمسة أشخاص في نفس الوقت دون أن تغطي كثرتهم على صوته الموقّع برنة نحاسية تبدو أكثر احتفالية كلما ازدادت وتيرة غضبه تصاعداً.

رجل المشاجرات بامتياز؛ يتقن إخراجها، لا بصوته فقط، بل بحركات جسده الذي يغدو راقصا تقريبا وتعبيرات وجهه الأسمر الداكن النحيف الذي ترتسم فوقه علامات الاحتقار والاستعلاء على نحو يغدو معه أكثر عدوانية من نبرة صوته النحاسية وعباراته الفاحشة المنتقاة. كثيرا ما انسحبت في خضم خصومة من خصوماته إلى ركن من البار، لا ترفعا عن لغط المخاصمات التي اشتركت في العديد منها وبشيء من المتعة أيضا، بل لأن المشهد يغدو في لحظة ما على غاية من الإثارة بحيث يصبح من الأفضل مراقبته من بعيد والامتلاء بالمكان الذي يتحوّل في غمرة تهيج علي إلى خشبة مسرح يتحرّك فوقها بطل وحيد منفرد داخل زوبعة من الغضب؛ كتلة من الضغينة والأوجاع والأحقاد القديمة التي لم تلتئم جراحها. رأس أجعد ووجه شاحب داكن السمرة فكأن يختلجان وعينان سوداوان صغيرتان مثل حبتي زيتون ملتهبتين وذراعان تتحركان في كلّ الاتجاهات، وتلك الرثة النحاسية للصوت المتفجر شلالات من الزعيق والسخرية. رثة زنجية بربرية موجوعة بجراح التاريخ. أوتيلو - أو عطيّل المورو - يرقص رقصة الغضب والصخب بين ركام السكاري وبقايا عساكر المستعمرات واللفيف الأجنبي الذين وقعوا مثل الحطام من الحروب الاستعمارية التي انتهت ودفعت بهم إلى عتمة الباربات الشعبية وهي ما تزال تظنّ في آذانهم بأناشيدها الحماسية المترهلة التي كانت تدفع بهم إلى شتى حماقات الدموية موهمة إيّاهم بأنها سترفعهم عمّا قريب إلى قمم مجد كونيّ بلا نظير.

- ها هو! يقول عليّ بسخرية متشفية رافعا الوسطى في وجوههم، هذا ما أخذتموه في ذلك الموقع من وراء كلّ حماقاتكم القديمة، وهذا هو ما ستأخذونه مرّة أخرى وأخرى وفي كلّ يوم مكافأة لكم عن حماقتكم.



سهراتي مع عليّ كانت شبيهة بفرجة؛ مسرحيّة متعدّدة الفصول ذات طابع ملحمي متنوع الوجوه. ضحك، عريضة، مشاجرات مبهّرة بالدعارة والفحش وألوان من البذاءات، لكنها بذاءات مرحة خفيفة ذات نكهة مستطابة، خاصّة عندما تشعشع الكوكيتلات في رأس مدام روز وينطلقان في مناوشات تحرشاتهما الطقوسيّة ومهاتراتهما الماجنة.

## الحي الجامعي العالمي

في بهو الحي الجامعي العالمي ببولفار جوردان مشهد شبيه بمهرجان عالمي حافل بالهرج والضحك والمشاجرات والمجادلات الساخنة. مناشير توزع بجميع اللغات تقريباً، ملصقات حائطية، مجلات وكتب وصور ماركس وأنجلز ولينين وماوتسي تونغ وكيم إيل سونغ وهوشي منه وشي غيفارا. مناضلون إسبان من الجبهة الثورية الشعبية المعادية للفاشية (FRAP)، ومقاتلون من منظمة الانفصاليين الباسك (ETA)، صور المهدي بن بركة المغربي وجورج حبش الفلسطيني وليلى خالد وغسان كنفاني. شباب إيرانيون بشوارب كثيفة وشعر أسود غزير مسترسل وعيون ملتمة ببريق الثورة التي على الأبواب وراء معلقات تحمل قوائم لا تنتهي بأسماء مناضلي منظمة «خلق إيران» المعتقلين أو المفقودين، أو الذين أعدمهم أعوان الـ «سافاك». بوليفيون، بيروانيون وأميريكيون لاتينيون من منظمتي «MIR» و«Topamaros». مرجل الثورة العالمية يغلي في هذا البهو. الثورة فعلاً على الأبواب.. لقد فعلت خيراً بمغادرتي تونس لألتحم بهذا الدفق العارم الذي سيهز أركان العالم عما قريب.

في الجناح التونسي لهذا المعرض العالمي للثورة تقف كوكبة من الشبان والفتيات التونسيات وراء أكداش من المناشير والنشريات المرقونة والمعلقات التي تحمل صور أحمد بن عثمان ونور الدين بن خذر

وجلبار النقاش وحمّة الهّامي وساسية الروسي وفاطمة بالعايد والظاهر شقروش ولىلى بالعايد وآخرين كثيرين تحت لافتة خط عليها بالحروف الغليظة المسطرة بعناية: «ضحايا قمع النظام الدستوري العميل بتونس»، ثمّ معلّقات إخباريّة عن نضالات الطلبة وإضرابات العمال بمصانع الضاحية الجنوبيّة لمدينة تونس: «الصوفوميكا» و«المسابك المجمعّة» ومصانع النسيج بين عروس ومساكن، الشركة القومية للنقل، ميناء تونس والمصانع الكيماويّة بصفاقس، الضيعة الفلاحيّة «الشّعال» وفلاحو سمنّجة... الثورة فعلاً على الأبواب ونحن هناك في تونس لم نكن نرى شيئاً من ذلك كله، ولا تصلنا سوى أخبار نادرة شحيحة تتهامس بها بعض الأفواه في الزوايا داخل الجامعة أو المبيت الجامعي! لقد كان فعلاً قراراً حكيماً أن غادرت تونس لألتحم بحركة التاريخ التي تغلي داخل مراحل الثورة في باريس، «لا مجاهد أكبر إلا الشعب!»، «الخبز والحرية لجماهيرنا الشعبيّة» *Frap, Frap, Frap, Guerra popular!*، بلادي بلادي ثورة ثورة حتى النصر!

هاهي باريس! باريس الحركات الثورية الكونية، لا باريس بارات سان دني حيث تتعفن داخل الصخب الخاوي والموادّ المسمومة لفضلات البضاعة الرأسماليّة تلك الكائنات البائسة التي وقعت مثل الفضلات عن جسد الطبقة الشغيلة الملتهبة بالطموحات الثوريّة. عقبه معه حقّ؛ عليّ سيموت متعقناً في قمامة البارات. أشعر بشيء من الخجل لانسيافي وراء هذيان علي عن اللذّة والمتع وبهجة الحياة ومفاتها حتى أنني أصبحت أبدي ميلا أكثر إلى السهرات الداعرة معه من جلسات عقبه وجاك، أو لقاءات الطلبة التي لا تدور أحاديثها إلاّ حول الماركسيّة اللينينيّة والتروتسكيّة والستالينيّة والماويّة والتحريريّة وطبيعة المرحلة وشعاراتها المناسبة، والعالم الثالث وحركات التحرّر،

من الجزائر إلى فييتنام وكمبوديا وكوبا، وكاسترو وشي غيفارا هوشي  
مينه وماو ورجيس دوبريه وفرانس فانون...

\*

لم يكن من السهل التعامل مع علي كما هو، بطابعه التلقائي الخام  
ومزاجه المتشنج على الدوام. أشياء عديدة في سلوكه كانت تزعجني  
وتجعلني أشعر بالحرج أحياناً وبالاضطراب أحياناً أخرى. وهناك أشياء  
غامضة أودّ لو أنّها تتضح لي.

كنت أنزع إلى نوع من النقاوة، أو ما كنت أسميه استقامة؛ ربما هي  
ترسبات التربية التي تلقيناها جميعاً منذ الصغر، وربما هو ميل جديد  
مكتسب من هاجس الانضباط الذي تفترضه التربية الثورية الجديدة التي  
بدأت أتلقاها؛ إحساس يشوش علي متعة السهرات مع علي. بدأت تنشأ  
بيننا مصادمات لأسباب تبدو تافهة، مثل خصومة لا مبرّر لها، أو  
استفزاز مجانيّ لشخص ما، أو ردّة فعل عنيفة أكثر من اللزوم. كم مرّة  
انتهت مواجهة بانصرافي عندما يبدي تعنّناً لا مجال معه للمجادلة. وكان  
في كلّ مرّة يرّد بأسلوبه المكابر المتعنّت: «كلّ واحد يعرف ما يصلح  
به». أو «أنا هكذا، أعجبك ذلك أم لم يعجبك!»

أعود إلى الحي الجامعي لألتقي من جديد بالشباب المتحمسين ليل  
نهار لقضايا الثورة والاشتراكية والعدالة الاجتماعية والمساواة. أنغمس  
من جديد في النقاشات التي لا تنتهي حول الماركسيّة اللينينيّة والصراع  
الطبقي، وطبيعة التناقضات التي تشق مجتمعات العالم الثالث، طبيعة  
المجتمع التونسي، مسائل الاستراتيجية والتكتيك الثوري، كتابات لينين  
وماوتسي تونغ: «ما العمل؟»، «الدولة والثورة»، «الديمقراطيّة  
الجديدة»، «في التناقض»...

«كذب وهراء!» يقول علي مستهزئاً.

ربما لم تكن ادعاءاتنا خالية من الكذب فعلاً. ربما كنا نكذب على أنفسنا في المقام الأول، ونحن ندعي أننا هاجرنا من أجل مواصلة الدراسة في مأمن من القمع - ومن أجل النضال. كان لا بد لنا من عذر ما أمام ما بدا لنا آنذاك فراراً وخيانة لبقية أصدقائنا ورفاقنا المصريين على البقاء والصمود. كنا هاربين إلى الضوء، هذا صحيح. لكن من أجل حريتنا الخاصة وامتعتنا الخاصة أولاً وقبل كل شيء، ومن أجل رقعة أرض ملائمة لحماية العود الرقيق لحريتنا التي بدأت براعمها تبرز خجولة مثل حلمتي صبية لم تتحولا بعد إلى نهدين. مددنا المتيسة على القهر والممنوعات الكثيرة كانت تضيق بنا. في رؤوسنا وفي قلوبنا تصهل الآن أفكار وأحلام وردية. خطانا كانت أوسع من المدن المزيّقة لبلياليها الساكنة سكون الموت ونهاراتها القاحلة. كنا نريد أن نتهيج مثل شباب العالم كله، أن نطيل شعرنا دون أن ينعتنا الناس بالمخثثين وتأخذنا كبسات البوليس ليُحلق شعرنا في مراكز الشرطة ونخرج من هناك برؤوس كباش مجزوزة. نريد أن نلبس ما نريد، أن نصرخ بأصوات زاعقة تلعلع بالحرية، أن نقبل صديقاتنا على مدارج الجامعة وفي المقاهي والحدائق العمومية، وأن لا نضطر للجوء معهن إلى ظلام قاعات السينما كي يضع الواحد يده في يد صديقه أو حبيبته. وإذا ما تساهلت الجميلة مددنا اليد إلى ركبته وقلوبنا تكاد تخرج من صدورنا. كنا نريد فتيات لا يصفعننا لأن يدنا تجاسرت أكثر من اللزوم، لا غير راغبات بدورهن، بل متمنعات كي لا تصيبهنّ من بعد صفعات أشدّ إذا ما تساهلن وراجت حولهن الأقاويل وغدت لهن سمعة القحاب. كنا نريد أن تتمدد تحت الجسور - وليس لمدينتنا جسور ولا نهر أو قنوات مائية على أية حال، ولعل ذلك أيضاً مما يزيد في بؤسها - أن نجلس

متحلقين في الشوارع مباشرة على الرصيف دون أن نتركنا جزمات البوليس. كنا نريد أن نمتلك الليل ونملأه صخباً وغناء ورقصاً ونكون حفل المدينة وحلتها البهيجة. لكن الليل في مدننا للكلاب السائبة والهَمَل والصوص ومن لا يطمئن إليهم أحد، بما في ذلك مدبرو الانقلابات الذين لا شيء يخيفهم أكثر من مدبري انقلابات آخرين يتحركون بين طيات الظلام. الليل فضاء الحرام؛ تفاحة الأفعى أم الغواية. كنا نريد أن نذوق طعم ذلك الحب، يا أخي! ذلك الحب الذي نحلم به بين صفحات الدواوين الشعرية وفي وحدة ظهيرات الصيف القائظة، في ليالي الخريف عندما تنضج ثمار التين تحت القمر، في الحانات عندما ترتفع أصواتنا بغناء شبيه بنحيب المحرومين. نريد أن نخبر مذاق هذا الحب الذي يؤرقنا ولا نعرفه سوى كوعد مسكر يتراءى لنا طيفه بين لحافات «السفساري» البيض للمتسوقات في شارع باب الجنائز أو باب الفلة وسوق سيدي محرز، أو متموجاً على أرذاف زميلاتنا المكتنزة داخل بنطلونات الدجينز اللعينة. نريد أن نذوق طعماً آخر لهذا الحب غير ذلك الطعم الباهت الذي نسترقه بسرعة من بين أفخاذ مومسات نهج سيدي عبد الله قش، أو ماخور la Grande Maison<sup>(١)</sup>، ونحن نرتعش بمزيج من الخوف والحرص بينما صوت البطرونة العجوز يلعلع زاجراً وهي تلوح في وجوهنا بمروحة كما لو كانت تنش الذباب: امشي وإيجا ما تُوقشي! يا لله ما تطولشي الوقفة. امشي وإيجا! ونحن لا نتوقف عن التمشي جيئةً وذهاباً في الزقاق الضيق الذي تفوح منه روائح الرطوبة والبخورات والمنّي وعرق الأتياس المتهيجة؛ عيوننا جمر على الأرذاف والأفخاذ والمؤخرات المكتنزة

(١) البيت الكبير.

للمومسات الواقفات بتبجح الشماتة أمام الأبواب أو خلفها؛ أمش وايجا، ما تاقفشي! يكبّ سعدك! داء على لونك ما ابلدك! بداية الشهر ويدنا على الجيب المكتنزة بالمنحة الجامعية التي تسلمناها للتو ونزلنا منحدر حيّ «رأس الطابية» مهرولين: الحانة أولا؛ بيزتان أو ثلاث. بعدها نتسلل باتجاه المدينة العتيقة، نغادر شارع باب البحر الواسع كما لو كنا نخرج من منطقة الحلال والمباح باتجاه أزقة الحرام الطيب؛ نفضل دوما المرور عبر نهج زرقون حتى إذا ما اعترضنا أحد من معارفنا في الطريق إلى منطقة الحرام نتعلل بالتسوق من أكداس الكتب القديمة الكثيرة التي لم نكن نمر عليها دون توقف وشراء بعض الروايات على أية حال - لكن في طريق العودة من نهج سيدي عبد الله قش عادة، لا في طريق الذهاب.

هاهي باريس ياسي محرز! كانت تلك صيحة ظفر في الحقيقة.

نجلس أمام دار موناكو بالحي الجامعي الدولي، قبالة دار تونس، ولا نتحلق أمام دار تونس - أمر عجيب! نحتمي بيرة ونغني ونتجادل ونغازل فتيات قادمات من شتى أصقاع الدنيا - أمام دار موناكو قبالة دار تونس!

هاهي باريس!

ها هي الدنيا!

ها هي الحياة!

\*

نكذب؟ قليلا أو كثيرا؟ أم نحن صادقون؟ صادقون مع أنفسنا، صادقون مع هذه المرحلة من عمرنا ومن عمر البلاد الخارجة توا من

سلطة الاستعمار ومن أزمات داخلية وعثرات لم تمر علينا دون أن تترك أثرا.

مصيبون، مخطئون، ليس ذلك أمرا مهما. نحن داخل التيار العام، نغمس رويدا رويدا في حلمنا الجميل، حلم شباب العالم كله من حولنا: نحن هنا من أجل مهمة تاريخية على غاية الأهمية والخطورة. بيت الرفيق حميد غائم بدخان السجائر، والنقاش على أشده: لا بد من تحديد طبيعة المرحلة؛ إلقاء الشعار المناسب في الوقت المناسب؛ إقرأ «الدولة والثورة» يارفيق! إقرأ «في التناقض»، «بيان الحزب الشيوعي»، كومونة باريس، دور الحركات الطلابية في مسار الثورة البروليتارية؛ العائلة، الدولة، الدين... أنسى حانات سان دني وقهقهات السكيرين وأصواتهم الملعلعة بالمداعبات الفاحشة، ومشاحنات علي التومي ونكاته الفاجرة وياقة جاكيتته الجلدية التي يرفعها وهو يعلن بنبرته الظافرة: «اللي بَعْدُو»، ويغدو مجرد تذكره صدفة شيئاً شبيهاً بذكرى قديمة يلفها شيء من الخجل والتنصل. ناقش قضايا مصيرية وأفق الرؤية يتسع ليحتضن العالم بكليته في حاضره وماضيه؛ عالم منسوج بالخيوط الفضية المتلاثة للأديولوجيا التي تهز عالم الرؤى والمعتقدات البالية برمتها، ترجها وتنفضها فيتطاير غبار أوهام التاريخ عن جسد الحقيقة الناصع، ويبرز وجه المستقبل ضاحكاً متوهجاً بالثورات الشبيهة بأعراس كونية ضخمة تهز عرش الأكاذيب والأباطيل والاستغلال والقهر وتضع مكانها عرش العدالة والأخوة والسلام. نمرح مرحاً سيقوِّض العالم ويقلب الدنيا رأساً على عقب. أليس ذلك حلمنا الأعلى؟ أن نعبث بالدنيا ونبعثر جديتها الزائفة؛ لعبة شيقة وخطيرة، تماماً كما يود ويتمنى كل طفل. ونحن ما زلنا على أية حال أطفالا، أو أننا في أغلب الحالات



نسترد ما سرق من طفولتنا. نعبث إذن بحرية، نتقم في هذه الفسحة من كل السلط التي قهرتنا وزجرتنا وحرمت طفولتنا من العيب. الحرية مطلبنا الأول، - قبل الخبز؛ «الخبز والحرية والكرامة الوطنية» يرفع التنظيم شعاره الجديد، لكننا في أعماقنا نود لو أننا نرد عليه هاتفين: الحرية قبل الخبز. موكب الحرية الكوني يمر بالقرب منا صاحباً هازجاً، ونحن لا نريد أن نكون متفرجين. أجل نريد أن نعبث، نطمح لتأسيس مملكة المرح الكونية: «يا عمال العالم اتحدوا!» لا يا رفيق، بل: «يا عمال العالم، ويا شعوب العالم وأمه المضطهدة اتحدوا!» هكذا أدخل الرفيق ماو تعديله الموافق لطبيعة المرحلة التي لم يكن لماركس وأنجلز أن يتشوقا تطوراتها، إنها مرحلة الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية. إقرأ في التناقض يا رفيق! إقرأ الديمقراطية الجديدة يا رفيق! إقرأ الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية يا رفيق!

عندما أكون قد حزمت أمري واتخذت قراري النهائي الصارم بعدم العودة إلى تلك الأنفاق المظلمة المقطوعة عن حركة التاريخ، يبرز لي علي من جديد. مثل شبح طالع من عتمة ماض بعيد.

- «يا هزاب، يا نكار العشرة!»

لا يرتمي بالأحضان مثلما يفعل الناس عادة عندما يريدون التعبير عن فرحتهم، أو عن عواطفهم المبالغ فيها في أغلب الأحيان. أحياناً لا يمد حتى يده للمصافحة. ثلاث كلمات مقتضبة: «يا هزاب! يا نكار العشرة!» وأحياناً كلمة واحدة: «ها الغيبة؟» ثم يسحبني من ذراعي كما لو أن شيئاً لم يكن. نخرج فوراً من ضوضاء الحي الجامعي باتجاه محطة الميترو الذي سينقلنا إلى سان دني من جديد، كما لو أننا كنا في نزهة قصيرة كان عليها أن تنتهي. أحياناً يضيف: «جانيت تسأل عنك!» أو

مدام روز سألتني كم مرة: *Mais où il est le petit jeune homme?*<sup>(١)</sup>، ثم يضيف ضاحكًا: أصبحت لك عشيقات في سان دني هه! ما لك وهراء هؤلاء الطلبة الذين فاتهم القطار؟ الثورة لا تصنع في بهو الحي الجامعي ولا في الغرف الضيقة لبيوت الخدم المعلقة في الطابق السابع. تعال اغسل دماغك بشيء من البيزة والكونياك ودع مادام روز تفرح برويتك. إنها مشتاقة إليك.. ماذا فعلت معها يا حلوف؟

---

(١) أين هو ذلك الولد اللطيف؟

## وجه آخر لفونطوماس

يوم الأحد ينزل على غير عادته مبكرًا إلى الشارع حيث تنتصب السوق الأسبوعية في ساحة الكنيسة وما حولها. وغالبًا ما يكون قد نام بما فيه الكفاية لأنه لا يخرج من بيته يوم السبت ولا يسهر في البارات. يردد لنا دائمًا إنَّ يومي السبت والأحد هما أفسد أيام الأسبوع على الإطلاق، وهو منذ أن غادر المصنع الذي اشتغل داخله أكثر من سبعة عشر سنة، وانزوى في بيته يتعلّم الرسم قرّر أن لا يسهر يوم السبت إلا في بيته. «اليوم ينزل كلّ خراء المصانع والإدارات والمتاجر إلى الشوارع والبارات»، يقول لنا وهو يرفض مرافقتنا.

يخرج مبكرًا يوم الأحد بعد أن يحلق ذقنه ويسرّح شعره بكلّ عناية ويتعطر وهو يقف طويلًا أمام المرأة، لأنه في يوم الأحد يشارك الرفاق الفرنسيين بيع الجريدة الثورية لحزب «الجبهة الحمراء» وتوزيع المناشير. انضمّ علي إلى حزب «الجبهة الحمراء» الفرنسي وهو لا يعرف حرفًا واحدًا من إديولوجيته، وإلى حدّ اليوم الذي انقطعت فيه عتي أخباره نهائيًا لم يقرأ ولو كلمة واحدة لماركس أو أنجلس أو لينين وماوتسي تونغ اللذين ظلّ لمدة سنة تقريبًا يعلّق صورهم في غرفته، بينما كان يرفض وضع صورة ستالين بالرغم من احتجاجات رفاقه ومحاولاتهم العديدة إقناعه بأنه بطل الاشتراكية وأب البروليتاريا العالميّة. كان يجيبهم: «شواربه لا تعجيني» ويغلق باب الحوار.

لم تكن تلك الصور من رسمه الخاص. يرفض رسم البروتريهات لأي شخص كان، ولا حتى كارل ماركس الذي يبدي افتتاناً كبيراً بلحيته الكثة المتهيجة. وكثيراً ما طلب منه الرفاق أن يرسم لهم صور آباء الثورة الاشتراكية على الملصقات واللافتات، لكنه كان يردّ طلبهم دوماً بلطف متعللاً بأنه لا يجيد سوى الرسم التجريدي الذي يمنح هرج روحه متنفساً على حدّ تعبيره.

ليست هناك لوحة واحدة من رسوماته تجسد شيئاً محدّداً. لا وجوه، لا أجساد، لا أشجار ولا حيوانات، بل أشكال تجريدية مبهمّة موغلة في التشابك والتداخل. علي يقذف بالألوان فوق بعضها كما اتفق، ويدع أمر تشكّلها للصدفة. طبعاً إنه يعدّل بعض الأشكال، يكتفّ لونها، أو يغيّم شكلاً قد يبدو ملحقاً في حضوره. عندما يبلغ التداخل والتعقيد درجة من الإبهام يصبح معها من المستحيل على أيّ كان أن يتعرّف داخلها على شيء محدّد، يرمي بالفرشاة، يشعل سيجارة ويفتح زجاجة بيّرة، ثم ينسحب إلى الورا ويظلّ يرمق رسمه بشيء من الرضا يداخله نوع من التشقّي. كأنه يستأنس في تلك اللحظة لأخطبوط الألوان والأشكال الذي بلغ درجة من التعقيد والغموض تضمن له التصدي لكلّ محاولات اقتحامه، أو لعله لا يدرك شيئاً مما يبحث عنه إلا في بلوغ درجة قصوى من التعقيد والتداخل والغموض. ربما لم يكن ذلك غموضاً إلا في أعيننا نحن الذين ننظر إلى اللوحة من الخارج.

رسوم علي تماماً مثل صمته المبهم الذي يتلبس به في بعض الأحيان. أو هي مثل حالات تهيجه العنيف وفورات غضبه الصّاعق الذي يغطّي بدويّه وسبابه اللاذع عري روحه الذي يمكن أن يفتضح في لحظة ضعف طارئة ويكشف عن هشاشة ليّنة طرية، طفولية حدّ الانكسار.

لوحاته تبدو لي مثل ستارات من الألوان الصاخبة يسحبها فوق روحه التي تضجّ بشغبٍ غامض. لكنّها ستارات فاضحة، إذ فوقها بالذات ينشر شغب روحه وفوضاها ألواناً صارخة بعنف يكاد يمزق الورقة. أنا لا أرسم، قال لي ذات مرة، أنا أتمرّغ هكذا، لا أكثر ولا أقل. أحياناً يخيّل إلي أنني أمدّ رجلتي في الشمس وأظلّ مُستلقٍ وذهنِي بكليّته منغمس في حالة شبيهة بالنوم؛ بين نوم ويقظة مع تواتر شظايا من أحلام. ليست أحلاماً بالمعنى الحقيقي - كيف أفسّر لك ذلك؟ شظايا، ومضات، شذرات مثل تلك التي تنداعى في القيلولة، أو في الصباح إذا ما مدد الواحد فترة تكاسله أكثر من اللزوم. لا أرسم، بل أتسكّع... الألوان؟ المقادير والتناسق؟ لم أفكّر في هذا الأمر أبداً! يا أخي أنا لست رسّاماً كما قلت لك. ثمّ مالك تسألني أسئلة عجيبة هذا اليوم؟ جرّب بنفسك وسترى.

علي مثل فونظوماس، يتلخّص فنّه أو براعته في إيهام الآخرين بأنّ فنّاعه هو وجهه الحقيقي. لذلك كنت أشكّ دوماً في مراوغاته وطرق تستره المتنوعة. لكنني أعرف أيضاً أنه لم يدخل أية مدرسة للفنون ولم يتعلّم قواعد الرّسم ومقادير الألوان ونسبها وتناسقها أو تنافرهما. بل هو لم يدخل أية مدرسة على الإطلاق، وحتى القراءة والكتابة - باللغة الفرنسيّة طبعاً - قد تعلّمها بجهدهِ الخاصّ. قال لي ذات مرّة: عندما قرّرت مغادرة تلك الحفرة (هكذا يسمّي البلاد في أغلب الأحيان) قرّرت أن أتعلّم اللغة الفرنسيّة بأيّة طريقة، ولم أكن وقتها أعرف القراءة والكتابة حتّى باللغة العربيّة. كنت أستعين في البداية بطفل من تلامذة المدارس مقابل مبلغ زهيد، أو قليل من الحلوى، أو أحياناً سيجارة مقابل ساعة أو ساعتين أخلو فيها معه بكتاب اللغة الفرنسيّة الذي كانوا يتعلّمون به في المدرسة.

عندما بدا له أنه غدا باستطاعته توظيف الرصيد الهزيل ممّا تعلّمه للتعامل مع الناس في الأمور البسيطة زور شهادة مدرسيّة وتقدّم بطلب إلى ديوان التشغيل والهجرة من أجل الرحيل في بعثة عمالية إلى فرنسا. هناك اشترك في تربيص تكويني في مهنة اللحام لمدة ستة أشهر، ثم دخل عالم المصانع.

- وماذا وجدتُ هناك؟ حمير، دوابّ وخراء في خراء لا غير.

بعد سبعة عشر سنة من العمل في المصانع وعلى إثر حادث شغل خلف له أضراراً في الظهر وأعلى الورك اتخذ قراره النهائي بأن لن تطأ قدماه مصنعاً بعدها، وأن لن تلمس يده حديدًا. ثمّ انزوى في بيته الصغير مقرّرًا أن يتحوّل إلى رسّام، هكذا دون سابق تجربة أو تمرين، في انتظار منحة التعويض التي ما زالت تتلكأ داخل أروقة المحاكم، وفي ملفات المحامين والطبيب الشرعي. منذ ذلك اليوم تحوّلت غرفته الصغيرة والممرّ الضيق إلى ركام من الأوراق وعلب الألوان وقوارير البيرة، وغدت الستارة السوداء لا تراح عن النافذة الوحيدة إلاّ في أوقات قليلة وقصيرة، لينظر إلى الشارع من تحته باشمئزاز ويسبّ السماء الغائمة على الدوام قبل أن يعود إلى فرشاته وزجاجة البيرة.

\*

بداية علاقة علي مع حزب «الجبهة الحمراء» كانت في الحقيقة بسبب التقائه بجاكولين مع مجموعة من المناضلين اليساريين كانوا يوزعون منشائر أمام باب المصنع. لم يكن يرغب بادئ الأمر سوى في شيء من التحرّش بتلك الفتاة التي ناولته المنشور وهي تبسم له. ثمّ ها هي تتحدّث إليه بحماس عن العدالة الاجتماعية وضرورة الإطاحة برأس المال، وكلامًا كثيرًا عن أوضاع المهاجرين وما يعيشونه من استغلال

مضاعف، وعن ظروف سكنهم والعنصرية وغيرها. قال لها مستفزاً، أو محاولاً إنهاء ذلك الخطاب الذي راحت تجلده به: المهاجرون مسؤولون عن يؤسهم ولا أحد قد أجبرهم على مغادرة بلدانهم والقبول بتلك الأوضاع، ثم إن وضعهم المادي ليس سيئاً بالدرجة التي تتصورينها. إنهم متعودون على حياة البؤس والتقشف وذلك ما يجعلهم يختارون السكن في البيوت الخربة والغرف الضيقة أو في المبينات الجماعية الرخيصة، لأنه لا شاغل لديهم سوى توفير أكثر ما يمكن من الأموال طمعاً في أن يصبحوا أغنياء في بلادهم ذات يوم. في آخر ذلك اللقاء السريع ألحّت عليه بالمجيء إلى حلقة النقاش التي تنتظم أسبوعياً بمقرّ خلية الحزب في لاکورنييف المجاورة، وكانت تبدو متحمسة ومبتهجة للقاء ذلك العامل المهاجر الذي بدا لها اكتشافاً سعيداً سينبهر له بقية رفاقها. ولاحظ هو حماسها فقبل بالدعوة وهو لا يشك في أنها قد وقعت في شركه. ذهب إلى الموعد فوجد الجميع متلهفين للتعرف عليه، وكانت جاكليين تكاد تطير من الفرحة وهي تقدّمه لبقيّة الرفاق، ولم تخف فرحتها على علي فبات متأكّداً من نجاح قضيته. ثم انتهى الاجتماع فسأله عن مكان سكنه ورافقه بسيارة حتى باب العمارة التي يسكن بها، ثم ودّعه بحرارة وانصرفوا. في البداية أحسّ بشيء من الخيبة، لأنه كان يتوقّع أن جاكليين هي التي سترافقه وحدها، وكان ينوي دعوتها لتناول كأس في إحدى بارات سان دني. لكن ذلك لم يحدث، بل إنها لم تزد على الشدّ على يده بحرارة وهي توّدعه - تلك الحرارة الحماسية الصارمة التي تميز مصافحات الثوريين والثوريات -، تماماً كما فعل الآخرون، دون نظرة، أو إشارة، ودون أدنى تعبير زائد على حرارة الودّ الرفاقي. ظلّ لبضعة دقائق متستمرّاً أمام باب العمارة قبل أن يتحرّك باتجاه حانة مدام روز بخطى ثقيلة ومرتددة.





تضامناً ولا تغييراً ولا ثورة. يريدون الحرث وزيادة في كميات العلف،  
ليس أكثر.

تلك الأقوال لا تعجب الرفاق المؤمنين إيماناً دينياً بالدور التاريخي  
المقدس للطبقة العاملة. كانت تدخل عليهم كثيراً من الضيق والانزعاج.  
تبدو على سحناتهم علامات الضيق والتبرّم ويلف برؤوسهم شيء شبيه  
بالغثيان. بعض المناضلين الذين لم يتصلّب عود الإيمان الإيدولوجي  
لديهم بعد يترنّح، تضطرب الأفكار في داخله وترتعد، تميد وتتمايل  
مثل أغصان طرية تكابد هبوب ريح عاتية، تلتوي أعضاؤهم بشيء شبيه  
بالمغص، تتسارع دقات القلب وتضطرب الأنفاس، يكاد الواحد منهم  
ينهض كالملدوغ، يرتجّ ينتفض يهتزّ يرتعد ليهوي على ذلك المتحامل  
بصلافة على الطبقة الشغيلة وعلى تماسك النظرية العلمية، يهوي عليه  
بلطمة تلقي به على الأرض طريقاً مثل مقولة إيدولوجية رجعية تهوي  
تحت صفعات النظرية الثورية أو تحت أقدام الحتمية التاريخية الزاحفة  
على العالم والحقائق والأفكار السائدة القديمة. يودّ بعضهم أن يصرخ  
في وجهه: أنت موبوء، عقلك مسمّم بالتلوث الإيدولوجي البرجوازي  
للطبقات المهيمنة، مستلّب، متعفن، متنكر لطبقتك، عنصر عرقله  
لمسيرة التاريخ، وعليّ يتخيّل تلك المسيرة موكبا معربدا بفحش الغوغاء  
ودناءات السفلة وأطماعهم الصغيرة وحسدهم وأحقادهم وخداعهم  
ومناوراتهم الرخيصة من أجل الارتقاء ملمتراً واحداً في سلّم تراتب  
الأشغال داخل المصنع، وتزلفهم لمن هم أرقى منهم بدرجة بسيطة؛  
موكب معربد بالصراخ والتهيج والدسائس والتلاكر بالمرافق.

لكن هناك أيضاً رفاق من أولئك الذين تصلّب عود قناعاتهم النظرية  
حتى غدوا مثل الصخر الذي لا تزعزه أعتى العواصف؛ أولئك ينظرون  
من علياء شرفة قناعتهم الراسخة بمزيج من الجدّة القلقة والشفقة إلى

ذلك العامل الذي يبدو لهم رابضاً أمام أعينهم مثل ضفدعة ملقاة على طاولة التشريح في مخبر المحلل. يشفقون عليه كضحية لتأثيرات دعاية الطبقة المهيمنة؛ كائن مسمم بأفكار أعدائه الطبقيين، معاق القدرة على التحرز وبلوغ الوعي الضروري لنهوض الطبقة المهتأة لتبوء صدارة الأحداث والدفع بعجلة التاريخ الثقيلة - وعليّ يفكر بأنه سيظلّ كعامل مطالباً على الدوام بدفع العجلات والدواليب وتشغيل الآلات؛ أي القيام دوماً بالمهام الشاقة والعمل المرهق حتى ضمن هذا المشروع الذي يتظاهر بإجلاله كبروليتاري وتقديسه، ويعدّه بجنة لم يجرؤ حتى الله نفسه على وعد الآدميين بها في هذه الدنيا فاكتفى بأن لرح لهم بأشياء شبيهة بها، لكن في عالم آخر غير هذا. ومع ذلك يظلّ ذلك المستلب الملوّث بأفكار الطبقات المهيمنة في نظر الرفاق بروليتارياً تغفو في داخله كلّ إمكانيّات التغيير، لا بدّ فقط من تحريكها وإيقاظها من غفوتها. هناك عمل لا بدّ أن ينجز من أجل شحذ المعدن البروليتاري النبيل وتخليصه من الصدأ الذي علق به. سيفرك دماغ عليّ كي يستعيد المعدن النبيل بريقه. عمل طويل المدى، - وعليّ يتمنى فقط لو أنّ جاكليين هي التي تتولّى فرك وحكّ أجزاء أخرى من كيانه وسترى كيف سيتدفق المعدن الخالص بآيات أخرى ومعجزات أبهى وأكثر ألماً من زعيق ثورات العمال والفلاحين والتلوّيح بالمعاول والمطرقات.

أنا وعقبة عليّ رأي جاكليين ورفاقها في ما يتعلق بمسألة «الانحرافات البرجوازية» التي يعاني منها عليّ. كنّا مصرّين على بذل جهد مضاعف لمحاولة إقناعه وتغيير نظرتة للعالم والعمل ودورهم القيادي التاريخي. وكنّا دوماً نصطدم بسخريته اللاذعة التي كانت تؤلمنا وتثير حفيظة عقبة فينتفض متوتراً صارخاً في وجهه ثم ينصرف مقرّراً مقاطعته نهائياً.

\*

لا يغادر سان دني إلا في حالات نادرة وللضرورة القصوى، مثلاً للبحث عني عندما تطول مدة غيابي. سان دني عالمه الحميم وكلمها غادرها شعر بالضيق وبدا له العالم غريباً والبشر الذين يتحركون داخل ذلك العالم الغريب كائنات مقرفة ومزعجة. إحدى المرات القليلة التي خرج فيها من سان دني كانت عندما أتى لزيارتي في أوبرفيللي المجاورة. كنت قد وجدت عملاً في مستودع للبضاعة في أوبرفيللي، وبعد أن نمت ثلاث أو أربع ليالٍ مختلفاً داخل دغل كثيف بالقرب من Porte de la Chapelle أُلجِه عندما تسكن الحركة وتنزل العتمة على المكان من حولي، استأجرت غرفة صغيرة لا تتجاوز مساحتها ثمانية أمتار مربعة، هي في الواقع ممزّ تم سدّه بباب فتحوّل إلى غرفة داخل بنسيون حقيير ووسخ على ملك واحد قبائليّ من الجزائر. بدت لي تلك الغرفة الضيقة مثل قصر وشعرت بالارتياح وبسعادة من نزل ضيفاً في فندق فاخر أو قصر من قصور الجتّة، خاصّة بعد أن أنهكني التعب لقلّة النوم المشوش بصراخ وزعيق «الكلوشارات» الذين يقضون الليل في السكر والتشاجر غير بعيد من الدغل الذي اخترته لنفسني في ذلك المكان البعيد عن الحركة. ثم إنّ عدم توقّر أماكن للاغتسال بعد يوم عمل طويل في مستودع البضاعة قد جعلني أضيق برائحة جسدي وخفت أن يلاحظ ذلك رفاق العمل فأصبح منبوذاً ومحتقراً والحال أنني ما زلت جديداً وأغلب العمّال ما زالوا يتعاملون معي بكثير من التحفظ، بل وبشيء غير قليل من الاستعلاء والنفور، ولا يكلمونني إلا للضرورة القصوى وبلهجة أمرة جافة وعبارات مقتضبة. وفي بعض الأحيان لا يتوجهون إلي بالكلام مباشرة عندما يلاحظ أحدهم أنني قمت بخطيأ ما في ترصيف البضاعة أو في اختيار النوعيّة المحدّدة التي يشار إليها بعلامات ورموز لم أجد بعد الوقت الكافي للتعوّد عليها، بل يهرع لإعلام ناظر العمال

بنبرة ترشح بالتشفي والاستهزاء: - يا شاف، ألا تريد أن ترى ذلك الجديد إنه لا يكف عن ارتكاب الخطأ وراء الخطأ. وكثيراً ما يضيفون بنوع من شماتة مجانية: هو جديد ولا معرفة له بالعمل، لكنه لا يسأل ولا يطلب المساعدة! لكنني كلما طلبت مساعدة من أحدهم أبدى تبرماً وفسر لي الأمر بسرعة مقصودة، لا أدري إن كان المبتغى من وراء ذلك أن يجعلني غير قادر على متابعة توضيحاته حتى يتسنى له من بعد أن يقول: فسرنا له كم مرّة، لكنّه لا يفهم. أم أنه لا يريد سوى إرباكي حتى يغدو بإمكانه أن يفخر بقدراته وهو يجد أمامه واحداً عديم التجربة وأكثر غباء منه. لقد تكررت لي مثل هذه التجارب مع العمّال مرّات عديدة بعد ذلك أيضاً، وفي أماكن مختلفة؛ في مستودعات البضاعة الكثيرة التي اشتغلت فيها، في مشاغل البناء، في محطة بنزين، في ورشات تسفير الكتب، في رصيف الشحن بمحطة بيرسي، في مطابخ المطاعم حيث لا يُحتاج إلى معارف خاصة لغسل الصحون والطناجر وإعداد السلطات ... حيثما كنتَ جديداً فأنت ضحية مبجلة للعمال المتمرّسين في ذلك العمل الذي غالباً ما ينحصر في بضع حركات يمارسونها بنوع من الروتين منذ سنوات عديدة. مجيء واحد جديد غير مجرّب إلى ميدان مهارتهم وخبرتهم يجعلهم لا يفوتون تلك الفرصة التي تجعل منهم بصفة استثنائية أناساً متفوقين ومهرة وشاطرين؛ أناساً ذوي شأن. أناساً.

في يوم أحد وفي حوالي الساعة العاشرة صباحاً وأنا لم أغادر الفراش سمعت جلبة وصياحاً في مدرج البنسيون، ثم سباباً بدأ يتضح شيئاً فشيئاً. في البداية فكّرت أنه بالتأكيد واحد من الشجارات العادية التي تحدث بانتظام بين سكّان البنسيون من العمّال الجزائريين والمغاربة أو حرفاء البار الذي يوجد في الطابق السفلي، غير أنه بدا لي أن الأمر غير عاديّ في مثل تلك الساعة، لأنّ الشجارات عادة ما تنطلق بعد

الساعة العاشرة مساءً عندما يسكر الحرفاء وتحدث بينهم المناوشات، بسبب امرأة مثلاً، أو لاختلاف حول لعبة الورق التي يدمنون عليها، أو لأن جزائرياً عربياً قد شتم بربر القبائل، أو قبائلياً سب العرب. بدا لي كما لو أن الصوت المجلجل بالسباب والذي بدأ يقترب وهو يصعد الدرج غير غريب عني. ثم كانت ضربات عنيفة على الباب فنهضت. وإذا بي أمام عليّ وكان محتقن الوجه مزمجرًا شاتماً باللهجة التونسية هذه المرّة: الحمير، البغال... ألم تجد في بلاد الله الواسعة كلّها غير هذه الحفرة بين حمير القبائل؟ دوابّ. خوروطو!

استوقفه صاحب البنسيون وهو يهّم بصعود الدرج منادياً إياه بلهجة عدوانية وقليلة الأدب: إيه، إيه، وين رايح؟ أظنّ المحلّ اصطبّل بقر؟ وإذا عليّ ينفجر في وجهه كالصاعقة: هذّب لغتك يا حمار، هل أنا ثور أمامك أم عجل حتى تقول إنني داخل إلى اصطبّل بقر؟ خوروطو، يا رأس البغل!

عند مغادرتنا للفندق ناداني القبائلي من وراء البار بلهجة جافة:

*Pas de visite sans autorisation ici! Ici hôtel, pas bordel, compris?*<sup>(1)</sup>

وكان عليّ أن أستعمل كلّ ما لديّ من قوّة من أجل الإمساك بعليّ الذي كان يريد الانقضاض عليه: بورديل يا ولد القحبة؟ بورديل؟ هل نحن قحاب عند دين أمك الحزكيّة<sup>(2)</sup> العافنة يا قواد؟ ولولا تدخل رجل مغربيّ طيّب ومهذّب لما تمكّنت من الخروج به من هناك وتلافي معركة قد تسحب فيها السكاكين وتؤول إلى كارثة.

(1) لا زيارات بدون ترخيص. هنا أوتيل، ليس بورديل (ماخور).

(2) الحزكي (Harkis) لقب يطلق قي الجزائر على المتعاملين مع الاستعمار الفرنسي، أو من كانوا يشغلون وظائف في الأمن والإدارة الاستعمارية.

في مساء اليوم الموالي استوقفني القبائلي وطلب مني أن أغادر الفندق في ظرف لا يتجاوز اليومين معللاً ذلك بعدم رغبته في حدوث مشاكل في «محلّه النظيف الهادئ». ثم أضاف وأنا أهمّ بصعود الدرج بأنه على أية حال لا يرى أية فائدة في بقائي هناك فأنا لا أشرب بيّرة في البار ولا أتناول أكلا في مطعم الفندق، وعلاوة على ذلك لي أصدقاء غير نظيفين وأصحاب مشاكل.

في المرّة الثانية جاء يبحث عني في بنسيون أخرى كانت على ملك امرأة مغربيّة سميّنة وضخمة تدعى خوخة. امرأة ودودة ومرحة، ومن حين لآخر كانت تدعوني أنا وصديقي عبد لله الذي أتقاسم معه الغرفة إلى بيّرة أو بيّرتين مجاناً، خاصّة بعد أن علمت من سكّان البنسيون أو من عشيقها التونسي أنّنا طالبان وليست لدينا أموال ولا نعمل إلاّ بصفة متقطّعة وظرفيّة. عشيقها التونسي رجل في الثلاثين تقريباً، عامل مهاجر من بلدة السرس بالشمال الغربي التونسي، وصديقي عبد الله من بلدة الدهماني المجاورة. كان فخوراً بابني بلده اللذين يدرسان في جامعة السربون، وكان يشدّد دائما على كلمة «الساربون» كلّما قدّمنا سواء لخالتي خوخة - هكذا رحنا ندعوها أنا وعبد الله - أو لبقية الحرفاء وأغلبهم من التونسيين هم أيضاً - وغالباً ما يستوقفنا ليدعونا على كأس ثمّ إثنين وثلاثة، ثمّ يتداول على استضافتنا بقية الحرفاء وأغلبهم من التونسيين، ولا نصعد إلى غرفتنا إلاّ بعد أن نكون قد فقدنا القدرة على الكلام والحركة، ونحن على أية حال غير مدزّبين بعد على الشراب بحسب الوتيرة السريعة لأولئك العمّال المجزّبين. في بنسيون خالتي خوخة كنّا نشعر بأنفسنا في بيتنا وفي بلدنا، وقد ارتحنا لجو الألفة وللدعابات والنكات والحكايات التونسيّة المألوفة لدينا علاوة على التقدير الذي كنّا نحظى به كطالبين في جامعة السوربون. كنّا على ما

يبدو شيئًا شبيهاً بالعزاء بالنسبة لأولئك العمال الأتيمين أو شبه الأتيمين المنحدرين من أرياف المغرب العربي والذين لا يعاملون خارج بنسبون خالتي خوخة إلا كآلات لتنفيذ وظائف حقيرة وسخة ومرهقة كالتنظيف والحمل والرفع والدفع والجرّ ممّا لا يتطلّب أيّ اختصاص أو معرفة أو إتقان، لا يخاطبهم الناس إلا للضرورة القصوى، وفي أغلب الأحيان بأسلوب زجري وجمل مقتضبة مكسّرة وباستعمال صيغ فعلية لا تعرف التصريف: *pousser, nettoyer, enlever, débarrasser, plus vite* <sup>(1)</sup>...؛ صيغ تسمي الأشياء والحركات والوظائف دون اعتبار للفاعل الذي يقوم بتلك الأفعال؛ آلة تنفيذ يغدو ذلك الكائن لا فاعلا أو كائنا بشريا متحرّكا بنفس وإرادة وشخصية. وأحيانا لا ينادونهم حتى بإسمائهم بل ب: أو، أنت هناك... يستبطن الغريب بموجب تلك المعاملات غربته كعنصر جديد قد انضاف إلى شخصيته التي يمارس عليها يوميا فعل البتر والإقصاء. يغدو الدور الذي أعطي له داخل ذلك الوسط، والوظيفة المحددة التي عليه تنفيذها هما العنصران المحددان في شخصيته. شخصياتهم العادية يخلعونها في صبيحة كل يوم مثل لباس مدني لا يصلح لذلك الدور الجديد الذي غدوا يلعبونه هناك، ينسلخون من جلدتهم الحقيقية بمرارة ولا يعودون إليها إلا عندما يرجعون إلى بيوتهم أو داخل بارات المهاجرين حيث يتلاقون من جديد بأسمائهم وملامحهم ولغتهم وتاريخهم وحكايات وأخبار بلادهم وذكرى عائلاتهم وأصدقائهم وبراعتهم في لعبة الورق، وشطارتهم في التهكم والسخرية والتحرش ببعضهم البعض. هنا، وهنا فقط يعودون إلى أنفسهم، أو تعود إليهم أنفسهم، فإذا هم أشخاص مكتملو الشخصية من جديد. كئا، نحن

(1) ادفع، نطف، ارفع، امسخ، أكثر سرعة...

الطالبان اللذان نتقن اللغة الفرنسيّة مثل أبناء الفرنسيّين وندخل الجامعة ونجلس إلى الطلبة الفرنسيّين وناقشهم ونجادلهم في المعارف والعلوم، ويسمينا أساتذة الجامعة بأسمائنا ويستمعون إلى كلامنا وآرائنا ولا يكلفوننا بكنس قاعات الدروس، كنا بالنسبة لأولئك العمّال عزاءً ومصدرًا لشيء من الفخر وبلسمًا على الجرح الذي تنزف به أرواحهم. صحيح أنّ من بينهم من كان ينظر إلينا كمحظوظين، بل وفي بعض الأحيان كعلامة على انعدام العدالة، وكان وجودنا كثيرًا ما يذكر البعض منهم بالغبن الذي لحقهم في عمليّة تقسيم الحظوظ والأرزاق. وهناك من كانوا يشعرون بالحرّج أمامنا، بل وبالحسد وشيء من الضغينة، وكان عليهم أن يمارسوا تلك المشاعر وينتقموا لأنفسهم المغبونة بافتعال الترفع والاستعلاء وتعتمد إذلالنا والسخرية من زعمنا أنّه بإمكاننا أن نباري أبناء الفرنسيّين في طلب المعرفة. وهناك حتّى من كان ينصحنا بنبرة لا تخلو من السخرية التي لا تكاد تخفي حسرته وضغينته، بأنّه من الأفضل لنا أن نترك تلك الأوهام في التشبه بأبناء الفرنسيّين ومحاكاة مطامحهم، وأن نقرّ بحكمة وواقعيّة بالدور والمصير الحتميّن اللذين لا مقرّ لنا منهما. أن نترك الجامعة وأوهامها ونبحث لنا عن عمل نكتسب منه خبرة ونكسب منه مالا قد يعود علينا بالمنفعة أكثر من تلك الأوهام. وكان بعضهم يتعمّد حتّى إهانتنا بدواعتنا إلى الشراب على حسابه من باب إبداء شفقة مفتعلة؛ صدقة يسحق بها القويّ كائنًا معدما وضعيفًا. هناك من لا يكتفي بالتلميح، بل يفصح بتلك الشفقة المفتعلة - شفقة انتقاميّة - ويصرّح بها بنبرة انتصارية: كأس بيّرة لهذا الطالب المسكين! أعط هذين الطالبين الفقيرين ما يريدان على حسابي. أحيانًا أضطرب وأتململ، وأريد أن أردّ بعنف كما لو كنت أسعى للتخلّص من عبء تلك الإهانات المقصودة، وأحيانًا أقسم بالأأضع رجلي بعدها أبدًا في



هذا البار المليء بالأوغاد، لكن صديقي عبد الله يلكنزني ويهمس لي :  
أشرب واسكت، إنهم مساكين. بعدها يسعى إلى إقناعي بأنهم أناس  
طيبون لكنهم أميون ومساكين تسحقهم العنصرية واستعلاء الفرنسيين  
وعدوانيتهم، فلماذا نحرّمهم من تلك الفسحة الصغيرة التي يعودون فيها  
إلى ممارسة كبريائهم التي يسحقها العالم من حولهم في كل لحظة؟  
ويقول لي إننا فعلاً محظوظان بالقياس إلى ما حرمتهم منه الحياة، وأنه  
لا يحقّ لنا أن نسحق ما تبقى فيهم من كبرياء باستعلائنا واعتدادنا بأنفسنا  
ووضعنا الاجتماعي.

صديقي عبد الله الذي لم تكن لديه ادعاءات إيدولوجية كتلك التي  
كان ينتفخ بها رأسي كان في الواقع أكثر حكمة وأكثر إنسانية مني  
وأرهف حساً - لعل مرّد ذلك هو تلقائيتته التي لم يلوّثها بخار الأفكار  
والنظريات - . كان يرذد لي دوماً بنبرة فيها الكثير من الإحساس الإنساني  
والصدق: إنّها معادلة بسيطة يا «رفيق»، كلّ يجد حسابه فيها؛ نحن  
نشرب مجاناً وهم ينبسطون وتعود إليهم ثقتهم في أنفسهم كرجال. ما  
الضرر في ذلك؟

لعلّ عبد الله على حق. أقول لنفسي وأهدأ.

المهمّ هو أننا واصلنا قبول الدّعوات المستمرة، وفي الأحيان القليلة  
التي كنّا ندفع فيها حسابنا بأنفسنا كانت خالتي خوخة لا تتسلّم منا سوى  
نصف المبلغ بدعوى نصف تعريفه للطلاب. وكنّا من جهتنا لا نبخل  
على الحرفاء بترجمة وثيقة أو تحرير رسالة أو مرافقة إلى مكتب التشغيل  
أو الضمان الاجتماعي، إلى أن جاء عليّ ذات يوم وتعكّر كلّ شيء  
فجأة.

لم نكن هناك يومها، وبما أنه لم يكن لغرفتنا مفتاح فهي لا تقفل

أبدًا، ونحن ليس لدينا على أية حال ما يستوجب غلق غرفتنا بالمفتاح عدا بعض كتبنا ودفاترنا وملابس قليلة متواضعة. لذلك كانت خالتي خوخة لا تسمح لأبي غريب بالصعود إلى الطوابق العليا حيث غرف المؤجرين، فكان على علي أن ينتظر داخل البار. ثم سئم الانتظار فخرج، ثم عاد وانتظر، ثم خرج وعاد وخالتي خوخة تجيبه دومًا أننا لم نعد بعد. سأله أحد الجالسين في البار إن كان تونسيًا فتوتر وكثر وأجاب: لا، موش تونسي. - جزائري؟ - لا. - مغربي؟ لا، وسييني من الأسئلة يا سيد، هل أنت بوليس؟ وصعد في الفضاء توتر غير معهود في محلّ خالتي خوخة. ثم، لسبب أو لآخر تراءى له أنني بالتأكيد في غرفتي، وأن صاحبة البنسيون تكذب ولا تريد أن تتركه يراني كي تستبقه أكثر في البار من أجل مزيد من استهلاك البيرة. طلب منها أن تسمح له بالصعود فرفضت، وألح فكشرت واحتجت ودافعت عن نفسها بأنها ليست كذابة، وأفهمته بأنها لا ترغب كثيرًا في بقائه هناك بعد أن لاحظت توتر الجو بسبب جفوته وحدة مزاجه، وخاصة بعد أن خاطبها بنبرته المستعلية الساخرة ب: يا بطيخة (عوضًا عن خوخة). ثم كان الانفجار عندما اقترب منه صديق خوخة وطلب منه أن يلزم حدوده أو يغادر المحلّ، لأن لا أحد يرغب في مشاكل هنا. تدفق سيل السباب والشتم: خوروطو، حمير، بقر، لصوص ومقامرون، قوادو عاهرات، مخبرو بوليس، وما الذي يهتمهم إن كان تونسيًا أو يهوديًا أو خرية؟ متطفلون، وكلاب سوق...

\*

علي لم يكن عاملاً مهاجرًا مثل الآخرين. صحيح أنه غادر البلاد فرارًا من حياة الفاقة والعطالة، لكنه عندما شرع في تعلّم اللغة الفرنسية مع بعض أطفال المدرسة، أو وحيدًا في زاوية من مقهى أو في زنقة

منزوية، كان يدرك بوعي أنه قد شرع في تجسيد الخطوة الحاسمة التي ستقطع كلّ الجسور مع ماضي حياته وحاضرها. كان يعرف أنه لن يكون مهاجرًا من أجل لقمة العيش، بل فارقًا نهائيًا، وأنه مقبل على حياة أخرى يريد لها قطعة تامة مع ما عاشه إلى حدّ تلك الساعة. لذلك رفض منذ اليوم الأوّل من وصوله إلى فرنسا أن يكلمه الفرنسيون بلغة فرنسيّة «مكسرة» غير مستقيمة مثلما يفعلون مع بقية العمّال من الأجانب في العادة. ظلّ يرفض ذلك ويحتجّ بشدّة مؤنّبًا مخاطبيه: إن كنتم لا تحترمون لغتكم فمن سيحترمكم إذن؟

تعلّم الفرنسيّة بسرعة فائقة وصار يتقنها بطريقة قلّما تجدها حتى لدى الكثيرين من عامّة الفرنسيين. لم يتعلّم فقط لغة المصنّع والمعاملات اليوميّة العادية، بل راح يبحث عن عباراتها المنتقاة وتراكيبها الأنيقة والمعقّدة أحيانًا، والاستعارات البعيدة وأساليب التلميح والتضمين حتى غدت لعبة شتيقة لديه بمقتضاها يزجر ويقصي ويصدّ ويسحر ويستدرج ويبهز. وأنا إلى حدّ الآن لم أستطع أن أعرف كيف وأين تعلّم تلك اللغة الراقية والمعقّدة في أسلوبها في بعض الأحيان. قال لي: في البداية كنت أقرأ كلّ ما تقع عليه يداي؛ صحف البولفار التافهة والمجلّات الأسبوعيّة وأوراق الدعاية والمناشير السياسيّة التي توزّع أمام المصنّع وفي الشوارع. أما الآن فأنا لا أقرأ غير صحيفتي لبييراسيون وشارلي هبدو وأحيانًا لوموند، غير أنّ هذه الأخيرة تبدو لي ثقيلة ومملة، بينما شارلي هبدو بأسلوبها الساخر الممتاز ووقاحتها تعجبني أكثر. أشعر أنّ هناك أناسا أذكيا حقا، لا لكونهم يستطيعون إلقاء المحاضرات الطويلة المعقّدة، مثلك أنت، بل لأنهم فقط يقعون بصفة عفويّة مرحة على مواقع الغباء لدى هؤلاء الذين يدعون الجديّة، ثمّ يكشفون ذلك الغباء بطريقة ساخرة

لاذعة لا تراعي أي شيء، وهكذا يحولون كلّ الحماقات والأكاذيب والادعاءات إلى مهازل وسخریات.

غدت اللغة وسيلته المحبذة في التحصن باحتقار واستعلاء واتخاذ مسافة تجاه «الحمير والدواب»، أو «الهوش» و«الخوروطو»، حسب عباراته المبجلة. فسحته التي يمارس داخلها وجوده على الوجه الذي يبتغيه؛ يكرّز بها ويفرّ، يفتح أبواباً ويغلق أخرى. لغة التفوق الذي ينشده والارتقاء من منزلة «بغل الحراثة» إلى مرتبة المواطن مكتمل الحقوق.

## الدوامة

دخلنا الجامعة مذهولين، خجولين ومترددین شيئاً ما في البداية. ثم بدأنا تستأنس إلى الوضع الذي كنا نتصوره غريباً وقد يكون مخيفاً. لماذا يمكن أن يكون مخيفاً؟ لا ندري. ربما كنا نحمل خوفنا مترسباً في قاع الروح: اليوم الأول في المدرسة الابتدائية ذات سنة بعيدة، صوت الصفارة التي أيقظتني من بهتتي، الوقوف في الطابور زوجاً زوجاً أمام باب الفصل، المعلم الذي يقف مثل تمثال في كسوته السوداء، قفوا! أجلسوا! ثم ذلك اليوم الأول الآخر في المعهد الثانوي: الساحة الفسيحة، القيمون المتركضون يرتبون صفوفنا الكثيرة ملعلعين بأوامر باللغة الفرنسية في أغلب الأحيان، مدير المعهد الذي نسمع صوته مدوياً من بعيد مثل جنرال يبت الرعب في كتيبة تبدو له مبعثرة قليلة الانضباط! أصبح لنا الآن ما يشبه البيت الجديد وأصدقاء جدد. لم نعد نكرات نتدحرج في الزحام ولا أحد ينتبه إلينا. أساتذة قسم علم الاجتماع ودودون وليست لهم هيئة أنصاف الآلهة التي عرفت لها لدى أساتذة الجامعة في تونس. الطالب هنا طرف مشارك ينصت إليه الأساتذة باهتمام ولا يجعلون محاضراتهم تهوي على رأسه مثل نصوص مقدسة لا يأتيها الخطأ لا من الخلف ولا من الأمام. الدروس ليست دروساً بالمعنى التلقيني الذي اعتدناه، بل حواراً. حب المعرفة والفضول العلمي ينبثقان تلقائياً من الداخل في انسياب لذيذ يغمر الكيان كله بمتعة

دافئة وحماس متجدد للتعلّم. كُلفنا منذ الأسبوع الأوّل بإعداد ملفّات بحوث ضمن فرق صغيرة تشتغل جماعياً. كان العمل الجماعي مدخلا ناجحاً لإرساء علاقات بين أفراد لم تكن تربطهم أية علاقة قبل بضعة أسابيع. بعض العلاقات تتطوّر بسرعة وتحوّل مع الوقت ومزيد التقارب إلى صداقات متفاوتة المتانة والحميمية. ضمن مجموعة العمل تشأت وتطورت علاقتي بأن ماري. بدأت باريس تفتح أمامي بشكل مغاير. من الحيّ اللاتيني بدأت ألج المدينة الآن؛ من المكتبات ومن مقاهي الطلبة وأساتذة الجامعة. سان دني راحت تبتعد بسرعة مكوكية؛ مجرد فاصلة للعبور لاغير. مصاعبي المادية على حالها تقريباً وإن بدأت أتحمس الآن منافذ جديدة للعمل يومين هنا أو ثلاثة أيام هناك. وكلّما توسّعت شبكة العلاقات برزت إمكانيات جديدة؛ بسيطة، محدودة وغير قارّة، لكنّها هناك مثل طافيات الإنقاذ. لم يعد الجوع خطراً محدقاً. هناك في أسوأ الأحوال صديق تلتقيه في مدخل المطعم الجامعي يناولك تذكرة للغداء في انتظار أن تتحسن الأحوال وتعيدها إليه. لفافات التبغ تكاد تكون ملكاً مشتركاً بين جميع الطلبة. يكفي أن تمرّ بحلقة في الكافيتريا أو في بهو الكلية، تمدّ يدك لكيس التبغ الموضوع عادة على الطاولة وأحياناً فوق الأرض، تحيي، تستأذن، تلفّ سيجارتك وتمضي، أو تنضمّ إلى الحلقة وتدخّن لفافتك.

لم تطلب مني خوخة أن أغادر إقامتها كما فعل القبائلي الجافّ، لكنّ علاقاتي بالمتساكنين انخرمت شيئاً ما منذ ذلك اليوم الذي أطل فيه شبح علي في الفندق، ولّفها شيء من البرودة والتحفظ، فقررت أن أرحل. إلى أين؟ إلى ليال طويلة من التسكع والتنقل بين بيوت الأصدقاء.

علي! علي! أحياناً أقرّر أن أنهي علاقتي به قبل أن يخرب عليّ الدنيا

بكليتها من حولي. الطلبة التونسيون الذين بدأت علاقاتي تتوطد بهم عبروا لي مرّات عديدة عن تأفهم منه، من استعلائه الساحق وسخرياته اللاذعة والعنيفة التي لا يخفيها تجاه قناعاتهم وممارساتهم ونمط عيشهم. هناك حتّى من توعدّ بكسر فكّيه إن رآه مرّة ثانية في الحي الجامعي أو سمعه يتناول على أفكارنا الثورية التي لا تحظى لديه سوى بالسخرية والتهمك والاحتقار. بعض من الموسوسين بالمسائل الأمنية لم يتردّد في بثّ إشاعة بأنه من أعوان البوليس السري، أو أيّ رهط من الاستفزازيين الذين يعملون لصالح جهات أمنية غامضة. وبالرغم من استخفافي بتلك الأقاويل السخيفة واقتناعي الراسخ بنظافة عليّ، بل وبصحة وطرافة الكثير من آرائه رغم تهوّرهما وعجرفة أسلوبه في الإفصاح عنها، فقد صرت أشعر بشيء من الحرج لكثرة التصاقي به. أصبحت أتحاسى الظهور معه في مثل هذه الأوساط التي لا يستسيغها ولا تقبله.

أخيراً شغلتنني عنه الجامعة والدروس ولقاءات الأصدقاء الجدد والاهتمامات الجديدة. تباعدت زياراتي لسان دني. بل كادت تنعدم كلياً في المدّة الأخيرة.

\*

طالت مدة إفلاسي الكلّي وتشردي. بعد مغادرة بنسيون خوخة منذ أكثر من خمسة أشهر لم أعثر على سكن. بدأت أضجر من التنقل بين بيوت الأصدقاء. في بيوت الطلبة التونسيين هناك دوماً مكان للنوم بشرط أن تقبل بالسهرات الطويلة التي تمتدّ حتّى قبيل الفجر في نقاشات إيديولوجية وسياسية لا تنتهي؛ حلقات تضمّ ما لا يقلّ عن ستّة أشخاص، ثمانية، عشرة وأكثر مقرّفين، قابعيين، ممدّدين على

الأرض داخل عجاجة من الدخان ورائحة القهوة أو الشاي، وقلما يكون هناك شيء للشراب غير الشاي والماء، فجلسات الرفاق متقشفة، شديدة التقشف في ما يمكن أن يمت إلى المتع والرغبات والشهوات. هناك فتاة تونسية واحدة تتردد على هذه الجلسات المسائية المطولة بانتظام، هي الرفيقة زينب، تلقائية، ودودة، طبيعية وبسيطة في هيأتها وملبسها وسلوكها. فجأة انقطعت عن المجيء ولاحظنا أن ما لا يقل عن خمسة أصدقاء قد اختفوا أيضاً من سهراتنا في نفس الفترة. بعد بضعة أسابيع بدأ بعضهم بالظهور مجدداً، وراحت تتسرب بعض الأحاديث همسا بين الرفاق عن علاقات مشبوهة بين الرفيقة زينب ومنذر. تحول الهمس بسرعة إلى انتقادات مفتوحة، احتجاجات تحولت بسرعة إلى سباب واتهامات غامضة كانت تبدو لي مجانية أحياناً، أو مبالغاً فيها على الأقل. عُقدت جلسات متتالية لمناقشة مسألة العلاقات الغرامية بين الرفاق والرفيقات. جلسات تدور على نفسها وعلى نفس المحاججات لتنتهي دائماً إلى خلاصة إيدولوجية واضحة تقضي بضرورة تغليب الموضوعي على الذاتي في العلاقات بين المناضلين. التحقت بنا نزيهة ثم انفصلت عن سهراتنا هي الأخرى بعد بضعة أسابيع. تردد بين الرفاق حديث بأنهم رأوها تكثر الجلوس مع شاب فرنسي في كافيتيريا جامعة جوسيو. وقيل رأوها معا في أماكن أخرى أيضاً.

كانت هناك أيضاً أنا الشيوعية اليونانية التي تسكن الغرفة الملاصقة لغرفة حميد، وقد أصبحت تفضل قضاء السهرة معنا، تدخن صامته أو غارقة في كتاب باللغة اليونانية، أو تخط بعض ملاحظات على كنش لا يفارق ركبته. قالت إن قضاء السهرة معنا حتى وهي لا تفهم كلمة واحدة من نقاشاتنا أفضل من قضاء الليل في الاستماع إلى ضجيجنا الذي يصدع جدران غرفتها.



أخيراً أفنعت آن ماري بأن ترافقني ذات مساء إلى بيت حميد. لم تتحمل أجواء السهرة وصخب النقاشات. وبعد أن فشلت محاولتها في استدراك شيء من التواطؤ مع أنا اليونانية، ثم فشلت لمرتين في أفناعي بضرورة الخروج، نهضت فجأة، ارتدت معطفها وأخذت شنطتها وصدفت الباب وانصرفت.

التقيتها بعد يومين في كافيتيريا الجامعة فصاحت فيّ: لتذهب إلى الجحيم أنت ورفاقك الماويون الستالينيون! ريفييون أجلاف: تريدون القيام بثورة بأفكار مزارعين صينيين! أجننتم؟ هل بكم مس، أم ماذا أصابكم؟

رويت الحادثة لعلي فغرق في القهقهة وهو يستلقي على ظهره ويركل الهواء بقدميه: لأول مرة تحدثني عن شخص ذكي من معارفك! إنها على حق! إنها على حق؛ لتحيا الفوضوية!

زيارة آن ماري وخروجها العاصف ستكلفني المثل في حصة للنقد والنقد الذاتي: «أنت مصاب يارفيق! علاقاتك ذاتية، غير مبدئية. سلوكياتك مائعة ليبرالية تنقصها النقاة البروليتارية يارفيق! لا ينبغي تغليب الذاتي على الموضوعي في أي نوع من العلاقات».

- هل الحب مسألة موضوعية أيضا؟

- طبعاً، يارفيق. الحب كعلاقة ذاتية مفهوم بورجوازي رجعي.

لا بدّ من المواظبة على فرك الأدمغة وإعادة التثقيف. في كل مرة يكون هناك واحد منا موضوعاً لحصة النقد والنقد الذاتي: في دماغك الكثير من ترسبات السموم البرجوازية وعفونات التضليل البرجوازي يارفيق! اقرأ «ضدّ الليبرالية» يارفيق! هات دماغك نستأصل منه

الرومانسية والمثالية والليبرالية والأدب المائع والشعر العابث والموسيقى والسنا والمسرح البرجوازي.

بعد أن يأخذ كل رفيق نصيبه منك نقدا حازما مدعما بالمقولات الإيدولوجية، سيكون عليك أن تمارس على نفسك النقد الذاتي الذي غالبا ما يكون صارما هو الآخر، أو أنه يسعى إلى أن يكون أكثر صرامة من النقد. أن تكون أقسى على نفسك من الآخرين! أن تجعل من نفسك موضوعاً، شيئاً على منضدة التشريح، أن لا تتردد في تحريك إصبعك في الجرح المفتوح؛ تزيح بيدك الفطر العالق بدماغك، تستخرج بأصابعك الغدد والقيح ومواد كريهة كثيرة مخالطة للدم، معششة في النسيج اللطيف لخلايا كيانك كله: عفونات التربية البرجوازية، وفطريات البرجوازية الصغيرة، المفاهيم المتأكلة وترسبات الرؤى الإقطاعية والغيبية والميتافيزيقية - كثير من الزوائد والفضلات لا بد من استئصالها، اقتلاعها، إزاحتها...

قبلنا بأن نكون صارمين مع أنفسنا، أن نتعلم كيف نحاسب أنفسنا، وهذا أمر ليس سيئاً بالنهاية. نربي أنفسنا تربية جديدة. تربية بروليتارية. أعجبني الأمر، لأنني لأول مرة أجد نفسي مسؤولاً عن تربيتي لنفسي بعد أن كان الآخرون دوما هم الذين يمارسون علي تلك التربية بسلطة خارجية قهريّة. النقد الذاتي سلمني مقاليد تسيير نفسي والتحكم في عنان اندفاعاتي ونزوعاتي وميولي. أنا مرّبي نفسي، تحت إشراف التنظيم بطبيعة الحال، وبأدوات الإيدولوجيا، - لكنها إيدولوجيا اخترتها لنفسني، ولم تلق علي كفرض من طرف سلطة متعالية ما.

ومع ذلك، أجدني أتساءل بين الحين والآخر، أو أسأل رفاقي: طيب، نحن مع أن نربي تربية بروليتارية. لكن، صديقي علي، ذلك

الذي لا تحبونه وتنتقدونني بسبب صداقته، أليس عاملاً بروليتارياً؟ وعمّال مساكن مبيتات «السوناكوترا» الشبيهة بشكنات، وأولئك الذين يرفضون حتى أن يتسلموا منشورا من أيدينا يوم نذهب إليهم في السوق الأسبوعية لسان دني، هل أولئك هم البروليتاريا؟ - طبعاً، تلك هي البروليتاريا غافية تنتظر اليد والفكرة التي تحرك الوعي.

ذهبنا إذن إلى الطبقة الشغيلة لتتعرف عليها ونعايش أوضاعها وهمومها. كنا ثلاثة مناضلين من خلية سان دني شرعنا في ممارسة شعار «الالتحام بالجماهير»؛ نذهب مساء لزيارتهم في تلك المبيتات الشبيهة بشكنات، نسأل عن حاجياتهم ومشاكلهم، نحرر لهم رسائل إلى العائلة والأصدقاء وصندوق الضمان الاجتماعي وإدارة المآوي السكنية الجماعية: احتجاج على الظروف الصحية، مطالبة بتوسيع المطبخ المشترك وإضافة أماكن للطبخ وطاولات للجلوس، احتجاج على الاكتظاظ داخل غرف النوم. نحدثهم عن الاستغلال الرأسمالي وهم ينظرون إلينا بعيون حائرة ولا يفهمون حقاً مغزى وكنه مثل هذا الكلام. نحزن لتأخر الوعي الطبقي لدى أولاد بلادنا. نذكر لهم النقابات العمالية ونشجعهم على الانخراط فيها، فينظرون إلينا بمزيج من الدهشة والنفور وبتساؤلات غير بريئة تبرق بها عيونهم: «هذي مسائل تهتم الفرنسيين...» نحن هنا من أجل لقمة العيش، مالنا وهذه المشاكل؟» نفرح لأننا هنا من أجل نشر هذا الوعي وفرك أدمغة البروليتاريا الجديدة القادمة على عالم الرأسمال من بوادي وأرياف الشمال الإفريقي. ننظر إلى طناجر الأكل وقطعة اللحم الكبيرة في الصحن ونحن جائعون، أو في حالة أقرب إلى الجوع. يقول لي الرفيق زبير: إنهم يؤدون أعمالاً شاقة يارفيق، لا بد للبروليتاري أن يتغذى جيداً من أجل تجديد قوة العمل التي سيبيعها في اليوم الموالي، أو ينهبها منه رأس المال. نتمنى لهم

العافية. نحن طلبة محظوظون لأننا ندرس ونأكل بأسعار رخيصة في المطاعم الجامعية ونستلف الكتب والمجلات من المكتبات، ونشرب ونمرح على حساب هؤلاء. نقتات من فئات فائض القيمة الذي تنتجه سواعدهم. لا نحسدهم على الأكلات المبهرة وقطعة اللحم الكبيرة في الصحن، ونحن جائعون، ووجبات المطاعم الجامعية تبدو باهتة اللون، عديمة النكهة؛ أكل مستشفيات أو ثكنات عسكرية في أحسن الأحوال، وأحياناً نكون مفلسين معدمين لا نستطيع حتى اقتناء تذكرة المطعم الجامعي الشبيهة بأكل المستشفيات. نتمنى العافية للبروليتاريا ونواصل حملاتنا التوعوية وأعمالنا الاجتماعية التطوعية بأمعاء خاوية. بعضهم لا يدرك السبب الذي يجعلنا نترك دروسنا ومشاغلتنا ونأتي إليهم، هكذا، بدون مقابل! أم هل هناك جهات تدفع لكم مرتبات؟ أم... نوايا غامضة، ومآرب مشبوهة؟ هناك من يقابلنا بكثير من النفور، كمتطفلين أو كعناصر مشبوهة. وهناك من لا يقبل علينا إلا عندما تكون برفقتنا فتاة أو فتاتان.

ذات مرة حاولت مجموعة منهم اغتصاب الرفيقة النقابية الفرنسية التي كانت ترافقنا في لقاءاتنا الالتحامية، بينما آخرون يتابعون مشهد مضايقتها من وراء طناجرهم في المطبخ الفسيح ويضحكون مشجعين. كان هناك أيضاً واحد قميء بأسنان صدئة لا يحبنا ولا يخفي انزعاجه من قدومنا إلى المبيت. ذات مساء عن له أن يبدي اهتماماً بوجودنا، وفي لحظة ما اقترب مني وهمس في أذني: اشنوة يا ولد بلادي تنيكوا لوحدكم؟ لماذا لا تترك لنا هذه القحبة نمضي عليها الموسى؟ ثم تهيج فجأة وغداً أكثر عدوانية، ثم قذف بي خارج المبيت وهو يدفعني من كتفي ويشتمني ويتهددني بإعلام السفارة أو القنصلية التونسية عن أعماله التخريبية إن عدت ثانية بعد أن حاولت أن أشرح له أن تلك الفتاة رفيقة

وليست عاهرة مشاعة للجميع - كانت رفيقة تونسية هذه المرة - ؛ هل ذلك بروليتاري نقّي سيقود حركة التاريخ ويقلب وجه العالم؟ عقبة الذي يرافقي في تلك الزيارات ينفجر: أنا خدام مثلك يا بهيم. لكنني أضحي بساعات راحتي من أجل توعيتك ومساعدتك حتى لا تظل حماراً طوال حياتك! يندفع ثلاثة نحوه، يلطمه أحدهم على وجهه، وواحد يدفعه من كتفيه خارج باب المبيت.

- تفوا! تفوا! على البهايم، البقر، الهمج...

- اهدأ يا عقبة، اهدأ! ألم نأت إليهم بنية ممارسة شعار «الالتحام بالجماهير»؟ والرفيقة أيضاً تريد أن تلتحم: امرأة في ثكنة عزّاب! قطعة لحم ترمى أمام فوج من الكلاب الجائعة! طيّب يا سيدي، نحن نريد الالتحام والجماهير الجائعة تقول لنا لا التحام بدون لحم، مسألة بسيطة، أليس كذلك؟

\*

حصّة النقد والنقد الذاتي ستثبت لنا بعدها أننا نحن المخطئون، وأنني أنا البرجوازي الصغير الذي لم أحترم المشاعر الإنسانية لذلك العامل وأنني قمت بعمل استفزازي بإحضار تلك الرفيقة إلى مأواه. اقرأ «بيان الحزب الشيوعي» وتثبت في المعاني العميقة لنصّ «ضدّ الليبرالية» يارفيق! إنك ما زلت مشبعاً بانحرافات البرجوازية الصغيرة وضيق أفق تفكيرها. لا بدّ أن تنفذ عينك إلى الذهب المغمور تحت التراب والحصى يا رفيق! لا تنس أنك متخّم بالأفكار والفلسفات البرجوازية. الكتب ليست محايدة، والجامعة أيضاً.

هل سيكون علي أن أغسل دماغي أيضاً من كلّ ما أتعلّمه نهاراً في الجامعة وما أقرأه في كتب أولئك الذين لا علاقة لهم بقضية البروليتاريا

ولا يستشهدون بماركس وأنجلس ولينين وماو تسي تونغ؟ ماذا أفعل بأوغست كونت وابن خلدون وستويات ميل ومالينوفسكي وريكاردو ودافيد هيوم وهوبز وفولتير وروسو وديدرو وأرسطو وأفلاطون والفارابي والتوحيدى وأبى نواس وبشار والتمنبى وبودلير وفلوبير ودوستوفسكى وتولستوى وكامو و...؟

جواب حصة النقد والنقد الذاتى: فكر برجوازي وإقطاعى منحط! فى زبالة التاريخ جميعًا. ها هو سارتر ينبذ مقاعد الجامعات وينزل إلى الشارع مع المتظاهرين. لاحياء للمعرفة، إما فى صف الشعب والمظلومين، أو فى صف الأسياد والمستغلين والمستبدين. أنظر إلى فلاحى الصين وعمالها من الأمتين كيف لم تمنعهم الأمية من أن يصبخوا كوادى حزبية نشطة ومحركة للتاريخ. أنظر كيف يقودون اليوم جحافل المثقفين البرجوازيين والبرجوازيين الصغار إلى مشاغل العمل فى الأرياف، يعلمونهم زراعة الرز والبصل نهارًا وحفر القنوات وتجلية التراب وتنظيف اسطبلات البقر والخنازير، وفى المساء يرتلون عليهم ما تيسر من مقولات الرفيق ماو؛ يفركون الصدأ عن وعيهم ويلتمعونه ويرطبون أدمغتهم بإعادة الثقيف البروليتارى ضمن أكبر ثورة ثقافية عمالية وفلاحية عرفها التاريخ. اقرأ «فى التناقض» يا رفيق! اقرأ «الدولة والثورة» و«دع مائة زهرة تفتتح» يا رفيق!

- كلام حلوا! أحلى من العسل. لكن هل يستطيع هؤلاء البروليتاريون والفلاحون أن يقرأوا كتاب «رأس المال» ويفهموه؟ أو حتى «بيان الحزب الشيوعى»، فما بالك بالإديولوجية الألمانية أو «مخطوطات ١٨٤٨»؟

- نيسط لهم ذلك كما فعل الرفيق ماو.

البرجوازي الصغير، ذلك الضمير المستتر الملوث بشتى الأفكار البالية يهمس خلسة من بين أضلعي أحيانا، يتبرم من هذه الحملة المدمرة الشاملة. لكنني أجد لذة، مع ذلك، في هذه الأجواء المشحونة بالحماس والرغبة في التقويض والبعثرة. أكتم صوته، أخنقه، أركله ليعود إلى الزاوية المعتمة التي يلبد متكورا على هزيمته داخلها. أصبحت مداوما على حصص النقد الذاتي التي أخضع نفسي لها طوعا، في ما بيني وبين نفسي. أحتفل بانتصار وعيي اليقظ على ترسبات الرؤى البرجوازية؛ هاها! ها أنك بدأت تتعلم يا جرد الجامعات والأروقة الرطبة للمكاتب! أنتشي بفكرة المسح والنسف والبعثرة الكلية لما ظلّ لقرون عدّة يُعتبر لب المعرفة والمعنى الجوهريّ للوجود. مجمل تاريخ الفكر لم يكن سوى تاريخ سلسلة طويلة من التواطؤ مع الظالمين والمستبدين والمستغلين. لا بد من قلب النظرة من أجل اجتثاث الجرثومة، وقلب نظام الأوضاع السائدة. قلب الدنيا رأسا على عقب!

نحن أشبه بأطفال منتشين بغبطة تقويض البيت؛ سعداء لعثورنا على نظرية تخول وتشرع لنا مثل هذا التقويض الجميل، تجعله مهمة تاريخية عليها يتوقف مصير البشرية وسعادتها في المستقبل. أبناء ما بعد الاستقلال؛ الوطن يريدنا عسكريا لحلمه، عسكريا منضبطا مخلوق الشعر، مقلّم الأظافر بلا قمل وصئبان، بقمصان وبنطلونات مخاطة من أكياس الطحين الأميركي، لكنها قمصان وبنطلونات على أية حال، وزعيم البلاد يصرخ ويزعق وينادي بمجتمع جديد بلا دراويش ومتسولين ومعتوهين وقارئات كف وعرفات ودجالين: «عربي فرنجي تركي عجمي بيلطش تلطيش، محسوب الدرويش عالبورقية يعيش!»، بلا شحاذين، بلا قبائل وعشائر، بلا أولياء، بلا نذر وطقوس ومعتقدات بالية... زعيم يخطب بحماسة، يكرز للحاق بركب الأمم المتحضرة،

يتبرّم من تزايد النسل: كّفوا عن التناكح، كّفوا عن التكاثر كي أفخر بكم شعبا صغيراً لطيفاً مهذباً لا يبصق في الباصات ولا يبول في الشوارع، لذيذاً وديعاً؛ من أين لي بتغذية كلّ هذه الأفواه المفتوحة للازدراء، «شباب العلى عزّنا بالحمى...»، أطفال البلاد يدبّون الآن مثل النمل فوق الرّبي والتلال مخلوقي الشعر، غير أنيقين ولا شعبانين حقاً، لكن هناك طناجر يغلي فيها حليب البودرة الأميركية «هدية من شعب الولايات المتحدة الأميركية، ليس للبيع أو المبادلة»، يدبون فوق الطرقات، في الأحراش وفي بطون الأودية: «فوق كل ربوة مدرسة» قال الزعيم. الوقوف في الطوابير بهامات مرفوعة، تحية العلم، الاستماع إلى توجيهات الرئيس والتصفيق بحماس؛ من لا يتحمس، أو يتلكأ تلكزه المرافق، تحلق رأسه على الجلدة تقريبا، يحرم من حليب البودرة وإصبع الشوكولاتة السوداء. شباب العلى عزّنا بالحمى! نموت، نموت ويحيا الوطن! لابدمن الانضباط، نبذ التسيب وخرافات الجدات: «بالعلم والعمل فرحة الحياة!» الوطن يريد جيشاً منضبطاً لمهمات التطور والحداثة وللحاق بالأمم المتقدمة.

طيب يا سيدي كلّو حلو، زين، عال العال! لكن، للوطن الذي تتصوره أنت حلمه، ولنا حلمنا نحن أيضاً. وللوطن الذي أصبحنا نتصوره لأنفسنا حلمه. لم نعد نرغب في حليب البودرة، ولا في أن نرى إخوتنا يمشون حفاة ويرفسون في الماء والأوحال. «اقرأ يا ولدي وتعلّم واسمع كلام المعلم!»؛ قرأنا يا سيدي وتعلّمنا، حفظنا الدرس عن ظهر قلب والآن نريد أن ينصت المعلم إلينا قليلاً؛ الآن ونحن نرى الزرع قد نما وأينع، نريد وطنًا بلا جوع، بلا ملابس مخاظة من أكياس الدقيق الأميركي، وطنًا للمرح والغبطة والعبث أيضاً، وليس ثكنة لإعداد المواطنين المنضبطين دومًا والحازمين دومًا. وهذا الاستقلال الذي



صدعت أذاننا أناشيده وهتافاته المهللة قد غدا مكسبًا وطنيًا يربض بكلكله على وعينا وتضيق به أنفاسنا. بدأنا نعاف «الموت الموت ويحيا الوطن!»، قلنا لهم الشهادة فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر، كفانا موتا إذن! نريد أن نحيا، أن نعيش، ويحيا الوطن معنا إذا أمكن. قرأنا وتعلمنا، يا سيدي وانفتحت أدمغتنا على عوالم ساحرة من الآداب والفلسفات والنظريات التي لا تتغنى سوى بالحرية وبركل كلّ قديم، والنظر إلى الأمام بعيون صافية من كدر التقليد والاتباع والقناعة بما هو متحقق، الآن «تصرخ في عروقنا الدماء: نعيش، نعيش! نرنو بأعيننا إلى عواصم أخرى متهيجة بتمرد الشباب في ربيع ساخن معربد؛ شعور طويلة، لحى مرسله، موسيقى الروك اند رولز، البيتلز والبينك فلويد، جيم موريسون، جيمي هندريكس الذي يقيم حفلاته في خرابة قصر قديم بقرية ديابات داخل غابة بالقرب من الصويرة، جون فيزا وجورج براسانس وموستاكي وليو فيريه، ولفافات الحشيش التي تدور في الحفلات والمظاهرات، والحرية الجنسية وحياة الكومونات المتمردة الخارجة على نمط المجتمع الرأسمالي الرتيب. إنه حفلنا وعيدنا الموعود الذي لا نريد أن نحرم منه. فلنمرح في ساحة هذا الوطن ونعبث، ونفرت الدنيا ونبعثرها كما يحلو لنا، الآن وقد عرفنا أن أيد خبيثة وأنانية جشعة هي التي تمنع الرفاه عن الأغلبية! نتشي، نتهيج برنين الشعار المدمر الذي سيأتي على الأخضر واليابس؛ فليات على الأخضر والأصفر والأزرق لأنّ لنا رغبة في أن نعيد تصميم الوجود بأيدينا وبالألوان التي نريدها نحن.

- حذار، حذار! الأولاد ذاهبون في لعبتهم أبعد مما ينبغي، نحو أفق يهدد بالمخاطر. تحرّش أصبح يضع قيادة الزعيم وريادته موضع سؤال. ألم نقل إنه «المجاهد الأكبر»؟ الزعيم الأوحده، المناضل الأول

والأخير؟ عنده تنتهي صيرورة التطورات، وبعده يتوقف مسار التاريخ. الزعيم لا يعرف قانون الطبيعة الذي يجعل من الزهرة نغيا للبرعم، ومن الثمرة نغيا للزهرة. الزعيم ليس أبا فقط، بل راع والبقية قطع، - قطيعه. لكننا على غير هذا الرأي يا سيادة الزعيم؛ المسار متواصل، أفكار جديدة، ومنارات جديدة: غرامشي، لوكاتش، غوركي، تروتسكي، بليخانوف، سارتر... كل شيء يُقلب رأساً على عقب! أية قيمة للبرعم إن لم يزهر، وأية قيمة للزهرة إن لم تثمر. لكن لتعلم أعزك الله، أنه لن تكون هناك ثمرة إن لم تذبل الزهرة ثم تنقرض: قوانين الطبيعة قاسية يا معلّم! نراك الآن وقد بلغت حدك ولم تعد قادراً على مواصلة المسيرة معنا. أنت الآن جزء من الماضي، وعائق في طريق المسيرة.

يغلي الحماس في رؤوسنا والرفيق زبير يلعلع بصوته الجمهوري في سوق سان دني ممسكاً بجريدة التنظيم يشهرها في وجوه المارة من المهاجرين المغاربيين: «لا مجاهد أكبر إلا الشعب!» - لكن يبدو أن هذه الزهرة عنيدة، متشبثة بنفسها كزهرة، تنكر الثمرة، تنفي الصيرورة، تستنفر، تتوحش، تتحول إلى دغل أشواك؛ وسيدنا يضرب بعنف مفرط، مضطرباً برغبة البقاء وبالهلح أمام حتمية التحول والانقراض. الأب يتحول إلى أسد يفترس أشباله كي لا يكون له من صلبه عنصر النفي الذي يهدد سلطانه.

«لا مجاهد أكبر إلا الشعب!» «يسقط النظام الدكتاتوري البورقيبي!»  
 عينا الرفيق زبير تحمزان، شارباه الكئان يرتعشان، ويبتسم عندما يعلو صوته على صوت بائع الأحزمة الجلدية الذي يقف قبالة تقريباً صائحاً بصوت نحاسي رخيم:

LA BRETELLE! LA BRETELLE!.

الأب يضرب بعنف غير معهود: اعتقالات، تعذيب في أقبية وزارة الداخلية، محاكمات تُجر إليها المئات من شباب الجامعات، مدرسون وأساتذة جامعيون ومهندسون. لم يعد هناك أب وأبناء؛ ضد لُصْد: أن تكون، أو أن أكون. الأولاد يردّون بمزيد من التجذر في الضدية؛ الحقد ينمو؛ نيران العدوانية تتأجج، الأنفس تتهيج بطاقات تمرد عاتية؛ رغبة العنف؛ لا شيء أحلى من العنف؛ العنف هو الخلاص: هذا أيضاً قانون طبيعي، يا معلّم!

خَلِي الثورة تولّع نار، تولّع نار! الأب والأبناء معا يستبد بهم جنون الحرق والتدمير: لثُحْرَق المزرعة إذن! روح نيرون تستيقظ متأججة برغبة النار! الرفيق سليم يحتقن ويرغي ويزبد في اجتماع عام، يتحوّل إلى شعلة ملتهبة فوق المنبر محاطا بعاصفة من التصفيق والهتافات الطالعة من حوله: لا مجاهد أكبر إلا الشعب! الخبز والحرية لجماهيرنا الشعبية! قرأوا وحفظوا الدرس، والآن يريدون قلب المعادلة يا معلّم! الرفيق يرفع قبضته من فوق المنبر يستحثّ على المزيد من الهتاف والتصفيق؛ حركتنا مستمرة، والانتهازي على برا! ويكون هناك في القاعة مجموعة أو فريق تلتفت إليه الرؤوس كلّها بقبضات ملوّحة في الفضاء وحناجر مستعرة: حركتنا مستمرة، والانتهازي على برا! لا بدّ أن تلك المجموعة التي تلتفت إليها الرؤوس الآن هي المشار إليها بالانتهازية، لأنها تفوّتت بكلام لم يكن مؤاتياً للحماس الجماعي، نوع من التخاذل والبرودة، أو فتور يهدّد بانخرام الراديكالية والاندفاع الضروري. تلك المجموعة المزعجة هي التي تلهب الآن حماسة الجمع المتهيج الملوّح في وجوها بالقبضات والشعارات الصاخبة؛ عدوّ اللحظة، أو خصم مباشر تشحذ عليه الثورة أسنانها في انتظار الخصم البعيد الذي لا يُرى ولا يُلمس هنا مباشرة. تمرين ثوري ضروري، دربة على ضراوة النهش والخدش

والعضّ بأسنان ثورية حادة كي لا تحفى الآلة في انتظار اليوم الموعود الذي ستباشر فيه عملها القاطع. العنف الثوري ضد العنف الرجعي، هكذا جاء في الكتب التي تحض على الثورات. الزعيم يمنع الكتب التي تبث البلبلة في عقول الشباب. رقابة صارمة على الصحف والمنشورات. ها أنك بدأت تخبط خبط عشواء! كلا، العنف لا يطلع من الكتب يا معلّم: العنف وليد العنف. هل رأيت حبة قمح تنبت حسكاً؟ أو بذرة بطيخ تنبت حنظلاً؟ أو حسناء أنجبت قرداً؟ كل جنس لا يأتي ولا يولد إلا عن جنسه، يا سيّد العارفين، الزعيم الأوحده، المستنير الأوحده، الحدائي الأوحده؛ المجاهد الأكبر، أم تراك تريد أن تحتكر حماقة أيضاً، ونحن لم نلقبك بعد بالأحمق الأكبر؟

رفيق جديد نراه لأول مرة في هذا الاجتماع العام الحماسي. هائل الجثة، عريض المنكبين، برأس ضخمة ووجه محتقن، شاربان كثان وعينان تبرقان مثل أعين الذئاب. وجه تبدو عليه ملامح الشدة وليس فيه من نعومة رغد العيش أثر، يتحرك مثل كتلة من الصخر، يندفع من وسط الجمع ليقترّب من المنصة ملوحاً بذراعه الثقيلة وقبضته الضخمة في الفضاء: لا مجاهد أكبر إلا الشعب! والرفيق حميد الذي يقف إلى جانبي يلكنزي بمرفقه أن انظر يا دين الكلب! ها هي البروليتاريا الحقّ يا جرد البنائيات الجامعية والمكتبات! بينما وجه الرفيق الجديد المندفع وسط الحشد المهتزّ بالشعارات يحتقن، تبرق عيناه أكثر، تجحظان، تشتعلان، وفمه يضطرب الآن، ينفخ، ينفخ وينغلق وينفتح، شدقاه يتحركان بعصبية تظنّ أنهما يهرسان، يجرشان الهواء والكلمات فتطلع مفرقة مدوية، والرفيق حميد يعمل مرفقه في جنبي يكاد يدمر أضلعي افتنانا، غبطة، نشوة. قال إنه رفيق جديد. عامل حقيقي. بروليتاري لحما ودما. تعرف على التنظيم في أحد أحياء العمال المهاجرين، لا أدري أين

بالضبط؟ في حيّ الواذ بمدينة نيس، أو في تولوز. وافقت شعاراتنا هوى في تربته التي عجنت بشتى المعادن الصلبة والقاسية في مناطق جبلية نائية بمرتفعات الشمال الغربي للبلاد ثم صهرت وصقلت وتصلبت بعدها في مشاغل البناء بمرسيليا ونيس ومونبيلي وتولوز. بروليتاري أشعلت شعارات التنظيم فتبلا في داخله، والشعلة التي تأكله الآن تُضرم في عيني الرفيقة سامية بريقا آخر غير ذلك الذي اعتدناه من لين ورقة مزاجها البلدي الناعم.

الرفيقة سامية فتاة ضئيلة الهيئة، بحجم قطة، لكنها قطة متوثبة، نشطة، يقظة، في عينيها السوداوين حرارة بريق غريب لا يمكنك أن تميز بدقة إن هو بريق شهوانية متوقدة أم هو لهيب الحماس الثوري الصارم. عيناها فعلا جميلتان ومضيئتان، لكنها تزم على شفيتها الدقيقتين كما لو أنها تعضّ على رقّتها؛ زهرة تحاول التكر في هيئة غيضة أشواك كي تغالظ النحل والفراشات. الرفيقة سامية تقف بجسدها الضئيل الذي لا يكاد يتجاوز حجم فراشة إلى جانب الكتلة الصلبة المتقدمة حماسا، تسترق قبسا من ناره المتأججة ولا تدري أنها هي الفراشة اللطيفة الرفيقة توجب بدورها لهبا أكثر استعارا في صدره البروليتاري الضخم. تملأ عينيها من مشهد الجبل البروليتاري المرتج إلى جانبها، وتكتشف في أعماقها التي لا يعرفها أحد سواها أنها ليست دغل أشواك، بل وردة في عنفوان التفتق، وتلك اليد الخشنة التي ترتفع الآن في هيئة قبضة البروليتاريا الواثقة الحازمة، تلك اليد، هل ستتقدّم برفق أم بشدة وصرامة لتقتطف الوردة؟ الرفيقة يخزها شيء في بطن الوردة، وهي تتساءل بالتأكيد في ما بينها وبين ضميرها الثوري: هل كانت روزا لكسمبورغ أنثى؟

نشوة. شيء شبيه بحفل هازج معربد يعد بأيام مثل عرس لا نهاية له.

## العرفاوي

صباح بارد غائم، وباريس تبدو عدوانية تحت لحافها القاتم وسمائها المعتمة التي لم تعد تحظى سوى بساعات قصيرة من الضوء النهاري. خرجت من بيت آن ماري مبكرًا مقرًا العزم على العثور على عمل. أي عمل.

بيت آن ماري هو ملاذي الأخير عندما تثقل على مزاجي الجدية المفرطة للجلسات الطلابية وسهرات النقاشات الإيدولوجية، وإذا ما أردت الهروب من السهرات الطويلة في سان دني، أو تفادي النوم في مدارج العمارات الفاخرة بالدائرة الثامنة والدائرة السادسة عشرة حيث الموكيت نظيفة والبنيات مدفأة، وفي المدارج الخلفية (مدارج الخدم) حنفيات الماء للاغتسال.

برد الصباح عند الخروج. الرغبة في النوم. فراش آن ماري الدافئ. العتمة في الخارج. الزجاج المجلل بالضباب، وحتى الأضواء المنبعثة من نوافذ البنيات المقابلة؛ هذه الأشياء كلها لا يمكن إلا أن تكون إعلانًا عن أن الليل لم ينقض بعد؛ دعوة إلى العودة إلى الفراش. في مثل هذه الصباحات الباردة ليس هناك ألدّ وأجمل من أمرين: أن تعود إلى الفراش بعد أن تلقي نظرة سريعة على الشارع المعتم وتدخل بيت الحمام ثم تخرج منه وتكون قد سرث داخل الجسم كله تلك القشعريرة

التي تقول لك إنّ الجنة هي الفراش؛ أو أن تدخل إحدى المقاهي التي تنبعث منها الرائحة الدافئة المنعشة للقهوة والكرواسون وشطائر الخبز المطلية بالزبدة، ممتزجة مع غمغمات المبكرين الذين يتناولون قهوتهم السوداء مع قده صغير من الكالفادوس أو الكونياك متنحنحين أو ساعلين، وصوت آلة القهوة الذي يبدو كما لو أنه يطحن برد الصباح وجليده ويحوّله إلى نثار من الدفء. الدفء! الدفء! يا إلهي الدفء! لا بد أن أجد عملاً، لأنّ آن ماري لا يمكنها أن تنفق على أكلها أيضاً وهي طالبة مثلي وليس لها من مصدر قوت غير عمل بسيط تقوم به في نهاية الأسبوع. ثمّ إنها ستفرح بالتأكد إذا ما رأنتني أعود وفي يدي شيء من الأكل، خاصة وقد فشلت إلى حدّ الآن في إقناعي بضرورة أن أسرق من حين لآخر شيئاً من محلات السوبرماركت التي لم تكن المراقبة فيها صارمة آنذاك: قطعة لحم، زجاجة نبيذ، قارورة حليب، علبة قهوة، بعض الفواكه. فشلت محاولاتها أمام حاجز الخوف الذي كان يبرّج عظامي في المرّتين اللتين حاولت فيهما معها أن آخذ شيئاً أخبّوه في جيوب معطفي أو تحت حزام سروالي كما لقتني ذلك. بالأخير، وأمام إلحاحها وانتقاداتها واتهاماتها لي بالجنون وتحجّر الاستقامة البرجوازية، حاولت أن أقنعها بأنني من أصل ريفيّ وأنني شاطر جدّاً في سرقات البساتين والحقول وأقنان الدجاج، لكنني لم أتعلّم بعد سرقات المدينة، وأنه عليها فقط أن تمنحني شيئاً من الوقت والصبر ريثما أتعوّد على ذلك، وسترى بعدها أيّ لصّ خطير يختبئ تحت جلدتي.

أكيد أنّ آن ماري قد استيقظت عندما تسللت من الفراش ثم أعدت إحكام الغطاء في موضعه. قد تكون خرجت لبضع ثوان إلى تلك المنطقة الضبابية الدافئة الواقعة بين النوم واليقظة، وقد تكون غمغمت

بشيء كما في الحلم، غمغمة شبيهة بهرير قط في حلاوة الحلم، ثم عادت إلى النوم، بنت الكلب، وأنا أغلق الباب ورائي وأقذف بنفسي في برد الصباح الباكر...

بولفار فولتير، شارع ماجنتا صعودا ثم نزولا، ثم شارع ريبوبليك في عملية تمشيط لوكالات التشغيل المؤقت، ولا أي عمل يمكن أن يناسبني. أتوقف بين الحين والآخر في حديقة صغيرة أو أتهالك على كرسي خشبي مباشرة على الرصيف أنظر إلى المارة الذين راحوا يتكاثرون مع تقدم النهار. أناس يسرعون باتجاه المكاتب والمتاجر، نظيفون مسرّحو الشعر بعناية، السيدات أنيقات، من بين ثنايا فساتينهن ومن تحت المعاطف تنبعث روائح عطر طري منعش. العجائز يذبّون ببطء وراء كلابهم صغيرة الحجم، بعضها مكسوة بزردات من الصوف بألوان زاهية. كلوشارات متهاكون على الكراسي الخشبية يلوكون في صمت وضجر قطع الخبز بالكاممير ويرتشفون خمرتهم الصباحية نصف ناعسين؛ لم تسخن محرّكاتهم الداخلية بعد ولم يبدأوا تحرّساتهم بالمارة وخصوماتهم التي لا تنتهي، ولم يتدقّق بعد سيل سبابهم وشتائمهم. الكلوشارات من العناصر الأساسية في الديكور الباريسي. هيناتهم توحى بالبؤس والفقر، لكن لا أثر لما يمكن أن يجعلهم مثارا للشفقة. مرحون في أغلب الأحيان، وسواء كانوا يغتّون وهم يرتشفون خمرتهم من الزجاجاة التي تدور في العادة على الحلقة، أو يستفزّون المارة أو يشتمون النساء والبوليس والدولة والكنيسة، أو يتخاصمون في ما بينهم على قطعة من الجبن أو زجاجة نبيذ أو امرأة من ريفقاتهم، فإنهم في جميع الأحوال يمثلون جمعا معربدا لطيفا يغمر حضوره أجواء باريس بهالة من المرح الداعر، وشيء آخر أكثر من التسامح، وأكثر من الحرية.



لا أثر تقريبًا للشبان والفتيات في مثل هذه الساعات الصباحية الباردة المشبعة بالرطوبة. إنهم بالتأكيد نائمون، أو يتناولون فطور الصباح في لا مبالاة. لامبالاة السعداء. متشفية عدوانية بدت لي تلك اللامبالاة، مثل شماعة بغیضة مجانية.

آن ماري أيضًا تتناول الآن بالتأكيد قهوتها الصباحية بالحليب الساخن مع شرائح الخبز المحمّرة مطليّة بالزبدة ومرّبي الفراولة.

مكاتب وكالات المناولة مليئة كلّها بوجوه كثيبة معتمّة، سحنات تحوم فوقها متجاورة متداخلة متناوية تعابير التعاسة والإحباط واليأس وعدوانية باردة لا تستطيع أن تنفجر في حياة صارخة معلنة، مكتفية بالصخب الخفي الذي يأكل روح أصحابها مثل جذام خبيث؛ كواكب منطفئة منذ آلاف السنين قد هوت من مجرة الرأسمال الذي ينفض عنه بقايا البشر كما ينفض الغبار عن السجاجيد. المصانع نفسها التي تلقي يوميا بمئات العمال إلى الشارع، تطلب في اليوم نفسه مئات من ذوي الاختصاصات نفسها، لكن لأسبوع، لأسبوعين، وأحيانًا لأسابيع تظل تُمدد لأشهر عديدة. موظفو مكاتب التشغيل قليلو المرح، يجلسون وراء مكاتبهم أو خلف الزجاج الذي يفصلهم عن فيالق العاطلين عن العمل يدفعون بهذا إلى مصنع أو منشرة أو مشغل بناء، وبذلك إلى الشارع مجددًا باتجاه مكتب آخر. القصاصات المعلقة على الجدار تعلن عن وظائف وأعمال غريبة عن يديّ ومعارفي: نجار ذو خبرة، دهان محترف، سائق رافعات، كهربائيّ صناعي كفاء، محاسب ذو شهادة، ستاندارديست ذات خبرة، فزان وحلوانيّ محترف، سائق شاحنة ثقيلة مع جواز سفر صالح، مدلّكة محترفة وبشهادات خبرة، ميكانيكي، ماسح زجاج ببطاقة ضمان اجتماعي وبطاقة عمل، حارس مصنع مع شهادة في إثبات تأدية الخدمة العسكرية، اختصاصي في طلاء هياكل

السيارات... لا أحد يريد طالبا لا تحذق يده أية مهنة محدّدة، وبدون بطاقتي عمل وضمان اجتماعي علاوة على ذلك. لا مجلّي صحون، ولا بائع أو حارس ولا حتى ماسح زجاج دون خبرة وشهادات!

بدأت أمرّ بسرعة أمام مكاتب الوكالات، ألقى نظرة من بعيد وأمضي، ثم انتهيت بأن نسيت حتى مجرد الانتباه إليها. قدماي تتحركان أليا دون هدف أو تخطيط مسبق، لا أنظر إلى شيء، ولا أريد أن أنتبه إلى شيء. في رأسي تنظّ أحلام غريبة ومسليّة؛ رأيتني حارسًا لعمارة أو مصنع أو متحف، أجلس داخل بيت زجاجي صغير أقلّب كتبي ودفاتري، أرّد بين حين وآخر على مكالمة تلفونيّة، أو أفتح الباب الأتوماتيكيّ بمجرد الضغط على زرّ غير بعيد من يدي بعد أن أثبتت في هوية القادم. أحيي بحركة من يدي أو إشارة من رأسي وأعود إلى القراءة. في آخر الشهر أتسلّم مبلغًا محترمًا وأعود ركضًا إلى البيت، أرمي بالمبلغ على المائدة أمام عيني أنّ ماري المتسعتين لفرط الدهشة، نخرج للعشاء في مطعم بشارع موفتار، ومن الغد نتسوّق لنملاّ الثلاجة بالمأكولات الطازجة الجيدة. لا حاجة لها بعد الآن إلى إخفاء قطع اللحم وعلب المصبرات وقطع الجبن تحت معطفها الأسود الطويل. ذلك المعطف الذي قالت إنها اختارته عمدا طويلا وبجيوب كبيرة بهدف التسوّق، وعندما عدت مرّة أرّدي جاكيتة من تلك الجاكيتات العسكرية التي تباع بأثمان زهيدة في سوق كليثيونكوز، استبدت بها حالة من الغضب وراحت تؤنّبني لأنني لم أختّر واحدة بجيوب كبيرة على الأقلّ. بلغت الآن ساحة «بير لاشيز» دون أن أتفطن إلى ذلك. أيقظتني فجأة فرامل سيارة تسمرت بعنف بالقرب من قدمي وأنا أعبر الشارع دون انتباه إلى الإشارة الضوئية الحمراء. كادت تلك السيارة أن تدهسني وتشر في الطريق العام سلّة المشتريات وأكياس الملابس الجديدة التي اقتنيتها للتو

مع آن ماري من محل تجاري فاخر، ووجدتني أرقص رقصة الأبله مترنحًا وسط الطريق لا أدري هل أعود إلى الورا كإشارة على اعتذاري لتلك السيارة التي روّعتُ فراملها حتى زعقتُ مثل حيوان جريح، أم أتقدّم وأكمل طريقي مشيرًا بحركات مضطربة مبعثرة من يدي إلى السائق معبرًا عن اعتذاري...

بير لاشيز! ابتعدت كثيرًا. لكن فرامل السيارة أعادتني بسرعة إلى نفسي الجائعة التي تركتها قبل حين قابعة أمام أحد مكاتب وكالات التشغيل ببولفار فولتير، أو في ساحة ناسيون. شعرت بارتخاء في ركبتَي وبألم حادّ يتلوّى داخل أمعائي ويحكم مخالبه على معدتي. سأصعد الآن باتجاه بولفار بالفيل والحيّ العربي؛ قد ألتقي أحدًا من معارفي التونسيين القلائل هناك. أمل ضعيف جدًا لأنّ اليوم ليس يوم أحد والناس جميعهم في المصانع ومشاغل البناء. لكن من يدري؟ لو أنعرج شمالًا وأتوغّل في بولفار منيلمونتون ثم أدخل شارع شارونيه سأكون قد بلغت بسرعة شارع مونتراي حيث القهوة ماتزال ساخنة بالتأكيد وأن ماري لم تغادر بعد قميص النوم. لكنني لم أكن أريد العودة إلى بيت آن ماري فارغ اليدين خائبًا وجائعًا فوق ذلك. من يدري بأيّ مزاج ستستقبلني وأية خصومة ستنشأ بيننا في هذه اللحظة وأنا متعب وجائع ومبتسح حدّ الرغبة في البكاء. لن أعود إلى بيت آن ماري، ولن أذهب إلى الحيّ الجامعي، ولا إلى بيت محرز في الدائرة السابعة عشرة، مع أنّه قد يكون من المفيد الذهاب إلى هناك فقد وعدني قبل بضعة أيام بأنه سيسعى لإقناع صاحب محطة البنزين التي يعمل بها كي يمنحني حصّة يوم الأحد من حصص عمله. محرز أكثر حطًا مني. استطاع بسهولة وبمجرد صدفه تقريبًا أن يحصل على ذلك العمل من مكتب مركز الخدمات الاجتماعية للطلاب. ومن نفس المكتب أيضًا عثر على الغرفة

الصغيرة التي يسكنها الآن بشارع جوفروا بالدائرة السابعة عشرة. محرز الذي كان يصغر أمانيه (أبيته، وخديمة، وخبيزة..) نجح فعلا في مراودة الأشياء بتلك الصيغة المصغرة التي تستدرّ الحظّ ولا تفرعه.

لكن ماذا لو أنني أصل الآن إلى مكان ما في الوقت المناسب، الوقت الذي يُضيع فيه أحد ما حقيبة نقوده مثلا، قبل أن يسبقني لها أحد المارة الكثيرين؟

حافضة النقود مليئة بأوراق من صنف المائة فرنك. لم أجد بعد وقتاً للتفكير في أن ماري من جديد وفي ما سنقوم به من أعمال خرقاء، مازلت منهمكاً في عدّ أوراق الحزمة الكبيرة التي تكاد تفلق جلدة تلك الحافضة السوداء، ويبدو أنني لم أكن حذراً بما فيه الكفاية أو متستراً، إذ لا يصحّ أن يخرج واحد حقيبة نقود مليئة، هكذا في الشارع الذي يعجّ بالمارة ومن بينهم اللصوص المحترفون والمحتالون من كلّ صنف، خاصة هنا في هذه الزاوية المزدحمة لتقاطع بولفار بالفيل وشارع فوبورغ دي تومبل. شعرت أنّ أحداً قادماً من الاتجاه المعاكس قد تلكأ في مشيته وهو الآن ينظر إليّ، أو إلى حقيبة نقودي المفتوحة. يبدو أنّه وهو يتجاوزني ما زال يدير رأسه، أو لعله قد توقف متفكراً في الطريقة التي سينقضّ فيها على حافضة النقود السمينة التي لم أجد بعد الوقت لإخفائها في الجيب الداخلي للجاكيت. التفتّ فرأيت الرجل واقفاً ينظر باتجاهي. كأنني تعرّفت على بعض الملامح في ذلك الوجه الذي بدا لي غريباً وأليفاً إلى حدّ ما! رجل أنيق، ببذلة رمادية فاتحة وقميص أزرق وربطة عنق زرقاء داكنة تميل زرقتها الغريبة إلى البنفسجيّ. هل هو صاحب حافضة النقود يعود أدراجه بعد أن افتقدها؟ عاد باتجاهي وهو يتفرّس فيّ. ثمّ بادرنِي: اسمح لي يا أخي. ألم تكن تلميذاً في معهد باجة في وقت ما؟ أواسط الستينات؟

- نعم، كنت تلميذا في معهد باجة.. ولم أدر ما الذي أضيفه. هناك بعض تقاطيع بدأت تطلع من غمام الذاكرة مثل ومضات.. معهد باجة.. المبيت الداخلي.. مطعم المبيت، وهناك جلبة ما بدأت تصعد داخل رأسي كما لو أنها ليست قادمة من غبار السنين المتوارية، بل من مجتمتي ذاتها، وتسارعت دقات قلبي فجأة دون سبب واضح..

- عادل! يلعن دين أصلك، ماذا تفعل هنا؟ انقضّ عليّ يضمّني بين ذراعيه الفسيحتين، وغمرني عطر الأفرشايف الممتزج في كوكتيل دافئ سعيد برائحة التبغ والكحول. تذكّرت رائحة الأب فينيال، مسيو فينولار، مسيو كازيمير.. تعال، تعال نشرب قهوة. يا للفرصة السعيدة! أما زلت تتذكرني؟ أنا العرفاوي. يلعن دين الخس. أنسيتني؟

العرفاوي! فعلا، إنه العرفاوي، وكأنه واحد آخر، لكنه هو!

العرفاوي يطلع لي فجأة وأنا في وضع من البؤس واليأس، لكن في لحظة من الحلم بتلك المحفظة السوداء المليئة نقودًا التي اختفت الآن من شاشة المخيلة وأنا أثبتت في وجهه؛ كأنه الماضي يطلع لي من عتمة الأيام والليالي شاعرا مخالب من ذكريات غير سعيدة في أغلبها. لم أنسه طبعًا. كما لم أنس عبارته الغريبة الغامضة التي يطلقها عند التأقّف كما في لحظات المفاجآت السعيدة: «يلعن دين الخس!»، وأنا لا أفهم، ولم أحاول أبدًا أن أفهم العلاقة الغريبة بين العرفاوي والخس! لكن، هذه البذلة الأنيقة! والكرافات الحريرية والحذاء اللامع! وهذا الوجه الذي لم يعد مفلطحًا داكنًا بلون الصدأ! العينان كما عرفتهما من قبل: سوداوان وضيقتان تُغمضان تقريبا ولا تتركان غير خطّين داكنين عندما بيتسم، وتلك الابتسامة الواسعة ذاتها، الأسنان الغليظة والفلجة التي تبدو كما لو أنها قد تقلّصت شيئًا ما في الأثناء. بياض أسنان العرفاوي

الآن، وابتسامته العريضة تشع بذلك المرح الذي كانت تشع به من قبل عندما تنزاح عنه الكآبة التي تتلبس به بين الحين والآخر - كآبة الفقر موقعة بتضاريس الجوع وشيء من الذعر ملتصق بالجلدة مخالط للدم والغدد، ملتحم بالنسيج الدقيق لخلايا اللحم. العرفاوي في جلدة أخرى تبدو ناعمة شيئًا ما؛ بشرة سمراء قد انزاح عنها الصدا الداكن الذي كان يعتمها في ما مضى، نوع من الطراوة التي توحى بأن دما سعيدًا يسري تحت الجلدة ويغذي الكيان بالجور والبهجة.

جلسنا في مقهى في شارع فوبورغ دي تومبل غير بعيد عن بولفار بلفيل والعرفاوي مازال يرتجني ويضمّني كما لو كان يريد أن يتأكد من أنني فعلا هناك أمامه لحمًا ودمًا وليس مجرد طيف قد طلع عليه فجأة من ليل ماضي حياته القائمة.

لا أستطيع أن أصف بالكلمات تلك الفرحة التي ارتسمت على وجهه فجأة عندما قلت له إنني هنا منذ بضعة أشهر من أجل الدراسة.

- في الجامعة؟ قال منتفضًا. أنهيت تعليمك الثانوي ونجحت في البكالوريا؟ في الجامعة هنا في باريس! ثم ارتمى عليّ يقبلني من جديد. عادل، هذه لحظة سعادة لا تشتري بالمال! بعد كل ذلك العذاب، وذلك البؤس، مبيت التضامن الاجتماعي، الوسخ، الملابس الرثة، القيمون المتغطرسون، ونظام العسكرية، والضرب على القفا وإهانات الأساتذة الفرنسيين، لاجيه الكلب وفينولار البغيض العنصري. كم مرة وددت لو ألتقي أحدهم هنا صدفة في باريس كي أبصق على وجهه وأمرغ دين والديه في التراب وخراء الكلاب!

دخل العرفاوي في حالة من الهرج وانطلق لسانه دون توقف يسبّ الماضي البائس والفقر وتجربة التعاضد الاشتراكية التي أنهكت الفلاحين

الصفار ودمرتهم، وحليب البودرة والملابس المخاطة من أكياس الطحين الأميركي: «هدية من شعب الولايات المتحدة الأميركية. ليس للبيع أو المبادلة» تحت قبضتي اليدين المتصافحتين على قماش الكيس. - تتذكر كيف طلعت لنا تلك الكتابة الشنيعة فوق القمصان وعلى مؤخرات البنطلونات بعد الغسيل الثاني؟ تلك الفضيحة التي جعلتنا مسخرة أولاد الأثرياء آنذاك!

### *NOT TO BE SOLD OR EXCHANGED*

ما زلت أحفظها عن ظهر قلب. لعله درس الأنكليزية الوحيد الذي رسخ في ذهني مثل وشم بحروف من الجمر.

تململ وهو يحدثني الآن بنظرات متفرسة متفحصة. هل لاحظ شيئاً من الرعدة التي كانت تقوّض جسدي بسبب مفعول القهوة السوداء على أمعائي الخاوية؟ رعدة الأمعاء تنحدر مخترقة نصفي الأسفل حتى الركبتين، ثم تصعد من الأمعاء في حركة متلوية مثل شريط دقيق بدأ يعصر قلبي. كنت على حافة الإغماء تقريباً. لكن ها هو العرفاوي يشير إلى الجرسون وهو يتحسس جيبه. تزدت للحظة: هل ألعب لعبة من يريد أن يدخل يده إلى جيبه ويهّم بالدفع؟ عدلت عن الفكرة وحافضة نقود العرفاوي مفتوحة الآن بين يديه وهو ينتظر أن يصل الجرسون بوصل الحساب. لا مداهنة ولا مكابرة ولا هم يحزنون. ثم لم أحاول إيهام العرفاوي بأنّ معي أموالاً؟ هل هذا ضروري؟ وهل أنّ هذا سينقذ شيئاً من شرفي وكبريائي التي بدأ يأتي عليها الجوع والإفلاس وشيء من اليأس حتى. لا فائدة من كلّ هذه المسرحيات، قلت لنفسي ليس دون شيء من وخز الألم والشعور بالمهانة. سيأتي وقت آخر تكون فيه المكابرة والكبرياء في محلّهما، أمّا الآن، فلا فائدة.

## وجه ثالث لفونطوماس

قد يبدو علي من ذلك النوع الذي لا يكاد يخرج من البارات. وهذا خطأ طبعاً، فهو كثيراً ما ينسحب لأيام متتالية لا يغادر بيته الصغير المعلق في الطابق السادس من عمارة قديمة في شارع غابرييل بيري غير بعيد عن ساحة الكنيسة. وفي تلك الأثناء قلماً يفتح لأحد، حتى أنني كنت أعتبر ذلك امتيازاً خاصاً أن يسمح لي خلال أيام عزلته بالدخول - وأحياناً لا يفعل. عندما أطرق الباب ثلاث طرقات متتالية أعيدها ثلاث مرّات، وأذكر إسمي دون أن أسمع خطاه على الأرضية الخشبية للممر الضيق الذي يفصل بين المطبخ يميناً والحمام شمالاً وينتهي عند باب الغرفة الوحيدة، أعرف أنه يرغب في البقاء وحيداً فأنصرف.

أحياناً ألخ عليه بشدة كي يسحب الستارة السوداء عن النافذة الوحيدة المغلقة على تلك الغرفة العائمة في فوضى الأوراق والصور وفرشاة الرسم والجوارب وعلب الصباغ والمصبرات وقناني البيزة وعلب سجائر الجيتان المتناثرة في كل الأرجاء.

كأنه يجزع من ضوء الشمس، فلا يعيش ولا يرسم إلا تحت أضواء اللمبات الكهربائية الشبيهة ببروجكتورات مثبتة في الزوايا الأربع للغرفة. أحياناً يستجيب لطلبي دون عناء، خاصة عندما يكون قد فرغ للتو من وضع اللمسات الأخيرة للوحة من لوحاته. وأحياناً يمزق الورقة بحركة



متوترة ويرمي بها بين ركام الأشياء المتناثرة وينهض. «ها هو دين أم الضوا!» يقول بحدّة وهو يسحب الستارة عن النافذة بعصبية.

«هل اطمأن قلبك الآن؟ أنظر ماذا تغيّر في السماء التي تريد أن تراها؟ سحب، غيوم، خراء في خراء..!»

في ما عدا فرنسواز وعقبة لم أعرف أي صديق لعلّي، لا في سان دني حيث يسكن منذ ما لا يقلّ عن خمسة عشرة سنة ولا في أيّ مكان آخر. لم يرد ذكر أيّ صديق له في الأحاديث المتقطعة عن ماضي حياته؛ سواء في الطفولة أو في سنوات الشباب. تلك الحياة الماضية غالبًا ما كانت تتراءى لي شبيهة بصحراء قفر؛ لا أصدقاء طفولة، لا روابط، لا حنين. لا شيء غير سرداب مظلم تتحرّك داخله أشباح قاتمة من الكائنات الغامضة القاسية التي لا توحى سوى بالعدوانية. لا يذكر أشخاصًا من أيام صباه إلاّ كبقر، دواب، أوغاد ودون ذكر أسماء. هنالك فقط ذلك الطفل النكرة الذي يذكره من حين لآخر دون إسم أيضاً وهو الذي كان ينزوي معه في مكان ما ليتعلّم معه اللغة الفرنسيّة من كتبه المدرسيّة مقابل بعض مليمات أو سيجارة. ذات يوم عنّي أن أسأله عن إسم ذلك الطفل. فاجأه سؤالي، أو لعلّه رأى فيه شيئًا من الفضول الغريب الغيبيّ والفائض عن اللزوم، حدجني بنظرة غريبة واكتفى بالإجابة بشيء من الامتعاض ملوّحًا بيده في الفضاء: اش عزفني بدين أمّه! فرخ من فروخ الحومة. كيف تريدني أن أتذكر اسمه بعد أكثر من عشرين سنة؟

اكتفيت بتلك الإجابة مؤقّتا لكنّ شيئًا من الشكّ ظلّ يحوم في رأسي ويوحى لي بأفكار غير بريئة بالمرّة. يا للشيطان، تُرى لم يمعن في تجاهل هويّة ذلك الطفل؟ - «فرخ من فروخ الحومة!» صحيح، يمكن

أن يكون فروخ الحومة كثيرين كثرة تحدث الخلط والغموض، خاصة في تلك الفترة التي كانت النساء تلد فيها مثل الأرناب، مما يجعل أمور الأسماء تختلط في بعض الأحيان حتى على الآباء أنفسهم. وصحيح أيضًا أنه ليس من الضروري أن ينتبه الواحد إلى كل أولئك الفروخ خاصة إذا لم تكن تربطه بهم أية علاقة محددة. لكن هذا الفرخ قد لعب دورًا مهمًا إلى حد ما في حياته؛ إنه أول من علّمه تهجي حروف لغة غريبة عنه، وهما بالتأكيد قد جلسا لساعات طويلة منكبين معًا على نفس الكتاب أو الدفتر. ولعلّه قد أمسك بيد علي المترددة غير المدربة على المسك بقلم ليساعده على تسطير الحروف بعناية وبشيء من الإتقان. وهو الذي فتح دماغه على عالم الحروف وعبد له الطريق التي ستقوده في ما بعد إلى مكتب التشغيل والهجرة من أجل الفرار بجلده من تلك «الحفرة النتنة» كما يحلو له غالبًا تسمية البلاد. أيعقل أن يكون إذن مجرد فرخ من فروخ الحومة لا غير؟ أحاول أن أدفع عني الشكوك التي كانت تخزني مثل الإبر وأنا أراقب تصرفاته عن قرب. أراه كثير التحرش بالنساء ويبيدي اشمئزازا من المخنثين والمثليين على حافة العدوانية أحيانا. وعندما ألومه على تلك العدوانية محاولا أن أقنعه بأن الناس أحرار بالنهاية في التصرف في أجسادهم وشهواتهم على الوجه الذي يريدونه، يجيبني مستنكرا: ربك خلق المرأة الذكر للأنثى والأنثى للذكر، بشرا، كلابا أو حميرا، أتريد أن تتفلسف علي في هذا الأمر الطبيعي أيضا وتقلب الدنيا في رأسي؟ تتبدد الشكوك المقلقة. لكن السؤال المحير يظل دوماً: ما هو سرّ هذا التكتّم على هوية ذلك الطفل؟ هل هو جزء من عملية النسيان التي يسعى لسحبها على حياته الماضية بكلّيتها؟

علي لا يفعل شيئاً من أجل ربط علاقات صداقة مع الناس، بل

يفعل كل ما بوسعه لسدّ الطريق أمام كل من يحاول الاقتراب منه. كل محاولة اقتراب إزعاج تستنفر له كل حواسه، ويتحوّل بموجب ذلك الاستنفار إلى قنفذ ينطوي على نفسه ويخرج إبره. لا أحد يرغب في ملامسة الإبر المتوقّزة. لكنّه في علاقته بي وبعقبه مفعم بالموادّة والوفاء والمحبة التي لا تعبّر عن نفسها بالكلام أو بدفق العبارات العاطفية اللزجة، بل بذلك الحرص الدائم على رؤيتنا، وإذا ما غبنا عنه مدّة من الزمن كان هو الذي يبحث عنّا ويجدنا، وهو الذي يدعونا، بل ويجرّنا جرّاً إلى سان دني.

قال لي عقبه: أوّل مرّة التقيت فيها بعلي كانت في خلية حزب الجبهة الحمراء. تصافحنا ببرودة. لم تكن لكلينا آية رغبة في مزيد اقتراب - لعقبه إبره هو أيضاً. بعد انتهاء اجتماع الخلية وجدنا نفسنا نسلك طريق العودة معاً. تبادلنا بعض الجمل المقتضبة عن أشياء عموميّة لم أعد أذكرها بالتحديد. أظنّ أننا تكلمنا عن الطقس، البرد والسماء الغائمة على الدوام؛ كنا في أواخر الخريف. لا أظنّ أنّنا تحدّثنا عن أشياء شخصيّة. لا عن العمل ولا عن الموطن الأصلي، ولا السنّ ولا الوضع العائلي. لأشياء مما من شأنه أن يجعلنا نتعارف. لاحظت أنه كان يتعمد مخاطبتي بالفرنسية بينما كنت أستدرجه إلى لساننا المشترك. في لقائنا الثاني سلّمنا على بعضنا بأقلّ برودة. بعد انتهاء اجتماع الخلية، وبالقرب من محطة الباصات حيث تفترق طرقنا؛ هو باتجاه سان دني، وأنا إلى أوبرفيلبي، دخلنا حانة في ساحة المحطة وشربنا بيزتين، ثم افترقنا. لا أدري في آية مواضيع تحدّثنا. لكن شيئاً من برودة اللقاء كان قد تبدّد حتّى أننا تصافحنا بشيء من الحرارة عند الافتراق: «بالسلامة خويا»، كانت تلك أول كلمة نطق بها بلغتنا. رويداً رويداً بدأت لقاءاتنا تتكشف خارج إطار الخلية. هكذا وبطريقة بسيطة تتطوّرت علاقتنا حتّى

غدت صداقة متينة، دون شعور منا، أو أية نية واعية. هكذا بكل بساطة.  
لا أدري كيف أفسر لك ذلك.

طبعًا ليس هناك من داع لأي تفسير أو توضيح. علاقتي بعلي تطورت هي الأخرى بشكل مماثل. بطريقة عفوية سلسة وطبيعية، في غفلة منا أكاد أقول. يبدو أنه لا يحب أن يباغت، ولا يطبق أن يفرض عليه أحد نفسه بطريقة إرادية ومباشرة. حذر جدًا. متحفظ، بل في حالة استنفار دائمة. يحذر كلّ الحذر الهجومات المباغته. يحتاج إلى شيء من الوقت ومن الألفة والمؤالفة، تمامًا مثل حيوان مستوحش، لا بدّ من مؤاهلته أولاً، ومن الأفضل بطريقة عفوية لا إرادية. بعدها يغدو هشًا طريًا وينفتح على محبة تكاد تكون عنيفة. بل هي عنيفة في بعض الأحيان. عندما حكيت له عن لقائي بالعرفاوي استنفر كما لو أنّ العرفاوي هو الذي هجم عليه في تلك اللحظة وارتمى عليه بالأحضان. إنه لا يفهم، ولا يقبل باللقاءات السريعة.

- لكن العرفاوي صديق طفولة قديم، وقد عشنا معا تجارب قاسية وأليمة.

- معارف قديمة! ماذا تعني المعارف القديمة؟ القديم قديم، ميت.  
مالكم تريدون جميعًا إحياء الأموات؟

- العرفاوي ليس ميتًا يا علي. إنه حيّ يرزق وله، كما لي ولك، ذاكرة وحنين.

- ذاكرة؟ حنين؟ هل كان هذا العرفاوي الذي تحكي عنه مجمدًا طوال الوقت الذي لم تره فيه؟ هل تدري أية طرق سلك منذ أن افتרכתما؟ في أية عفونات تمرغ، وأية تجارب عاش؟ هل تعرف إلى أي شيء تحوّل في حياته الجديدة؟ هل تعتقد أنه مرّ من الجوع والعراء

والذلل إلى البذلات الفاخرة وكرافات الحرير والبشرة اللينة والوجنتين المتوردتين هكذا دون حدوث شيء في نفسيته وضميره وشخصيته؟ أعرف الكثيرين من أمثال هذا العرفاوي الذي ولدته أمه من جديد. أغلبهم يتحولون إلى أوغاد وكلاب دم. صديق طفولتك هذا الذي يسكن بالقرب منا هنا في سان دني مثلا، ألم تجده شخصا آخر مختلفا تماما عن ذلك الذي عرفته من قبل؟ أنا أقول لك ابتعد عن مثل هذا الرهط من الناس، وأنت دليلك ملك بالنهاية.

لم أرد أن أستمع أكثر إلى المحاضرة المطولة التي راح يلقيها عليّ حول سلوكيات البشر وتبدلات الطباع. أردت تغيير موضوع الحديث بسرعة. وعندما شعر بذلك توترت وصمت. وافترقنا يوما بشعور غامض بأن خصومة داخلية صامتة قد حدثت بيننا. خصومة أشد وطأة من شجاراتنا العادية الصاخبة.

- علي مغيار، قال لي عقبة من بعد.

- لكنني لست حبيبه أو زوجته. ولا أنا ملك له.

- هو هكذا. ليس له أصدقاء كما تعرف، لكنه عندما يحب شخصا - وهو نادرا ما يحدث - يميل إلى امتلاكه، ولا يريد أن يشاطره أحد صداقة ذلك الشخص. لذلك هو مرهق في بعض الأحيان. وبالنهاية هل في هذه الدنيا كلها غيري وغيرك، وفرنسواز؟ تلك المسكينة تقاسي منه ما لا يحتمل؛ يخاصمها ويهينها ويشبعها شتائم كلما رآها مع واحد آخر. لا يكف عن السعي لإبعادها عن الأفارقة الذين تعنتني بهم ضمن عملها الاجتماعي. يصّر على الاعتقاد بأنها تنام معهم جميعا وينعتها بالقحبة الرخيصة لا لشيء إلا لأنها تساعدهم.

من حسن الحظ أنني لم أحك له كل شيء عن علاقتي الجديدة

بالعرفاوي. لم أقل له مثلاً أنني أصبحت أنام في بيته بانتظام، وأنه يعيش على سرقة المجوهرات وبيعها عن طريق أصدقاء له يشتغلون قوادين على مومسات الشانزليزي وساحة كليشي وشارع موغادور. ولم أقل له أنه هو الذي اشترى لي الملابس الجديدة التي أتيت أتبخر فيها إلى سان دني ذلك اليوم مما جعل مدام روز التي لم ترني قبلها سوى في دجينز قديم وجاكيتي العسكرية الأبدية تصفّر عند دخولي البار:

*O! O! Mais monsieur est chic aujourd'hui!*<sup>(١)</sup>

بالتأكيد أنه لاحظ هو أيضاً تغيّر هندامي، ولعلّه تساءل عن مصدر ذلك التغيّر، لكنّه لم يقل شيئاً. وبالذات لأنّه لم يقل شيئاً، ولأنّه لم يعلّق، هو الذي يعشق التعليق والممازحة على طريقة مدام روز، فإنّه قد خمن أشياء لم ترق له فاكتفى بالصمت. ذلك الصمت المخادع الذي كان يفصح بأكثر ممّا يمكن أن تقول الكلمات.

---

(١) سيدنا أنيق اليوم!

## شانزيليزي - ماربوف

كلمات علي ظلت تطنّ في رأسي بعد أن غادرت بيته بشيء من الانزعاج. تردّدت كثيرًا وأنا أعبر شارع الشانزيليزي؛ أذهب الآن إلى بيت العرفاوي، أم أعود إلى الميترو وأذهب إلى بيت آن ماري التي لم أرها منذ أكثر من أسبوع. فوجئت بأنني قد نسيت آن ماري كليًا منذ أن التقيت بالعرفاوي الذي أقحمني في أجواء أخرى بعيدة كل البعد عن أجواء الجامعة والطلاب والمناضلين السياسيين والنقاشات الأيديولوجية والنظريات والكتب والمجلات. وجوه أخرى تحوم حول العرفاوي. حانات تضيخّ بالعاهرات المحترفات وفتيات يافعات على حافة الاحتراف. مراقص منقّعة في كوكتيل من الأضواء، موسيقى صاخبة، عطور، ويسكي، كوكتيلات، سجائر مارلبورو، - وقد لاحظ العرفاوي كيف كنت أسحب بشيء من الحرج سجائري الغولواز من العلبة الزرقاء الصغيرة المدعوكة فاقنتي علبة مارلبورو ووضعها أمامي -، وجبات فاخرة في مطعم ثمار البحر بشارع ماربوف. تغيير كامل للديكور والشخصيات؛ من شارع مونتروني الشعبي الكثيب، ومن الحيّ اللاتيني برؤوس الطلبة ذات الشعور الطويلة واللحيّ المرسلّة وفتيات الهيبيّ اللاتي تفوح أجسادهنّ وملابسهنّ بروائح النّدّ والعنبر الهندي، ومن الحيّ الجامعي بولفار جوردان وعكاظيات الحركات الثورية العالمية إلى

الشانزليزي بأضوائه الساطعة ومحلاته الفاخرة؛ رجال البذلات الأنيقة؛ كاشمير، برانس دي غال، معاطف الفرو والديكولتي والروب دي سوارى والحريير والساتان؛ بيار كاردان، إيف سان لوران. ألوان أخرى. أضواء أخرى غمرت رأسي المعتم بكدر البؤس المأذي والإفلاس وهواجس البحث عن مأوى وتذكرة للغداء أو العشاء بالمطعم الجامعي. أجواء أخرى بعيدة كل البعد عن الجدالات الإيدولوجية المفرطة في الجدية والجفاف. كيف لا أدوخ؟ وكيف لا أنسى أن ماري وصخب الحركات الثورية وهرج الايدولوجيات الغائمة بقتامة بؤس العمال والفلاحين في جميع أصقاع الأرض؟ حركة التحزّر البديلة هي هذه التي قذف بي فيها العرفاوي بين الفتيات الهازجات والمعربدات رقصاً وضحكا، والمومسات الأنقيات اللاتي يفحن بعطور أخرى غير تلك الرخيصة العطنة التي تعبق بها أجواء بارات سان دنى. الزعماء الجدد الذين التقيت بهم هنا هم العرفاوي الذي تناديه الفتيات والمومسات بشيء من الدلع: «فاوي»، ورشيد بوراس ومحسن المغيربي. هم الذين يمسون بمفاتيح هذه الجنة التي ظلّت مختبئة عن عينيّ حتى تلك اللحظة. ثلاثتهم من زملاء الثانوية قديما، افترقت بنا السبل، وها نحن نلتقي من جديد خارج بؤس المعهد ومبيت التضامن الاجتماعي؛ في قلب باريس النابض بالحياة والدعارة والبهجة.

هؤلاء حققوا ثورتهم على البؤس وشقاء الطفولة والشباب. غدوا رجالا. تجاوزوا الحدود والعقبات التي كانت الحياة تضعها أمامهم. اقتحموا المناطق القصية التي كنا نظنّها حكراً على المحظوظين والمتفوقين؛ اغتصبوا العاهرة المتغنّجة التي كانت تتمنّع وتمعن في تعذيبنا قهراً وحرماناً. رجال، على قسما ت وجوههم تتجاوز ملامح



المرح والبهجة مع تعابير القسوة والشدة وشيء من الصلابة التي ترسم على وجوه المغامرین العائدين مظفرین من محيطات الأهوال. رأيتني إلى جانبهم أعود طفل الثانوية المنكمش على خجل الصبي الريفی وارتباك التلميذ أمام معلميه، الطفل الذي تضطرب خطواته وراء أبيه في زحمة السوق الأسبوعية وهو يصيح فيه صيحته المؤنبة الدائمة: انتبه ولا تشرد مثل العجل يا ولد!

لكن العرفاوي لا يخفي افتخاره بصديق طفولته الذي استطاع أن ينجح ويدخل جامعة السربون جنباً لجنب مع أبناء الفرنسيين، يزاحمهم في العلم في عقر دارهم. العرفاوي يحلم بالانتقام من أساتذتنا الفرنسيين القدماي مثل لاجيه وفينولآر، ويفخر بي، بصفة محرّجة أحياناً، أمام أصدقائه من أصحاب البارات والقوادين والنشالين وأصحاب المطاعم والجرسونات من العرب والفرنسيين، وأمام صديقاته من المومسات المحترفات ونصف العاهرات: صديقي وزميل دراسة، طالب بالسربون، ودكتور عما قريب! كان يحب أن يردّد وهو يفخّم حروف كلمتي السربون ودكتور فتنتفخ بها أوداجه وتلمع عيناه ببريق الانتصار. يسحق بقدميه كبرياء وعنصريّة لاجيه وفينولآر، وأنتفخ أنا أيضاً، يسري شيء من الدفء في ثنايا روحي، يتمطّط في داخلي شيء من الاعتداد بالنفس وأتوسّع في الفضاء بجسد لم يعد منكمشا، والعرفاوي يحضني: مد يدك مع الناس يا ولد بلادي. إن لم تتقدم وتمد يدك لن تنال شيئاً على هذا الخوان كما على غيره.

حشام؟ الحشمة ما توكلش الخبز يا ولد بلادي. شمر على ذراعيك وانزل إلى المععمة.

تُحلّ عقدة لسان الوليد العاقل الخجول، تمتدّ يدي مترددة في البداية، ثم أكثر فأكثر جرأة إلى أكتاف الفتيات وزنودهنّ ومواقع أخرى كانت تتراءى لي قبل لحظات مناطق محرّمة ومسيّجة بأسيجة غير مرئية غامضة محبّطة مثل أيد خفيّة تحكّم قبضتها عليّ في موقع قصي من الروح، أو من اللاشعور، وتكبّل كلّ محاولات اندفاعي باتجاه الخارج. العرفاوي، يا مخلصي! أكاد أهتف بصوت مسموع. وأكاد أسمع ه هو أيضًا يهتف بالهتاف نفسه، منتشيًا بوعد الانتصار النهائي على بؤس الطفولة ومبيت التضامن الاجتماعي والملابس المخاطة من أكياس الطحين الأميركي: «هدية من شعب الولايات المتحدة الأميركية. ليس للبيع أو المبادلة».

أفكّر أمام حماسه المتوقد: ها أنّ مهمة أخرى تلقى على عاتقي الآن؛ أن أحرّر نفسي والعرفاوي من ربكة الماضي البائس والطفولة الشقية، أن لا أختب أمله ورجاءه. وفي الأثناء لم يخيب هو ظني بكرمه الذي فاض على بؤسي المادي؛ إنه يستثمر كي أحقق له النصر الذي ما زال يراه غير متحقّق له؛ الانتقام من الماضي وبؤسه وجراحه. عفونات الطفولة البائسة مازالت تطلع له من تحت البذلة الأنيقة وقميص الحرير وساعة الرولكس وخواتم الذهب، عنيدة، متعنتة ومصرة وراء صخب الديسكوتيك وعبور جيفنشي وغني لاروش وديبور. الطفولة التي لا تعوّض، لا شيء يضمّد جراحها؛ لا عزاء لها. لا تُنسى ولا تنسى، لا تغفر. الطفولة لا ترحم.

الأمر لا يختلف كثيرًا لدى رشيد بوراس الذي يكاد يغيب تحت كدس من قلائد الذهب التي تتدلّى من عنقه والخواتم الغليظة التي

ترضع أصابعه السمينة القميثة وروائح العطر التي يرسلها في الفضاء من حوله على بعد نصف كلمتر. عفونة الماضي لا تنقشع بسهولة، خاصة إذا ما تراكمت عليها عفونات أخرى جديدة متجددة. رشيد أيضًا من قدماء معهد باجة. لكنّه لم يكن صديقًا لي، ولا أظنّه سيصبح من أصدقائي في يوم ما. لا أحبّه، ولم أنس شراسته وعدوانيته القديمة التي كنت ضحيّتها ذات يوم عندما خبطني بضربة رأس شنيعة ونحن نتزاحم في الطابور الطويل أمام مطعم المبيت الداخلي. لعلني نسيت تلك الضربة لبضع سنوات، أو غمرتها أشياء أخرى، لكن لمجرّد أن التقيت به في بيت العرفاوي ولمحت رأسه التي ازدادت ضخامة وأوداجه المتنفخة وعينه الواسعتين المتورميتين وشفثيه الغليظتين، التمعت أمام عينيّ تلك الضربة التي كاد يفلق بها رأسي ذات سنة بعيدة. تجمّد شيء في داخلي وتبيّست مفاصلي الباطنية، لكن يبدو أنّه لم يعد يذكر تلك الحادثة البعيدة، بل لم يعد حتّى يتذكّرني على ما يبدو. لم يكن هناك من رابط بيننا في الماضي ممّا يمكن أن يجعله يتذكّرني. أما أنا، فقد كانت هناك تلك الضربة القاسية برأسه الضخمة هي التي جعلت صورته لا تمّحي من ذاكرتي أبدًا.

لم يبد رشيد أيّ احتفاء، أو شيئاً من مودة أو تعاطف تجاهي. ولا حتّى شيئاً من المجاملة. مدّ لي يدا مرتخية باردة رطبة وهو لا يكاد ينظر إليّ. لاحظت ذلك في ما بعد أيضًا، أنّه يتعمّد عدم النظر إليّ. يتجاهلني عن قصد، ويصرّ على إبداء ذلك بوضوح؛ وضوح فجّ، قليل اللياقة. لكنني فاجأته العديد من المرّات وهو يرمقني خلسة بمزيج من الفضول والامتعاض، وأحياناً بافتعال شيء من الاشمئزاز. لا ينظر إليّ إلا عندما

أكون غافلا عنه متجهاً بنظري إلى شخص آخر، أو منشغلاً بالنظر إلى شيء ما.

\*

لم يكن بيت العرفاوي كبيراً ولا فاخراً مثلما يمكن أن توحي به هيأته وهندامه ومجمل سلوكه وتبذيره للأموال. شقة صغيرة في الطابق السابع من عمارة فاخرة في شارع ماربوف المحاذي لشارع الشانزليزي، بغرفتين صغيرتين لا تكاد تتسع الواحدة لأكثر من سرير وكرسي وطاولة، وزاوية ضيقة يتزاحم فيها المطبخ مع حوض الاغتسال والدش. الصعود إلى تلك الشقة لا يتم عبر المدرج الرئيسي المفروش بموكيت حمراء نظيفة يستحي المرء من أن يدوس عليها بالحذاء، بل من مدرج خلفي ضيق متوار خلف باب صغير. لم تعد غريبة عتي هذه المدارج الخلفية التي تدعى بمدارج الخدمة، كل الطلبة تقريباً يسكنون مثل هذه الغرف الصغيرة المعلقة في الطوابق الفوقية؛ غرف السطوح وتدعى غرف الخادومات: بيت آن ماري، بيت حميد، بيت محرز، بيت علي كلها من تلك الغرف التي كانت في ما مضى مخصصة لخادومات العائلات الموسرة بباريس. مسألة عادية إذن بالنسبة لكل الطلبة وغيرهم من الشباب ذوي الدخل والموارد المحدودة. لكنني هنا، ومع العرفاوي لا أدري لماذا شعرت بنوع من خيبة الأمل، بل بوخز شيء من الألم وأنا أفق على الحقيقة، أو ذلك الواقع العنيد الذي سحبنى فجأة من غيبوبة المتعة التي كنت أشعر بها منذ ظهر ذلك اليوم أمام البذلة الفاخرة وربطة العنق الأنيقة والحذاء الملمع ووجه العرفاوي المشرق بالبهجة وآثار النعمة، ثم مطعم ثمار البحر ويارات الشوارع المحاذية

للسانزيليزي الحافلة بالهرج المرح للفتيات الأنيقات يزفزن مثل عصافير  
الجثة بعبارة «فاوي» التي تهزج بها أصواتهن المتفنجة كما لو كنا يهمسن  
متدلعات: Chéri!. كأن العرفاوي قد خلع عنه الآن البذلة الأنيقة  
والحذاء الملمع أو خرج من تلك القشرة المستعارة وهو يدفع الباب  
الصغير لمدرج الخدم ويلتفت إلي مبتسما - لكن بابتسامته القديمة، تلك  
التي أعرفها في سنوات مبيت الثانوية بباجة: عول على ركبتك يا ولد  
بلادي، المصعد الكهربائي معطب اليوم. لا مصعد كهربائي هناك ولا  
هم يحزنون. قشرة النعمة على جسد الشقاء! فكّرت بصمت، وبكثير من  
الأسى.

## جوزيفين

غالبًا ما يأتي رشيد للنوم في بيت العرفاوي. يعود في ساعة متأخرة جدًا من الليل؛ قبيل الفجر في معظم الأحيان. أحيانًا يكون مصحوبًا بواحدة من فتيات الباربات. عندها يكون على النوم والراحة السلام.

تبدأ ضجّته بخبط رجليه الغليظتين على خشب الممرّ، ثم ركل الأبواب وتحركاته الثقيلة جيئة وذهابًا بين المطبخ والغرفة التي ينام فيها العرفاوي عادة، ينتزعه من نومه ليأتي إلى الغرفة الثانية ملفوفًا في لحاف نومه، مغمض العينين ويرتمي على الكنبه. بعدها تتناهى إلينا نوبة فحيحه ونهيجه إن كان مرفوقًا بإحدى الفتيات، أو شخيره إن كان وحده. قد يدوم شغله مع الفتاة التي تصطحبه ساعة أو أكثر يتواتر فيها الخبط والنهيج وأزيز السرير وضرطة طويلة مسترسلة بين الحين والآخر. وقد تنتهي بدمدمة فشتائم وسباب وتوعّادات وصفع وركل وصراخ وبكاء. قلّمًا جاءت واحدة معه إلى البيت وخرجت من هناك دون أن تنال نصيبها من الحظ المشؤوم لأغلب الفتيات المحترفات. كثيرًا ما لمحت على وجوههنّ بعد يوم أو يومين كدمات وآثارًا زرقًا سواء من تلك التي يحدثها على رقابهنّ مصًا وعضًا، أو تلك التي تركها قبضته الغليظة على خدودهنّ وحول عيونهنّ.

- يروّضهنّ، قال لي العرفاوي في ما بعد.

طبعًا، يروضهن أو يؤدبهن، لأنهن إماء من اللاتي يشتغلن لحسابه وتحت حمايته ورقابته، أو مبتدئات يغريهن بلسان حلو وعشاء في مطعم فاخر، ثم سهرة مطوّلة لا يبخل فيها عليهن بشئى المشروبات قبل أن ينتهين إلى الفراش حيث تتم المرحلة ما قبل الأخيرة للترويض. بعدها إما أن تقبل الواحدة بمقترحه طواعية، أو تنال حظها من قبضة يده الغليظة حتى تهش وتلين وتكسر شوكة تمنعها وتقبل بالذهاب مع أول حريف، ثم تعود بالمبلغ الذي يحدده لها. وتكون بذلك قد وضعت قدميها على طريق المهنة دون رجعة.

لاحظت أن فتياته لا يبدين أي ميل تجاهي، يتجاهلني، بالضبط كما يفعل هو.

هل يكرهني، أم يحتقرني؟ لعله هو الذي قال لهن إنني طالب، وهذا وحده كاف كي يجعلهن يفكرن أنني خلفة أخرى، من طينة مختلفة لينة، هشة، ولد مازال منغرسًا في عالم الكتب والدفاتر المدرسية؛ أي في كلمة واحدة: موش راجل. أتذكر كيف دخلت ذات مرة خطأ إلى ماخور صغير بالقرب من شارع ريومير وكنت أظنه مقهى أو مطعمًا، أو شيئًا من هذا القبيل. كنت في تلك الأيام الأولى من مجيئي إلى باريس أدخل كل المحلات بحثًا عن عمل. اعترضتني في المدخل واحدة بصدر ضخم وأفخاذ طويلة مرخبة: بونجور شيري.

*bonjour madame; je suis étudiant et je cherche un petit boulot.*

كنت أردد هذه الجملة في كل مكان بطريقة آلية: بونجور مسيو، بونجور مدام، أنا طالب أبحث عن عمل صغير. كلمة «صغير» انتقلت إليّ

بطريق العدوى من رفيق دربي محرز الذي غدت لديه نعتا ملاصقا لكل  
الأشياء التي كان يتمناها آنذاك.

قهقهت المرأة التي استقبلتني في الباب ملء حنجرتها وهي تنادي  
رفيقاتها:

*Eh les filles, venez voir le petit étudiant; il cherche un petit boulot!  
mais qu'il est mignon! Vous n'avez pas un petit boulot pour lui?*

- qu'il aille se faire foutre! (ليذهب إلى الجحيم!)، أجابتها واحدة  
منهنّ من الداخل، عندنا فقط شغلات كبيرة لرجال!

صديقات رشيد، هنّ أيضًا ليس لديهنّ غير شغلات كبيرة لرجال.  
الطالب في مثل هذه الأوساط - كما في أوساط العمال - صبيّ، أو رجل  
غير مكتمل، أو مخنث لئِن العريكة، مائع، هزيل: موش راجل،  
وانتهى.

كنت جالسا وحدي في مقهى الدْرَاكْستور بشارع الشانزليزي عندما  
دخلت إحدى صديقات رشيد بوراس. لم تتجاهلني في هذه المرة، بل  
جاءت رأسًا إلى طاولتي واستأذنت ثمّ جلست. سألتني إن كنت رأيت  
رشيد خلال هذا اليوم وإن كانت لديّ رغبة في مرافقتها إلى مقهى آخر  
غير بعيد. لم يكن لديّ أي سبب لعدم الاستجابة لمقترحها، وقد  
اشتمت شيئًا غير عاديّ في سلوكها، وعدًا ما بدا لي مشوقًا ومغريًا. في  
لهجة سؤالها شيء من اللطافة، ومن الثقة وتعاطف سرعان ما توطّد  
وتحوّل إلى نوع من تواطؤ لذيد منعش عندما قالت لي إنّ رشيد لا يأتي  
أبدًا إلى المقهى الذي تريد أن تنتقل إليه.

أتذكر أنني رأيت تلك الفتاة مرتين، أو ربما ثلاث مرات في إحدى  
الحانات التي قادني إليها العرفاوي. كانت تبدو كثيبة شيئًا ما، أو أقل



مرحاً من بقية المومسات. صامته طوال الوقت تقريباً. يجلس إليها واحداً، يحادثها أو يغازلها، وكنت أرى شفيتها تتحركان بين الحين والآخر كما لو كانت تسترق بعض الكلمات استراقاً، دون حماس، أو دون رغبة في الحديث. مثل كل صديقات رشيد، لم تكن هي أيضاً تبدي أي اهتمام بوجودي، لم تلتق أعيننا ولا مرة واحدة. لكن شيئاً ما في هياتها الصامته الواجمة، وشعرها الأسود الطويل الذي يوظر على نحو رائع وسعيد بريق عينيها الخضراوين، جعلني لا أمتنع عن النظر إليها بنوع من المودة، أو شهوانية، أو ألفة ما.

فوجئت بإقبالها عليّ بتلك التلقائية كما لو كنا نعرف بعضنا، ثم ذلك التواطؤ الفجشي اللذيذ الذي لم أكن لأنتظره من واحدة من صديقات رشيد. اضطربت، والتوى لساني وارتبكت الكلمات في حنجرتي، وشعرت بموجة من الحرارة تتسرب إلى كل خلايا جسمي. تمتمت متعثراً في الخجل وأنا أشير إليها بالجلوس، بينما رعدة دافئة تتحرك في جوفي وتلوي أمعائي. ولم أستطع أن أنهى كأس البيرة التي كانت أمامي فتركتها نصف ملاءنة.

ونحن نغادر مقهى الدريكستور باتجاه المقهى الثاني استطعت أن ألملم شيئاً من شتات انفعالاتي المتناطحة. نشوة ما ضاعفت من مفعول البيرة في رأسي؛ نشوة انتصار، أو شيء من هذا القبيل. ها أنا أحظى باهتمام فتاة من رفيقات رشيد؛ موسم تعرف بالتأكيد عددا لا يحصى من الرجال والجميع رهن إشارتها، فتاة يافعة ربما لا تتجاوز العشرين من عمرها، وجميلة علاوة على ذلك. وجه بيضوي يوقعه حاجبان مسطران بعناية، شعر أسود كثيف يغطي كتفيها مثل ستارة من حرير وعينان خضراوان مشعتان، فم دقيق بشفتين طريتين بهيأة حبة الفراولة

الناضجة، جبين أبيض صاف صفاء البلور. كيف لا ترتعش ركبتاي ولا يلتوي لساني تحت ثقل الكلمات التي يقيدتها الارتباك؟  
بعد أن شربنا بيزرتين سألتني: أنت لست صديقًا لرشيد، أليس كذلك؟

- لا. لسنا صديقين، هذا صحيح، لكن...

ثم كذبت وأنا أجيب بالنفي عندما سألتني إن كنا نعرف بعضنا منذ مدة طويلة. لكنها أدركت بالتأكيد أنني أكذب. رأيت ذلك في عينيها، وفي الطريقة اللبقة التي تحاشت بها مواصلة الحديث في هذا الموضوع. لعله حكى لها، أو لصديقاته الأخريات بحضورها عن معهد باجة، ولا أدري ماذا من الأشياء، لكن هذا لايهمني. ما كان يهمني في تلك اللحظة هو السبب الذي جعل هذه الفتاة تقبل عليّ فجأة بهذه المودة وترغب في الجلوس إليّ على انفراد، ومن وراء ظهر رشيد بوراس الذي يمكن أن يسلم جلدتها، وجلدتي أيضًا!  
وضعت جوزيفين فجأة رأسها بين كفيها وانخرطت في البكاء والشهيق!

- هل تستطيع أن تساعدني؟ أعرف أنك لست من ذلك العالم العفن، وأنا كذلك. ساعدني أرجوك. انقذني من رشيد.  
انقذها من رشيد؟ أنا؟ وكيف يمكنني أن أساعدها؟

تذكرت ملامح رشيد بوراس؛ عيناه المشحمتان المتورمتان على الدوام، أنفه العريض وأوداجه المنتفخة وشفثاه الغليظتان. رأسه الضخمة. ضربة الرأس. تذكرت حركات فكّيه وتلاطم شفثيه وهو يلتهم الطعام؛ يجرش، يدهس، يطحن كما لو كان يخوض معركة ضارية ضد الأشياء التي يلتهمها بكثير من اللهفة والعنف، كما لو كان ينطح برأسه

أو يركل بقدميه. تخيلته يلتهم بذلك الفم الجروش الداهس المدمر حبة الفراولة الطرية، وأحسست بوجع يصعد من بطني حتى أعلى الصدر مثل مسمار محمى.

- أرجوك! أرجوك! وإلا فإنني سأنتحر، أو أقتله.. أو لا أدري ماذا سأفعل. إنه يرغمني. هذه ليست مهنتي. جئت من مدينة نانت هاربة من بيت أمي وعشيقها العنيف الذي يغتصبي ويملاً البيت رعباً من حولنا... قصة طويلة لا أريد أن أرهاقك بها. غرّر بي رشيد، قال إنه يريد أن يساعدي، ثم قذف بي في البارات وسط المومسات وغدا يتداول عليّ هو وأصدقاؤه في الفراش. يضرّني إذا رفضت. المومسات اللاتي يعملن لحسابه لسن أقلّ قسوة منه. هنّ أيضاً لا يبخلن عليّ بالاستهزاء والشتم. وهنّ أحياناً أكثر قسوة منه. لا يفهمن ما الذي يجعل واحدة لا تقبل بالعمل الذي غدا حرفةهنّ. يعتبرن ذلك ترفعا، أو احتقاراً لهنّ؛ كما لو أن ذلك شتيمة موجّهة مباشرة إليهنّ: أنت قحبة مثلنا جميعاً، وستعملين غصباً عنك. أم ترى مادمازيل تريد أن تلعب دور القديسة العفيفة؟ كلنا كنا مثلك يا عاهرتي الصغيرة. سترين الشرف والنظافة والترفع إن تماديت في العناد والتعنّت؛ سينيكك القوادون واللواطون واللصوص والمصابون بالسيفيليس والكلوشارات والجزائريون والزنوج وكلّ الأرهاط القذرة والواطئة، وستضربين وتركلين وتقتئين أمعاءك وتخريئين في سروالك وتتعفين ثم تنتهين مشرّدة وسخة طعمة لكلّ مشرّد قدر. اختاري الآن طالما لديك فرصة للاختيار؛ إمّا أن تقبلي طواعية وتنالي بذلك حظوة الرجل الذي يحميك، ولن تعرفي من الحرفاء غير الموسرين النظيفين والمطاعم الفاخرة وفنادق الخمس نجوم والحريز والساتان والعطورات الغالية، أو العصا والركل والصفع وأرذل الرجال. إمّا الخراء أو الكافيار. ما رأيك؟

رشيد يصطاد ضحاياه عادة في محطات القطار. يترتبص بالمربكات اللاتي يبدو من هياتهن ونظراتهن أنهن قادمات للتو إلى باريس. أغلبهن مراهقات خرجن إلى مغامرتهن الأولى؛ جئن إلى باريس بحثا عن طريقهن في الحياة. طريق الحرية. صبيات هاربات من جحيم العائلات، متطلعات إلى حياة أخرى في باريس التي يتردد ذكرها على الألسن كحللم بقارب نجاة بسعة الكون. فردوس على وجه الأرض. حرية، ملذات، مسرات، سهرات، حفلات موسيقى الهيبى والبيتلز والروك، نزاهات حالمة على ضفاف السان، مفاجآت سارة وسعيدة في كل زاوية أو منعرج. وجه الله الضاحك يمد ذراعيه بتحنان لاحتضان عباده الوافدين على جناحه الرحبة الذي يتسع لأحلام الجميع. باريس قبلة كل الحالمين؛ الحالمون بالثراء، والحالمون بالحرية، والحالمون بالفن، والحالمون بالثورة، والحالمون بالتسكع، والحالمون بالجنون. باريس قبلتنا جميعا. كلنا نأتيها حالمين. كلنا نحلم، لكن يبدو أن الحياة لا تتسع لأحلامنا جميعا؛ حلم يزحم حلما. حلم يرذ الأحلام الأخرى على أعقابها. الجنة لا تتسع للجميع.

رشيد وكثير من رهطه، هم أيضا جاؤوا إلى باريس حالمين. حالمون بمأدبة دسمة من لحم المغفلين والحالمين البريئين والسادجين. يستدرج الواحدة بكلام جميل رائع مغر. محترف مرادة ومغازلة. محترف مراوغات وتحايل؛ هش، لين، بشوش، مرح، فاجر بمقدار؛ المقدار الذي يُثير ولا ينقر. شبقتي بتحفظ مدروس. ظريف، محدث لبق، ثرثار بالقدر الذي يجعله ينقض على فريسته ويغمرها بالكلام ولا يدع لها مجالاً للتنفس بين جملتين من دق سيله الهذياني الذي يرصعه بالنكات المليحة والمزاحات الخفيفة، وبين مزحة ونكتة وكلمة حلوة مجاملة وعدّ ضمنّي بليلة حافلة بهذيان شبقتي مرح، لذيذ، شديد البهار، مدوخ.

فن. صناعة قائمة بذاتها تدرّب عليها هؤلاء المحترفون لسنوات عديدة في الشوارع، بالقرب من برج إيفل، على ربوة مونمارتر، في محطات القطارات، في الديسكوهات والبارات الليلية. بعضهم قد اجتاز تربصات كافية في هذا الشأن على شواطئ بلاده الغاصّة بالمصطافين والسياح المتوافدين على شمسها ومياه بحرها وعبقها الأكزوتيكي المثير.

حالمون هم أيضًا بأرض الشقراوات المتحرّرات؛ متحرّرات أكثر من اللزوم - لزوم ما تربّوا عليه من قهر وقمع وكبت. لفرط تحرّهنّ يبدون لهم على حافة العهر والتفسّخ. عفويّات بتلقائيّة تقع على تخوم السذاجة، بل لنقل على حافة الغباء كما يتراءى لهؤلاء القادمين يحملون حلمهم بالحرية والمتعة مثل لعنة طيش، أو رغبة فاجرة غير بريئة وممنوعة كانوا يخبئونها في زوايا معتمّة من أرواحهم الزازحة تحت ضروب من الزجر والقمع والرّدع. دمل يُفقأ هنا في باريس. هذيان محموم لم يعد يخضع لأيّ رادع. أيّ رادع.

المحترفون الحقيقيّون لا يرحمون.

رشيد لا يرحم ضحاياه. يوم غسل، يومان وأحيانًا ثلاثة أيّام إذا ما كانت الفتاة جميلة وجذّابة وذات نكهة مثيرة وبهار طيّب؛ لا يبخل بها على نفسه في تلك الأيّام الترويضية الأولى؛ يدلّعها ليومين أو ثلاثة ويربّها من الجنة التي جاءت تحلم بها مقدار شبر أو شبرين. مطاعم فاخرة، سهرات صاحبة في أجمل الديسكوتيك، بعيدًا في البداية عن أوساط العاهرات - وسطه الحقيقيّ. هديّة صغيرة من هنا وأخرى من هناك، حذاء جديد، فستان أنيق، شال من الحرير إن كانت الصبيّة تستأهل ذلك وتعد في هياتها الأنيقة المستقبلية بمردود يفوق النفقات بأضعاف الأضعاف. آلة حاسبة دقيقة ومضبوطة التعديل؛ يستثمر حيث

يبرق أمام عينيه أمل أرباح مثيرة. ينفق بسخاء وقلبه يرقص طربًا للمحصول القادم الذي يشغ من عيني الفتاة التي تكون قد غدت شبه مضمونة الوقوع في شبكته.

بعد انقضاء أيام العسل، يأتي دور العصا والحزام الجلدي.

- أرغمني في البداية على النوم معه ومع صديق له معًا في نفس الفراش. في البداية تداولوا عليّ بعد أن أشبعني صفعًا ولكمًا. ثم تناولاني معًا بطريقة مخجلة لا أستطيع أن أصفها لك. مخجلة ومهينة. في اليوم الموالي حبسني في البيت طوال النهار وجزءًا طويلًا من الليل، دون أكل ولا شراب. عاد بعد منتصف الليل ومعه صديقه وواحدة عرفت من بعد أنها من المشتغلات لحسابه. تظاهرت بأنها جديدة ولا تعرفهما. انجسبا معها في غرفة مجاورة وبعد لحظات بدأت أسمع صفعًا واصطفافًا وقلب كراسي وتكسير أواني وصراخًا وشتائم. كانت العملية كلها مسرحية الغاية منها إرهابي، ذلك ما تأكدت منه في ما بعد. لم يزعجني أحد في تلك الليلة. لكنني لم أستطع أن أنام بسبب الخوف، وكذلك الصراخ والزعيق اللذين ظلّا متواصلين حتى قبيل الفجر. كنت أتوقع دخوله عليّ في كل لحظة، وكانت اللحظات تتلکأ في المرور وأنا في حالة من التأهب؛ تأهب الضحية التي تنكمش وتتكور متوترة على رعبها تكاد تنفجر. في لحظة ما بدأت أتمنى لو أنه يأتي، أو يأتي معًا كي ينتهي عذاب هذا الانتظار. لكن أحدًا لم يأت. ولا النوم أيضًا.

خرجنا ظهر اليوم الموالي جميعنا معًا. تغدينا في مطعم شعبي رخيص. لكنني كنت جائعة حد الإغماء فلم أنتبه لرداءة الأكل. بعدها ذهبنا إلى البار حيث تركني مع تلك المرأة التي بدأت تقدمني للحرفاء وتحاول إغرائني للخروج معهم. العاهرات الكثيرات اللاتي يدخلن

ويخرجن ويعدن معربرات، كلهنّ يسلمن عليّ بحفاوة مصطنعة، وأحياناً بشيء من السخرية والتشفي: آ، الجديدة! يقبلنني بطريقة عاهرة من فمي، يداعبن وجنتي كما لو كنت طفلة، يضعن أيديهنّ على صدري، يتلمسنني في مواقع أخرى من جسدي، يحشرن أيديهنّ بين فخذي مقهقات: آ، يا للكنز اللطيف! هذه سفتكّ منا كلّ العشاق. وعندما أنكفي أو أنكمش، أو أكش في وجوههنّ وأبدي نفوراً من مداعباتهنّ الفاجرة، ينفجرن مقهقات بسخرية: أو! أو! يا للإوزة الصغيرة! إنها ما تزال خجولة! أم خائفة؟ لا تخافي شيري لن نعضك، ولن نفتض بكارتك إن كنت ما تزالين عصفورة جنة. يا لمريم العذراء! ألم يلجك رشيد بعد؟ صعبة المنال هه؟ سترين كم من الزبوب سيعرف عشك الصغير هذا الذي تخبئينه بكلّ خوف وحرص. وسوف تحبّين ذلك. ستحبّينه جداً حتى تصيري مدمنة. هاي، هاي! الأخت شريفة، أليس كذلك؟ وماذا تظنّين أيتها العاهرة الصغيرة؟ هل نحن منحرفات؟ عاهرات؟ قحاب فاسدات؟ إننا نعمل مثلما يعمل كلّ الناس. أم تراك أشرف منا؟ أم أرفع شأنًا؟ هل هناك امرأة تترقّع على زبوب الرجال يا غبية، يا فاجرة؟

كانت تلك حصّة الترويض الثانية، قبل أن يعود رشيد. في البداية تجاهلني لما يزيد عن ساعة من الزمن بينما العاهرات يرغمنني على الشراب إرغامًا. بعدها ركبنا سيارة تاكسي وذهبنا إلى بيت آخر لواحد من أصدقائه. بدأ الضرب والصفع مباشرة دون مقدمات ولا كلام. ثم هدّداني بسكين قبل أن يمزق ثيابي ويقذفني على الفراش... (تضع وجهها بين كفيها وتنخرط في البكاء)... أرجوك ساعدني، إنني أريد أن أهرب من هنا، إلى أيّ مكان. سأشتغل بأيّ عمل وأنام على الأرض. فقط أن أهرب من هنا.

ورطة أخرى لم أكن قد قرأت لها حسابًا، قلت لنفسي وأنا بين  
الحيرة وشيء من الانتشاء، لا أدري بماذا؟ بجمال جوزيفين، بانتصار  
ما، بإمكانية انتقام من رشيد بوراس قد غدا مضمونا تقريباً.

غير أنها ورطة، مع ذلك!

\*

تلبست بي رغبة عنيفة في مساعدة جوزيفين. لكن كيف؟ وإلى أين  
سأخذها؟ إلى بيت آن ماري، فكرت للحظة، لأنه لم يحضر في ذهني  
غيرها. آن ماري التي لم أرها منذ أكثر من أسبوع؟ وماذا سأحكي لها؟  
أنتي غبت كل هذه المدة لأعود إليها بوحدة مشردة مثلي؟ ومن هي؟  
صديقة؟ فتاة لا أعرفها أريد مساعدتها؟ برفاؤ! فلانس آن ماري إذن! إلى  
علي؟ أبداً. الرفيق حميد؟ غرفته الصغيرة في شارع سان جاك يمكن أن  
تكون مخبأً آمناً؛ الحي اللاتيني بعيد عن رشيد وأمثاله الذين لا يرتادون  
تلك المنطقة إلا نادراً. لكن بيت حميد ملتقى لمجموعة كبيرة من الطلبة  
التونسيين المناضلين. كيف سأقدم لهم هذه الفتاة الغريبة؟ صديقة من  
الجامعة؟ لن تنطلي عليهم الخدعة لأنها لن تظهر بمظهر الطالبة مهما  
فعلت. سيكتشفون ذلك من خلال كلامها وسلوكها وهندامها ومائة ألف  
علامة أخرى.

من الأفضل إذن أن أصارح حميد بالأمر. أرجوه أن يغلق بيته في  
وجه الرفاق ليومين أو ثلاثة حتى أتدبر الأمر بطريقة أخرى. أريد مساعدة  
جوزيفين بأي ثمن، أو لنقل إنني كنت أتحرق لإبعادها عن رشيد. كنت  
متحمساً حماساً لحدود له للأمر كما لو أنني عثرت على قضية مهمة  
سأمارس عليها التزامي وشيئاً من أعمال البطولة. أن أهرب واحدة من  
رشيد! من رشيد بالذات! عمل خارق. ضربة رأس أقوى بكثير من تلك



التي فاجاني بها ونحن أطفال. ضربة رجال هذه يارشيد يا ولد القحبة! سترى ماالذي سيفعله بك طالب، أو تلميذ كما تقول أنت من أجل التحقير، أو فقط لأنك لا تدري ما هو الفرق بين تلميذ وطالب. طالب ملتزم، ثوري مناضل قادر على الفعل، لا خنفس كاغذ وحببر كما يحلو لك أن تفكر. سيناريو بأكمله بدأ يرسم خطوطه في مخيلتي ويغذي هذيانني البطولي. أصعد بولفار سان ميشال باتجاه شارع سان جاك راکضاً على إيقاع الوتيرة المضطربة لسيناريو الفلم البطولي الذي كان يعتمل في ذهني، أمرّ بالقرب من السوربون، ألقى نظرة سريعة على تلك البناية الرمادية الداكنة: أي سوربون؟ وأي طلبة منقّعين في رطوبة النظريات الثورية المزيفة التي يتشربونها من الورق! هو ذا العمل الثوري البطولي الحقيقي من صميم المعتك الشرس للحياة!

صرفني حميد وهو يؤنّبي بشدة على سلوكي المتهوّر وعلى دخولي في مثل هذه العلاقات غير النقيّة التي يمكن أن تجلب المخاطر، لا عليّ أنا وحدي، بل على مجمل الحركة: أنت لست عنصرًا منعزلاً يا رفيق! وعليك أن لا تغفل عن المسؤولية التي تتحمّلها تجاه رفاقك والحركة بصفة عامّة. إنك تتصرّف تصرفات فوضويّة لاسؤوليّة يمكن أن تكون لها تبعات أمنيّة خطيرة علينا جميعاً. لذا أرجوك أن تترك حالاً هذه الفتاة، وأن تنسحب نهائيًا من هذا الوسط العفن الذي أقحمت نفسك في متاهته الخطيرة. كن مسؤولاً وفي مستوى الالتزام الذي يُنتظر منك يا رفيق.

عبثًا سأسعى بعدها لإقناعه بأننا بالتزامنا إنّما نحن وضعنا أنفسنا في خدمة المظلومين جميعاً، وأنّ من بين مهامنا الثوريّة التقدّميّة محاربة الاستغلال أينما كان وكيفما كان واستعباد الانسان للانسان بأيّ شكل... إلخ إلخ. عبثًا سأجد كلّ معارفي وأسلوبني الحجاجي، وقاموسي الإيدولوجي من أجل إقناع رفيقي الذي كانت حججني تتكسر كلها على

جلمود انضباطه الحزبي الذي لا يرى إلى الأعمال الفردية غير المؤطرة إلا كأعمال خرقاء وتصرفات متسببة، انحرافات برجوازية صغيرة، تشتت للطاقات وحياد بالعمل النضالي عن إطاره الثوري الوحيد الذي لا يمارس إلا داخل البروليتاريا المنظمة وفي إطار عمل حزبي مؤطر. الطبقة يارفيق هي المعنى. المعنى الوحيد بالنسبة للمناضل الثوري، أما الأفراد المنعزلون فلا شيء. الاهتمام بالأفراد تذيير طاقات مؤذ بالنسبة للعمل المنظم، علاوة على كونه يبت سموم الفردانية البرجوازية؛ يفخّم دور الفرد على حساب الطبقة يارفيق! عد إلى رشدك، وإلى وعيك الطبقي يارفيق!

أذاقني خلأً وحنظلاً خلال الساعات التي جلدني فيها بسياطٍ إيدولوجية من لهب. أراني النجوم في عزّ الظهيرة، لكنني لم أكن أعلم أنه إنما أراني بعضاً منها فقط وقد احتفظ بالبقية لتلك الحصّة الشنيعة التي لم تأت بعد؛ جلسة النقد والنقد الذاتي التي استعرض لي الرفاق فيها مجمل سلوكاتي الليبرالية وعلاقتي اللامبدئية والذاتية، بدءاً بعلاقتي بعليّ، صداقاتي مع طلبة تروتسكيين وفوضويين داخل الجامعة، العرفاوي وزمرة الصعاليك، فجوزفين، سهرات البارات في سان دني، سكني في بنسيونات أوبرفيلبي وتسكعاتي في ساحة كليشي وبيغال. ثم أخضعت لاستجواب مطول ومفضل عن شعبة الدراسة وعن المحاضرات التي أحضرها والمواد التي أدرسها، والكتب التي أقرأها، ومواضيع الملفات التي أعدها للجامعة. قبل أن أطلب بتقرير كتابي مفضل في ذلك التزمّت بإعداده لاجتماع الحلقة المقبل.

\*

حصص النقد والنقد الذاتي تنتهي عادة، إن كانت موفقة، بتهنئة

الرفيق على قدرته على تحمل الجلد دون آه، أو بل - ولكن، وتهنئة بقية الرفاق على قدرتهم على التجرد وعلى موضوعيتهم وحسبهم الحزبي المتطور؛ قدرتهم على إحكام المشروط في اللحمة الحية الموضوعية على طاولة التشريح أمامهم؛ موضوع - أمام يغدو الرفيق المناضل، لا ذاتا. لا داعي للخرج أو الخجل أو المداراة إذن: موضوع على ذمة الحزب والطبقة والقضية الكبرى: موضوع ضمن علاقات موضوعية.

قال الرفيق س في مستهل الحصة وهو يتنحج ويتكحكح ويعدل وضع نظارتيه السميكتين: النقد والنقد الذاتي من العناصر الأساسية في التربية والسلوك الحزبيين. لقد خضع الرفيق ماوتسي تونغ العديد من المرات لحصص النقد والنقد الذاتي، ولا معزة في ذلك. المناضل الماركسي اللينيني الصحيح لا يرى في ذلك حرجا، بل يعده أمرا ضروريا لتمتين صلابته عوده الايدولوجي.

يخرج الرفيق ماو دوماً مظفراً من كل حصة نقد ونقد ذاتي. يكون دوماً قد تعلم شيئاً جديداً واغتسل من رواسب الفكر البرجوازي والبرجوازي الصغير وبعض ترسبات الرؤى الاقطاعية وشبه الاقطاعية - شبه البورجوازية، وكل ما شابه ذلك، وكل الشبهات جمعاء. لذلك يخرج الرفيق ماو دوماً منتصراً جديداً لامعا من كل حصص النقد والنقد الذاتي.

محظوظ الرفيق ماو الذي يخرج دوماً منتصراً! كنت أقول لنفسي بعد الجلسة، أما أنا فقد خرجت من هذه الحصة برضوض لم أعرف كيف يمكن أن أضمدها وأرتق فتوقها. كان علي أن أتزم بالقرار الحزبي: أن أتخلي عن كل تلك العلاقات التي لا تحظى برضا التنظيم: علي، سان دني، العرفاوي، جوزيفين.

لن يكون صعبا عليّ أن أرجئ زياراتي إلى سان دني إلى حين، وأن أضعها موضع سؤال أيضاً، وهي على أية حال ما فتئت تكوّن موضوع تساؤل وأخذ ورد. والعرفاوي؟ العرفاوي والماضي، وطفولتي، وذاكرتنا المشتركة أيها الرفاق؟ هل أموضع ذاكرتي؟ طبعاً يا رفيق. حسناً، سأنظر في هذا الأمر أيضاً، لم لا؟ سأحاول.

لكن جوزيفين؟ كيف أموضع حالة جوزيفين؟ أن أقبل بأنها إنّما وقعت بصفة موضوعيّة في قبضة رشيد بوراس الذي يمارس عليها التعسف والقهر الموضوعيّين للمجتمع الطبقي الرأسمالي الاستغلالي، كما يمارس عليّ استعلاءه الموضوعيّ، وكما مارس عليّ برأسه الضخمة تفوّقه الجسديّ الموضوعيّ في ذلك اليوم من تلك السنة البعيدة ونحن نتزاحم بطريقة موضوعيّة، أو في صراع طبيعيّ موضوعيّ على العلف أمام مطعم المبيت الداخليّ؟

ثمّ لم لا أبوح لنفسي على الأقلّ بأنني أرغب في جوزيفين، بصفة لا موضوعيّة هذه المرّة، غير موضوعيّة بالمرّة. وبما أنّني لن أستطيع بحكم موضوعيّة العلاقات الحزبيّة والإيمان القطعيّ بموضوعيّة كلّ العلاقات، أن أبوح للرفاق بالعلاقة غير الموضوعيّة التي تشدّني إلى جوزيفين وتدفعني بعنف لعمل أيّ شيء من أجل مساعدتها، فما الذي سأفعله بهذا الأمر غير الموضوعيّ الذي يهمني أنا وحدي وبصفة ذاتيّة بحتة؛ أنا وحدي، ولي وحدي؟ ما الذي سأفعله بهذا الأمر، وبجوزيفين وبرغبتي فيها؟ وبرغبتي في تمرّغ غرور رشيد ورأسه الضخمة وأنفه الغليظة في الأوحال؟ يا رفاق، يا رفاق، ألا يمكن للموضوعيّة أن تتغافل من حين لحين عن فجوة صغيرة يُسمح منها لهذه الذات أن تكون حاضرة، أن ترغب وتحب وتكره وتريد الانتقام؟ أن

تتهوّر قليلا وتمارس شيئًا من غبطة تهوّرهما، أن تلتذّ بما هو ليس بالضرورة موضوعيًا؟

خرجت من هناك في حالة من الهلع وبشيء من عدم الرضا عن نفسي، لأنني لم أجرؤ على قول كلّ ما كان يخامرني من أفكار. وجدتني في وضع التلميذ الذي يصغي بانتباه ويعد بالانضباط ولا يلوي العصا في يد معلمه: اقرأ يا ولدي وتعلّم واسمع كلام المعلم! الولد الصغير الذي كان يسعى بكل الوسائل لإرضاء أبيه الذي لا يرضيه شيء من كل ما يفعله، والذي يفعل كل ما بوسعه كي يعجّب به المعلم ويطري عليه، وربما يستثنيه من حصص العصا والتأنيب والتوبيخ. ما هذا الذي وضعتُ نفسي فيه! ألم نختر هذا الطريق تمرّدًا على السلط القهرية جميعها ابتداء من العائلة ومرورا بالمدرسة والجامعة والدولة والمجتمع؟ مالي أضع نفسي طواعية إذن تحت سلطة زجرية جديدة تسطر لي الطرق التي ينبغي عليّ أن أسلكها، تراقب وتردع وتزجر وتُرهب؟ أليس هذا بالضبط ما أردت الثورة عليه؟ والانتقام لنفسي منه؟ وأنتم أيها الرفاق، أُلستم مثلي؟

كنت على وشك الحسم في الأمر بالاختيار النهائي: إما حرّيتي، وإما هذه الثورة التي يريدّها التنظيم. وأنا على أية حال قد حسمت أمري بشأن جوزفين منذ أسبوع تقريبًا عندما اهدت بعد فشلي مع حميد إلى فكرة اللجوء إلى فرنسواز. راهنت على مثاليّتها وشفقتها المسيحية، وعلى استعدادها الدائم لتقديم المساعدة لكلّ من يعترضها، بمن فيهم عليّ الذي يذيقها ألوانا من العذاب والإهانات المجانيّة ولا يتوقّف عن تسميم حياتها. قلت: فرنسواز هي الحلّ الأخير والأمثل. أكيد أنها ستصدم بقصّة جوزيفين وستدفع بها مشاعر الرحمة المسيحية إلى فعل أيّ شيء من أجل إنقاذها.

فضّلت أن لا أذهب وحدي إلى فرنسواز، بل أن أضعها أمام الأمر الواقع وأن أدع جوزيفين تشرح لها الأمر بنفسها، كي تقف على الحالة بصفة مباشرة، خاصة إذا ما كان الشخص المعني أمامك وعيناه في عينك، وقد تكون العينان مغرورتين بالدموع، أو محمرتين ومتورمتين من كثرة البكاء فلا تتردد مشاعر الرحمة في الانفجار داخلك، بصفة مباشرة وذاتية، فلربما للمسيحي أيضاً معايير الموضوعية في تصريف رحمته، وعند غياب الذات الملموسة التي تتألم لحماً ودمًا ودموعًا أمام عينيه قد يتناول المسألة ببرودة وحياد الموضوعية، وإذا نحن أمام فشل آخر.

بعد جلسة النقد والنقد الذاتي وجدت جوزيفين تنتظرنني أمام محطة سان لازار كما اتفقنا، كي نذهب معا إلى موعدنا مع فرنسواز غير بعيد من ساحة كليشي. كادت فرنسواز أن تقع مغشياً عليها وهي تستمع لما كانت ترويه لها جوزيفين. تهاطلت دموع الشفقة من عينيها. دموع الرحمة كانت بالنسبة لي في تلك اللحظة، مطرًا لذيذًا ناعمًا ينزل على قلبي ويغسله ممّا علق به من آثار الخطبة الثورية الصارمة والقاسية التي جلدني بها الرفيق حميد، ثم جلسة النقد والنقد الذاتي التي أخضعني إليها رفاق الخلية. فكّرت في تلك الآونة - في تلك الآونة فقط، والله يا رفاق! - أنّ ماركس لا بدّ أن يكون لقيطًا ومنحطًا صلفًا إذ يؤكّد أنّ الدين أفيون الشعوب. ولم لا يحقّ للشعوب أن تنعم من حين لآخر بوضع شيء من البلسم على روحها المعذّبة والمحزّزة بالجروح إن اقتضى الأمر ذلك ولم يكن هناك من مهديّ للأوجاع غير الأفيون؟

قبلت فرنسواز بأن تؤوبها في بيتها مؤقتًا في انتظار أن تجد لها حلاً مناسبًا ودائمًا في إطار العمل الذي تقوم به لدى الكنائس وبعض الجمعيات ذات النشاط الخيري والاجتماعي.

شربت مع جوزيفين نخب ذلك النجاح بعد أن ودّعنا فرنسواز التي  
ضربنا معها موعدًا في بيتها في المساء.

فرنسواز، أيتها القديسة الجميلة! لِتُخَيِّ الرحمة والمحبة المسيحية،  
ولْيذهب ماركس والشيوخيون الغلاظ إلى الجحيم!

كان عليّ أن أستغفر بعدها من هذا الاندفاع الانفعالي الطائش، وأن  
أقوم بنقدي الذاتي - في ما بيني وبين نفسي هذه المرة - كي أستعيد شيئاً  
من راحة ضميري الأديولوجي، لأنه لا يصح البتة الاستهتار  
بالمقدّسات، إضافة إلى الخطيئة التي ارتكبتها بعدم الانضباط وبمراوغة  
قرار الخليّة، ومحاولة التستر على علاقتي مع جوزيفين، حتى أنني  
طلبت من فرنسواز أن لا تفتح عليّ وعقبة بحقيقة قصتها وبعلاقتي  
بالمسألة. فعقبة الذي هو صديقي قبل أن يكون رفيقاً قد أبدى خلال  
جلسة النقد والنقد الذاتي صرامةً وقسوة نادرتين في محاسبتني هو أيضاً،  
عقبت ذلك خصومة حادة بيننا مباشرة بعد الجلسة، كان من الممكن أن  
تتطور إلى ما أسوأ، لو أنني لم أنصرف عنه بسرعة كي لا أتأخر كثيراً  
على جوزيفين.

كنت قلقاً في الحقيقة، قلقاً شوش عليّ إحساس الظفر وفرحة  
النجاح في عملية إنقاذ جوزيفين.

\*

عدت إلى بيت العرفاوي متردداً شيئاً ما في تلك الليلة. لكنني قرّرت  
الذهاب إلى هناك كي لا أثير الشكوك إذا ما تزامن غيابي مع الاختفاء  
الفجئ لجوزيفين. كنت طوال السهرة مضطرباً، قلقاً، أنتظر دخول رشيد  
في أية لحظة. لم يأت رشيد في تلك الليلة، واعتذرت عن الخروج مع  
العرفاوي بدعوى أنني متعب وأريد أن أنام. لكنني لم أستطع أن أنام.

عدل العرفاوي هو أيضًا عن فكرة الخروج وكان يبدو لي في هذا المساء أقلّ مرحًا وخفة من المعتاد. لأنه مرح جدًا في العادة. هكذا كان دومًا حتى في أيام شقائنا، يضحك، يهذي، يمزح وينطّ مثل القرد.

لم هو معكّر المزاج شيئًا ما هذا المساء إذن؟ لم يكن حزينا أو كئيبيًا أو ضجرًا بصفة واضحة، فقط قليل المرح! أو لعله خيل إلي فقط.

جلسنا نشرب نبيدًا أحمر ونقضم خبزًا بجبن وزيتون ونتذاكر فصولًا مطوّلة من أيام المعهد والمبيت. العرفاوي في جلده الحقيقية. دون بذلة أنيقة وكرافات. ننسى باريس وبارات الشانزليزي، والعاهرات والديسكو... إنا الآن في باجة.

طفولتنا مفروطة على الطاولة أمامنا، نلّم شتاتها من الذاكرة، نبعرها ونجمّع الأجزاء من جديد ونفرز، مثل ألبوم صور؛ ننتقي صورة، نضعها تحت المجهر، نكبّرها ونسرح بين ثناياها. طفولتنا عادت الآن مُلكًا لنا، نعيشها من جديد على النحو الذي نريده لها، منقاة بمصفاة الذاكرة. ناصعة، مشرقة. حتى الأجزاء الداكنة نلّمعها لتخرج متوهجة بحنيننا. المبيت الكئيب، القيمون القساء والانضباط العسكري لأوقات النوم والصحو والإفطار والمراجعة، الجلوس إلى مائدة الطعام وعدم الشروع في الأكل قبل أن تعطى الإشارة بذلك، عدم الكلام أثناء الأكل، الوقوف طويلا إلى جنب السرير حتى في ليالي الشتاء الباردة في انتظار أن يمرّ القيمون ويتثبتون في بيجاماتنا وأظافر أصابعنا وإن كنا قد غسلنا أرجلنا بالماء البارد أم لا. تمطيط حصّة الوقوف عقابًا لنا إذا ما تجرأ واحد وأطلق من زاويته البعيدة ضرطة طويلة، أو كحّة مفتعلة، أو صيحة تحاكي صيحة ديك أو عواء كلب؛ هكذا لمجرّد التحرش والمزاح، وغالبا ما يقلّده واحد آخر، فأخر وآخر إلى أن يتحوّل العنبر



الفسيح الذي يضم ما لا يقل عن ستين، ثمانين، مئة فرخًا إلى جوقه يختلط فيها السعال بالضراط المسترسل (خاصة إذا ما كان العشاء حمصًا أو فاصوليا) والنهيق والطنين، وجوقة أصوات تقلد صياح الديكة والعواء والمواء. يهرع قيمون آخرون لمساعدة زميلهم، ويأتي القيم العام أحيانًا، وتكون ليلتنا ليلة طويلة غالبًا ما تنتهي بإخراج بعض أفراد إمّا من المعروفين بالمشاغبة، أو هكذا بحسب عملية اختيار عشوائية لينالوا عقابًا شديدًا صفعًا وركلا وضربًا بالعصا على كف اليد، ثم تسجل أسماؤهم على قائمة المحرومين من الخروج في يوم الأحد.

عقوبة المنع من الخروج يوم الأحد كانت نظامًا تربويًا متداولًا في معاهد البلاد بكليتها آنذاك. دربة على السجن نذوقها ونحن صغارًا بهدف الترويض وإعداد الآلاف منا لمستقبل سوف لا يكون مشرقًا بالضرورة. المجتمع يرينا أنيابه؛ العلف على اليمين، والعصا على الشمال. الانضباط والإذعان وبسط جناح الذلّ مقابل شيء شبيه بالحرية لا نناله كحقّ طبيعي عاديّ، بل كمكافأة وحظوة تُحسب على كلّ من لوى العصا في يد الأمر وتجرأ على الخروج عن السبل المسطرة لنا مسبقًا.

- شفت أولاد القحبة! يزرعون في قلوبنا الذلّ والخضوع منذ الصغر. عسكر عند دين أمهم نحن؟ يقول العرفاوي وهو ينهض كما لو كان يستعد للانقضاء على أحد ما.

الذين ينالون العقاب يعودون إلينا بعدها في هيئة الأبطال. نوقرهم ونكبر فيهم التضحية وتحملّ القسوة، خاصة إذا ما صمدوا وقابلوا القيمين والمسؤولين. بصمت الأموات وهم يستجوبونهم محاولين أن يرغموهم، بالتهديد حينًا وبالإغراء في بعض الأحيان، على الرشاية

وذكر أسماء المشاركين في الشغب. وحتى إن لم نعرب لهم عن ذلك التقدير طواعية فإنهم هم الذين ينتزعونه منا انتزاعًا. يعودون إلينا مرفوعي الرؤوس، بكثير من الغرور والاستعلاء في بعض الأحيان، وصوت من داخلهم يقول لنا من خلال حركات أكتافهم وهم يختالون أمامنا، ومن نظرات أعينهم المشعة بيريق وصلافة المنتصرين: ها أننا دفعنا الثمن من أجلكم أيتها النعاج! قدّمنا جلدنا فداءً لجلودكم، واجتزنا الامتحان بنجاح. وهل يستوي الممتحنون وغير الممتحنين؟ يغدو جلدهم الذي عُمد بالعصا جلدًا شريفًا نبيلًا؛ جلد أبطال ومغامرين: نحاسًا برونزًا فضةً، بينما تنكفي جلودنا التي لم تجتز الامتحان على نتونتها ورطوبة خمولها؛ جلدة كلاب.

هكذا هم أصحاب المآثر والبطولات دومًا. لا بد أن يتقاضوا مقابلًا للثمن الذي دفعوه. يستثمرون جلودهم كي يجنوا منها أرباحًا مضاعفة. يعود إلينا أبطال المغامرة ليغتصبوا مباشرة اعترافنا بتفوقهم، وتصير بطولاتهم وبالاعلى. عندها لا مفرّ، إمّا الخضوع أو التمرد والمصادمة. لكن للتمرد ثمنه أيضًا. والمناطقحة تتطلّب تضحيات في بعض الأحيان، خاصة إذا ما كان الواحد لا يتمتّع بالبنية الجسدية الكافية للمواجهة. عندها إمّا الخضوع مجدّدًا، أو القبول بالضرب وخسارة المعارك لكن دون خضوع وقبول بالهزيمة، حتى تحصل له سمعة «المرامدي» - الذي يقبل بالتمرّغ في التراب والأوحال ولا يستسلم، ولا ينفع معه أي عنف. عندها يتخلّى عنه المتحرّشون إمّا لكلل، أو ضجّرًا، أو لأنّه بدأ يحظى بشيء من التقدير لديهم لجرأته وتهوّره وعدم تراجعته أمام الضرب واللكم. وهناك صنف آخر، لا هو من الأقوياء والأسياد، ولا هو بالمستضعف الخامل خمولا تامًا، ولا هو بالضعيف المناطق العنيد. صنف القحاب المستأسدين، وهم عادة ممن تمّ إخضاعهم من قبل

الأقوياء، وتفانوا في إرضاء كل رغباتهم بما فيها رغباتهم الجنسية فحصلت لهم بذلك امتيازات المحظيات ومنزلة المحميات. لكنهما محميات ستحاول التمعش من منزلتها تلك واستعمال الحماية التي تحظى بها لتتعسف على آخرين من مرتبة أدنى في سلم العنف. كان رشيد من هذا النوع الأخير، أما العرفاوي فكان من نوع «المرامدي» لمدة من الزمن، ثم تحوّل من بعد بفضل فكاهته ومرحه وقدراته التهريجية إلى كائن مستقل لا هو من المعتدين والعنيفين ولا هو ممن يُعتدى عليهم. صداقتي مع العرفاوي نشأت في ظلّ اشتراكنا في صفة «المرامدي» لمدة من الزمن: الكدمة الزرقاء تحت العين والخدوش في الوجه والرقبة كانت علامتنا المميزة، وصمات تجعلنا أحيانا محل سخرية الفتيات مثلا، أو بعض الأولاد العاقلين، وفي بعض الأحيان تشير إلينا كمقاتلين شرسين. لكنها في جميع الأحوال شارتنا التي نتعرف بها على بعضنا؛ وسام استحقاق بصفة ما، والهوية التي تجعلنا نتعاطف مع بعضنا ونتقارب لنتحابب ونتعاضد... نشأ بيني وبين العرفاوي في البداية تعاطف المستضعفين المتمردين والذين لا تُكسر شوكتهم، ثم تطوّرت علاقتنا بتطوّر طرق تكيفنا مع ذلك الوضع عندما بدأنا نلتجئ إلى الحيلة والانتقام الماكر مع المحافظة دوماً على جانب الفكاهة والمرح من جهة العرفاوي، وعلى جانب التفوق في الدراسة من جانبي. كان العرفاوي يبيع المرح والفكاهة والضحك، أما أنا فكانت أبيع للمتعثّرين خدمات إنجاز بعض التمارين المدرسية، أو السماح من حين لحين لواحد بأن ينقل عني في حصص الامتحانات.

أتدري يا عرفاوي، إنني لم أغفر لنفسي إلى الآن أنني لم أرد على ضربة الرأس التي خبطني بها رشيد ذات يوم؟  
فغر العرفاوي فمه وظلّ يحذق في مباغتًا، ومتألّما في الوقت نفسه.

- يلعن دين أصلك! أما زلت تتذكر ذلك إلى الآن؟ كنت أظن أنكما قد نسيتما تلك الحادثة البعيدة، بل بدا لي أنك نسيته، كما نسيك هو أيضاً.

- أنا أيضاً ظننت أنني نسيته. بل إنها لم تعد إلى ذاكرتي إلا حين وقف أمامي هنا في بيتك. لم أنسه. ولا أظن أنه نسيني هو أيضاً. وبصراحة، سأظلّ دوماً لا أحبه مثلما كنت لا أحبه في الماضي. لا من أجل تلك الحادثة فقط؛ أنت تعرف أنه لم يكن من صفنا أبداً.

بدا لي العرفاوي قادراً - أكثر مني على أية حال - على أن يرفس الماضي، يدوس على كل ما لا يحب. يلمع حياتنا الماضية ولا يستعيد سوى البريق الذي تشع به ضحكته المجلجلة في طراوة عفويتها ونزقها ولا اكتراثها.. أحاول ملاحقته متعثراً في الأوحال والحجارة ونفايات كثيرة لم أزحها بعد. وبينما أنا أحلم بالثورة وقلب الأوضاع وتغيير المجتمع برمته، لا يريد هو أن يغير سوى حياة أمه حذّة. سيشتري لها عربة شاحنة، ويبني لها بيتاً جديداً. «يكفيها عراء وحفاء وبؤسا يا أخي! اشتري لها فساتين وأحذية من طراز رفيع وأنا أعرف أنها لن تلبسها. لكن لمجرد أن اشتري ذلك الحذاء وأنا أقول لنفسي هذا لحذّة، أشعر بسعادة عارمة. أراها في خيالي تقلّب الحذاء وتضحك وتقول: يلعن بو أصلك يا لزرق، خفيف الراس مثل ابّيك! ماذا أفعل في آخر عمري بهذه الأحذية التي صنعت لغير قدمي؟ ثم تبعها. تجمع الفلوس لبناء بيت عصري، لا ليس لها هي، بل لابنها لزرق، كما يحلو لها أن تسميني. تحلم لي بعرس لم يُعرف له مثل في بزّ تونس بكليته. في الليل تقلّب ذاكرتها، تستحضر صور الفتيات اللاتي تعرفهنّ جميعاً. وفي الغد تأخذ الحذاء وتذهب إلى بيت حبيبة أم منية.

- حبيبة أختي، أقسمتُ بالله وبأولياء الله أن لا يجي في رجل واحدة غير منية، وحببية تمانع، وحادّة تلخ وتحلف عليها بالله ونبية وأولياء الله أن تأخذه ولا تحرم منه منية: ادفعي بالتقسيط، عندما تستطيعين، وبالسعر الذي تريدان! وبعد هذا وكلّو منية بنتي، موش خسارة فيها هديّة من خالتها حدّة! تقذف إليها بالحذاء في حجرها وهي ترى بعيني خيالها منية تضرب بكعب الحذاء الباريسي على أرض أزقة الحومة ولزرق جالس على كرسيّ أمام عتبة البيت يرتشف قهوته وعيناه تلتمعان. ثمّ يدخل وينادي: أمي، منية بنت خالتي حبيبة كبرت! مخطوبة ولاّ لا؟ - آ، كبرت ومخطوبة. محجوزة وأمرها منته. أقسمت أنا وحببية أن لن تدخل غير بيت لزرق ولدي الغالي.

ثمّ تضحك وهي تفرك شعري وتضمّني.  
مجنونة حدّة، الله يطولّي في عمرها!»

## حرائق

موجة من الهيجان تهزّ أوساط الطلبة التونسيين في الأسابيع الأخيرة بسبب أحداث ساخنة في الجامعة بتونس. محاكمات تقود مناظلي اليسار بالميئات أمام المحاكم. النظام يضرب بعنف تجاوز كل التوقعات. إضرابات الطلبة تكاد تكون متواصلة على طول السنة الجامعية، مظاهرات في شوارع تونس. جيء بأعوان أمنيين يدعون بال«فيجيل»، أو حرس الجامعات، غدوا دائمي الحضور في الجامعة وفي المبيتات الجامعية. حراسة مشددة ومراقبة دائمة، توتر شديد والعنف قد أخذ منعرجاً جديداً. ذات ليلة هاجم الطلبة أعوان الفيجيل في أحد المبيتات الجامعية بالعصي والهراوات والحجر والسكاكين. أصيب العديد منهم بجروح خطيرة، ويبدو أن هناك من مات على إثر تلك الجروح. الحكومة تصعد حملتها القمعية مجدداً، وتضرب بعنف نادر. إيقافات إضافية مكثفة في صفوف الطلبة. البعض هرب مغادراً البلاد عبر الحدود الغربية والجنوبية.

رسالة حماسية تصلني مؤخراً من أحد الأصدقاء في تونس. تشنّج وانفعال يكاد يفلق الورق. صرخة دعر واستغاثة: دموع، صراخ المعدّبين في السجون والأقبية المظلمة، هلع الفتيات يقعن تحت أقدام أعوان الميليشيات ورجال البوليس، هراوات، عصي، خناجر، قنابل مسيلة للدموع، قوارير مهشمة تولج في الدبر، صعقات كهربائية في

الأعضاء التناسلية، قلع أظافر، حرق بأعقاب السجائر؛ «جسدي صار منفضة لأعوان البوليس السياسي» سيقول لي صديقي الهادي ذات يوم فيما بعد وهو يكشف عن ظهره وبطنه. «افعلوا شيئاً هناك في باريس أيها الرفاق. لا تدعونا لقمة لقتلة النظام الفاشي. دماؤنا ستظل في رقابكم.» قرئت الرسالة في اجتماع عام بالحَي الجامعي الدولي. تهيج الحاضرون. تعالى الصراخ والزعيق بشعارات التنديد والوعيد. أناشيد، شعارات، زعيق، شهيق، دموع ... رائحة العنف قادمة إلينا من بعيد تتسرب إلى الشرايين. رائحة دم تستفز، تهيج. يبدو أن الفكر الذي يريد التغيير وقلب الأوضاع يغدو خاملاً باهتاً إن لم يشتّم رائحة دم في مكان ما؛ يشحب، يلين، يرتخي، يصاب بنوع من الفتور والرخاوة تجعله شبيهاً بالكلاب التي تربت في الصالونات في حجور العجائز والسيدات الرقيقات. رائحة الدم تنشّط كلّ الحواس، وتوقظ كلّ الغرائز العدوانية المدجّنة بلطافة الجدل النظريّ الصرف. الدم منشّط من درجة أولى. لا يخدّر سوى الحراسة الذهنية؛ عسس العقل.

نحتقن، نهتزّ، نرتجّ؛ الثورة على الأبواب. أية أبواب؟ إنما نحن الآن في غمارها. ترتفع الأذرع ملوّحة في الفضاء: أناشيد حماسية، صراخ بكل ما لدينا من شعارات مولّعة لحرائق لن تنطفئ بعد الآن. حناجرنا تبخّ من فرط الصراخ والزعيق. نفخر بأصواتنا المبحوحة بعد الاجتماع العام أو المظاهرة في حيّ بلفيل. كفى كلاماً! صاح واحد بتشنّج وصعد المنبر ليقرأ قصيدة للشاعر المختار اللغماني الذي كان على فراش الموت آنذاك. شعارات من جديد، زعيق، تنديد، تحريض على المرور إلى الفعل... القاعة تغلي مثل المرجل. لا بدّ من القيام بشيء: مظاهرات، احتلال السفارة التونسية بباريس. هذا لا يكفي. لا بدّ من ردة فعل قويّة؛ العين بالعين والسنّ بالسنّ. اختطاف رهائن،

تخريب، حرق، شيء قوي، ضربة عنيفة. رسالة أخرى تروي أخبارًا عن اضطرابات في صفوف تلامذة المعاهد الثانوية، اضطرابات عمال شركة النقل وأساتذة التعليم الثانوي، تملل في قطاعات عمالية أخرى. الثورة على الأبواب، لا بد من المرور إلى الفعل. أي عمل؟ في أي مجال؟ وكيف؟ وتحت أية قيادة؟

أسئلة. أسئلة. أسئلة، ونحن خائفون أن يمرّ قطار الأحداث ولا نركبه. أن نفوت الموعد. نناقش ونعيد نقاش المسائل نفسها كل ليلة، نتخاصم، لا ننام، نهجر الدروس في جامعاتنا. أية دروس؟ وأية جامعات والدنيا من حولك مشتعلة والعدو يترنح الآن! إنها الفرصة المؤاتية. نكاد نتبادل التهاني، بل نتبادل التهاني بعد اجتماع عام تؤكد لنا جلسات التقييم أنه كان حماسيًا وناجحًا، بعد مظاهرة في شارع بلفيل لوّحنا أثناءها بأذرعنا في وجوه المهاجرين نستحثهم على النهوض والاستفاقة من نومهم «فيق يا شعب!»، كي لا يفوتوا على أنفسهم فرصة الالتحاق بالثورة المتأججة الآن، نبتسم لهم ونحن نمر بالقرب منهم بأذرعنا الملوحة في وجوههم وقبضاتنا المرفوعة وأصابعنا التي ترسم علامة النصر. عيوننا لا ترى، أو لا تريد أن ترى علامات التعجب والحيرة على قسّمات وجوههم، أو علامات السخرية من موكبنا المعربد في هيجان يبدو لهم مجانًا وجنونيا. لا نحفل بتعليقات بعضهم: لو تابعتم دروسكم واهتمتم بمستقبلكم ومستقبل بلادكم لكان أفضل من هذا الجنون! نشفق عليهم وعلى جهلهم: لا تؤاخذهم يا إله الثورة فهم لا يدرون ما يفعلون، ولا ما يقولون.

نسيت سان دني والعرفاوي والشانزليزي وجوزيفين، وأصبحت شبه مقيم في بيت الرفيق حميد بشارع سان جاك. سمعت بعودة أحد



أصدقائي من تونس. هرعت لملاقاته. كيف أخبار البلاد؟ أحك لي ما الذي يحدث هناك؟

- البلاد كما تعرفها. ولا شيء مما هو غير معتادٍ يحدث.

- لا شيء؟

- طبعًا، لا شيء غير ما تعرفه من روتين الحياة العادية. الناس يعملون، يأكلون، ينامون، يسكرون، يصلّون، يلعبون الورق في المقاهي، يتناسلون. ماذا تريد أن يحدث غير هذا؟ تزوّجت أختي مؤخرًا. زوجها موظف عادي لكنه أقام حفل زفاف فاخرًا ومكلفًا في فندق سياحي كبير، فرقة موسيقية محترفة، بيّرة، نبيذ، ويسكي بلا حساب، مثل أنهار الجنة. ما لا يقلّ عن خمسمائة مدعوّ، فتيات مثل الورد، سيّدات أنيقات لا أدري من أين طلعن، فساتين حرير وساتان وديكولتي كما ترى في أفخر الأماكن هنا في باريس. هناك بعض جرائم قتل عنيفة وجديدة في نوعيتها بدأت تظهر في المدن الكبرى خاصة. واحد قتل عشيقته ثم قطعها أجزاء وضعها في أكياس من البلاستيك ورزّعها على صناديق النفايات في مختلف أنحاء المدينة. القلط والكلاب هي التي جلبت الانتباه إلى تلك الكميات الغريبة من اللحم التي كانت تتخاصم عليها في العديد من الأزقة. في مدينة نابل لا حديث للناس إلاّ عن شخص غامض يدعونه «السفّاح»، يختطف الفتيات، يغتصبهنّ ثم يقتلهنّ خنقًا. لصوص الدواب أصبحوا يتنقلون بين الأرياف بشاحنات! «مودرنيزم!» علق مقهقهًا. رسائل الرؤى الكارثية التي تحدّث بنهاية العالم في العقد الأخير من هذا القرن. أيّ قرن؟ المسيحي أم الهجري الإسلامي؟ لا أحد يعرف ذلك بالتحديد. ثم هناك صالحة، صالحة المتطببة التي تعالج الميثوس من شفائهم في قريتها البعيدة بالقرب من

مدينة القصرين. الناس طوابير أمام بيتها. سيارات قادمة من كل أنحاء البلاد، من الجزائر وليبيا أيضاً. هناك طيبة أخرى ظهرت في نفزة بشمال البلاد وواحد آخر في مدينين بأقصى جنوب البلاد، لكن صالحة هي أشهرهم جميعاً.

- دعنا من هذه الخرافات البايخة، هل هناك ...

- سألتني عمّا يحدث، هذا ما يحدث. الدنيا قائمة قاعدة بهذه الأخبار، في البيوت في المقاهي، في مكاتب الإدارات، في البارات حتى في ماخور عبد الله قش.. بالمناسبة، تم غلق ماخوري «النخيل» و«الدار الكبيرة»، لكن لا حديث للناس تقريباً إلا عن معجزات صالحة وما يحفّ بها من حوادث جانبية. هناك يلتقي اللابس والعريان مثلما يقال، مجرمون، لصوص، تجار مواد غذائية ومشروبات، دكاكين سندويتشات ارتجّل افتتاحها بسرعة لأنّ الناس يظّلون أسبوعاً كاملاً وأكثر هناك في انتظار أن يأتي دورهم، بلا أكل ولا شراب، لا أغطية ولا أفرشة، المحمولون على ظهور الحمير والبغال، والمستلقون فوق عربات عتيقة تجرها الدواب، والمحمولون على اظهور الحمير ملفوفين في حصر بالية، العمي والمفلوجون والمعاقون والمصابون بأمراض خبيثة يصعب تحديدها وقد عجز الطب عن معالجتها، ستليهم فيما بعد أفواج من العاقرات والمصابين بالفتور الجنسي وسوء الهضم والتهاب المجاري البولية والقبض المزمن واضطراب الدورة الحيزية... والمرأة الطيبة هذه لا يُعرف عنها سوى أنّها ترمّلت في الثلاثين، ويقال إنها لم تعرف رجلاً بعدها سوى الولي الصالح (سيدي عبد القادر الجيلاني يقول الكثيرون، وآخرون يزعمون أنه سيدي بن عيسى المغربي) الذي يأتيها في المنام، وربما بين اليقظة والمنام، والعلم لله!.. قيل حبلت منه بالبركة وكرامة المداواة. وقالوا على يدها المباركة استقام الأعرج

وجرى، والمفلوج تعافى، والمصروع برأ، والمصاب في النفس نهض إلى زوجته فأنجبت، وكلّ ما حير الأطباء انقشع وانجلى. والمرأة الطيبة لا تفعل سوى أن تبصق على موضع الداء وتمزّر كفها عليه تمسّده قليلا وإذا المشلول يقفز كالأيل والمعتهو يصير عاقلا حكيما والذي في أمعائه داء تقيأه وطابت حالته والمُقعد نهض وركض. كلّ ذلك بفضل بصاقها المبارك.

لم يمرّ أسبوع حتّى غدت ساحة بيت صالحة سوقا قائمة. قلت لنفسي لن أفوت هذا المشهد وأنا في عطلة بالبلاذ، سافرت إلى هناك لأرى الأمر بعيني. فعلا سوق فيها الشواؤون وبائعو الليموناضة والمشروبات الغازية ومطاعم مرتجلة لحمص اللبلابي ومرق الكررش والكوارع والفاصوليا والكفتة والمرقاز، طاولات للقهوة، عربات يدفعها أطفال وكهول، صواني على رؤوس عجائز حافيات فوقها المقروظ والغريبة والفطائر والقطائف والشطائر المشخّرة بالزبدة والعسل والزلاية وهريسة اللوز التي تقطر بسائل ثخين من السكر، وفوق الكلّ تطنّ جحافل من الذباب والنحل والزنابير يطردها البائعون بمناديل مبقّعة بالزيت والسكر وموادّ أخرى غامضة تبعث في الهواء رائحة عطنة دسمة لا تفعل سوى استثارة واستدراج المزيد من الذباب والبعوض والنحل والأطفال الجائعين وشيوخ وعجائز من القادمين للتداوي وقد وجدوا أنفسهم في مخيم حافل بالزعيق والصراخ وأنين المرضى وتضرّعات دراويش ومنتسولين يدعون للمتصدّقين بالشفاء وبرحمة الله ومقاعد وثيرة في الجئة؛ جلبة يوقّعها صراخ المتخاصمين وبكاء الرضع وهدير محرّكات السيارات في ساحة شاسعة متربة تتعالى منها عجاجات من الغبار والقشّ ومزق الكواغذ وأشلاء بلاستيك بألوان عديدة، عاجّة بروائح الكزبرة والكمّون والبصل والثوم والشاي المنعنع والفانيليا وزفر

الزيوت المقلية والأدهان والكرش ورؤوس الخرفان وكوارع البقر وروائح بخورات جاوي ونذّ وعنبر فاسي ولبان ذكر وصندل سوداني وديزل محروق وصنان رجال لم يغتسلوا لأيام عدّة، وروث حمير وبغال ناعسة تحت أشجار الكالبتوس الغبراء.

- يا رجل، يا...

لا يسمعي، لا يريد أن ينتبه إلى انزعاجي وقرب نفاد صبري، ويستمر في سرد حكايته بحماس غريب: تدخلت الحكومة في البداية لمنع تلك المرأة الأمية من تعاطي نشاطها الطبّي الرّعواني المحظور والمناهض لحملة التنوير والتثقيف الصّحي التي ما فتئت تدعو إليها منذ الاستقلال. لكنّ الناس ظلّوا يتوافدون على كوخها ولا يريدون الانصراف، ثم بدأ شيء من التملل بين الحشود تموجت ذبذباته عبر القرى المجاورة ثم بلغت ضواحي المدن، وبدأت الدوائر الأمنية تشتم رائحة توتر وشغب يلف في الهواء. تراجعت الحكومة عن قرار منعصالحة من تعاطي طبّها المحظور بعد أن زارها وفد من الأطباء تبين لأعضائه عدم استعمالها لأيّة موادّ مضرّة أو مهلكة. وقررت السلطة أن تبقي على أعوان الحرس هناك لحفظ النظام وحماية المواطنين المرضى بعضهم من بعض بعد أن أقنعوا صالحة ليس دون عناء بترفيح مبلغ المكافأة إلى خمسة دنانير والحال أنّها كانت مصرّة على ألا تتناول أكثر من المبلغ الرمزي للخمسين مليماً التي أوصاها بها الوليّ الصالح الذي ظهر لها في المنام وأعطها البركة والأمر بالمداواة. أفتى لها أحد الشيوخ الذي قدم إليها خصيصاً من مدينة القيروان بما يبيح ترفيح المبلغ على أن لا تتسلم منه غير الخمسين مليماً والبقية يتسلمها عون من إدارة المالية سيقف بنفسه على باب عيادتها يستلم الأجرة ويوزّع على الناس وصولاً مختومة من وزارة المالية...

- طيب، لكن هل أنت متأكد؟ متأكد أن البلاد آمنة، دون حوادث،  
مظاهرات، اشتباكات ...

- ألا تكفيك هذه المظاهرة الهائلة المتجددة عند صالحة؟ الحياة  
الوطنية كلها بسرقاتها، وخصوماتها، بيعها وشرائها وتهريباتها،  
مضارباتها، المغازلات والتحرشات والاشتباكات بالأيدي والعصي  
والهراوات والسكاكين، كلها هناك عند صالحة...

- لا، قصدي... إضرابات... مواجهات بين الأمن و...

- عادل، أنا عائد من تونس وليس من فييتنام أو من لبنان يا أخي!  
مالك تسأل أسئلة غريبة هذا اليوم؟ تعال معي إلى البيت فقد جلبت كمية  
من الكسكسي وسمكا طازجا وهريسة بلدية وبرتقالا وشراب البوخا  
الذي تحبه.

خيبة أمل. شيء من الاحباط سرى إلى عظامي حاولت أن أدفعه عني  
وأنا أقول لنفسي: هذا واحد غبي، أعمى، بليد. صالحة، وطب  
رعواني، وأخبار جرائم ومواخير وتفاهات!

وأنا أسير متعثرا في هذه الهواجس التي بعلي في شارع سان ميشال  
في طريقه إلى ساحة السوربون على ما يبدو: وين ها الغيبة يا هزاب، يا  
نكار العشرة؟

آية عشرة وبطيخ؟ فكرت. البلاد قائمة قاعدة وهو يحكي لي عن  
العشرة والمسائل البايخة!

الدنيا قائمة قاعدة في دماغك لا أكثر ولا أقل، قال لي علي مكشرا  
بابتسامته الجانبية الساخرة. هاهو الواقع أمامك، ذلك الذي حدثك عنه  
صاحبك العائد من تونس. ذلك هو الصحيح. أنت وأصحابك الثوارين -

عبارته الجديدة التي أصبح يحب أن يطلقها على الثوريين - تستمنون في  
غرف الخدم المعلقة في الطوابق العليا لعمارات باريس وتحلمون  
بثورات وانتفاضات وجماهير تهتف بأفكاركم الثورية ونظرياتكم  
الوهمية، والجماهير هناك تهتف باسم صالحة؛ امرأة أمية بسيطة لكنها  
تداوي أمراضهم التي حارت فيها الأطباء، أو على الأقل تمنحهم الأمل  
في الشفاء والعافية. ها هي الجماهير تقول لكم: طز فيكم وفي هرائكم،  
وخذوه في كذا كذا ... تريد الالتحام بالجماهير؟ ها هي الجماهير، يقول  
لي ونحن نلج عتبة البار. هنا على الأقل يسكرون ويعربدون ويضطربون؛  
يعني يعيشون نوعا ما. لم تريد الذهاب إليهم في المصانع؟ لن تجد  
هناك سوى آلات. آلات من لحم ودم - لحم ودم فاسدين - لا فرق بينها  
وبين آلات الحديد غير الكلام، أعني الكذب، المداهنة والدسائس  
الرخيصة.

يزعجني علي في مثل هذه اللحظات. يبدو لي مثل مفسد الأفراح.  
أبتس، أتوتر، أنكمش على غيظي وأظل أنتظر اللحظة التي سينتهي فيها  
لقاؤنا كي أفر منه لا أعود للقاءه أبداً. ومع ذلك أعود إليه، إن لم يكن  
هو الذي يأتي للبحث عني.

كان علي أن أقبل به كما هو. كان غامضاً وشفافاً في الآن نفسه،  
وكل تلك الأفكار والسلوكات الغريبة التي تجعل شخصيته شبيهة بلغز  
كانت تخلبني وتجذبني أكثر مما كانت تنفّرني بعض حماقاته. حالته  
المتوترة على الدوام، الصخب الذي يملأ به المكان؛ كل مكان - عدا  
غرفته التي تحتضن صمته، ونحيبه شبه المكتوم في بعض الأحيان -،  
طبعه المتفجر، هيأته التي توحى بالاستعلاء والغرور، مشاحناته التي لا  
تنتهي، سبابه وشتائمه الفاجرة، ضحكته المصلصلة، تصعيراته الشبيهة  
بتكشيرة حيوان مفترس مستعدّ للانقضاض، كل تلك الأشياء التي كنت

أبدي تبرّمي منها هي بالذات التي كانت تخلبني وهي تتراءى لي مشعة بطاقة شبيهة بتلك التي تشعّ بها كيانات الأبطال التراجيديين ضمن صراعهم المتوحد الذي نُكبره ونجلّه فيما نحن ندرك أنّه لا يؤدي بهم سوى إلى حتفهم الذي لا مردّ له. لعل ذلك هو ما يجعل حتى خصومه الأبديين - أولئك الذين لا يكفّ عن التحرش بهم ومشاكستهم في حانات سان دني، ولا يكفون بدورهم عن مناوشته واستفزازه - لا يفلحون إلاّ بعسر في إخفاء إعجابهم وحتى افتتانهم به واشتياقهم لرؤيته.

وراء الواجهة الصاخبة كنت أستشف روحاً متعبة، قلقاً راسخاً في الأعماق وحساسة مرهفة حدّ الانكسار. حتى عيناه السوداوان الصغيرتان اللتان بدتا لي في البداية تشعان بكثير من الحدة والاستعلاء، هما أيضاً قد كشفتا لي عمقا آخر من خلال غشاوة الحزن الطرية التي تلفهما في حالات الصفاء، عندما يكون كئيبا، أو عندما أفاجئه أحيانا - في العشيّة غالبا - يدخنّ وحيداً في ركن من المقهى الذي يكون شبه خال من الحرفاء في مثل تلك الساعات؛ عندما لا يكون له من موجب للتحصّن، أو عندما يخلع عنه قناع الصلابة والعدوانية ويؤوب إلى صقيع وحدته.

## مقهى ليشكوليه

في مقاهي المهاجرين في بلفيل وبازباس، في الأسواق وفي مبيات «السوناكوترا» التي يتكدس في غرفها الضيقة المهاجرون العزاب لا حديث للعمال التونسيين إلا عن صالحة المتطيبة. كنا نعرض عليهم مناقير سياسية فيها أخبار عن هرج الجامعة والاضرابات العمالية وحملات الاعتقال، فيها التنديد وفيها دعايات، وفيها دعوات للمساندة، وفيها كل ما من شأنه أن يجعل الكثيرين من أولئك المغترين يشعرون للحظة بضرورة حزم أمتعتهم والسفر فوراً لزيارة الأهل والاطمئنان عليهم قبل أن تعصف بالبلاد ريح طاحنة تجعل سافلها في أعاليها، وقد تغلق الحدود بسبب ذلك ويمنع الدخول والخروج. يتوقف البعض منهم بين الحين والآخر إما مستفسراً أو معلقاً، أو لنفي ما تحويه مناقيرنا من أخبار مفعجة، وتكون لنا معهم نقاشات، وأحياناً مشاجرات. كلهم لا يسألوننا الآن إلا عن صالحة: هل سمعتم عن صالحة؟ هل صحيح ما يروى عن هذه الطيبة التي ظهرت في جهة القصرين؟ وهناك من يروي لنا تفاصيل كثيرة عن كراماتها الخارقة، عن حياتها ونسبها و عما يحدث الآن في ساحة بيتها وفي قريتها البائسة الملقاة بين الجبال.

نعود بمناشيرنا التي بارت بضاعتها أمام كرامات صالحة ومعجزاتها، متعبين، قلقين ومحبتين شيئاً ما. يتلقفنا الرفاق المتمترسون وراء صلابة



النظريات الثورية، والذين لا يكادون يغادرون بيوتهم الخفية عن الأنظار، فيلقنونا درسًا جديدًا في ضرورة المثابرة على العمل الدعائي، يشرحون لنا مسائل معقدة في العلاقة الجدلية بين الدعاية والتحريض، وأولوية هذه على تلك بحسب الحالات ومستوى الوعي ونضج الظروف الموضوعية. نتلقى الحقنة الإديولوجية المنعشة لننتقل في الغد باتجاه حي آخر محمّلين بمناشيرنا وجريدة التنظيم التي لا يشتريها منا أحد، حناجرنا مرطّبة الآن بدهن الدرس الإديولوجي الجديد في انتظار خيبة أخرى وهزيمة جديدة وحصّة إضافية من النقد والنقد الذاتي وإعادة التقيف...

يلعن دين صالحة، ودين المهاجرين الجهلة، ودين الالتحام بالجماهير! لا بدّ أن أغسل دماغي ببيزتين في أحد بارات الحيّ اللاتيني. قد ألتقي بجميلة الجزائرية هناك وهي عادة ما تكون محاطة بعدد من الطالبات تلعلع بينهنّ بصوتها الحادّ: لا أسمع لأية واحدة منكنّ أن تتشذّق أمامي بالكلام عن المرأة المتحررة. من منكنّ عرفت من هي المرأة الحقيقية؟ المرأة المكافحة الشديدة المتينة، لا قحاب الحركات النسوية بباريس: <sup>(١)</sup> *La femme algérienne, c'est ça la femme: la vraie femme émanicipée*. جميلة من ذلك النوع من النساء حادّات المزاج اللاتي يحملن ألسنتهنّ مثل سياط من لهب. تكبرنا بما لا يقلّ عن عشر سنوات، وهي في الحقيقة قابلة، لها وظيفتها القارّة بإحدى المصحات، غير أنّها ملّت، حسب عبارتها الخاصّة، النظر على الدوام إلى النساء من تحت، فقرّرت أن تسجّل بشعبة علم الاجتماع بجامعة باريس الخامسة

(١) المرأة الجزائرية هي المرأة حقًا، المرأة المتحررة الحقيقية!

حيث تعرّفنا عليها. وهي على العموم بإمكانها أن تكون فكهة ومرحة وكريمة علاوة على ذلك لا تكلم عن دعوة الجميع على كأس، ومن حين لحين تدعوني إلى غداء أو عشاء بأحد المطاعم الصينية في شارع سان جاك أو شارع كوجاس المحاذيين للسربون. تحبّ أيضاً تنظيم حفلات شواء ببيتها، هكذا بمناسبة أو بدون مناسبة تدعو إليها عددًا من الطلبة والطالبات وبعضًا من الأساتذة. في تلك الأماسي تُسكب كميات من النبيذ الأحمر لتنقيع كميات لا تقلّ عنها كثرة من كوستيليات الخروف والمرقاز (المقاتق) المشويّ. تبدأ السهرة عادةً بنقاشات ذات مستوى فكريّ جيّد، خاصة إذا كان بين المدعوين واحد أو إثنان من أساتذتنا. نخوض في مواضيع سوسولوجية وفكرية متنوّعة، ثمّ ينزلق النقاش رويدًا رويدًا باتجاه الإديولوجيا، فالسياسة كي ننتهي إلى موضوع جميلة المبجل: المرأة الجزائرية ودورها الريادي في حركة التحرّر الجزائرية. عندها نعرف أنّ السهرة قد انعرجت باتجاه التحرّشات والاستفزازات وكذلك الكثير من الدعابة والمرح والضحك، قبل أن تنتهي بخصومة تفتعلها جميلة مع واحدة من الطالبات ثمّ تنتقل من هذه إلى تلك، ثمّ إلى هذا الذي بدا لها فجأةً ذا نزوعات سلطوية ذكورية، أو ذاك الذي تراه مائعاً أكثر من اللزوم أو غير نقّي من الآراء المسبقة ذات الصبغة الاستعمارية، إلى غير ذلك من التهم التي يخجل لها كلّ طالب أو مثقّف يدعي لنفسه شيئًا من التقدّمية والتحرّر الفكري.

لو أنّني أعرّ الآن على جميلة في مقهى ليسكوليه وسط كوكبة من الطالبات ستكون أجمل هدية أو مكافأة لي بعد هذه الأسابيع الطويلة من الهيجان ولغظ الطلبة المناضلين وهراء العمال المهاجرين. لكن عليّ أن

أسعى قدر الإمكان لفرض طابع مرح وعابث على الجلسة كي لا ندع فرصة لجميلة لترجمنا ببطولات المرأة الجزائرية مرة أخرى.

- وينكم؟ وين؟ وين أنتم كلكم؟ منذ ثلاثة أيام وأنا أجوب المقاهي ولم ألتق أحدًا منكم!

وجدت المولدي وليس جميلة في مقهى ليسكوليه بساحة السوربون. كان جالسًا إلى حسن الذي نلقبه بالفيلسوف.

هكذا هو المولدي دائمًا، يغيب عن الأعين شهرًا، شهرين وأكثر وعندما يبرز فجأة يقلب الدنيا، كما لو أنّ الناس كلهم هم الذين غادروا البلاد دفعة واحدة وتركوه هناك وحيدًا. لا أحد يعرف أين يختفي، ومن أين يبرز فجأة، وهو منذ انفصاله، أو فصله من التنظيم قد غدا مثل طائر مهاجر؛ مرّة في سترازبورغ، ومرّة في نانت، أو برلين أو أمستردام، وأحيانًا يدّعي أنّه عائد للتوّ من نيويورك أو هونغ كونغ. في كلّ عودة يأتي مشحونًا بأفكار جديدة وحكايات غريبة وسباب وشتام ضدّ الرجعية والرأسمالية والإمبريالية ودوغمائية الأحزاب اليسارية عامة. يظلّ لأسابيع يركض من بار إلى بار في الحيّ اللاتيني، يلتقي بمختلف أصناف الحركة اليسارية التونسية، يتخاصم، يشتم، يركز لنظريات جديدة ويشرّ بكتب وأفكار مجهولة لدى أغلب هؤلاء: هوركايمر، هابرماس، حتّا أرندت، هربرت ماركوز، أدورنو، فالتر بنيامين. هؤلاء هم أنبياءه الجدد في المدة الأخيرة، وفوق الجميع فيلهلم رايش الذي يستشهد بنظريته وتحاليه وهو يركز بين اليساريين للتحرّر الجنسي كقاعدة أساسية للوضوح الفكري. بعد أن يشبع خصومات وجدالات يختفي مجددًا، هكذا فجأة ودون سابق إنذار. لكنّه عندما يريد أن يأخذ له في الأثناء هدنةً في معركته الدائمة مع الطلبة اليساريين يأتي إلى مقهى ليسكوليه

ليلتقي بحسن الفيلسوف الذي يجلس هناك على الدوام ولا يكلم إلا عددًا محدودًا جدا من الناس.

حسن لا يكاد يغادر مقهى ليسكوليه، تراه يقرأ وحيدًا أو يجلس صامتًا لساعات طويلة، وعندما يطلّ عليه واحد من الطلبة الملتزمين يشير بيده من بعيد أن مرّ ولا تتوقف. لا أحد يعرف أين يسكن. ولا ماذا يأكل. يشرب قهوته السوداء صباحًا ولا حاجة له في أن يعرب عن طلب؛ حالما يدخل محيّا صاحبة المقهى بحركة مقتضبة من رأسه تبدو كما لو كانت ملفوفة في غبش النوم، تسارع بإعداد قهوته ثم تضعها أمامه على طاولة الركن الخلفي الذي يحبذ دومًا الجلوس فيه. تتفقدّه كلّ ساعة تقريبًا بقهوة سوداء إضافية. عصرًا يفعل الجرسون الطويل النحيل نفس الشيء، لكن بالبيرة هذه المرّة. لم نره يومًا واحدًا يدفع حسابه. ولم يقبل ولو مرّة واحدة أن يدعوه أحد على شراب. كان يجيب دومًا بكلّ لطافة: شكرًا، لا تزعج نفسك. عندي اشتراك شهريّ قاز. وهل رأينا مرّة واحدة ماذا يقرأ؟ أبدًا. يخبئ الكتاب عندما تقترب منه، وإذا ما تجرّأ واحدٌ وسأله عمّا يقرأ، يجيب بحدّة واقتضاب: ما هذا الفضول يا سيد؟ هل نحن في عهد محاكم التفتيش؟ لا يفارق معطفه الأسود الطويل أكثر من شهرين في السنة على أقصى تقدير. يقول عنه إنه عباءة البركة. قال لي المولدي بعدها إنه يستعمله لتخبئة الكتب التي يسرقها من المكتبات المجاورة.

لا يرحب حسن إلا بالمولدي. ولا يقبل بأن نجلس إليه أنا وحسني إلا عندما نكون بصحبة المولدي. له حساسيّة جلديّة ضدّ السياسة والأيديولوجيات عامّة، واليسارية منها على وجه الخصوص. يرّد دومًا أنّ فلاسفته ومعلّميه هم عمر الخيام وحافظ الشيرازي وأبو نواس وابن الرومي ولوقيانوس والشيخ النفزاوي صاحب «الروض العاطر في نزهة

الخاطر» والتيفاشي، والوهراني صاحب «المقامات والمنامات» وجلال الدين الرومي وابن عربي.

له أيضاً صداماته مع المولدي الذي يبدو له مشوّشاً بالأفكار اليسارية.

- لكننا في مرحلة معركة للخروج من التخلف والتبعية، أعتقد أنك ستستطيع مواجهة الإمبريالية الحديثة بعمر الخيام وحافظ الشيرازي وابن عربي والسهروردي؟

- أجل، بهؤلاء سنواجه كل أنواع التبعية، وعندما نعيد بناء أنفسنا على قاعدة من محتوى فكري وفني عميق، عندها سيمكننا أن نواجه مهمات الخروج من التخلف. ويساركم هذا الذي يتخذ مرجعية له في فلسفة البطون الجائعة لا يستطيع أن ينتج ثقافة ومعرفة.

- الفكر اليساري، أحببت أم كرهت هو فكر العصر، والثقافة العربية الغارقة منذ قرون في التحجر والانحطاط ليس لها من إمكانية للنهوض وإعادة بناء نفسها إلا من صلب الفكر اليساري وعن طريق اليسار.

- انطلاقاً من كتاب رأس المال، قرآنكم الجديد؟ هناك مبدأ فلسفي وطبي صيني قديم شهير يقول بأنه لا ينبغي على المرء أن يتغذى إلا مما ينبت فوق أرضه، وبه أيضاً يعالج أمراضه.

- معاداتك الجذرية للماركسية وكل الأفكار اليسارية تصب بالنهاية في طاحونة الرجعية وتعيق حركة...

- طاحونة! قاطعه بحدّة وهو يدفع بكفه كأس البيرة ومطفأة السجائر كما لو كان يريد أن يكس الطاولة التي أمامه. دع عنك هذه اللغة البليدة إن كنت تريد أن ترتقي إلى مستوى نقاش رفيع؛ ما من صبّ هناك ولا مصبّ ولا طواحين، ولا أنا بطحان، والآن استمع إليّ جيّداً:

لا أنا من اليمين، ولا أنا من اليسار؛ لا أنا من الشيوعية، ولا أنا من  
الرأسمالية؛ لا أنا من القديم، ولا أنا من الحديث؛ لا أنا من الكفر، ولا  
أنا من الإيمان؛ بل أسبح «في برزخ بينهما فلا يبغيان».

عندما يثقل عليه نقاش يبدو له أنه طال أكثر مما ينبغي يستدير بظهره  
عن مجالسيه ويرفع عينيه إلى السقف مردّداً:

«هيهات لمن يسعون في الحياة بفكر وعقل،

فإنهم إنَّما يحلبون ثوراً.

أصوب رأياً منهم أولئك الذين اتخذوا البلاهة ديدناً

في زمن لا يباع فيه العقل الناصح بقبضة من العشب.»

ثم يلتفت إلى المولدي أو منذر الباجي الذي كان اسم ابن رشد لا  
يفارق لسانه: لم يفهم صاحبك ابن رشد الفقيه المالكي شيئاً من هذه  
المسائل وما كان له أن يفهم مثل هذه الأمور، لذلك وقف وقفة  
المذهول الداهش أمام الفتى ابن عربي لا يفقه مما كان يقوله له شيئاً.  
كان ذلك اللقاء كارثة على الفيلسوف الفقيه العقلاني، بينما الفتى كوكبة  
من نور أمامه، متوقّداً كان بلهب روح العرفان: تقاطعا ولم يتحاورا.  
الفلسفة العربية! يا للفلسفة البائسة في لهاتها المحموم وراء تركيز النظم  
وترتيب العالم، وهوسها بمحاصرة الفوضى الكونية الواقعية بأوهام  
النظم والمنظومات! من أين لنا بواحد مثل لوقيانوس ليفضح أكاذيب  
أولئك الفلاسفة وادعاءاتهم وتهافت عملهم؟ لوقيانوس لا أبو حامد  
المتهاافت بمثل تهافتهم. أبو نواس أكثر حكمة وعمقاً من كل المشائين  
والمعتزلة والمتكلمين؛ هو الذي سخر منهم جميعاً بتلك المقولة  
الرائعة:

قل لمن يدعي في العلم فلسفة  
حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء.

هي ذي فلسفة وجود أصيلة. إنسانية - جد إنسانية.

مع حسن تكون للمولدي، إلى جانب المشاحنات والنقاشات الحادة حول ماركس وهيغل، نقاشات عن أفلاطون وأرسطو ولايبنتز وسبينوزا وشوبنهاور والفلسفات الهندية والصينية القديمة. وعندما يكلاّن من التسكّع في رحاب الفلسفة الكونية يتخلّصان إلى الشعر عن طريق عمر الخيام دائماً، ثمّ أبي نواس، قبل أن تنتهي جلستهما إلى طراوة الدردشة المرحّة المبهّرة بالنكات الفاجرة وطرائف المُلح الجنسية وعينا المولدي السوداوان النشاطان تدوران الآن بخفّة في محجريهما، تلتهمان نهود وأفخاذ الحريفات وهنّ عادة من طالبات السربون اليافاعات، بينما عينا حسن الغائرتان بعيداً وراء نظارتيه تغوصان أكثر باتجاه الداخل متمرّغتين في عالم فنتازية رغباته التي تحوّلت الآن هذياناً شبيهاً داعرًا ومليحًا ملاحه قصائد أبي نواس وممتلئة في الآن ذاته امتلاء أشعار الخيام. قدیسُ مرح داعر، عميق وشبقي.

كانا يتحدثان عن صالحة المتطّية! بل المولدي هو الذي كان يتكلم  
وحسن ينصت بشيء من الضجر والتبرم.

- تمام، تمام! نطق حسن أخيراً وهو يتسم بخبث، أما أنا فأنصحك  
يا مولدي، أنت وأصدقاءك اليساريين المؤدلجين حتى النخاع (ولم يغفل  
عن قذفي بنظرة سريعة، كما لو كان يقول لي: وأنت واحد منهم) أن  
تذهبوا جميعاً إلى صالحة هذه وتدعوها تبصق في أدمغتك كي تشملكم  
بركة الوليِّ ورحمة الله، ويرفع عنكم هذا الكابوس الجاثم على  
عقولكم، فتفتّح أذهانكم وتعافون.

وضع الجرسون بيّرة جديدة أمام حسن فكانت فرصة كي ينسحب من ذلك الحديث الذي غدا يضجره. تناول الكأس ورفعها متغنّيًا بصوته الرخيم الناعس:

فرّح قلبك وروح نفسك بكأس عقار تُسقاها؛

دع عنك ذكر الماضي ولا تحفل بالآتي،

واطلق سراح هذه الروح المستعارة،

وفكّها من قيود العقل والمنطق.

ثم انطلق في سرد وقائع ونوادير من حياة عمر الخيام.

\*

لحسن قدرة فائقة على ضرب سياج واق من حوله وعلى تجاهل الآخرين بطريقة تجعلهم لا يجرؤون على الاقتراب منه في زاويته الدائمة في مقهى ليسكوليه. أحيانًا يكون غارقًا في القراءة منشغلاً عن كل ما يدور حوله، وأحيانًا يبدو ساهمًا ينظر إلى الفراغ في حالة من الغياب الكلّي. لكنه كان يسمع كل ما يدور من حوله من نقاشات، بصمت ودون أن يرفّ له جفن. كنت معجبًا بكثير من أفكاره ومقولاته، لكنني لا أرتاح إلى غروره وطريقته المتعالية التي يتعامل بها معنا وأسلوبه الكلبيّ الساخر الذي ينحو إلى الهزء أكثر مما يدعو إلى الحوار والمجادلة. ذات مرة ناداني وأنا أهمّ بالخروج من مقهى ليسكوليه بعد أن ألقيت نظرة ولم أر أحدًا من أصدقائي هناك، لا حسني ولا المولدي ولا حتى جميلة الجزائرية: تعال يا متمركس، تعال! أتذكر تلك الحكمة الطبية الصينية التي حدثتكم عنها ذات مرة؟ أنت وأصحابك تلتهمون من كل شيء دون فرز. أتدري ما هي مشكلتكم، أنتم وكل المتمركسين العرب؟ إنكم تأكلون مما يفلح غيركم عوضًا عن أن



تتملكوا بالمنهج والأداة وتفلحوا أرضكم بأيديكم. اذهب الآن تصحبك السلامة.

لا أدري لِمَ عن لي فجأة أن لا أسكت عن استفزازه هذه المرة. كفى من هذا التسلط الأبوي الذي يمارسه علينا، قلت لنفسى، اليوم سأكسر رقبة تعاليه وغروره. عدت إليه وأنا أنظر بهدوء في عينيه الغائرتين وراء نظارتيه السميكيتين:

- يا سي حسن، أولاً، من يضمن لك أن صاحبك الحكيم الصيني هذا قد قال فعلاً هذا الكلام؟ وأنه ليس كلاماً مما يلقى لغايات بعينها وينسب إلى حكماء مزعومين؟ ثانيًا، ما الذي يجعلك تأخذ كلام هؤلاء الحكماء الصينيين كما لو أنه كلام منزل منزّه من الخطأ؟ ثم إن هؤلاء صينيون، أليس كذلك؟ أي أنّ الحكمة التي تستقيها منهم ليست من نتاج أرضك هي أيضًا. ألا ترى أنك تناقض نفسك في جملة واحدة؟

ثالثًا، لِمَ تنكر علينا نحن إذن أن نتخذ من ماوتسي تونغ وأفكاره مرجعًا والحال أنه من بني عصرنا، وممن نشترك معه في إيديولوجيا من نتاج عصرنا هذا وليست كلام أناس من العصور الغابرة؟ ألا يراودك أبدًا شيء من الشك في مقولاتك وأفكارك، انت الذي ما تنفك تسخر من وثوقنا ودوغمائيتنا؟

سألني المولدي عندما التقيته بعد يومين: ما الذي حدث بينك وحسن؟ وجدته في حالة من الغيظ والهيجان على إثر لقاءك الأخير به. وقبل أن يسمح لي بالجلوس طلب مني بالحاح أن لا أفرض عليه بعد اليوم مجالستكما أنت وحسني.

- صاحبك هذا دجال وكذاب، قلت للمولدي. يتباهى بترديد مقولته المبجلة: ديني لنفسى ودين الناس للناس، في حين يريد أن يجعل من أفكاره دينًا يفرضه على الناس بطريقته المتعالية وسخريته الساحقة.

## القاع المظلم

لعلّي ساعات صمت ثقيلة في بعض الأحيان. صمت يجعل الهواء من حوله يتخثر ويغدو بثقل الرصاص. كتلة من الغموض والألغاز تتكثف فوق وجهه الأسمر الداكن الذي يزداد قتامةً. عاصفة خرساء تستعر في جوفه تكاد تحوّل ذلك الصمت إلى جوقة زاعقة بأصوات عديدة متضاربة. يصمت، ويدخّن. ينفث الدخان دفعات متتالية توقعها اختلاجات عضلات الفكّين والرّفيف المضطرب لعروق صدغيه ورقبته المنتفخة تكاد تنفجر. يبهت البريق الذي تلمع به عيناه عادةً وتنقبض شفّته. وينحسر أنفه. تكاد ملامحه كلّها تغيّب في ظلال العروق الناتئة المتوتّرة على رفيفها المسعور. يبدو لي حينها كما لو أنني أجلس إلى كدس من الحجارة الثقيلة. لكن الحجارة لا يزعجها قرب أحد منها أو جلوسه فوقها. أعرف، أو أحزر أنّه يوّد أن يكون وحده، لأنّه في مثل هذه الحالات ليس هنالك أثقل من وجود شخص غريب عن ذلك الهرج، شخص قد يبدو مربكًا لا يدري ماذا يفعل بلسانه ويديه وعينه. محرّجًا ومحرّجًا يغدو الشاهد الذي يظلّ خارج اللّجة، عنصرًا غريبًا يشوّش الحفل ويربك المسيرة الطبيعيّة لتلك الفوضى التي لا تنتظم إلّا بقوانينها الداخليّة. وقد يسعى الشاهد الغريب بمجرد نية ساذجة الطيبة إلى التدخّل سائلًا، مستفسرًا أو مواسيًا ومحاولًا التخفيف أو التفرّج فلا يفعل سوى أن يدخل اضطرابًا أشدّ على الحالة التي لا تتحكّم إلّا

بذاتها. حالة لا تنشأ أي توازن أو انفراج بقدر ما تحتفي بفوضاها داخل الهرج والألم، لأنه لا خلاص لها إلا في دفع الهرج حتى المنتهى؛ باتجاه التخوم التي يصبح الجنون فيها متنفسًا ومفرجًا للتوترات.

أشعر أنني تحوّلت إلى ما يشبه عجلة خامسة في العربة فأنسحب بهدوء.

أحيانًا يغتبط عليّ لتلك الهدنة التي ستجعله يسبح بحرية داخل الدهاليز المعتمّة بين تلك الأمواج الداخلية التي يصرّ على التكتّم عليها؛ حُرّمته التي لا يودّ أن ينتهكها عليه أحد. وأحيانًا يفتح النافذة ويطلّ برأسه على الساحة الخلفية التي يفضي إليها مدرج العمارة. ينتظر حتى أنزل ليصرخ فيّ من فوق: يا مجنون! يا مجنون! ما الذي لسعك في أذنك؟ آس ها المسرحيات؟

ثمّ بهدوء ولين: تعال... تعال يا رجل إني أريدك في مسألة هامة!

عندما أصعد الدرج من جديد وأدفع الباب يكون قد لبس الجاكية الجلدية السوداء وهو بصدد انتعال حذائه أو تسريح شعره الأجدد الذي يحرص دومًا على تصفيفه على طريقة همفري بوغارت الذي كان مفتنًا به. غير أنّ نوعيّة شعره وكذلك شكل رأسه المستطيل شيئًا ما لا يساعده كثيرًا في ذلك، فكانت النتيجة أن يتخذ رأسه هيئة خاصّة به لا هي كهيئة همفري بوغارت، ولا جون لي هوكر الذي يشبهه إلى حدّ ما. رأس علي التومي التي لا تشبهها رأس.

ننطلق مباشرة باتجاه الرحلة الطقوسية بين الباربات.

(<sup>1</sup>) *A nous, et à la vie de chiens heureux que nous menons* يقول

(1) على صحتنا، ونخب حياة الكلاب السعيدة التي نعيشها.

وهو يضع يده على كتفي ويرفع بالثانية كأس البيرة. ثم بلهجة بين التوضيح والاعتذار: «كنت بصدد ترتيب بعض من الفوضى التي تجعلني أحياناً أشعر بالاختناق».

- الفوضى... تقصد...

- إنس الموضوع... كلام فارغ.

ثم يغير موضوع الحديث.

«إنس الموضوع». لا أدري هل تلك العبارة نوع من الاعتذار، أم هي ضرب من صدّ الخجل الذي يشعر به بسبب حالة ضعف محرّجة كشفت نفسها أمامي مثل عورة يسعى المرء دومًا إلى سترها عن أعين الآخرين؟ هل هي موجهة إلي كي لا أشغل نفسي كثيرًا بمسألة لا بد أن أعتبرها مجرد فاصلة تافهة لا يجدر التوقّف عندها؟ أم هي الزفرة الأخيرة التي تدفع الغصص وتضع حدًا لانتفاضة الحزن التي كانت تخضه؟ أم تراها طريقة مواربة لصديّ وتحويل اهتمامي عن الباب الذي انفتح للحظة ثم انغلق مجددًا على ذلك الدهليز الغامض المضطرب؟ ما الذي يريد أن يخبئ وراء ذلك الباب الذي يوصده بعبارة «إنس الموضوع»؟ كأنه صمت آخر من نوع ثان يسدله على الصمت الصاخب الذي كاد ينطق ويفضح سرًا لا يؤذ أن ينشره على السطح فيغدو نهبًا لعيون الفضوليين.

كلّ ما يمكن أن أظفر به منه هي هذه العبارة التي يقفل بها الحديث غالبًا: مالذي تريد أن تفهم؟ إنس الموضوع يا رجل!

يراوغ، أو يتظاهر بالنسيان وهو يقترّ شتات الأحداث تقتيرًا. هل يعقل أن يكون بلا طفولة؟ هل يعقل أن ينسى المرء تجارب حياته بهذه السهولة؟

- نسيت. ورحمة أمي نسيت! ذلك هو جوابه الدائم تقريبا. وفي ماعدا ذلك نتف مشتتة من هنا وهناك: أتذكر أنه (ضمير الغائب يعود دوماً على أبيه، الذي لا يسميه بإسمه ولا ينطق أبداً بعبارة أبي عند الحديث عنه) أخذني إلى حومة باب الجديد. دخلنا دكان حلاق، وكان ذلك أمراً غريباً عليّ لأنه لم يخطر له مرة واحدة أن يأخذني إلى الحلاق. كان هو الذي يخلق شعري، وأحياناً أمي، بمقصّ عتيق صديء ينتف الشعر أكثر مما يقصّ. وكان ذلك يؤلمني جداً. كنت أشعر بجلدة رأسي تسلخ سلخاً. لم تبد على الحلاق علامات غبطة أو ابتهاج لرؤيتي. ولم أكن لأعير اهتماماً كبيراً لذلك. كانت تشغلني المرأة الكبيرة التي رأيت فيها جسمي كاملاً وقوارير العطور الكثيرة ذات الألوان الزاهية، ومن ورائها تظهر صورة رئيس الجمهورية الذي تراءى لي كما لو أنه يقف وراء بسطة لبيع العقاقير. سمعت أبي يقول له: حاسبني بجلده. تلك العبارة نفسها التي سمعته يقولها للمؤدّب يوم جاء إلى الكتاب يوصي بي شراً. لم يبخل عليّ المؤدّب آنذاك بعضا الزيتون القاسية. طبّق التوصية بحذافيرها، بل وزاد في الأمانة حتى هربت من الكتاب وأنا لم أتعلّم أكثر من «بسم الله الرحمن الرحيم». خرجت من هناك «ألف لا شني عليه» كما يقولون. رأيت أنه ابتهج كثيراً لمغادرتي الكتاب، إذ كان عمّي هو الذي أصر على أن يأخذني إلى هناك، بينما كان هو يردّد بين الغضب والسخرية: سيبك ياراجل من ها الهدرة البايته، ولد الفار يجي حقار! وكان لا بد أن يلقي بي إذن في دكان ما كي لا أظل أجوب الأزقة، علاوة على المبلغ الذي سيحصل له من وراء عملي. أظنّ أنني كنت في الثامنة، أو التاسعة من عمري آنذاك.

لم أهرب من دكان الحلاق بسرعة كما فعلت مع الكتاب. لم يكن سي حمادي يبخل عليّ بالتويخ وتمطيظ الأذنين لأبسط هفوة، لكنّه كان

يناولني خمسين مليماً مساء كل يوم أحد، على عكس المؤذّب الذي كنت أسلمه خمسين مليماً عشية كل يوم خميس، عدا ما يدسه هذا الحريف أو ذاك في يدي بين الحين والآخر. كان ذلك على ما يبدو هو ما حمّس أبي أكثر في مطالبة الحلاق بمحاسبته بجلدي. كان يعجبني أن أعود في مساء يوم الأحد إلى البيت وأنا أتجسّس في جيبي دفء القطعة المعدنية، ثم أسمع أمي وهي تدعو لي بالهداية والصلاح وأشياء أخرى كثيرة. ذلك طبعاً عندما ينشغل أبي بشيء ما فينسى أن يأتي إلى الدكان ويتسلّم ذلك المبلغ الزهيد بنفسه، وهو نادراً ما يحصل. سي حمّادي الحتّام على أية حال رجل مرح، على عكس المؤذّب المكفهز على الدوام، ولم يكن يطالبني مثله بالجلوس ساعات عديدة وترديد كلام غريب لا أفهم منه شيئاً. كان كلامه عادياً ومفهوماً على الدوام: هات قهوة لعمّك سليم يا ولد. قل للقهاوجي ثلاثة تاي بالنعناع وشربة ماء باردة. أكنس المحلّ وانتبه إلى الشعر الذي تحت الكراسي. افتح عينيك ويكفي من التبهيل والاستماع إلى ما لا يهّمك. قل صحّة وعافية لعمّك المختار يا أبله! وامسح الشعر عن رقبتك. سدّ وذنيك، هذه ليست حكايات للأولاد الصغار. ألم أقل لك ادخل المقصورة وسدّ وذنيك يا بليد، يا قليل الحياء! عليها بزّدة يا سي محمود. وصواري اللهم صلّي على النبي! من وين تمدّ يدك تلقى خير الله. وهاك الصدر! وهاك الرائحة الطيبة! نقول لك سنك، نقول لي تكذب. نقول لك عنبر، نقول تكذب. والعين واسعة سوداء مرخّمة الأشفار. مميّهة، مذبّلة، ناعسة. شيء يجتنّ، يجتنّ. وأنا خوك فين تلقاني! تقول خرجت من عقلي؟ نبيع جلدي؟ نبيع روحي؟ نصير خادم عندها نغسل ساقها، غير تمسّ يدي هاك اللحم اللّبي.. شيء لا يوصف يا سي محمود! هو مرمر؟ هو

بلآر؟ هو ياقوت؟ هي دوخة، سكرة، تشرشيمة. تقول للقمر أطلع أو  
خلّيني أطلع مكانك! - موش قلت لك أدخل المقصورة يا فرخ الحرام  
وسدّ وذنيك! تنسنس وتلصص؟ تحبّ تتعلم الفساد يا كلب؟

دوماً كان عليّ أن أقلب وجهي وأسدّ أذني. عند سي حمّادي الحجام  
أقلب وجهك وسدّ وذنيك يا فرخ، عند سي عبد الرّحمان الفطائري  
أقلب وجهك وسدّ وذنيك يا كلب! عند سي الطاهر النّجار: موش قلت  
لك كفّ عن التلصص على حديث الكبار يا فاسد؟ عند سي عبد الكريم  
الميكانيكي، عند رحومة القهواجي، عند احميدة الخياط، في الحمام،  
عند الحدّاد، عند الدبّاغ، عند خالتي زهرة الماشطة، عند بيّة الهجّالة  
التي يدخل الرجال بيتها خلسة من باب الحديدية الخلفي، عند لّة منجّية  
زوجة الضّابط العسكري كثير الغياب: - يكبّ سعدو ما أحرّ عينيه فرخ  
الحرام! ووه، يا شومي الولد كاسر وذنيه يتلقّف في الكلام! حطّ  
الصينيّة ويكفي من التلوصيص والتبهنيس يا فرخ! أقلب وجهك! سدّ  
وذنيك.. أقلب وجهك. أقلب وجهك. أقلب وجهك... حتّى قلبت  
وجهي نهائيّاً من دين أمّ البلاد بكلّيّتها.

ماذا تريد أن أحكي لك؟ أشياء كثيرة قد غابت عن ذاكرتي نهائيّاً،  
وأشياء كثيرة لا أفهمها. أحتاج أحياناً إلى ساعات من الوحدة والصمت،  
أحاول التسلّل بخطى السارق نحو هذا الدّهليز المظلم (ويشير بيده إلى  
صدره). كلّ شيء هنا... مثل كومة من الحجارة والتراب والقاذورات.  
أحياناً يخيل إليّ أنّني أسير متعثراً داخل غابة كثيفة مظلمة ولا شيء ينير  
سبيلي أو يساعطني على شقّ طريق لي بين الأدغال والأشواك. أحياناً  
تسدّ في وجهي كلّ السبل ويضيق بي الفضاء حتّى يكاد صدري ينفجر

فألجأ إلى هذه - ويشير إلى الفرشاة والأصباغ. أقول لعلّ البثر تقذف بما  
في جوفها، لا يهتم إن كانت عفاريت أو سوائل قذرة أو زهورًا... المهمّ  
هو أن أتفادى الخروج والخصومات والمشاكل. في مثل تلك اللحظات  
يمكنني أن أرفس أيّ وغد يعترضني مثل حشرة. كرهت النزاعات  
والمشاكل... أف، إنسّ الموضوع!

\*



## لكن أين اختفت جوزيفين؟

لم أنس جوزيفين. شغلتنني عنها الأحداث الأخيرة دون أن أنساها. هاهي موجة الهرج تهدأ الآن قليلا فيعود الواحد إلى نفسه قليلا. يتفطن أن له رغبات قد جمّدت لفترة لكنها لم تندثر. في الواقع جوزيفين هي التي اختفت فجأة وانقطعت عني أخبارها. ذهبت مرتين إلى بيت فرنسواز ولم أجدها. قالت فرنسواز إنها هي أيضا لا تعلم عنها شيئا. انقطعت عن المجيء لمدة أسبوع لكن دون أن تأخذ حقيبتها، وذات يوم جاءت في غيابها، أخذت حقيبتها وتركت لها المفتاح في صندوق البريد، ولم تعد.

ذهبت إلى سان دني بعد انقطاع دام ما يقارب الشهرين. لقائي الأخير بعلي، وإن لم يخل من شيء من الحدة، في البداية خاصة، خلف لدي انطباعات غامضة؛ مزيجا من الارتباك واللذة؛ ربّما نوعا من رطوبة المشاعر. شيء رقيق ودافئ سرى إلى نفسي التي كانت على غاية من التوتر بسبب الأحداث الأخيرة. عدت قليلا إلى نفسي. وابتعدت قليلا عن الهرج الذي كان من حولي. بحثت عنه في بار مدام روز، ومقهى لي مارشي، وأماكن أخرى عديدة ولم أجده، فذهبت إلى فرنسواز. قالت إنها رآته قبل يومين جالسا في مقهى لي مارشي عشية. أما جوزيفين فلم ترها بعد اختفائها. - لعلها عادت إلى أهلها في مدينة نانت، قالت فرنسواز، لأنها كانت محبطة وحزينة ويائسة. أو لعلها

عادت إلى أولئك الناس الذين فرّت منهم... من يدري؟ أضافت فرنسواز بشيء من الاستسلام البارد الشبيه بحكمة من لا يسعى لردّ القدر.

- لا، لا أظنّ. لا هذه ولا تلك. تعود إلى بيت أمها وعشيق أمها الذي يغتصبها؟ أو إلى عالم المومسات الذي ذاقت فيه العذاب والهوان؟

- بل لن تذهب إلّا إلى واحد من هذين المحلّين، لأنّها كانت على درجة من اليأس والقنوط لا يمكنها معها أن تتحرّك أيّة حركة مستقلّة. من يستسلم إلى القنوط واليأس تشلّ عزيمته، يضعف صموده وتتدهور قوى المناعة لديه. ثمّ لا تنس يا عزيزي أنّ الضحيّة غالباً ما تعود إلى جلاّدها، لا لشيء إلّا لأنّ الجلاّد يقتل فيها بسرعة كلّ قدرة على التحرّر، ويبثّ فيها خوفاً من كلّ مغامرة جديدة يمكن أن تضعها فريسة لجلاّد أو جلاّدين جدد غريبين لا تدري ماذا يخبّون لها من أصناف جديدة من العذابات.

ها هي بدأت تعقدّ الأمور أكثر ممّا ينبغي. فرنسواز بلبت رأسها النظريّات الغريبة لعلم النفس، قلت لنفسني. جوزيفين لن تعود إلى جلاّديها! إنّها بالتأكيد تجاهد الآن وتصارع في مكان ما من باريس. سأبحث عنها في كلّ مكان، وسأجدها. لدي شعور عميق وواثق بأنني سأجدها.. لعلّها لم ترد أن ترهقني أكثر بمشاكلها ففضّلت أن تقذف بنفسها في اليمّ معوّلة على طاقتها الخاصّة، وعندما تتمكن من الوقوف على قدميها من جديد ستبحث عني. ستذهب إلى فرنسواز وتترك لي عنوانها كي نلتقي من جديد. أنا متأكّد من ذلك. لعلّها تنتظرنني منذ ما يقارب الشهرين الآن... وأنا؟ ماذا فعلت؟ كنت منشغلاً عنها بوهم ثورة كنت أعتقدها قد اندلعت، أو على وشك الاندلاع. كنت حريصاً على

عدم تفويت الفرصة، أن لا يفوتني القطار فأظلم واقفاً مثل الأحمق على رصيف محطة مهجورة واقعة على حافة التاريخ.

والآن؟ تخلت عني أن ماري بعد أن عاد صديقها القديم من أمستردام. وبريجيت التي أبدت لمدة طويلة اهتماما بي هي أيضاً أعيها الانتظار وترذدي وتعشري في الخجل فأتخذت لها صديقاً، وعندما سألتها جميلة الجزائرية: ألسنت صديقة عادل؟ أجابتها بكل سخرية: القديس عادل! من أين لك مثل هذه الأفكار الخرقاء يا جميلة؟

روت لي ذلك جميلة في ما بعد وهي تؤنّبني على تزمتي الشبيه بتبتل الكهنة: راك باش تولّي بباض آسي عاديل! ما ناقصاتك غير<sup>(١)</sup> *la soutane*، وصافي! من غير ما تدير هذيكة العمامة ديال شيوخ الإسلام، هاذوك راهم يحمقوا على النساء! واش هذا الماركسيزم لينينيزم ديالكم يحزّم عليكم هذاك الشني وإلا أنا ما فاهمة والو؟

---

(١) عباءة الرهبان.

## فرنسواز

اعترضتني فرانسواز في مدرج العمارة. كانت على حالة من الهلع لا توصف. سلّمت عليها فأدارت وجهها ونزلت الدرج مسرعة، كما لو كنت شبّحًا مخيفًا. لكنني استطعت أن المح احمرار عينيها وكذلك شعرها المنفوش. لم أتردد. ولا حاولت الإلحاح عليها أو سؤالها عمّا حصل. سعدت الدرج قفزًا. المجنون! الأحمق! فرنسواز أفضل أصدقائه في هذه البلاد، بل في الدنيا كلّها. ماذا فعل الأحمق؟

رفض أن يفتح الباب، أو حتّى الإجابة على نداءاتي المتكرّرة الملخّة: علي! علي! علي افتح وإلا سأكسر دين أمّ الباب. عرفت أنّه لن يفتح حتّى لو كسرت رأسي على الباب فنزلت الدرج مجدّدًا وانطلقت أبحث عن فرنسواز. لكنّها قد اختفت.

قرعت الباب بإصرار وعناد هذه المرّة، الأمر الذي جعل بعض الجيران يفتحون أبوابهم، منهم من يرمقني بنظرة قاسية سامة ثم يغلق باب شقّته بعنف كي يفهمني مدى انزعاجه، ومنهم من يهدّد بمكالمة البوليس. آخرون اكتفوا بالغمغمة بسباب وتوعّدت غامضة من وراء أبواب شققهم المقفلة.

فتح لي بالنهاية، ودون أن ينطق بكلمة واحدة عاد إلى الفراش. كانت الغرفة على حالة غير عادية من الفوضى. أعقاب سجائر متناثرة في

كل مكان، زجاجات بيّرة، كؤوس وصحون مهشّمة في مدخل المطبخ، أوراق ملطّخة بالصباغ؛ بعضها لوحات مكتملة وأخرى مجرد رسوم أوليّة وتخطيطات غامضة، ممزّقة كلّها وملقاة على أرضيّة الغرفة. سرّوالم هنا، جاكيت هناك، جوارب متناثرة، فردتي حذاء كلّ واحدة في ركن: مشهد ما بعد الحرب. جلست دون أن أقول شيئاً، وولّع هو سيجارة جيتان وظلّ يدخن بصمت محدّقاً في السقف.

\*

عن طريق جاكلين تعرّف علي على فرنسواز. يبدو أنّها كانت مناورة من أحد رفاق الحزب لصدّه عن جاكلين التي كانت متزوّجة كما أنّضح في ما بعد. لم تكن فرنسواز عضوة في الحزب. صديقة قديمة لجااكلين من أيّام الدراسة أو الطفولة، أو شيء من هذا القبيل. طالبة مسجلة منذ قرابة العشر سنوات في شعبة علم النفس. وهي علاوة على ذلك من المسيحيّات النشطات في شتى الأعمال الاجتماعيّة والخيريّة، ويبدو أنّ لمادة دراستها الجامعيّة علاقة ما بالعمال المهاجرين ومسائل الانفصام وغيرها، وقد عملت لمدّة طويلة مرشدة اجتماعيّة ومساعدة نفسيّة في الكثير من المبيّئات الشبيهة بالشكنات العسكريّة المعدّة للمهاجرين في أطراف المدينة أو الضواحي النائية حيث يتكادسون أربعة وستة أشخاص داخل الغرفة الواحدة، وأحياناً يتناوبون على الأسرة بعدد مضاعف؛ فريق بالليل وآخر بالنهار كي يوقروا أكثر ما يمكن من معالم الإيجار، وغالباً ما تحدث بينهم مناوشات وصدّامات خلال عطل آخر الأسابيع عندما يجدون أنفسهم مجتمعين كلهم ليومين وليلتين ولا يدرون كيف يقسمون الأسرة التي لا تتضاعف بتضاعف عددهم. تتدخّل فرنسواز في أحيان عديدة لفصل هذه النزاعات، وقد استطاعت من خلال عملها الاجتماعي التطوّعي أن تجمع لهم عدداً من الأفرشة الإضافيّة تدبّرتها

كمساعدات من بعض العجائز المتديّئات اللاتي تلتقي بهنّ في الكنيسة يوم الأحد.

جاكلين تدرك أن لفرنسواز من التجارب مع المهاجرين ما يمكن أن يخولها من ربط صلة صداقة بعليّ دون حصول عواقب كريهة. فهي متعوّدة على تحرّشات العمّال الذين يعيشون دون نساء، وقد استطاعت بطبيعتها وهدوئها ومرونتها أن تنجو من العديد من محاولات الاغتصاب التي تعرّضت لها في العديد من تلك الميئات التي لا تدخلها من الإناث غيرها. وقد تكون جاكلين أكثر خبثًا مما تعتقد فرنسواز. لعلّها فكّرت، أو خمّنت أنّ فرنسواز التي على نوع من الطيبة والبراءة القريبة من البلاهة قد تكون تعوّدت على ذلك النوع من التحرّشات والمرادات الجنسية، بل ولعلّها قد استأنست إليها بحيث لم يعد يهتمها في إطار عملها الاجتماعي الخيري، ومن وجهة نظر محبة مسيحية رحيمة صرف أن تتنازل وتقبل بين الحين والآخر بتوسيع دائرة عملها الخيري الإنساني وتلبية نداء رغبة متأججة لدى البعض من هؤلاء المعزولين المعدمين. من يدري؟

تكتّم علي في البداية على علاقته مع فرنسواز إلى أن علم بذلك عقبة عن طريق جاكلين التي أوحى له بأنّ علي يعاني اضطرابات نفسية وانفصامًا في الشخصية قد يغدو خطيرًا. جاكلين تقصد طبعًا ذلك الانفصام الداخلي الذي ما فتى ينمو لدى عليّ تجاه عالم المصانع وأوساط العمّال بصفة عامة؛ أي الانفصام الطبقيّ بلغة المناضلين. ولعلّ لجوءها إلى فرنسواز لم يكن بالنهاية سوى مراوغة وتحايل على اعتراف ضمنيّ بفشل عمل الحفّن الأديولوجي الذي حاول الحزب ممارسته عليه دون جدوى. لكن الحزب والرفاق لم تكن لديهم رغبة في الاعتراف بذلك الفشل والتخلّي عن علي؛ العامل الحقيقيّ الوحيد الذي استطاعوا

استدراجه إلى صفوفهم قبل أن ينضم إليهم عقبه، لأن ذلك سيكون اعترافاً رمزياً بعدم نجاحهم في استقطاب الطبقة الشغيلة. علي هو طبقتهم الشغيلة، أحد العناصر النادرة في تحقّق حلمهم بالالتحام بالبروليتاريا، فكيف لهم أن يفرضوا فيه بسهولة إذن؟ وعندما تكسرت على جلموده فؤوس الأديولوجيا كلها أسلموا أمر معالجه إلى فرنسواز التي سترفد جهودهم بوسائلها الخاصّة: مزيج من الشفقة المسيحيّة والمعالجة النفسيّة.

التقى عقبه بفرنسواز التي أمطرته بوابل من الأسئلة عن عليّ، وأمطرها بدوره بالعديد من النصائح حول كيفة التعامل معه، ثمّ التقيتها بدوري مرتين في درج العمارة. بعدها علم عليّ بتعرّفنا على فرنسواز وصار لا يمانع في أن نلتقي جميعاً في بيته بحضورها. لكنّه كان يصرّ دوماً على إبداء احتقار ولا مبالاة مبالغ فيها تجاهها بحضورنا. يزرعها ويهينها بعبارات ساخرة لاذعة. لا أدري هل كان ذلك نوعاً من المناورة التي يتبغي من ورائها أن يجعلنا لا نعتقد أن يكون لتلك الفتاة «الهايشة» (البلهاء) حسب عبارته، دور ما في حياته، وأنّ حضورها لديه لا يتعدى مجرّد الشفقة التي يبديها تجاهها. «هايشة» مسكينة يحبّ دوماً أن يردّد، أو مغفلة معرّضة على الدوام إلى الاستغلال من طرف أرهاط من الأوباش الأفارقة والجزائريين. وكان يحبّ أن يظهر دوماً بمظهر الرجل الفطن الذي يسعى لحمايتها من تلك الذئاب المفترسة، ولا يخفي ذلك حتّى بحضورها.

كلّما تفانت في خدمته ضاعف في إبداء الاحتقار لها. «الهايشة» غدا يسمّيها؛ يناديها جهراً بذلك اللقب وتعودت هي عليه وكانت تظنه لقباً للدلع، أو مجرد تحريف طفيف لاسم عائشة. لكنّه لم يسمّها بالبقرة كما ينعت أغلبية النساء؛ حريفات الحانات مثلاً. فشل في إقناع فرنسواز

بارتياد البارات كما فشلت هي في صدّه عن التسكّع الليلي والسكر والخصومات المستمرة. غير أنه بدأ يذيقها ألواناً من العذاب والإهانات. كلاهما عنيد. هو يمعن في معاملتها بقسوة، وهي مصرة على مواصلة مساعدته.

- علي، لماذا تعامل فرنسواز بهذه القسوة المجانية؟ قلت له معاتباً، بعد أن رأيت الهيئة الكارثية التي التقتني بها في الدرج.  
- لأنها خرية.

- خرية؟ بل هي تفعل كل ما بوسعها لمساعدتك.

لا أريد مساعدة يا سيدي. إنها خرية. تجلس هنا مثل الراهبة وتشرع في إزعاجي بسخافات شفقتها المسيحية. وعندما ترى أنني لا أريد الاستماع إلى هرائها تنهض وتشرع في ترتيب البيت وتنظيف المطبخ. كم مرّة حدّرتها وقلت لها إنني لا أحبّ ذلك... أنا لا أحبّ لا الراهبات ولا الخادومات. أنا أحبّ المرأة فقط عندما تكون عاهرة، أي عندما تكون ما يجب عليها أن تكون. هل فهمت؟ حدّرتها مرّات عديدة. قلت لها دعني ذلك. لكنّها لا تفهم. لا تفهم أنني أقرف منها وأكرها وأعافها عندما تفعل ذلك. هذه المرّة أصرت، وبينما كنت أطلب منها أن تكفّ عن التنظيف كانت تواصل بكلّ عناد كما لو لم تكن تسمعني. قلت لها: أنت قحبة.

- أوكي، قالت لي.

- أنت قحبة، ولا يحقّ لك أن تلمسي شيئاً هنا إلا إذا كنت قحبة.

- علي، أرجوك! قالت لي وهي تموء مثل قطّة ذليلة.

- إذن، دعني ذلك... أو قولي إنك قحبة.

قالت: أوكي...



- لا، ليس أوكي. قولها: أنا قحبة.

قالتها. طلبت منها أن تعيدها وأنا أقرب منها فأعادتها: أنا قحبة.

عندها لم أعد أتمالك نفسي. اشتيتها. لم أعد أرى سوى مؤخرتها وهي منكبّة على حوض الغسيل. كنت مستعداً للموت من أجل مؤخرتها. هل هذا اغتصاب؟ إنها هي التي تستفزني.

\*

علي مفلس ولا يريد العودة إلى العمل في المصانع. يقتر منححة المساعدة الاجتماعية الزهيدة بين البيرة والسجائر وعلب الصباغ والأقلام، ولولا شيء من المساعدة التي تقدمها له فرنسواز بين الحين والآخر لمات جوعاً.

وجدته ينتظرنني في كافيتيريا الجامعة ومعه شنطة كبيرة. جلسنا في مقهى ليسكوليه. تناول الشنطة وفتحها:

- هل تستطيع أن تباع بعض بنطلونات الدجينز والأحذية الجميلة لأصدقائك الطلبة؟ نوعية جيّدة، وماركة ممتازة، أما السعر فتدبر أمرك كما يحلو لك. حاسبني فقط برأس المال...

- آية دجينات وأحذية؟ هل أنت مجنون؟ أتتصور أنني سأفتح دكان ملابس بالجامعة، أم ماذا؟ ثم من أين لك هذه الأشياء التي تريد بيعها؟

- دجينز وأحذية من نوعية ممتازة، لا أكثر ولا أقل. أنا أيضاً ثوري. وأنت تعرف ذلك على آية حال. الرأسمالية خراء في خراء. هؤلاء الطلبة، لم لا يحقّ لهم أن يلبسوا أشياء جيّدة؟ ثم إنهم ثوريون هم أيضاً ومعادون للرأسمالية والاستغلال مثلك ومثلي أنا...

- بضاعة مسروقة؟

- مالك ولهذا الأمر، أنت تستفيد وأنا أستفيد وكذلك أصدقاؤك الذين لا يحلم أحدهم بدجينز ليفيس أو لوينس... فكرت أيضاً في الكتب، فأنتم تحتاجون كتباً باهظة الأسعار أحياناً، لكنني عدلت عنها، قلت لنفسي سيبيني منها هذي أشياء لا أفهم فيها، وهي ثقيلة زيادة على ذلك؛ الكتاب بوزن خمسة دجينات. ما فيهاش مبروح.

عقبة أيضاً غادر المصنع بعد أن خطر له أن يسجل للدراسة في جامعة فانسان لدراسة العلوم السياسية حالما في ما يبدو بالارتقاء إلى مرتبة البروليتاري المثقف على غرار موريس لي جُوا أحد تلامذة جورج بوليتزر. قبل أسبوع تم إيقافه في أحد المحلات التجارية الكبرى متلبساً بالسرقة وكانت تلك الحادثة نهاية لمشروع بدأنا نحلم بإنجازه معاً؛ أنا وهو وحسني. عنّ لنا أن نشرع في تصوير شريط وثائقي عن أوضاع المهاجرين بباريس. اشترينا كاميرا «سوبر 8» بالتقسيط وباسم مستعار تجنبنا لدفع الثمن. بعدها بدأنا نسرق أشرطة التصوير من «بازار أوتيل دي فيل» حيث المراقبة تكاد تكون منعدمة، وشرعنا في التصوير في الشوارع أولاً.

حسني الذي سبق له أن تعلم التصوير وله على أية حال تجربة في المجال لا تقارن بجهلنا المدقع كان هو المخرج والمصور والتقني الخبير، ونحن نطبق ما يمليه علينا، طبعاً بعد أن نكون قد خضنا معه نقاشات طويلة في المسائل التي نعتقد أننا نفهمها: محتوى الشريط، أماكن التصوير، الواجهة السياسية والإيديولوجية للشريط وغيرها مما لا علاقة له بالسما.

في الحقيقة ضُبطنا ثلاثتنا معاً في مغارة La Samaritaine ونحن نغادر المحلّ ويبد عقبه كيس من البلاستيك كبير الحجم مليء بالأفلام -

بعضها كنا قد نجحنا قبل قليل في الخروج بها من بازار أوتيل دي فيل -  
وأشياء أخرى كثيرة ادعى حسني بأنها ضرورية لمواصلة العمل من نوع  
آلة للقص والمونتاج وفلترات بألوان مختلفة وغيرها مما لا معرفة لنا به.  
أعوان الحراسة الذين ركضوا وراءنا ونحن نهم بمغادرة المحل انقضوا  
ثلاثتهم على عقبة الذي كان يحمل الكيس وتركونا نفرّ أنا وحسني.  
نجحنا في النجاة بجلدنا إذن، لكننا لم ننجح في الفرار من قبضة  
الحسرة ومرارة الشعور بالذنب تجاه صديقنا الذي لا ندرى ماذا سيكون  
مصيره. قضينا يومنا هائمين في الشوارع حزنين وغاضبين واحدنا على  
الأخر؛ أنا أتهم حسني بالتسرع والرغبة في الحصول على كل شيء دفعة  
واحدة بما في ذلك ما كان يبدو لي غير ضروري في تلك الآونة.  
وحسني يقذفني بالجهل وانعدام الدراية في المجال السنمائي. ثم هاهو  
يجعل هيأتي المهملة وشعري الطويل الأشعث سببا في جلب انتباه  
رجال المراقبة وتوجسهم.

أطلق سراح عقبة بعد أن قضى ما لا يقل عن ست ساعات قابعا في  
قفص داخل مخفر الشرطة لا يكف عن الصراخ واتهام الأعوان  
بالعنصرية ويهددهم بالمنظمات الطلابية وحقوق الإنسان والمحامين  
التقدميين، حتى أضجرهم صراخه وهو يلوح في وجوههم ببطاقته  
الطلابية محاولا إقناعهم بأنه طالب مجبر على إنجاز عمل توثيقي  
ضروري لدراسته وهو معدم ولا إمكانيات له لاقتناء الأدوات اللازمة  
لإنجاز ذلك العمل. أفرجوا عنه أخيراً وهم يشتمونه ويتوعدونه بأقسى  
العقوبات إن رأوه ثانية داخل محل الساماريتان، سارقا أو حتى مشتريا.  
أجهض المشروع ونحن لم نصور إلى حدّ تلك اللحظة سوى بضع  
بكرات لا تتجاوز مدتها الخام ثلاثين دقيقة. وإذا نحن من جديد مفلسين  
وبلا مشروع يمكن أن يزيّن لنا وضعنا.

## في المصنع

عندما تكون في وضع اليأس تكون القاعدة أن لا تقول أبداً لا أعرف. وما الذي ستخسره بالنهاية؟ أنت مفلس وجائع وليس لديك ثمن سيجارة واحدة، فهل ستسوء حالك أكثر إذا ما حاولت عملاً ما، أي عمل ثم اتضح للناس أنك لا تتقنه؟ ما الذي يمكن أن يحصل؟ ولنفترض أنهم طردوك بعد نصف ساعة... أنت عاطل ومتسكع في كل الأحوال. لن يقطع رأسك أحد، وستكون قد جرت شيئاً على أية حال.

كان هناك موظف آخر لا أعرفه ولا يعرفني في مكتب المناولة بشارع فولتير الذي حصلت فيه لمرتين على عمل «مانيتونسيونيز». لائحة الأعمال هزيلة اليوم واختصاصي العادي غير مطلوب.

- اختصاصي في الدهن والمطالة؟ قال لي العون وهو لا يكاد ينظر

إلي.

- نعم.

- ذو خبرة؟

- يعني..

- ما معنى يعني؟ لديك خبرة أم لا؟

- يعني.. نعم.. لكنها ليست تجربة طويلة...

- لا يهم، فهم يريدون مساعداً في الطلاء وليس مختصاً خبيراً.

- آ، طبعاً، أنا مساعد جيد.

لم أستطع أن أنام جيداً في تلك الليلة. ذهبت إلى بيت عقبة وهو مختصّ في المطالعة. سألته عن العمل فقال لي اذهب وجرب فهم بالنهاية يريدون مساعداً، قد تقع على شخص طيب ولطيف فيسهل لك الأمر. طلبت منه أن يفسر لي بعض المسائل الأولية حتى لا أبدو في وضع الحمار الذي لا يفقه شيئاً. تمللمل عقبة وابتسم وقال لي: هذه ليست مسألة نظريات يا عادل، لا بدّ أن تحذق يدك الأمر. لكنه قدم لي بعض التفسيرات على أية حال، وكنت أدرك أنه كان يقوم بذلك دون اقتناع، فقط كي لا يحبطني.

للجرس المنبه في الساعة الخامسة والنصف صباحاً وقع سكين حادة على القلب، خاصة عندما تكون أنت المعني بالمنبه. في غير هذه الحالة، عندما كان عقبة مثلاً هو المعني كان الجرس لا يثير فيّ غير مزيد من الرغبة في النوم ليس أكثر. أما اليوم فيبدو أنه، وهو يوقظني ويلح عليّ بالنهوض، هو الذي كان يحظى بلذة تمديد نومه في ماوراء الحاجز القاطع الذي كان يرنّ به الجرس. جرجرت نفسي من الفراش إلى بيت الحمام وحاولت أن أدندن بنغمة ما مثلما كان يفعل هو دائماً عندما كان يستيقظ باكراً للذهاب إلى العمل. لكنّ صوتي كان يخونني، والنعنمات التي أعرفها قد تبخّرت كلها من ذاكرتي، ولساني ثقيل معقود - لا أدري بالنعاس أم بشيء من الخوف.

فجر شتاء معتم غائم موقع بذلك الرذاذ الباريسي الرتيب الموحش. المدينة ماتزال نائمة. بعض نوافذ مضاءة على السطوح الرمادية للعمارات حيث «غرف الخدم»، بينما الأخرى عمياء، سوداء تحتضن نائميتها المحظوظين بعتمتها الدافئة اللذيذة. الرذاذ بارد مثل إبر دقيقة، لكنها لا

تفلح في إزالة خدر النوم الذي يبتجج الجلد ويكلس كل الحواس. المقهى المقابل لمحطة المترو مفتوح مثل أغلب مقاهي باريس التي تفتح مبكرا. أصوات قليلة وثقيلة تأتي من داخل المقهى ممتزجة بالصوت المعدني لآلة الرّحي وروائح التبغ والقهوة والكرواسون. بعض الحرفاء المبكرين يدخلون متسللين كما لو كانوا يهزّبون بقايا نومهم تحت المعاطف السود الثقيلة. يفركون أيديهم عند ولوج المقهى أو وهم يقفون إلى الكونتوار. لا أستطيع أن أفعل مثلهم لأنه ليس في جيبي ولا فرنك واحد، ولا حتى ثمن تذكرة للمترو والحافلة. سأسافر بدون تذكرة لأنه فلما يصعد مراقبون في مثل هذه الساعة.

عربات المترو مليئة بالعمال. كثير من الأجانب بوجوه تدلّ على أنهم لم يقضوا ليلتهم بين ذراعي امرأة، وأنهم لم يأووا إلى فراش يدفئه جسد زوجة ويجعله بملمس الريش أو الرحم الدافئ الذي يأوي إليه الجسد المنهك بعمل النهار الشاق ليستعيد فيه طراوته ويخلد داخله إلى الهدنة التي تضمّد كدمات النهار المنقضي. هيئاتهم الكثيبة في عتمة الفجر تقول لك إنهم لم يقبلوا طفلا قبل النوم ولم تلتفّ على عنقهم ذراع تحتضنهم مكافأة على تعب الكدّ الذي وراءهم والآخر الذي يربض متربصا بهم بين ثنايا الفجر القادم. أغلب الركاب الذين يقطرون هنا بقايا نعاسهم الذي قطعت عليهم منبهات الساعات الصينية ذات الجرس الحادّ. ساعات منبهة: Made in China من صنع البروليتاريا الاشتراكية لقطع دابر نوم عمال باريس وضواحيها هبةً لإله العمل.

في أغلب المحطات، الوافدون على العربة أكثر من الذين يغادرونها. الوجوه متورّمة بالنعاس؛ النعاس يعشش حتى في أصواتهم وهم يغمغمون لبعضهم بتحية الصباح حشرجةً متلكئة ضجّرة. يمدّون أيديهم أحيانا لمصافحة الجالسين نصف نيام، يمدّ هؤلاء أيديهم بحركة رتيبة

ثقيلة ليعودوا بعدها مباشرة إلى نعاسهم. آخرون يبدوون يقظين تماما، يحشرون رؤوسهم في صحيفة *Le Parisien*. هناك أيضاً من يتحدثون بأصوات ثقيلة خشنة كما لو كانت طالعة من أكياس مليئة بالنخالة والقش والنعاس وبقايا كحول وتبغ البارحة؛ غمغمات ودمدمة. أحاول أن ألتقط بعض الكلمات: هل انتهيت من عمل كذا؟ الآلة المعطبة... مقابلة كرة قدم... تيازي سباق الخيل بفانسان... جزائريان يهزان في ركن: آ، واش باغي تدير آخويا؟ واه! واه! لا، لا، قاغ ما كاينشي... بحال القضا بحال الصبر آصاحب! جزائري أو مغربي نائم قبالي؛ رأسه مقلوبة إلى الوراء وفمه نصف مفتوح. يحكم يديه على المحفظة الجلدية السوداء التي فوق ركبتيه. كلهم تقريبا يحملون تلك المحفظات الجلدية؛ فرنسيون وأجانب. لم أفهم سرّ المسألة في البداية. فرنسي ثقيل الجثة أحمر الوجه، شعره مسرح إلى الوراء بعناية فائقة، يبدو واضحاً من طراوة جلده أنه خارج للتو من الحمام؛ محلوق الذقن حتى الجلدة الملتصقة. يقرأ صحيفته وبين قدميه حقيبة سوداء أفخر من محفظات الآخرين؛ أظنها سامسونيات. قد يكون موظفاً في مصنع أو أنه على الأقل يشغل خطة أرقى من مجرد العمل على آلة. ترى ماذا يوجد داخل تلك الحقيبة السوداء الفاخرة؟ والآخرون، بما في ذلك المغاربة ماذا يضعون هم أيضاً داخل تلك المحفظات الجلدية؟

يتوقف المترو في المحطة الأخيرة:

"*Porte de la Chapelle! Tout le monde descend!*"<sup>(١)</sup>

«باب لا شابيل!»! ينهضون دفعة واحدة ويهرعون مثل كتبية تلقت

(١) نداء الإعلان عن الوصول إلى المحطة الأخيرة لخط المترو.

الأمر بشنّ الهجوم. ينطلقون متدافعين خارج العربية، يهرولون أفواجا بأقدام حثيثة باتجاه محطة الباصات. أشباح تتحرك مضطربة داخل غبش الفجر؛ كتيبة من سكان العالم السفلي تتحرك مسرعة باتجاه كهفها المظلم قبل ان يفاجئها طلوع النهار. من أين لهم مثل هذا النشاط الفجئي في هذا الصباح الباكر وقد كانوا قبل لحظات مثل التماثيل؟ ألملم شتات أفكارى وبعض القوى الخاملة في ركبتى وأهروول وراءهم. أبحث عن الباص الذي سينقلني إلى ضاحية لاكورنيف. أسأل واحدا عربيا: الكاز ديال لاكورنيف آخويا؟ لا يتوقف عن الجري كي لا يفوت الباص، وأنا أنطّ وراءه: وّخا، أرواخ معاي. أنطّ وراءه مثل الجرذ كي لا يهرب عني. يصعد حافلة نسيت رقمها ويشير لي أن أتبعه فأصعد وراءه. ينطلق مثل السهم باتجاه مقعدين شاغرين في المؤخرة، يجلس ويشير إليّ أن أجلس إلى جانبه.

- خدام في لاكورنيف؟

- وّخا... أول يوم..

- في لوزين؟

- وّخا، لوزين ديال Paul et Roger .

في يده هو أيضاً محفظته الجلدية. بماذا سأجيبه لو عن له أن يسألني: أين محفظتك؟ أقول له نسيتها؟ لا. أقول له إنه أول يوم لي في هذا العمل؟ هل هذا كلام مقبول؟ سيفكر: حضرتك جاي في زيارة تفقدية؟ لكن ماذا يحملون داخل هذه المحفظات؟ طالما بقيت لا أعرف ذلك فإنه لن يكون بإمكانني الإجابة. لم أر عقبه يحمل معه محفظة أو حقيبة عندما كان يذهب إلى العمل في المصنع. لماذا يا ترى؟

أكره المصانع والورشات وهيئاتها الثقيلة الرمادية القاتمة. للمصانع



دوما شبه ما بالسجون. هناك شعور بكآبة غامضة يتلبس بي كلما وطأت قدماي باب مصنع. أشعر أنّ الحياة، تلك التي لا أنتبه إليها أحيانا وأنا أمشي في الشوارع، الحياة كلها خارج جدران هذه البناية الشبيهة بسجن. الحياة كلها تبدو لي في تلك اللحظة حفلا مرحا هازجا في الخارج: المقاهي، السيارات، الصخب، زعيق الأبواق، السيدات والفتيات اللاتي يسرن حثيثات الخطوة كما لو كنّ يدرجن على عجلات صغيرة، العطور، رائحة القهوة والكرواسون، الكلاب التي تنظ وراء صاحباتها أو تدبّ ببطء أمام العجائز، الحمام المتحلّق على الأرصفة وأمام الكنائس. لكم فرحت عندما أرسلوني ذات مرة لاشتراء بعض المشروبات عندما كنت أعمل «مانيتونسونير» في ورشة لشحن الكراتين الفارغة! شعرت بغبطة شبيهة بدفعة طرية من الأوكسيجين وأنا أضع قدمي خارج عتبة البناية وألقي بنفسي داخل ضجة الشارع وحركته. بدا لي كما لو أنني غبت لعشرات السنين عن هذا المشهد البهيج. حاولت تمديد مدة بقائي في الخارج، أتلكأ في السير وأتوقف دونما سبب أمام أتفه الأشياء المعروضة في الواجهات. بضع دقائق مثل عطلة أسبوعية غير منتظرة تمنح لسجين أو جندي مقاتل في جبهة نائية داخل الغابات والأودية والأوحال. العالم يبدو فعلا على أجمل صورة في تلك اللحظات التي تسبق مغادرته للدخول إلى عالم السجون. كل شيء؛ من رائحة القهوة والكرواسون إلى المارة الذين يتراءون لك في تلك اللحظة متمشين في نزهة أبدية لا تشوشها عليهم مواعيد، إلى الباصات التي تتوقف، ينزل منها ركاب ويصعد آخرون يبدوون لك جميعهم سعيدين بتلك الرحلات القصيرة في الهواء الطلق. لحظات شبيهة بوقفة وداع، مثل تسبقة عن مذاق اللحظة التي ستغادر فيها ذات يوم هذا العالم نهائيا ودون أمل في الرجوع إليه.

مصنع بول وروجيه بناية كريمة المظهر كما كنت أتوقع. فوق بابها  
الحديدي الضخم لافتة معدنية بيضاء مكتوب عليها بحروف زرق  
غليظة:

PAUL & ROGER

CHAUFFAGES ET SANITAIRES

أه! مصنع أجهزة تدفئة وتسخين مياه! ليس مصنعا للسيارات إذن!  
خسارة، كنت أحلم دوما بأن أدخل مصنعا للسيارات، أن أشغل أية  
خطة وأكون واحدا ممن شارك في صنع السيارات.

يبدو أنني تضاءلت وأنا ألج البوابة الواسعة للمصنع، وأنا في الواقع  
لست في حاجة لمزيد من التضاؤل فقد تكفلت بذلك الطبيعة التي كانت  
مقتصدة شديد الاقتصاد في صياغة هيكل الضئيل؛ لا قامة طويلة، لا  
أكتاف عريضة ولا عضلات متوفزة - يكاد المرء لا يلاحظ وجودي. كل  
شيء بدا لي كبيرا في هذا المصنع وأنا أدب مثل نملة باتجاه مكتب  
الإدارة متعثرا مترددا لا أستطيع أن أصدق أنهم سيأخذون البطاقة التي  
في يدي مأخذ الجد. كنت لا أفكر إلا في أمر واحد بدا لي حينها مثل  
أمنية غالية: لو أنني أهرب! أخرج مسرعا باتجاه محطة الباصات، ثم  
المترو، فالبيت والفراش من جديد! وماذا لو أنهم طردوني من الوهلة  
الأولى؟ سأخرج جريا وقد لا أعود إلى البيت، بل أظل أتسكع في  
الشوارع، أنظر إلى الواجهات والمارة، وأمشي، وأمشي، أتوقف متى  
أشاء، أجلس على كرسي في حديقة، ثم أنهض متى أريد وأواصل  
المشي هكذا دون هدف...

- بنجور مسيو! قدمت البطاقة التي كانت في يدي لأقرب شخص.  
كانوا ثلاثة: واحد منهمك في البحث عن شيء ما فوق الرفوف التي

وراء مكتب معدني كبير والآخرا ن واقفان إلى ذلك المكتب الأخضر الثقيل يتكلمان في أمر ما قد تكون له علاقة بالعمل، يرتشفان القهوة ويدخان.

- ماذا تريد؟

لا تحية، ولا تفضل، ولا هم يحزنون.

- أرسلني مكتب الأنتريم من أجل...

- انتظرا! قال لي مقاطعا وهو يضع البطاقة على المكتب دون أن يقرأها، وواصل حديثه مع رفيقه الذي رمقني بنظرة سريعة من فوق إلى أسفل مع وقفة خاطفة على شعري الأشعث وعثنوني.

وددت لو أخرج وألوذ بالفرار.

- ماذا تريد؟ قال الثالث وهو يستدير عن الخزنة المعدنية والرفوف.

أشرت إلى البطاقة والكلمات لا تريد أن تخرج من حلقي، وليس لي سوى رغبة واحدة؛ أن تنتهي هذه الحصبة القاسية بأسرع ما يمكن. أن يعيد إلي بطاقتي ويصرفني.

أعاد إلي البطاقة وهو يشير بيده ناحية اليمين: اسأل في الورشة هناك عن مسيو فانسون. ثلاثهم ينظرون إلي الآن وأنا أنسحب ممسكا ببطاقتي مثل شهادة تدعو إلى العطف عليّ ومساعدتي، أو إلى توريطي. أغلقت الباب الزجاجي واتجهت نحو مخرج البناية عوض الاتجاه يمينا نحو الورشة: لا فائدة، لا بد أن أخرج من هنا بسرعة. سمعت طرقات على زجاج النافذة:

- ليس من هناك... على اليمين، الورشة الرئيسية.

ضبطوني، أولاد الخراء!

أسلمت أمري لمشيئتهم وعدت متجها نحو الورشة. أنا الآن مورط، ثم خراء عليهم جميعا! ما الذي سيحدث؟ في أسوأ الحالات سيسرحونني وعندها أعود إلى البيت أو أذهب إلى أي مكان، وأكون قد قمت بمحاولة على الأقل.. بروليتاري لفظته الطبقة الشغيلة ومصانعها..ها ها ها!

الورشة الكبيرة مليئة بصفائح معدنية مستطيلة، مربعة، اسطوانية، مسطحة، مقعرة، أنابيب ومواسير مصففة لصق الجدار، مكدسة على طاوالات عمل طويلة تحتل وسط القاعة الفسيحة. بعض الصفائح تلمع بطلائها الأبيض الجديد، أخرى في هياتها المعدنية البدائية رمادية قاتمة، البعض الآخر مفروك فركا متقنا يجعلها تلمع مثل قطع من البلور، لكنه بلور ثقيل المظهر معتم شيئاً ما بالرغم من لمعانه. منظر يثقل على القلب، لا أدري لماذا.

مقابض غليظة، مقصات معدنية طويلة، مطارق، سندانات، ملازم مثل أشداق حيوانات مفترسة باردة ثقيلة، مبارش، كلاليب، كماشات، قوارات، مكانس داكنة اللون، مبارد بأشكال وأحجام مختلفة محكمة على مسامير فوق خشبات كبيرة ملتصقة بالجدار، جحاش، مكشطات، مقاريض، مقاريح، حماليج.

البذلات الزرق موزعة على جميع أركان الورشة الفسيحة، منهمة في تفحص الآلات وتفقد عمل البارحة أو إعداد مكان العمل، أو جلب قطع معدنية من مكان آخر وترتيبها. الرؤوس تلتفت باتجاهي؛ لا ألبس بذلة عمل زرقاء. تتوقف الأيدي عما كانت تعالجه، يتنصتون بينما أنا أحاول، متعثرا في الارتباك، أن أقول شيئاً لذلك الذي سألني عما أبحث، ثم عما أريده من مسيو فانسون - آ، *Lèche - cul* أو بما معناه

لخاس المؤخرة - هكذا كان العمال يسمونه. مسيو فانسون ليش كي هناك في الزاوية الخلفية للورشة، يقف إلى منضدة عريضة فوقها أوراق ورسوم وأدوات عمل وتيرموس القهوة وحقببة السامسونات السوداء! هو الذي كان يجلس قبالي في عربة المترو بوجهه المكننز الحليق حد اللمعان وشعره المسرح إلى الوراء بعناية فائقة. لكنه هنا يبدو مختلفا قليلا بمنديله الأزرق والمنضدة الكبيرة التي يقف وراءها منهمكا في إعداد شيء يبدو أنه مهم للغاية لسير العمل داخل هذه الورشة، أو بالنسبة للمصنع بكلية. أجاب على تحيتي بغمغمة غامضة دون أن يلتفت وظل منهمكا في تصفح أوراقه ورسومه ودفاتره كما لو أنني لم أكن موجودا، أو لعله كان لا يتمنى سوى أن أتبخّر وأدعه وشأنه. لم تكن تجربتي مع المصانع وعماله ذات أهمية، لكنني بدأت أعرف بعض الأشياء عن طباعهم وسلوكهم تجاه الغريب أو الجديد الذي ينظرون إليه منذ البداية كمتطفل أو شحاذ؛ واحد ليس له عمل قار مثلهم؛ أي أقل منزلة منهم، هامشي، وقد يكون مشردا وإنسانا فاشلا وبائسا، وخاصة إذا كان مظهره يوحي بأنه ليس مثلهم حقا، بشعر طويل مثلا، كما هو الحال بالنسبة لي، وبعثون زيادة على ذلك: هيتي، أو كلوشار. ما الفرق بالنهاية؟ الهيتي في نظرهم كلوشارات وسخون مهملو الهندام يدخنون الحشيش ويتنايكون مثل الفئران في الحدائق العمومية وعلى ضفاف السين وفي المقاهي والجامعات، ينامون كثيرا ولا يدفعون ضرائب للحكومة ويريدون تخريب المجتمع. فهل هؤلاء جديرون بأن يهتموا بهم وأن ينظروا إليهم ويردوا على تحيتهم؟ العمال يضافحون بعضهم كل صباح ومساء، لكنهم لا يمدون يدهم للعنصر الجديد وإذا ما حياهم يردون بكثير من البرودة وبسرعة أو غمغمة كما لو كانوا يقولون لك: *vas te faire foutre!* - تروح تقوّد! أعرف هذا كله وأررد

لنفسي: أنا الآن مورط ولم يعد هناك أي مجال للفرار. ثم طز فيهم جميعاً، لا بد لي من عمل، وأنا أحمل في يدي بالنهاية بطاقة تدلّ على أنهم في حاجة لي. سألهي نفسي إذن بالتجول بنظري في أرجاء القاعة الفسيحة وأحاول أن لا أنتبه إلى النظرات الفضولية التي يرسلها هذا أو ذاك نحوي، كما لو أنهم يتساءلون جميعهم التساؤل الغبيّ ذاته: ماذا يفعل هذا الجرذ هنا؟ عمّ يبحث، وماذا يريد من ليش كي؟ ألتهم بعيني كل شيء: الصفائح المعدنية، القطع الأخرى التي اتخذت لها أشكالاً محددة، الأدوات الغريبة من مبرشات وكماشات وقوّارات وفرّامات ودخّاسات ولخّاسات وثقّابات وثقّافات وقعّارات ودوّارات وهزّاسات وجرّاشات ودوّاسات وفطّاسات وكبّاسات وكنّاسات، ومصائب أخرى متنوعة متعددة...

- ماذا تريد؟ قال لي ليش كي أخيراً دون أن يلتفت إليّ. تقدّمت. وضعت البطاقة التي بيدي أمام أنفه وفي داخلي رغبة في أن أبصق عليه وأفر. نظر إليها وهو يعدل وضع نظارتيه على أرنبه أنفه. عيناه باردتان لا تشعان بأي تعبير عن شيء من الاهتمام بما تقعان عليه. نظرة لامبالاة مفتعلة كما لو أنه يقف على بضعة أميال فوق الأرض ومن عليها. كنسني بنظرة سريعة واستدار: تعال! سار أمامي. تبعته مثل قطّ أو نعجة. توقف العمال مرة أخرى عن عملهم ونحن نمر بالقرب منهم. هدأت ضربات المطارق للحظات، العيون تتبعني وأنا أتبع خطى ليش كي الموزونة الواثقة. عبرنا الورشة حتى آخرها. الحرارة بدأت تتحول إلى عرق على جبيني وفوق رقبتني. دفع ستارة من شرائط بلاستيكية وولجنا ورشة ثانية يتصاعد من زواياها فحيح وصفير وأزيز وشرارات ضوء زرق. رؤوس مختفية تحت أقنعة معدنيّة كبيرة تنزل من أعلى الجبين حتى ما تحت الذقن مع فتحة في شكل مستطيل من زجاج في مستوى العينين.

الرؤوس منكسة، يرفع الواحد للحظة رأسه عندما تقترب منه، يوقف الآلة التي تبث سيل الضوء أو النار الأزرق محدثة إشعاعات وشظايا ألعاب نارية، يرفع قناعه الثقيل للحظة، يحيي مسيو ليش كي الذي يحيي بدوره ولا يتوقف، وأنا أنط وراه، أو أندرج مثل بكرة بدأت خيوطها تفقد إحكام لفافتها... البروليتاري الجديد يتدحرج ويتعثر في الامتحان الأول الذي يجريه عليه العالم السحري للطبقة الشغيلة. البروليتاريا تفحص هيأتك الغامضة التي تدب أمامها. البروليتاريا في عقر دارها هنا. وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج؛ ها هي أمامك هنا: ليش كي الذي يقرّر مصائر صفائح الحديد ويحدد الأدوار والمهام داخل الورشة يمشي أمامك الآن بخطى واثقة وعينين لا تقعان على أحد أو شيء إلا ببرودة الكائن الفاتر بخبرته، هو الذي تنقل لسنوات طويلة بين كلّ الورشات ومارس كلّ الأعمال قبل أن تنتهي به المسيرة المهنية الموفقة ومعاداته الصارمة للنقابات والإضرابات وشتى الاحتجاجات، إلى المنضدة الكبيرة في تلك الزاوية التي يتقرر فوقها مصير الصفائح المعدنية التي ستتحول وفقا لتعليماته والرسوم الهندسية التي يتجهجاها وهو يحكم نظارتيه على أرنبه أنفه مثل مهندس من الطراز الأول إلى سخانات بيوت استحمام ومدفآت ذات أحجام وأشكال متعددة، بيض جميعها ملتمعة بطلائها الطازج وعليها بالخط الأزرق عبارتا: PAUL & ROGER.

وقفت أفلب الآلة التي وضعها ليش كي في يدي لا أدري ما الذي أفعله بها.

كان قد قادني إلى منضدة عمل في زاوية خلفيّة من الورشة الثالثة: ورشة الطلاء. أمرني بإنزال مجموعة من هياكل معدنية في شكل صفائح أو أغلفة مستطيلة الشكل مقعرة محكمة استدارة الزوايا. وضعها إلى

جانب المنضدة ثم تناول واحدة منها وضعها على الطاولة وقال لي : ابدأ بهذه. سأعود إليك بعد قليل. ثم أشار إلى صفائح الطلاء وأخذ واحدة من الآلات التي تشبه في هياتها بنديقات قصيرة، أو نوعاً من المسدسات الطويلة، كما يوحي بذلك اسمها، تفحصها جيداً ثم ناولني إياها وانصرف.

ابتعد ليش كي ولم يلتفت إليّ. لا أدري ما الذي أفعله بهذه المصائب التي وضعها بين يدي وانصرف دون أيّ توضيح. وهذه الكارثة التي تشبه الكلاشنيكوف، ألقبها وأتفحصها؛ إنها بالضبط مثل الكلاشنيكوف! أمسك بها مثل البندقية، أوجهها إلى السقف، إلى الأسفل، إلى اليمين إلى الشمال كما يفعل مقاتلو حرب العصابات.

العامل الذي كان منكباً على منضدة عمله في الزاوية المقابلة ترك عمله وجاء إلى منضدتي.

- أعجبتك اللعبة هه؟

- أية لعبة؟

- دعني أرى ماذا فعلت إلى حدّ الآن.

استدار عني وهو يغمغم بشيء وانصرف. بعد دقيقتين رأيته يعود إلى الورشة صحبة ليش كي وكان يحرك يديه في الفضاء مقلداً الحركات التي كنت أقوم بها قبل حين وأنا أجرب آلة الكلاشنيكوف.

يبدو أن ليش كي من ذلك النوع الذي لا يحبذ أن يقاسمه أحد ولو جزء بسيطاً من سلطته: التفت إلى ذلك العامل وأوماً له بإشارة من رأسه أن يعود إلى منضدة عمله، ثم التفت إليّ مجدداً وقد كنس الآن عن ساحة سلطته ذلك المتطفل:

- العمل سينجز نفسه بنفسه هه؟ أم ترى قيل لك أنّ لدينا معسكراً



لتدريب الفلاحة هنا؟ حسنا، متى ستبدأ بالعمل؟ ألا تريد أن تريني ماذا تستطيع أن تفعل؟

- في ال... فال... واقع، يعني...

- يعني ماذا؟ ستشتغل أم لا؟

- الحقيقة..

- الحقيقة، الحقيقة. مالي والحقيقة؟ أنا أريد عمالا يقومون بعملهم وليس حقائق.. تعال معي يا سيدي المقاتل الفلاحة! تعال، عندي لك بندقية أفضل من هذه، تعال.

ناولني سطلا وخرقا وأشار إلى مكنسة قرب الباب وهو يقول لي:  
هذه بندقية أفضل، ستري أنك ستتمتع بها أكثر من تلك الأخرى التي لا شأن لك فيها، وهكذا ستكون قبل منتصف النهار قد أرحتنا من كل الأوساخ التي ستعترض طريقك في كل الورشات. حتى منتصف النهار. نصف يوم عمل أفضل من لا شيء هه؟  
طبعاً، نصف يوم عمل أفضل من لا شيء...

## يومان لجوزيفين

### يوم مشمس

يوم مشمس. شهر أبريل. وداعا أيها الشتاء وموكب السحب والمطر والبرد والعمّة. نهضت دون تكاسل، على غير عادتِي. ضوء الشمس في باريس لم يكن خبزًا يوميًا. فتحت النافذة وشرعت أعدّ قهوتي الصباحية مستمعًا إلى فيروز: طلعت يا ما احلى نورها/ شمس الشموسة.

صوت فيروز سيطّل دومًا مقترنًا في ذهني بالصباحات المشمسة لأيام الطفولة. كانت برامج الإذاعة التونسية تفتتح دومًا بالقرآن فمدائح وأذكار، ثم «توجيهات الرئيس» وبعدها فيروز.

في سلّم تراتب المقدّسات هناك الله، فبورقيبة، ثم فيروز! موش بظال!

طلعت يا ما احلى نورها

شمس الشموسة.

صباح من صباحات ربيع ما في طفولتي البعيدة أقف على قارعة الطريق منتظرًا قدوم الحافلة التي ستقلني إلى مدينة باجة بعد انقضاء عطلة الربيع. صوت فيروز قادم من البيت الذي كان يتراءى لي كما لو غدا يتعد عتي هو ودجاجه المتحلّق في جلبة مرحة حول الحبّ الذي

كانت أمتي تنثره له في ساحة البيت، خوار عجل لم يعد قادرًا على الصبر على ضرع أمه، ثغاء شياه تريد الخروج من مراحها واستقبال الصباح بأضراس نشطة، كلب يتسلل متكاسلا ممططا قوائمه وهو يرقب الدجاج بكثير من الحسد والشرة، حمار ينهق من فوق ربوة غير بعيدة نهيق المستبشر خيرًا بتلك الشمس الربيعية الطرية التي تعده بفصل قادم حافل بالهجيان والشبق. حياة تدبّ ببطء، لكن بثقة، كما لو كانت تحبو، تتشاب، تمطط أعضائها، تهيب قدميها للخطوات الصباحية الأولى، دون عجلة ولا تسرع.

السائل الأسود الساخن يتسرب إلى كل خلايا جسمي وصوت فيروز يفتحم مواقع قصية من الروح، يضمّد بعض الجراح ويعد بيوم على حافة الهذيان. كلا، لن أهب هذا اليوم المشمس لكراسي الجامعة والصوت الرتيب للدكتور لويس فانسون توماس الذي سيتوغّل بنا في سراديب رطوبة ومظلمة لنظرياته ونظريات فيليب أرياس حول «أنترولوجيا الموت».

أصعد شارع ليفيس الضيق المزدهم بالدكاكين وبسطات بائعي الخضار والفواكه. من المقاهي المجاورة يتصاعد لغط الصباحات الباريسية المتبلّة بروائح القهوة والكرواسون وتبغ الغولواز. غير أن اللغظ اليوم يبدو أكثر هرجًا واحتفالية، والباعة يصيحون متغنين بتفاح النورموندي الذي يفوح ويردّ الروح، ببرتقال تونس وطماطم المغرب وموز إفريقيا وأميركا الجنوبية وكويو زيلاندة الجديدة وبهارات وهمية آتية من بلدان اكزوتيقية لا تقع إلا في خارطة فنتازيتهم المنفلتة الآن من كل القيود وهم يتسمون للفتيات والسيدات الأنيقات الخارجات للتوّ طريات شهيات من بيوت الحمام يودّ المرء لو يقضمهنّ قضمًا خفيفًا رقيقًا، والباعة ينادونهنّ، يهتفون بهنّ، يستدرجونهنّ بأيات من الغزل

معجزات مبّهرات طبيّات لا يتقنها غير باعة الخضار. شياطين الأسواق هنا في شارع ليفيس كما في شارع أليغر بالقرب من ساحة الباستيل وفي أسواق بلقيل وبارباس؛ توانسة وجزائريون ومغاربة، أياذ تتحرك بنشاط وأصوات تلعلع متغنية بخيرات الأرض، عيونهم تبرق، تلتمع، جمر على صدور السيدات والفتيات، الصوت النحاسي للشباب التونسي ذي الشعر الأجدد المرسل على الكتفين:

*Maltaises de Tunisie! Maltaises de Tunisie! Pulpe fine pour la*  
 (١) *bouche fine ma chérie! Oranges de Tunisie! La Tunisie! la Tunisie!*

الصوت النحاسي يعلو على الأصوات الأخرى من حوله متوغلا في مناجاة طيف بعيد يتوهج به عقب برتقال منزل بوزلفة وبني خلاد في يوم مشمس؛ شمس الوطن القبلي والباعة متهيجون بالوهج الدافئ المطل من وراء قليبية ومنزل تميم والهوراية وجبل قربص! صُقلت حناجرهم وهم أطفال في أسواق باب الفلة ونهج سيدي بومنديل والفحص ومنزل بوزلفة والكاف وباجة والقيروان وراء صناديق الخضار، وفي جريهم المحموم بسطل الكازوز البارد في سوق الدواب: كازوز بارد! كازوز! برّد يعاطشان! يتسللون مثل القردة بين الخرفان والعجول والخيول والفلاحين الذين يقفون وراء خرفانهم وعجولهم ملفوفين صيفا شتاء في قشاييات الصوف الثقيلة والبرانيس. شارع ليفيس يبدو مسحورا في صبيحة هذا اليوم والباعة يملؤون الفضاء بهرج يبشر بربيع على حافة الجنون: التفاح اللي يفوح لجنان التفاح الزاهي تحت خمائل الشعر الأشقر الذهبي، والموز السحريّ ابن الأدغال للعين الزرقاء، والبرتقال

(١) ماليز هو صنف جيّد من البرتقال التونسي، والبائع يغمى بيضاعته بناجيها ويغازل الحريفات في الآن نفسه، بما معناه «اللّب الطريّ للشفاة الرقيقة، يا حلوتي!».

المتوهج بشمس المتوسط لشفاه الورد ولسان الحرير: رحيق على رحيق، يهب الله رحيقه من يشاء.

وأنا أخرج من شارع ليفيس منعرجًا باتجاه بولفار باتينيول الذي يصعد حتى ساحة كليشي، قلت: هذا اليوم الرائع سأهبه لعلّي. سيكون اليوم دون شكّ على مزاج رائق، وستكون الجولة معه فسحة بهجة ومرح ودعابة لا أريد أن أفوتها.

كان فعلا على مزاج خفيف.

- إيبه! صاح بكلّ غبطة وهو يفتح الباب فيراني، حمار من مات في هذا اليوم يا ترى؟ أهربت أم أطلق سراحك؟

«حمار من مات في هذا اليوم يا ترى؟» هي عبارة التعجب لكلّ أمر شبيه بمعجزة لدى عليّ؛ أمر لا يكاد المرء يصدّق حدوثه. هكذا يلجأ أحيانًا إلى نوع من الترحاب الذي لا يخلو من تهكم يستعيض به عن اللوم - عندما لا يقول معاتبًا: يا هزاب، يا نكار العشرة!

جلسنا بمقهى في ساحة كليشي وأمامنا يتدفق السيل المتواصل لأسراب النساء والفتيات في فساتينهنّ الخفيفة المزدانة الشهية كما لو لم تكن مجرّد قطع من القماش، بل جلدة رقيقة دقيقة نمت فوق أجسادهنّ ملاصقة للحم نابتة منه؛ جزء منه، قشرته الخارجية وواجهته البراقة.

ليس هناك أكثر من النساء سرعة في التأقلم مع تغيّرات الطقس! يخرجن اليوم بفساتين خفيفة زاهية الألوان طرية شهية والحال أنهنّ كنا إلى حدّ البارحة يرتدين الصوف والكتنات والمعاطف والأحذية الشتوية. تفتحن مثل الورود بين ليلة وفجرها بسرعة وتلقائية محيرة.

لمحت وجهها ملتصقا بزجاج النافذة الخلفية لسيارة تاكسي. وجه جوزيفين. أنا متأكد. السيارة تسير ببطء شديد والشارع غاصّ بحركة

كثيفة. تنظر من النافذة باتجاهي، أو باتجاه المحلات التجارية المحاذية. سيارة التاكسي تدبّ دبيب نملة تكاد تتوقف. باحة المقهى مليئة بالحرفاء الوافدين على هذه الشمس الربيعية المفاجئة، لكنها بالتأكيد قد رأته. طنت في رأسي «طلعت يا ما احلى نورها!» نهضت مهرولا باتجاه الشارع. تحرك طابور السيارات الذي كان متوقفا أمام الإشارة الضوئية التي تحولت الآن إلى الأخضر، تسارعت حركة العجلات أكثر فأكثر، ثم انطلقت ورأس جوزفين التي غدت على بعد بضعة أمتار مني استدارت الآن عن الجهة التي كانت تنظر باتجاهها، سيارة التاكسي تنفلت من أمامي وتبتعد: طلعت يا ما احلى نورها... أشرت إلى سيارة تاكسي في آخر الطابور المتقدم بسرعة الآن، لكنها لم تكن شاغرة، تاكسي ثانية وثالثة كلها محجوزة... ثم توقف تدفق السيل من جديد؛ تغيرت الإشارة الضوئية. في رأسي لم يتوقف طنين: شمس الشموسة! شمس الشموسة! ركضت في الاتجاه المعاكس بحثا عن تاكسي قد تكون متوقفة في موضع ما من الطابور الطويل. تحرك الطابور مجددا، ببطء في البداية، ثم بأكثر سرعة وليس هناك من تاكسي شاغرة؛ السيارات تنطلق بسرعة باتجاه شارع باتينبول حيث اختفت التاكسي التي كانت تقلّ جوزيفين، كما لو كانت هاربة عن قصد. أركض إلى اليمين، إلى الشمال. سيارات التاكسي كلها محجوزة. أهروا إلى اليمين، أترجع إلى الشمال. أتوقف. أجري. أمدّ ذراعي باتجاه تاكسي أراها قادمة من بعيد، تمرّ التاكسي في الصفّ الثاني ولا تتوقف. يتوقف الطابور، يتحرك ببطء، الأبواق ترعق لتوقظ الساهمين الذين لا يتفطنون بسرعة لتغير الإشارة الضوئية، أو الذين يتلکؤون قليلا. بعض السواق الأكثر عصبية يطلّون برؤوسهم من النافذة يصيحون، يشتمون، يحتجون... مرت حوالي خمس دقائق. جوزيفين ابتعدت بالتأكيد، ابتعدت كثيرا. لا

أدري أية وجهة قد أخذت سيارة التاكسي بعد شارع باتينبول ولم يعد من  
المجدي اللحاق بها. تذكرت علي؛ انتابني إحساس بالخجل فعدت إلى  
المقهى أجرجر قدمي محاولاً أن أفتعل الهدوء تمويهاً وطمعاً في مغالطة  
صديقي...

توقف طنين شمس الشموسة، ولم يعد هناك غير زعيق أبواق  
السيارات؛ سواق باريس مجانيين لا يكفون عن التبويق والصياح  
والسباب والتشاتم. مجانيين سواق باريس! لم يعلق علي بشيء عندما  
عدت إلى مكاني إلى جانبه. لم يقل شيئاً عندما اعتذرت عن غيابي  
الفجئي. وجدته يدخن ساهماً كما لو أنه لم يتفطن لهوضي كالملدوغ  
وجري في الشارع مثل المعتوه.

- بيرتين؟ قال وهو يطفئ سيجارته ويسحق عقبها في المنفضة دون  
أن ينظر إليها. دون أن ينظر إليّ.  
وافقت، وبقينا ننتظر شرابنا صامتين.

رفع علي كأسه كما لو أنه استيقظ فجأة، أو كما لو كان يريد  
إيقاظي. ضربنا كأسينا ببعضهما. تناولنا جرعتنا الأولى من السائل الذهبي  
والرغوة البيضاء الكثيفة التي بلملمس القطن البارد. ابتسم بعد أن مسح  
بظهر يده على شفثيه. كان قد أفرغ نصف الكأس في جرعة واحدة كما  
لأنه هو الذي كان يلهث وراء السيارات مثل المحموم.

- يوم ربيعي رائع، قلت محاولاً أن أمزق جلدة الصمت الكثيفة.

- آ... ربيع...

- فكرت إنه لا يحق أن أهدره على مقاعد قاعات الدروس المعتمة..

- أو في نقاش حول تغيير العالم.. شايف؟ يوم جميل، شمس، نساء  
جميلات، بيرة باردة. ماذا تريد أكثر من الحياة؟ ولم تشغل نفسك

بتغييرها؟ هي هكذا، بكل أوساخها وحمقها وأشياؤها الجميلة. وبما أنك لست أنت من يصنعها بل هي التي صنعتك، لندع العالم يواصل مسيرته كما يريد إذن ولنذهب إلى مدام روز. أوكد لك يا صاحبي أنه ليس لدينا في هذه الدنيا أفضل من مدام روز وبيرتها الباردة وذلك القطيع من السكّيرات والفاجرات اللاتي ينتظرن قدومنا ولا شيء أمتع وأجمل لديهنّ من مداعباتنا الفاجرة وأشياتنا الأخرى التي تسرهن. ألم أقل لك كم مرة إنهنّ خفيفات ببهجة الفراغ؟

نهضنا. بل علي هو الذي نهض كمن حسم في شيء هام ولم يعد لديه من سبب للجلوس والانتظار. نهضت وراءه.

طلعت يا ما احلى نورها!

بونجور مادام روز.

\*

## يوم ممطر

عدت إلى حي الشانزليزي بعد انقطاع طويل طمعا في العثور على جوزيفين بعد أن لمحتها في سيارة التاكسي التي كنت شبه متأكد أنها كانت متجهة إلى منطقة الشانزليزي. ذهبت مرتين إلى بيت العرفاوي في شارع ماربوف طمعا في معلومة عن جوزيفين ولو بصفة غير مباشرة. لكنني لم أجده. مللت صعود الدرج حتى الطابق السابع دون فائدة. وفي الواقع كنت كلما غادرت تقاطع شارع ماربوف والشانزليزي أحسست بوخزة قلق وشيء من الندم؛ قد تكون مرت من هناك أثناء غيابي، وهكذا أكون قد فوت الفرصة التي جئت أتصيدها. تركت بطاقة على



باب بيت العرفاوي: أنا جالس في مقهى الدروكستور. أودّ أن أراك.  
عادل. ونزلت مهرولا باتجاه التقاطع من جديد.

ساعت حالة الطقس مجددا بعد الهدنة المشمسة ليوم أمس. اختفت  
شمس كليشي وفتح أبريل حنفياته فوق شارع الشانزليزي. اختفت  
الفساتين الخفيفة تحت المعاطف من جديد. التثبت في الوجوه غدا أمرا  
صعبا تحت المطريات المفتوحة فوق الرؤوس. أقدم المارة أكثر سرعة  
تحت الرذاذ والسيدات الباريسيات مثل أسراب من الحمام المذعور.  
أتصيّد وجه جوزيفين من بين الوجوه الكثيرة التي تمر بسرعة تحت  
المظلات. وقوفا تصعب رؤية الوجوه. الجلوس في مقهى الدروكستور  
أفضل إذن؛ عندما يكون المرء جالسا بإمكانه أن يرى الوجوه من تحت  
المطريات.

الأمزجة تتعكر بسهولة في مثل هذا الطقس الممطر. اللقاءات  
سينقصها الجبور. هل ستكون جوزيفين معكرة المزاج؟ هل ستصيح: يا  
للمفاجأة السعيدة! وإذا ما صحت أنا هكذا: يا للمفاجأة السعيدة! هل  
سيكون هذا الطقس مما يساعد على جعلها تفهم معنى السعادة للقاء في  
يوم كهذا، غائم ممطر موحل قدر.

مرت سنة تقريبا على اختفاء جوزيفين. ترى هل مازالت تتذكرني؟  
أكد أنها ما زالت تتذكرني. لم تكن بيننا علاقة صداقة طويلة، لكن...  
موّدة ما، وثقة...

كيف ستكون مفاجأتها؟ ستصعق؟ تحاول أن تتظاهر بعدم التعرف  
عليّ؟ أم تفرح وتخجل، تعتذر عن اختفائها الفجئي؟ ندخل أحد  
البارات في شارع تيلسيت أو شارع لورد بايرون، أو تأخذني مثل المرة  
الأولى إلى مقهى آخر بعيد. تعتذر، تكذب، تقول إنها سافرت فجأة،

لأنّ أمها مرضت، أو تعرضت لحادث سيارة، أو ماتت فجأة. قتلها عشيقها مثلا، فهو عنيف خاصة عندما يسكر وتلهب أعصابه الغيرة. مللت الجلوس في مقهى الدروكستور بعد أن شربت قهوتين. لقد أخذ هذا المكان حظه، لم لا أجرب أماكن أخرى من المتوقع أن تمرّ منها جوزيفين أو العرفاوي، وفي أسوأ الحالات رشيد: شارع بلزاك، شارع اللورد بايرون، شارع تيلسيت الموارب وراء ساحة النجمة، شارع فاغرام...

بعد نصف ساعة من التمشي تحت المطر بدا لي أن الجلوس في مكان واحد أفضل من التنقل من مكان إلى آخر. الجلوس، أو الوقوف في مكان واحد يمنح فرصا أكثر لالتقاء الشخص المنتظر عندما تكون حظوظ مروره من هناك مرتفعة نسبيا.

لو أنني لم أكن مركزا فقط على صورة وجه جوزيفين لاستطعت أن أجد متعة في هذا التسكع داخل سيل المارة والسيدات على وجه الخصوص اللاتي يخطرُن في معاطفهن الطويلة كما لو أنّ هذا الرذاذ الذي يجعل كل شيء لزجا مقرف الملمس لا يعنيهنّ كثيرا. لكن المشي مرهق والجلوس بلا متعة عندما تكون أطراف أعضائك منقعة في البلب والرطوبة.

اخترت مكانا للجلوس داخل القاعة الزجاجية لمقهي فرانكلن مباشرة أمام مخرج محطة مترو فرانكلن روزفلت لأراقب خروج ودخول المسافرين. لعلّ وجه جوزيفين أو العرفاوي يبرز لي من هناك، والمقهي مدقًا على أية حال. رطوبة ملابسي المبللة تتسلل إلى العظام، وتلك الرطوبة الأخرى التي تُرى ملتزمة على الرصيف من وراء الواجهة الزجاجية للمقهي وفوق السطوح الرمادية للبنائيات أشعر بها هي أيضاً تقتحم الجلد وتستقرّ رجفة في الأحشاء.

لكن، لا يهتم هناك الآن عينا جوزيفين الخضراوان أذفاً من كل المدافئ والمواقد والمعاطف. دفء الأمان. أتخيلها الآن تخلع معطفها بعد أن تلج المقهى، مثل برتقالة تقشّر فتفوح منها تلك الرائحة العسلية الدافئة؛ رائحة برتقال في الشتاء! يا لرائحة البرتقال شتاء! أي بؤس ستكون حياتنا في عتمة الشتاء وأحوالها لولا البرتقال ورائحة البرتقال!

كدت في غفوتي داخل هذا الدفء المتخيل أن أفوت مرور العرفاوي. سريع الخطوة يمضي ملفوفاً في معطف أسود. يده في الجيبين الجانبيين، كما لو كان يضغط على نفسه كي لا يتسرب إليه شيء من البرد أو الرطوبة. أنهض كالملدوغ، أريد دفع الحساب بسرعة واللحاق بالعرفاوي. أضع فرنكين على الميسط، وأخرج.

توقف العرفاوي في زاوية تقاطع شارع مونتاني وشارع فرنسوا الأول. ألتحق به وأمسك بذراعه.

- أين أنت طوال هذه الغيبة؟ يقول لي مفاجأً بظهوري الذي لم يكن ينتظره، تعال!

- الدروس... والعمل.

لم يتهلل وجهه كما يفعل عادة عندما يتسم حتى الأذنين. مَدَّ يده يضافحني بسرعة ونحن نتحرك مواصلين السير. لم يمدَّ وجهه ليقتلني، ولم يقل: يلعن دين الخس! هل كان مستاءً؟ شيء جديد! العرفاوي عادة لا يستاء، أو على الأقل ليس بهذه الطريقة. وحتى عندما يلوم فغالبا ما يفعل ذلك وهو يعانقك، أو يضرب بكفّه على كتفك أو بقبضة يده على صدرك، أو يركبك يكاد يقطع أنفاسك. إنه كائن جسدي لا يعبر إلا بجسده، بغمه الذي يغدو واسعا مثل بحيرة، وفلجة أسنانه التي

تبدو مثل فرجة نور يطلع من أحشائه ويغمر وجهه، وعينيه اللتين تضيقان فوق أنفه العريض مثل حبتي لوز ملقأتين فوق وجهه.

اجلس! قال لي دون مزيد تعليق أو ترحيب، واتجه إلى بيت الحمام قبل أن يخلع معطفه. سمعته يرفع غطاء دفاقة الماء ويعيد غلقها. أعرف أنه يخبئ شيئاً هناك. المكان الوحيد الذي يبدو له آمناً. أحس ما الذي يخبّؤه. لم أر بعيني مرة واحدة شيئاً من الأشياء التي يسرقها من محلات المجوهرات. لم يكتف عني الأمر، لكنه لم يرني شيئاً من مسروقاته. ولماذا أيضاً؟

لم أسمعها يفتح حنفية الماء ولم أسمع خريراً يمكن أن يوحي بأنه بال أو اغتسل. عاد إلى الغرفة يخلع معطفه ويمضي باتجاه الباب حيث سيعلقه. وجهه منقبض شيئاً ما وإن بصفة أقل مما كان عليه قبل حين. - إنك مبتل مثل فزوج! أين كنت طوال الوقت؟ - كنت أتمشى، هكذا. ألح علي بأن أخلع الجاكيته المبللة. رمى لي بكنزة صوف وجوربين. - كنت هائما تبحث عن عمل؟ هل ستهتم بدراستك أم أنك ستظل تعمل مثل الحمار في هذه البلاد الخراء؟ لا بد أن تعرف ما الذي تريده؟ كم مرة قلت لك إننا إخوة ويمكنك أن تعول علي... أترك أمر الفلوس لأخيك العرفاوي - هنا ابتسم لأول مرة منذ لقائنا - وما عليك إلا بالدراسة، الدراسة، والدراسة فقط. ربّي وهبك دماغاً للعلم، فلماذا تفسد ما منّ به الله عليك؟ دع البقية علي... أم تراك تغيرت ولم تعد تؤمن بالأخوة؟

هل أؤمن بالأخوة؟ وبالروابط التي تولدها سنوات شدة متقاسمة وأفراح صغيرة كنا تقتلعها من التربة القاسية لنحلّي بها طعم المرارات اليومية؟

لا اظنّ أنني ما زلت أؤمن بالأخوة. أؤمن بالصراع الطبقي: «طبقة ضدّ طبقة» ذلك هو شعارنا. المحبة هي محبة الطبقة الشغيلة، قلت للعرفاوي ذات مرّة وأنا أحاول أن أسرّب إليه بعضاً من أفكار إديولوجيتي الجديدة، والمحبة تتكوّن وتتدعم داخل صراع الطبقات: صراع طبقي لا فردي، ومحبة طبقية موضوعية لا فردية وذاتية. أتذكر أنّ ملامحه قد انقبضت وتغيّمت تحت غشاوة من حزن أو ذعر أو شيء شبيه بخيبة أمل. أتذكر أنه ظلّ يحدّق فيّ بعينيه الصغيرتين وهو ينفث دخان سيجارته بعصبية، ثمّ قال لي: عادل! سيبك من هذه الأفكار القاسية... نحن لم نتربّ على مثل هذه المشاعر، وأنت لم تستطع أن تصمد أمام مصاعب تلك السنوات القاسية لولا المحبة التي كانت تجمعنا وتسهّل علينا كلّ صعب.

- لكن صراع الطبقات هو هذا يا عرفاوي، أن يتآزر المضطهدون والمستضعفون لكسر طوق عبوديتهم لأنهم في تعاضدهم الطبقي يغدون أقوياء، بل القوة المحركة للتاريخ وبذلك يحققون ما لا يحلمون بذرة منه كأفراد.

- هذا كلام جميل، وأنا أعرف أنك تؤمن بهذا الشيء بدافع حبّ الخير، لكنّ فيه شيء قاس وصلب مثل الكره والحقد والنقمة. شيء أحسنّ به غير رحيم لا يوحى لي بالارتياح، وأخاف أن تُصلّب هذه الأفكار قلبك، ومن بعدها تصبح مثل الآخرين الذين كنت تحقد عليهم وعلى قسوتهم.

حسن فيلسوف مقهى ليسكوليه، الذي يكره الأفكار الماركسية ويقول عنها إنها فلسفة الحقد والبطون الجائعة، هو أيضاً يحبّ أن يردد: «ستراهم أولئك الذين ظلوا لسنوات يخزنون الجوع والشره في

قلوبهم، ستراهم كيف ينقضون مثل الذباب على موائد الأسياد في أول فرصة تمنح لهم، كلّ الموائد التي كانوا يحققون عليها، بشرط أن تمنحهم شيئاً من الفضلات. حقدهم على نعمة الآخرين يتحوّل في قلوبهم المريضة - مثل النيذ يتعفن فيصبح خلاً - إلى لهفة على كلّ ما يبرق يخالونه ذهباً. سترون الكثير من هؤلاء الناقلين اليوم يصبحون كلاب الغد المتكالبّة على فضلات الموائد وعلى النهش والعصّ، ولن ينسوا النباح طبعاً؛ حسن أيضاً يفكر مثل العرفاوي».

حسن رجل عدمي! نحن اخترنا طريق تغيير العالم لا طريق صلافة السخرية والاستهزاء. مالنا ولشطحاته العدميّة وفلسفاته الميتافيزيقية الغامضة؟

\*

لبستُ كتزة الصوف والجوربين وأنا مصرّ بالرغم من كلّ شيء على أنّ محبّة العرفاوي ضرب من التضامن الطبقي، لكنه فقط تضامن ذاتي وهامشي بالنسبة لحركة التاريخ.

لم يكن هناك ما ينمّ عن شيء من الجفوة في سلوكه وهو يقدم لي ملابس نظيفة ويتناول ملابسي المبللة ليضعها فوق مدفأة كهربائية كي تجفّ، ثم يشرع في إعداد القهوة. لكنه كان يبدو مشوشاً شيئاً ما وقليل المرح، ولا شيء في هيأته وتحركاته وتجهّم وجهه يدلّ على أنه ذو مزاج مؤات للمرح، أو للخروج. يرتطم بكرسي فيركله مدمدا ويمرّ ليتعثر في زاوية طاولة، يبحث عن شيء هنا أو هناك ثم يكفّ عن البحث ممتعضاً، يجلس ثم ينهض ويعيد البحث. لا ينظّ مثل عادته ويهرج ويدندن. الأشياء نفسها تبدو متواطئة على اضطرابه، لا تستجيب لإرادته؛ يدير زرّ المذياع، يخشخش ويصعد منه هدير غامض فيلعلن

دين أمه ويغلقه، يفتح علبة سجائر يجدها فارغة فيدهسها في كفه ويلعن دين أمها ويقذف بها على الأرض. هذا ليس العرفاوي الذي أعرفه! يبحث داخل جيوب سترته ومعطفه، يقع شيء على الأرض يحدث ارتطامة ثقيلة فيدمدم وينحني ليلتقطه، يلتفت إليّ وهو يحاول أن يخبئ الشيء الذي التقطه بسرعة محكما يده وراء ظهره. رأيتُ. ويبدو أنه رأى أنني رأيتُ، لكنه يتسلل إلى المطبخ ليعود بفنجان قهوة يضعهما على المائدة ويجلس. ودون مقدمات يقول: الجوّ مكهرب.

هل ضُبط في إحدى محاولات السرقة وهرب؟ ضبطت قطعة من مبيعاته لدى إحدى العاهرات مثلاً؟

- رشيد في الحبس.

فوجئت. فرحت... فرحت فعلا حتى أنني نسيت الرعدة التي راحت تقوّضني منذ أن لمحت الشيء الذي وقع من يده. كادت الكلمة أن تخرج من فمي ظافرةً، شامتةً: يستاهل. لكنها انقلبت على طرف لساني وانمسخت: في الحبس؟ لماذا؟

- قصة طويلة. خصومة في بار بساحة كليشي. المهم لا أدري ما الذي يمكن أن نفعله كي نخرجه من ورطته. أطلق الرصاص في البار وفرّ، وبعد ساعة تمّ إيقافه في محطة الشمال.

- ساحة كليشي؟ ماذا يفعل في ساحة كليشي؟

جوزيفين رأيتها في سيارة التاكسي في ساحة كليشي! هل غير المكان؟ إذن... لا بد أن تكون في ساحة كليشي وأنا أبحث مثل الأبله في الشانزليزي! ليذهب رشيد إلى الجحيم. لا بد أن...

حدثت خصومة رشيد بسبب خلاف في لعبة بوكر مع مجموعة من القوادين الذين يجلسون ليل نهار في الحانات الصغيرة بالأزقة المحاذية

لساحة كليشي غير بعيد من أماكن عمل مومساتهم. يخرجون من حين لآخر في جولة تفقد ثم يعودون إلى طاولة اللعب، أو للوقوف على البار في انتظار عودتهن بمحصول العمل، يفرغن حافظات نقودهن ويتناولن كأسا ويعدن إلى مواقع عملهن على أرصفة الشوارع والأزقة القريبة أو في زوايا الساحة.

قد يكون الخلاف في لعبة البوكر مجرد تعلقة، كما يحدث في أغلب الأحيان. فبين القوادين، إلى جانب علاقات التآزر علاقات حسد وغيره ومزاحمة؛ كلٌّ يحاول كسب وذّ الجميلات من المومسات أو استدراج واحدة جديدة ما زال موقعها غير محدد وروابط خضوعها لقواد بعينه غير واضحة بعد. بدأت المشاجرة كلاما وصراخا وخبطا على طاولة اللعب بينما النادلة السمينية تصرخ من وراء البار مطالبة بالهدوء ولا أحد يسمعها، وما كانت بدورها تنتظر أن يسمعها أحد، إنما تفعل ذلك بصفة تلقائية كما تفعل دوما كلما تعالى الصراخ كما لو أنها فقط تسعى للإسهام في توقيع الجوقة وتكميل المشهد ليس إلا. نهض رشيد وفاجأ خصمه بنطحة رأس حادة قبل أن يقلب عليه الطاولة ويفرّ شاهرا مسدسا في وجه الجميع. يقال إنه أطلق رصاصة باتجاه السقف كي يُرهب الآخرين ويصدّهم عن نية ملاحظته. ويبدو أن الطلقة قد أرعبت صاحبة البار فسارعت إلى الهاتف وهي تصرخ وتولول وطلبت أعوان الشرطة الذين قدموا بعد بضع دقائق ولم يعثروا على أحد هناك. جميع القوادين فروا وابتلعتهم الأزقة المحاذية هم ومومساتهم.

لا أحد يعلم إن كان أعوان الشرطة قد استفادوا حقا من شهادة صاحبة البار التي كانت طوال الوقت تضرب على صدرها متفجعة على السقف المثقوب واللمبات والكؤوس المهشمة، ولا تجيب عن كل الأسئلة إلا بصيحات الذعر كما لو كانت فتاة رقيقة لا علاقة لها بهذا



العالم العنيف والمليء قذارات ومخاطر: عربي! أقول لكم إنه عربي..  
عنيف يا إلهي، عربي عنيف! لقد دمر الحانة وخرب بيتي. لا بد أن  
توقفوه، عربي، خطير، مجرم..

سأنتظر حتى تجف ملابسني قليلا ثم أنصرف. رأيت المسدس الذي  
وقع من يد العرفاوي وسارع بإخفائه كما يسارع امرؤ بإخفاء عورة  
انكشفت في غفلة منه. غدوت منكمشا قلقا. العرفاوي لن يخرج اليوم،  
هذا أمر شبه متأكد، فالجو فعلا مكهرب كما قال. إيقاف رشيد قد يكون  
فيه خطر عليه هو أيضًا. وجوزيفين؟ كان بودي لو أنني أجرؤ على ذكر  
إسمها. أن أسأل العرفاوي. لكن كيف؟ لعله لا يعرف حتى من هي  
جوزيفين. ولعل لها إسما مستعارا هي أيضًا. رشيد في الحبس  
والعرفاوي يحمل مسدسا! أنظر إليه الآن مثل واحد لا أعرفه وأتذكر  
كلمات علي الذي حذرنني بشدة من مخالطتي له. أتذكر كلمات الرفيق  
حميد: لست عنصرا منعزلا يا رفيق، علاقاتك يمكنها أن تجلب  
المخاطر على الرفاق.

- لا بد أن أذهب، لي دروس غدا في ساعة مبكرة.

- ما لك؟ إنك تبدو قلقا، هل هناك شيء يضايقك؟

كان يتلكأ ويتردد في الكلام، يتعثر في الحرج لأنه بالتأكيد قد لاحظ  
أنني رأيت المسدس: إنك تبدو شاردا نوعا ما! هل هي قصة رشيد قد  
أخافتك إلى هذا الحد؟ ما لك تنظر إلي هكذا؟ قل شيئا، يا أخي!

- عرفاوي! قلت متبرّما. لا أدري إن كنت أرجوه أن يكف عن  
مضايقتي بأسئلته أم أن يتكلم ويفسر أو يبرر لي وجود ذلك الشيء الذي  
كان يخبئه. وهو على أية حال ليس غبيا، له حدسه الحيواني على الأقل.  
ظل ينظر إلي بعينين شبه متوسلتين؛ ارتخت الحدة التي كانت في عينيه

لكن دون أن تشعًا مجدداً بمرحهما المعتاد؛ شيء من اللين الشبيه بالحزن الطفيف. تقدم مني ويده خلف ظهره. انكمشت. صمئت وأنا أنتظر.

- خويا عادل... هل هذا هو الذي يزعجك؟ سحب يده ورمى بالشيء الذي كان يخبئه وراء ظهره على المائدة. هل هذا هو ما يزعجك؟

مسدس صغير بحجم قبضة اليد.

- هذا؟ أنظر إليه؛ لا شيء، مجرد لعبة للمغالطة ليس إلا. قلت لك لعبة ليس إلا.

ذلك الشيء الأسود رابض فوق سطح المائدة، ثقيل رغم صغر حجمه، بارد مثل حية ملتوية منكمشة على نفسها. بدا لي مسكونا بنبض، بنفس، بروح شريرة. تجمّدت وعيناي لا تفارقانه كما لو كنت خائفاً أن تتحرك الحية في غفلة مني، تنطأ، ترتمي على وجهي وتلدغني.

- يا أخي، قلت لك لعبة، ألا تصدق؟ ألعن الشيطان يارجل!

العرفاوي يتسم الآن، لكنها ابتسامة مجتثة من روح الحرج والقلق، باهتة مربكة.

- تريد أن تتأكد بنفسك؟ هه! ودفع بالمسدس باتجاهي. افتح وتثبت بنفسك...

ارتجفت. تبيست مفاصلي. انكمشت أكثر والتويت على نفسي مثل أرنب مذعور. كياني كله أحسّ به الآن في بطني. ألمسه؟ وأفتحه؟ لن تمسّ يداي هذا الشيء البارد المسكون بالموت... لكن يا سي عادل! ياسي عادل الذي تشدق بالثورات المسلحة وتهتف لصور المقاتلين في

فلسطين ولبنان ونيكاراغوا والسلفادور ووظفار وكمبوديا! يا عادل  
 ياعدولة، أريد أن أنادي نفسي هكذا، أو هكذا كان يخاطبني الصوت  
 من داخلي، يا عادل الإوزة المذعورة، ألسنت أنت الذي تهتز لرؤية  
 الفتیان والفتيات في نيكاراغوا وأريتريا ووظفار يشهرون البنادق  
 والرشاشات وأنت تصرخ كالمختبل: خلي الثورة تولع نار، تولع نار!  
 ألم تصبح الكلاشنيكوف لديك أنت ورفاقك رمز الحرية والبطولة  
 وحرمة التاريخ؟ ألم تتغنّ بترديد إسمها مثل عبارة شبة تملأ قلبك  
 وشرايينك بسائل ساخن هادر كنت تظنه إلى حدّ الساعة النبض الحقيقي  
 للحياة؟ ما لك تنكمش الآن إذن وتكور على نفسك وتتقلص أمام هذا  
 الشيء الصغير الذي لا يتجاوز حجم قبضة اليد؟ شيء صغير جامد ملقى  
 فوق مائدة في غرفة محايدة، مثل ضفدعة لا بدة لا تجرؤ على الحركة  
 خوف أن تجلب انتباه يد عدوانية. ما أحلاها الثورة برشاشاتها وبنادقها  
 ومسدساتها ومدافعها وألغامها وقنابلها وكمائناتها وخنادقها ودمائها! ما  
 أحلاه موكب الذبح، القتل، النيران، الدخان والجري والقذف والقصف  
 والجزّ والحرز... لكن في بهو الحي الجامعي، وفي قاعات العروض  
 السنمائية وعلى كراسي قاعات المحاضرات وفي غرفة الرفيق حميد  
 المعلقة في الطابق السابع من عمارة في شارع سان جاك!

«وفي يدنا يلعب الرعب في يدنا!»

الرعب! الرعب يا طحان! مسدس مسالم قد يكون فعلا مجرد لعبة،  
 يربض فوق مائدة يجعلك تنكمش، ترتعد والعرفاي ينظر صامتا بشيء  
 من الحرج، والشفقة أيضاً. أحضتني ياعرفاوي بذراعيك الحنونين مثل أم  
 تهدئ روع ابنها الذي أفضّ مضجعه حلم مزعج. قل لي إنّه مجرد  
 حلم. طمئنتي، هدئي روع قلبي ببيزة باردة وحدثني عن باجة وقل لي:  
 يلعن دين الخس، أخوك الفاوي موجود ما تخافش يا فريريج، يا برغوثة

السوربون! وغنّ لي يا عرفاوي ياخويا عوضاً عن كلّ تلك الأغاني التي  
تنشد الرصاص والنيران والثورات الدامية، غنّ لي:

نتي نتي جاك النوم

يا خدود بوقرعون!

- لم تصدّق؟

نطق العرفاوي أخيراً بمزيج من المرارة وشيء من التحدي، ثم  
تناول المسدّس... لم تصدّق؟ إذن طز في الكذب! أنت أخي ولا أريد  
أن أغالطك، هه!

فتح خزان المسدّس بيد واثقة وعارفة، بيده اليمنى بينما اليسرى  
تحتضن مؤخرة المقبض في كفّها. ستّ رصاصات تناثرت فوق  
المنضدة، صغيرة الحجم بكبسولات نحاسية ملتصقة، تماماً مثل تلك  
التي كنا نجتمعها في أيام الصبا من بقايا خنادق عسكر الألمان في الجبال  
المجاورة. لكن هذه أصغر حجماً، تكاد تكون مكورة أو بيضوية الشكل.  
ستّ عبوات معدنيّة صغيرة متناثرة فوق المائدة، مسالمة مثل جنود  
يرفعون أيديهم فوق رؤوسهم وهم يتقدّمون مجردين من السلاح إلى  
عدوّهم يتقدّمون رؤوسهم للأسر. رصاص

- هل اطمأن قلبك الآن؟ إنه مسدّس رشيد تركه عندي أمانة قبل أن  
يلقى عليه القبض. ماذا تريد أن أفعل؟ أرمي به في صندوق القمامة؟ إنه  
أمانة!

أمانة؟

ستّ رصاصات فوق الطاولة! ألم يقل أنّ رشيد أطلق رصاصة باتجاه  
السقف؟ هل وجد بعدها وقتاً كافياً وما يكفي من برودة الأعصاب كي  
يضع واحدة سادسة عوضاً عن الرصاصة التي أفرغها في سقف البار؟

وهل تمكن في ظرف وجيز من البحث عن العرفاوي والعثور عليه ليسلمه المسدس؟ ألم يكن مهتما بالدرجة الأولى بالنجاة بجلده، ولا شيء غير الفرار والنجاة بجلده؟

العرفاوي يجمع بسحبة من كفه الرصاصات المفروطة فوق المائدة. - عادل، أنت لم تسألني أبداً لماذا أمارس هذه الشغلة. منذ أن التقينا قبل ستين لم أخف عنك الأمر، وكنت بكل تأكيد تتساءل، وربما كنت تريد أن تسألني، أو تلومني، لكنك لم تفعل. ربما كنت حريصاً على أن لا تخرجني. لكنك كنت تخرجني طوال الوقت، لأنك لم تسألني، ولم تعطني فرصة كي أفسر لك الأمر، أو أبرر نفسي. شوف خويا عادل، يوم جاءتني الموافقة الأولية على طلب الهجرة بعد جهود مرهقة من أمي وتوسلات ودفع رشاوٍ من بيض ودجاج، علبة غسل من هنا لهذا المسؤول وصحفة سمن من هناك لموظف في إدارة التشغيل والهجرة، ثم نوذي علينا للفحص الطبي، وأوقفونا في الطابور الطويل أمام لجنة طبية من رجلين وامرأة فرنسيين لنمرّ الواحد تلو الآخر؛ الأول يجسّ سواعذك، يأمرك بأن تمشي بضعة خطوات إلى الأمام، عدّ مشياً إلى الخلف دون أن تلتفت، افتح قميصك، تتقدّم، تمر إلى الرجل الثاني، ينظر إلى صدرك وبطنك، ثم يفحص ظهرك ويجسّ أضلعك، بعدها تمر إلى الطبيبة تجسّ نبضك، تستمع إلى دقات قلبك وتنفسك، تأمرك بأن تفتح فمك، تفحص لسانك، حنجرتك، تمر قضيباً في طرفه مرآة صغيرة على أسنانك وأضراسك، تذكرت سوق الدواب وكيف يفتح المشترون شدقي البغل أو الحمار أو الحصان ليفحصوا أسنانه: أنا الآن بغل أو حمار في سوق دواب للتصدير إلى فرنسا، فكرتُ في تلك اللحظة. ثم سمعتها تقول «سي بون»، أي أن كل شيء على مايرام، وهي تدفعني من كتفي كي أمر.

خرجت من هناك وعبارة «سي بون»، تتردد في رأسي، ثم على لساني. عرفت لحظتها أن الفرنسيين يطلبون بغالا للحرثة: «سي بون».

يوم ركبنا الباخرة، وبعد أن اختفى الساحل وراءنا وكفكفت عيني من الدموع، قلت لنفسي: أنت الآن بغل حرثة يصدر إلى بلاد الفرنسيين. ثم أقسمت لنفسي، ولحده أيضاً أن الأمر لن يدوم طويلاً، وأني لن أكون بغلاً لأحد أياً كانت التكاليف.

يصمت العرفاوي، يولع سيجارة ويسحب نفسين متالين وهو يسرح بعيداً بنظره، ثم يلتفت إلي:

خويا عادل! الحياة ليست لعبة كما تصورها لك الكتب. اللقمة صعبة، والقلب تعب واهترأ من البؤس والعراء والحفاء والفاقة الدائمة. حدة يا خويا عادل! حدة التي ترملت وركضت في الحقول وأدمت يديها المسحاة والفأس وصابون الغسيل في بيوت الموسرين... ليس لي غير حدة التي تحملت من أجلي الذل والشائم والوقوف الطويل في طوابير إعانات التضامن الاجتماعي. أقسمت أن أنتقم لها من كل ذلك، أن تصير ملكة زمانها قبل أن تختطفها يد الموت. كل شيء يهون من أجل أن أراها في رفاها ولو يوماً واحداً، سعيدة، راضية عن كل تضحيات وعذابات السنين الطويلة القاسية.

أنا لا أريد هذا المسخوط، ومثلك لا أحب رؤية منظره المفزع. أعرف أنه الأفعى التي تنام في جنبي ويمكن أن تنقلب علي في أية لحظة وتلدغني. لكن هناك ساعات أو لحظات أتحمسه فأشعر به مثل التميمة التي تبعد عني البلاء، تملأني جرأة وثقة، هكذا لمجرد أن يكون ملاصقاً لجنبي... ماذا تريد؟ هكذا هي الحياة.

## زمرة الشياطين

المولدي في باريس، قال لي حسني، تعال سنجدّه بالتأكيد في مقهى لِسكولِييه.

كان فعلا هناك. من وراء ستارة المطر المتدفق خيوطاً عمودية سميكة بدت لي تقاطيع وجهه مثل صورة متشظية تنعكس في مرآة مهشمة. واقف على المبسط وأمامه بيّرة، كما لو أنه لم يتحرّك من ذلك الموقع من الزاوية اليمنى للبار منذ أن تركته هناك قبل سنة أو ما يزيد.

ارتعش شارباه الغليظان وبرقت عيناه ببريق الفرح ونطّ مثل قطّ متوثّب بقامته القصيرة والممتلئة التي تجعله شبيهاً ببخار برتغالي.

هاي هاي هاي! يا زمرة الشياطين! ها أنا الآن حقا في باريس!

ثمّ، ومن دون مقدمات: كيف أخبار الثورة؟ وأخباركم الجنسية؟ فتيات باريس ليس هناك مثلهنّ في الدنيا قاطبة. تعرف يا رفيق، قال ملتفتاً إليّ وهو يتخذ ملامح جدية للغاية كالمقبل على قول شيء ذي أهمية قصوى، تعرف ماذا كتب ماركس لأنجلس ذات مرّة في رسالة من باريس - ستجدون ذلك في المراسلات الكاملة صفحة كذا.. قال له: تعال إلى باريس يا فريدريش، إنّ فتياتها الجميلات سيساعدنك على تنقية دماغك من الكدر الألماني، وستعود بوضوح فكري وأيديولوجي لا عهد لك به. ماركس، في رسائله إلى أنجلس. أغلب الرفاق مكبوتون

جنسيًا، لذلك تظل أفكارهم متوترة، جافة ورؤيتهم ضبابية. ينقصهم الوضوح الفكري، لأن وعيهم مكبل بالعقد الجنسية يا رفيق. اقرأوا فيلهلم رايش. إنه الوحيد الذي استطاع أن يذهب إلى أعماق البنى السيكولوجية الخفية للمسألة الفاشية. لم يفهمه أصدقاؤه الشيوعيون الأغبياء. الوحيد الذي حرك إصبعه في الجرح العميق لكتلة الجماهير المكبوتة، والذي كشف عن الخيوط الخفية التي تحرك بها القوى الفاشية الكتلة البشرية الغائمة، وتتحكم بموجبها في الأرواح والضمائر. العامل الجنسي، والعامل الذاتي هو المحدد دوما في عملية الوعي، كما في عملية التلاعب بوعي كتلة الجماهير. جمعهم ذلك الأحق، قتل فريديتهم، سحقهم كأفراد وهو يجمع مكبوتاتهم ويؤطرها ليكون منهم كتلة غامضة تتحرك وفقا لأغراضه ونواياه. حرروا الجنس، يتحرر الفرد ويصفي الوعي. كل ما عدا ذلك كذب ومغالطة. تدجين. إعداد جيوش للخراب والدمار.

سبق أن حدثنا المولدي قبلها بحماس عن فيلهلم رايش وعن الثورة الجنسية، عن هربرت ماركوز وهوركايمر وأدورنو. «العالم يتحرك من حولكم يرافاق وأنتم تغطون في نوم الأيديولوجيات. يا ويحنا يوم نفاجا بشبح التزمت الديني وهو يطلع علينا على قاعدة هذه العقول التي روضها التأطير الايديولوجي والخصي المعرفي. خصي. أنا أقول لكم إنه خصي، ولا شيء غير خصي. لكن المخصي يحاول الاستمناء خفية. وفي الاستمناء لا يفعل سوى شخذ ضغينته والتهيشة للدمار. أولئك الخوانجية المتمزتون الذين تدعون محاربتهم يفتدون من تعصبكم وعماكم الإيديولوجي. لا تدعوا أنفسكم تتحولون إلى بذرة متعفنة تنتعش داخلها تلك الدودة. مازال بالإمكان تفادي هذا الأمر والدودة في طور بداياتها الخجولة».



المولدي هو الذي ابتكر مصطلح اليسار الخوانجي. - طبعاً يارفاق، يقول منتفضاً، كتاب عوضاً عن كتاب، إيمان أعمى مكان إيمان أعمى، تزمت مكان تزمت... عقل محتط: القالب هو نفسه، لا يغرركم وهم المحتوى؛ القالب هو المحتوى.

- هاو بدا يخبِز ويلبِز، قال حسني ممتعضاً. ما هذا الهراء يا مولدي؟ يبدو أن صاحبك رايش قد خبِل عقلك حقاً!

\*

في بيت آخر في الدائرة الرابعة عشرة، بالقرب من أليزيا تلتئم لقاءات مجموعة مرحة من أصدقائنا وأنصار التنظيم، تقدّميون وملتزمون لكنهم يحبّون المرح والعبث. أوفياء وحازمون عندما تقتضي الحاجة، لكن لا يعجبهم كثيراً إفراط أغلب الرفاق في الجدّية، وذلك التيبس الذي يجعل الكثيرين منهم أشبه بالكهّان والفقهاء المتمرّتين: مروان وفتحي وعبد الحميد وذجو مجموعة من المرحين المشاكسين. ودودون، مرحون، عابثون يحبّون المغامرات الجنسيّة والحديث في مسائل الجنس والنساء. يشربون بشراهة وتدور بينهم في بعض الأحيان لفافة الحشيش، يتأبط مروان العود ويمسك فتحي بالدربوكة أو الدفّ وتأخذ السهرة منعرّجاً آخر. ندع الأغاني الملتزمة جانباً وتصدح الحناجر بأغاني الشيخ العفريت وراؤول جورنو وصليحة والهادي الجويني وأم كلثوم ومحمّد عبد الوهاب وسيد درويش. أحياناً يتوقّف مروان فجأة عن العزف. ثمّ ينظر إلينا بعينين تفتعلان اللوم والعتاب قبل أن يقول بصوت ظاهره جدّ صارم: أستغفر الله! أظنّ أننا بدأنا نتميّع يا رفاق! يالاً، خلّينا نأتي بواحدة للشيخ (وهو يقصد المغنّي الملتزم الشيخ إمام) نغسل بها الذنوب! ننفجر جميعاً ضاحكين ونقول له: تتزندق يا كلب يا فاجر؟

لو كنت في الصين لحشّ الرفاق لسانك ونفوك في حقول الرز لتتم إعادة تثقيفك! - أي والله، معكم حقّ يا رفاق. ويظلّ مصرّاً على عدم العودة إلى «أغاني الميوعة» قبل أن يغتني إثنيتين أو ثلاثاً من أغاني الشيخ إمام؛ «الآيات القصار يا رفاق!» يقول بتهكّم ويشرع في: «مرّ الكلام، مثل الحسام / يقطع مكان ما يمرّ» أو «دزّ يا كلام على كيفك دور». بعدها يضع العود ويولّع سيجارة وهو يقهقه ويقول: هذا شيخ وذاك شيخ، ولكلّ شيخ علينا حقّ، ثمّ يشرع في الدندنة بأحد ألحان الشيخ العفريت.

في البداية كان الجماعة، وبرغم الوذّ الذي بيننا، حذرين شيئاً ما تجاهي ومتحفّظين. كانوا لا يعرفون مني غير جانب الجدية والالتزام والحركية، فقد كنت خلال تلك السنوات أعيش بحسب نمطين متوازيتين: واحد في الحي الجامعي بين الرفاق الشوريين، في الاجتماعات العامة والركض بين أحياء المهاجرين، ونمط آخر في حانات سان دني والشانزليزي ومونبرناس، بين أرهاط من السكيرين والسكيرات والمومسات والقوادين واللصوص والنشالين. عالمان متوازيان أتأرجح بينهما بكل تلقائية مثل بهلواني مدرب على السير فوق حبل دقيق، لكن أغلب الأصدقاء لا يعلمون شيئاً عن عالمي الموازي ذلك. ذات ليلة قضينا ساعات طويلة من النقاش حول مسائل سياسية متنوّعة في بيت مروان، حتّى كادت تطلع روحنا. وبعد أن شربنا بضع زجاجات من النبيذ الأحمر تناول مروان العود وكنت حينها قد بلغت حدّاً من تخمة النقاشات الجدّية فسألته إن بإمكانه أن يعزف لنا أغنية «أنا ماذا بيّ» للشيخ العفريت، وإذا به ينظّ مثل الملدوغ ويرتمي عليّ وهو يسألني: تحفظها؟ كاملة؟ فأجبتة بنعم وشرعنا نغني جميعاً بحناجر منطلقة مثل سجناء أطلق سراحهم للتوّ ولا يدرون بعد ما الذي يفعلونه بحرّيتهم المستعادة فانطلقوا يزعمون مثل المخابيل. منذ تلك السهرة التي

لم يغرنَّ فيها حرف واحد ملتزم توّطدت علاقاتي بـ«مجموعة المائعين» كما يحلو لبعض الرفاق تسميتهم. زالت الكلفة وفتحوا قلوبهم لي. ثم غدونا «نتزندق» معاً ولا نتورّع عن التهكم - في حدود طبعاً - من الجدّة المفرطة لبعض الرفاق، ومن دوغمائيّة هذا وتبعيّة ذلك، وكان مروان يجيد فنّ النكتة ويتفتّن في ابتداع شتى السخريات الشتيقة المبهّرة بشيء من الدعارة ورغبة واضحة في التحرّش بكلّ ما له هيئة المقدّسات. ذات ليلة سألتنا: هل لاحظتم شيئاً في ملامح الرفيق ق؟ في عينيه بالتحديد؟ - لا، أجبنا جميعاً. وماذا لاحظت أنت؟ - عجيب! قال لنا، هل أنتم عمي، أم أنكم لا تنظرون بدقّة في وجوه رفاقكم؟ ألم تلاحظوا أنّ عينيه ما فتئتاً تضيقان في المدّة الأخيرة؟ - لا، لم ننتبه. وما السبب في ذلك يا مروان؟ - السبب في ذلك يا رفاق هو إدمانه على قراءة صحيفة «أخبار بيكين». ق له فعلاً عينان ضيّقتان ووجه بملامح مغوليّة، وهو بالفعل من المدمنين على قراءة «أخبار بيكين»، لا يستشهد إلّا بها، ولا موقف له من أية قضية إلّا بحسب ما جاء في «أخبار بيكين»، وإن حدث شيء ما في أيّ مكان من الدّنيا فإنّ الرفيق ق يحجم عن الإدلاء برأي في الأمر قبل أن يصل العدد الأخير من «أخبار بيكين». ذات مرّة ناداه مروان وكنا جالسين في مقهى سوفلو بالحيّ اللاتيني بينما كان ماراً من هناك، ثمّ سأله بنبرة جدية صارمة: هل سمعت يا رفيق؟ الحزب الشيوعي الصيني أصدر بياناً يشجب فيه زيارة أنور السادات إلى تل أبيب ويعتبرها مؤامرة إمبريالية صهيونية ضدّ الثورة الفلسطينية.

- حسناً، وما الغريب في ذلك؟ إنّ موقف الرفاق الصينيين تجاه القضية الفلسطينية واضح لا غبار عليه، خلافاً للاتحاد السوفياتي الذي... وانطلق في شرح مطوّل وتحليل خشبيّ لمسائل قضايا التحرّر الوطني والامبرياليّة العالميّة، والامبريالية الاشتراكيّة السوفييتيّة، ونظرية

العوامل الثلاثة، ونحن نستمع ونتغامز لعلمنا بأن الصين قد نوهت بزيارة السادات إلى اسرائيل واعتبرته شخصية وطنية من درجة أولى. لكن مروان أراد فقط أن يضحك على الرفيق، وظلّ يغمز إلينا بأن لا نفاتحه بحقيقة الموقف الصيني وأن ندعه حتى يكتشف ذلك بنفسه في العدد الأخير من «أخبار بيكين» الذي كان منتظرًا وصوله إلى باريس في ذلك اليوم. بعد يومين سألنا الرفيق ق متظاهرين بالاندهاش للموقف الجديد والمفاجئ للصين بشأن زيارة السادات لإسرائيل، وهاهو ينطلق في تحليل جديد مناقض تمامًا لتحليله الأول، وهو لا يفعل في الواقع سوى استحضار محتوى المقال الذي جاء في العدد الأخير من «أخبار بيكين»، ومروان يفتعل الحيرة والدهشة ويردّد: سبحان الله، لم أعد أفهم شيئًا يا رفيق! والرفيق ق يعيد عليه محتوى المقال من جديد محاولاً أن يوضح له ولنا الأبعاد السياسية والادبولوجية والاستراتيجيوسياسية لموقف الرفاق الصينيين معتمدًا في ذلك على نظرية العوامل الثلاثة الصينية طبعًا.

## زاوية أخرى من القاع المظلم

علي يبدو اليوم مرحا. بيته مرتب ونظيف. كان قد أعدّ كسكسي بلحم العلوش. قال لي: هكذا خطر لي اليوم أن أطبخ كسكسي، لكنني حالما انتهيت من الطبخ شعرت بشيء من الضجر وقلت لنفسني كيف سأتمتع لوحدي بهذا الأكل؟ أنت تعرف أن الكسكسي لا يمكن أن يأكله المرء لوحده. لا أدري لماذا؟ الأكلة الوحيدة التي أشعر بنفسني وحيدا بائسا مثل كلب متروك عندما أطبخها وأكلها وحدي، وغالبا ما أرمي بها بعد يومين في الزبالة. في المطعم الأمر يختلف. لكن أن تقضي ساعات في إعداد هذه الوجبة، ثم تجلس بالنهاية أمام كدس من الخضار واللحم من المفترض أن يكون طعاما لحفل وتشرع في التهامه بسرعة وبصفة آلية! خسارة، أليس كذلك؟

- اشتممت الرائحة من بعيد فأتيت.

تهللت أساريه. بدأ يركض بين الغرفة والمطبخ، يدندن، يهذي، يفتح زجاجة بيرة ويضعها أمامي، ثم يعود إلى المطبخ ويأتي بزجاجة نبيذ سيدي ابراهيم الجزائري: أليس هذا أفضل من البيرة مع الكسكسي؟

بعد انتهائنا من الغداء راح يتحدث عن الأطعمة التونسية وعن بعض المطاعم التي كان يرتادها في تونس. نادرا ما يرغب في الحديث عن

تونس، لكنه اليوم يفعل ذلك بنفس الشهية التي كان يلتهم بها صحن الكسكسي؛ وكان بالفعل كسكسا لذيذا. تحدث عن أطباق الكمونية والمدفونة ومرق العقدة التي يجيد إعدادها اليهود أكثر من غيرهم. تحدث عن حارة اليهود في حي الحفصية وعن زاوية سيدي محرز الذي يكن له تقديراً لا يضاهيه سوى تقديره لسيدي بلحسن الشاذلي. تحدث عن موت عمه وعن الكسكسي الذي طُبخ بتلك المناسبة وكان طفلاً آنذاك. قال إنه ألد أكلة عرفها في حياته حتى أنه راح يتمنى بعدها لو يموت أبوه كي يأكل كسكسا شهياً، مثل «كسكسي عمي» كما يقول.

وجدت الفرصة سانحة وعلي علي مزاج معتدل، كي أسأله عن أبيه. - ماذا تريد أن تعرف عنه؟ واحد كلب سائب وطحان(قواد) علاوة على ذلك، هذا كل ما يمكنني أن أقول لك عنه. لا أتذكره إلا سكران يسب ويشتم وصوته يلعلع في الحي كله. عندما أسمع صوته قادما من الزقاق أهرب إلى بيت جيراننا أو إلى بيت عمي المجاور لنا. لم يكن عمي أفضل منه بكثير. لكنه على الأقل لا يستعمل «السبنة» مثله. الحزام الجلدي هزأ ظهري ومؤخرتي. إلى حد الآن كلما أرى حزاماً، أو كلما أمسك بحزام سروالي إلا وينتفض داخل صدري شيء شبيه بعصفور مذبوح. استغربت يوم اشتري لي حزاماً جلدياً قديماً كي لا يقع سروالي الفضفاض الذي هو في الواقع أحد سراويله القديمة عمدت أمي إلى قصّ رجله كي أستطيع أن ارتديه - لكم وددت وأنا أراها تحكم المقصّ في رجلي السروال لو أنها كانت تقصّ رجله هو. تخيلت أحداً يحشهما له بمنجل، أو بساطور أو فأس. قفزت دون أن أشعر ورحت أدور على نفسي مثل المختبل وأنا أصفق وأصبح: قصولو رجله، قصولو رجله! ما أحلاها فيه! لم تفهم أمي شيئاً من سرّ ذلك الجنون الذي استبدّ بي، واكتفت بأن انتهرتني: اسكت عني، لو كان بوك راجل ما كنا نقصّ لك

أرجل سراويله القديمة التنتة! لم أدر في البداية ما الذي أفعله بالحزام بالرغم أنني لم أكن أجهل ماذا يمكن أن يفعل واحد بحزام، وخاصة عندما يعطى سروالا فضفاضاً يمكن أن يضمّ في هوته ثلاثة متي. بعدها اكتشفت لذّة استعمال الحزام لترويع القطط وإلهاب جلد الكلاب والحمير وكلّ ما كان يدبّ من حولي ولا يستطيع الدفاع عن نفسه، ثم غدا سلاحني في الدفاع عن نفسي أمام من هم أكبر مني وأمتن بنية. هل كان أبوك أيضاً يستعمل الحزام؟

- لا. أبي لم يكن يضربنا، لكن لسانه كان أقسى من الحزام. كان يجيد الإهانة، يسحقك، يحقّرك، يجعلك تذوب خجلاً من نفسك التي يحولها بسخرياته وهزئه وإهاناته إلى شيء أقل من الحشرة، أقل من قاذورة. لا شيء يعجبه من كل ما كنت أفعله؛ عندما تكون نتائجني في المدرسة متوسطة أو دون المتوسط - وهو ما لا يحدث إلا نادراً يشبّعني شتائم وإهانات، وعندما تكون جيدة، وأعود إلى البيت بجائزة أضعها أمام عينيه وأنا أبصّب بذيولي متسولاً ثناء ما، نظرة إعجاب، كلمة مشجعة، يشيح عنها بوجهه بكثير من الاستعلاء، كشيء تافه دون منزلته هو الشاطر، الذكي، الماكر، الداهية، الذي يفهم كل شيء أحسن من غيره، وكل ما يفعله غيره لا يستحق حتى مجرد نظرة مجاملة. باهي، باهي، سنرى مالذي تفعله في امتحان السيزيام، يقول لي وينصرف. بعدها ستصبح: سنرى مالذي ستفعله في الباكالوريا. انشالله ما تخرا على روحك في امتحان الرجال! أتدري ياعلي كم مرة تمنيت لو أنه كان مثل بقية الآباء يستعمل الحزام والصفح ويكفيني شر لسانه وإهاناته...

- الكلب بابا كان يستعمل الحزام ولسانه القذر معاً. لم يكن لي من ملجأ سوى جدتي التي كان يخاف منها ومن لسانها الأكثر سلاطة من لسانه، معه هو بالذات. بعد أن ماتت جدّتي التي كانت تحميني من

بطشه وكثيرًا ما تردّه على أعقابهِ وهي تشتم أصله الواطي وتنعته بالخاسر والفاسد، أصبحت عمّتي صلّوحة هي ملجئي المحبذ عندما يستشيط به الغيظ فيسحب الحزام ويهجم عليّ. ولم يكن لها هي التي تصغره بحوالي عشر سنوات من الهيبة أو السلطة ما كان لجذّتي، ولم يكن في بيت عمّي حيث تسكن منذ وفاة أمها لا خزائن ولا دواليب ولا حتى سرير يمكن أن تخبّثني تحته، فكانت طريقتها الوحيدة هي أن ترفع فستانها الفضفاض وتسحبني بقوة ثم تجلس فوقّي ولا تنهض حتى لو وقع عليها السقف.

آه، عمّتي صلّوحة..!

ثم صمت وظل يدخن ساهما، أو هائما في ذلك الماضي البعيد.

كان عمري لا يتجاوز السبع سنوات عندما خبّأني عمّتي للمرة الأولى تحت فستانها وبركت عليّ حتى كدت أختنق وتطلع روحي بين فخذيهما. كانت جالسة على كرسيّ صغير واطي، وكان فستانها واسعًا فضفاضًا، لكنّ الخوف على ما يبدو هو الذي جعلها تضمّ ركبتيها كي لا يشعر هو بوجودي مختبئًا تحتها. وكان فجأة ظلام، وكان دفء، وعلى خديّ وفوق شفّتيّ كان اللحم الطريّ الدافئ شيئًا لذيذًا لذّة كادت تجعلني أبول في سروالي - لا خوفًا هذه المرّة بل لأمر آخر غريب وغامض ولذيذ في الآن نفسه. عندما غادر البيت متوعّدًا شاتمًا أخرجتني من ذلك المخبأ الآمن وكانت وجنتاي تشتعلان وأعضائي ترتعد، وكنت أريد أن أبول. ثمّ ضمّمتني إليها وقبّلتني وهي تردّد لي محاولة تهدئة روعي: ما تخافش يا عزيزي ماتخافش! لقد ذهب، قلب وجهه المشؤوم ولن يعود.

بعد يومين خطر لي هكذا وبدون سابق تفكير أن أهرع نحو عمّتي



في عمق الظهيرة مندفعاً مثل العجاجة من الباب المفتوح على الدوام، صارخاً مولولاً: عمّتي الحنينة، عمّتي! إنه سيقتلني! وارتيمت بين رجليها باحثاً عن مخبئي المبجل حيث تركتني ما لا يقلّ عن ربع ساعة هناك وهي تعيد عليّ: ما تخافش، لن أنهض من مكاني حتّى لو قتلني! وبالفعل لم تنهض من فوقيّ إلاّ عندما ارتخت ركبتيها فجأة بعد شدّات عنيفة متواترة وارتعاشات شعرت بها صكاً على وجنتيّ. وعندما خرجت من تحتها بعد أن دفعنتني برفق كانت سحنتها كما لو أنها هي التي كانت مختنقة بين ركبتيّ. بعدها باستني مرّات متتالية ودفعنتني باتجاه الباب. تكرّرت لعبتنا تلك مرّات عديدة. ثمّ غدت لا تنتظر أن أدخل عليها لاهثاً صارخاً كي تفتح لي باب المخبأ، بل كانت هي التي تمازحني بين الحين والحين ونحن جالسان لوحدا، عندما يخرج الجميع لقضاء شؤونهم؛ تفتعل صرخة زعر وهي تسحبني من شعري: اختبئ يا ابن الكلب، اختبئ ها هو جا يبحث عنك...

اختفت عمّتي صلّوحة فجأة. ولم أرها إلاّ بعد ما لا يقلّ عن خمس سنوات طويلة عندما توفي عمّي، وكانت مصحوبة بزوجها وهو أحد جيراننا الذي اختفى بدوره في الفترة التي اختفت فيها، ووراءهما الآن طفلان وبين ذراعيها رضيع لم يتجاوز الستة أشهر من عمره.

بكيت بحرقه في ذلك اليوم، بالرغم من عزاء الكسكسي اللذيذ الذي لم آكل مثله لا قبلها ولا بعدها. لم أبك عندما ماتت جدتي. ولم أبك عندما اختفت عمّتي صلّوحة قبل خمس سنوات. حزنت لذلك لكنني كنت متأكداً أنها ستعود ذات يوم. أما اليوم وأنا أراها امرأة غريبة تجر وراءها جزوين وبين ذراعيها جرو آخر..!

آه، عمّتي صلّوحة!

\*

كانت الحياة بائسة قذرة في حي قريش. فقر، جوع، عراء، بيوت من الطوب والقش، أزقة موحلة شتاء، مغبرة في الصيف، مجارٍ عارية بمياه آسنة سوداء ومنتنة يحوم حولها الذباب والبعوض وشتى الحشرات. نتونة نفايات تخنق الأنفاس. لا كهرباء ولا ماء ولا قدرة حتى على اشتراء شيء من الحطب أو الفحم من أجل التدفئة في فصل الشتاء. أبي يدعي أنه مريض ولا يستطيع العمل. لكنه كان يستطيع السكر. لا يعود إلى البيت إلا في ساعة متأخرة سكران مترنحا، أحيانا يغني، وأحيانا يكون غاضبا يصرخ ويولول، ينهال على كل من يعترض طريقه صفعًا وركلا وشتائم. ينعت أمي بالهاملة ووجه البؤس التي جلبت له كل شقاء الدنيا وبلاويها منذ دخلت بيته. لا أحد ينجو منه، ولا حتى القطط.

ذات مساء عاد مبكرًا إلى البيت وسكران كعادته. اتجه مباشرة إلى «الدكّانة» - الزاوية الصغيرة التي كانت تعدّ مطبخنا في ذلك البيت الضيق المكوّن من غرفة واحدة نام فيها جميعًا أبي وأمّي وأنا وأخواتي الثلاث. سمعنا لطمًا ولطخًا وأواني تقع على الأرض وصراخًا وشتائم ونحن لا بدون أربعتنا في زاوية من البيت حيث ننحسر دوما عندما نسمع خطاه أو صوته الأجنّس الملعلع بالسباب والشتائم وهو يتجاوز العتبة.

سمعناه ينعت أمي بالقحبة التي مرغت سمعته في الخراء وجعلت وجهه في قفاه. ثم سمعنا صوتها يرتفع فجأة بين الصراخ والنحيب: هاهي الفلوس، خذها واقلب وجهك. ماذا تريد أكثر؟ هذا كل ما تبقى لديّ خذه وأرحني من خلقتك، اذهب انشالله تاكل راسك، تنقطع رقبتك، تنهزس عظامك، يجيني خبرك بجاه سيدي محرز وسيدي بلحسن... ووووووه! ووووووه! يا أسيادي يا أولائي الله، ياربي تاخذلي حقي من لحمه، الكلب الهامل الطحّان!

- حقي يا فاجرة. هذا حقي، بل أقل من حقي.. أتظنين أنك تتصدقين عليّ بقحبك؟ لا بد أن آخذ حقي كاملاً. كاملاً هل فهمت؟ تخدمين في بيوت العزّاب من دون علمي، من دون استشارتي! غسيل وتنظيف؟ لذلك أنت دائماً تعبانة، وكلّما اقتربت منك اشتكيت من مغص في الأمعاء، وجع في المفاصل، شقيقة، دم الشهر... دائماً مريضة الفاجرة! أتظنينني أبله؟ وأن الناس ليست لها عيون؟ كلّو مكشوف، وربّي يشوف، والشيطان يشوف، والناس تشوف يا قحبة!

أخذ طنجرة العشاء وخرج. كانت ليلة أشبه بمأتم. قضينا أكثر من ساعة جالسين على العتبة، أمي في الوسط وأنا على يمينها وأختي حميدة على يسارها، صامتتين، ما من أحد منا نطق بكلمة. جنازة، وبلا عشاء علاوة على ذلك.

بعد تلك الحادثة بيومين عنّ لها فجأة أن تدافع عن نفسها، وإذا هي تغرس رأسه في التراب ثمّ تنهال عليه ضرباً ولكمّاً وعضّاً. شبعنا من لحمه. اكتشفت أنه ضعيف وأنها تستطيع التغلب عليه. كان يتخبّط تحتها مثل الفأر وهي تدقه وتهرسه، بينما كنا أنا وأختي ننظر مرتعدين ونحن نمد رأسينا من وراء الباب المنفرج للغرفة، ونحاول أن نصد أخويننا الصغيرين من ورائنا عن رؤية ذلك المشهد. تتوقّف بين حين وآخر عن ضربه دون أن تنهض من فوقه وهي تحكم ركبتهما على رقبتها، ونحن نرتعد خائفين أن يفلت من قبضتها وينقلب عليها فيقتلها؛ تستريح قليلاً ثم تعود إلى ضربه من جديد. شبعنا من لحمه، وربما تعبنا أيضاً، فنهضت من فوقه وراحت تركله بكلتا قدميها فيتدحرج باتجاه الباب ولا يقدر على الوقوف، حتى قذفت به في الزقاق وأغلقت الباب من ورائه، وكان صمت مثل الموت داخل البيت.

كان يؤلمني ضربه لأمي. وكنت دائما أرغب في أن أنهال عليه من الخلف ركلا وضربًا لأنقذها منه. لكنني لم أتجرأ أبدًا. لم أتجرأ ... كنت جبانًا. لو أنني تجرأت مرة واحدة...

لم أتجرأ... كنت جبانًا! يرددها مرات متتالية ساهمًا بنظره كما لو كان يخترق بعينه الجدار والمسافات والزمن ليحدق في ضباب طفولته البعيدة ويحرق بنار الندم التي تشع بها نظراته كدس الجبن الذي يجثم على تلك الطفولة البعيدة، القريبة الآن، قريبة جدًا تحك أمعاءه وتوقظ فيها أوجاعًا قاسية.

كنت فعلا جبانًا، أخاف من ظلي كما يقال، أنزوي إلى زاوية مثل قط مذعور كلما لعلع صوته قادمًا في الزقاق. لكنني بعد أن أكتشفت أنها قادرة عليه ورأيتهما تضربه وتمرّغه وتبرك فوقه وتحكم ركبتهما على رقبتة وتجره من عنقه كما يُسحب فأر من ذيله ثم تدفع به ركلا بالقدمين لتقذف به خارج البيت، قلت لنفسي: كان لك أب، قاس وشري، لكنّه أب على أية حال. أمّا الآن فأنت يتيم ياعلي. لم يعد ليلتها إلى البيت، ولم يغمض لي جفن طوال الليل وأنا أتكور على نفسي تحت الغطاء محاولًا أن أكنم شهقاتي ونحيبي. مع طلوع الفجر خرجت من البيت لأسلم ساقتي إلى الأزقة حتى بلغت مقبرة الجلاز لأجلس هناك وأبكي بعد أن ضربت رأسي ضربات قاسية متتالية على جذع شجرة حتى نرف أنفي. في طريق العودة من المقبرة اشتبكت مع أول طفل اعترضني، هكذا دون أي سبب. كانت أول مرة أبادر فيها أحدا بالشجار. في العادة كنت أتحاشى المشاجرات؛ يكفيني ضرب أبي في البيت. كل طفل يشهر قبضته في وجهي يجعلني أرتجف مثل قصبه في الريح وقلبي يكاد ينفجر. أهرب، أسلك طرقًا ملتوية مواربة كي أتفادي الساحة التي يتجمع فيها الأشرار للعب الكرة والتحرش بالصبية الآخرين. لم يخطر ببالي أبدًا

أن أعتدي على أحد، سواء في حومتنا أو في أيّ مكان آخر. كنت أكتفي بإحساس بالظفر عندما أعود إلى البيت دون أن أكون قد تعرضت إلى اعتداء أو ضرب أو هزء الأطفال المشاكسين، أو تحرّش اللواطين. كنت وحيدا في أغلب الأحيان ولا أنتمي إلى أية زمرة أو عصابة، لأن للانتماء إلى هذه المجموعة أو تلك ثمنه؛ لا بدّ أن تُضرب وتردّ الضرب مرات عديدة قبل أن يُقبل بك كصديق وعضو في المجموعة. ثم عليك من بعد أن لا تتأخر في المشاركة في الاعتداء على الآخرين أو في الدفاع عن المجموعة عندما تعتدي عليها عصابة أخرى. كان ذلك كثيراً عليّ، ففضلت العزلة.

الطفل الذي اعترضني في زاوية من زقاق قريب من باب الفلّة لم أكن أعرفه، ولا أظنه يعرفني أيضاً. تراءى لي أنه طفل وحيد مثلي، ولعلّه جبان مثلي ولا يحبّ العراك، لذلك هو يسير متسللا وحده مثل قطّ سائب. لم أكلمه ولم يكلمني. كان يتقدم باتجاهي وكنت أتقدم باتجاهه، ولا أحد منا ينظر إلى الآخر، أو كنا نتفادى النظر إلى وجهي بعضنا، كما يفعل الخائف دوما. وجدتني على بعد مترين منه وشعرت أنني أكرهه. لم أفكر في شيء، أغمضت عيني وأنا أشعر بدقات قلبي تتسارع وكلّ أعضائي ترتعد. أغمضت عيني وارتميت عليه. لا أدري كم من الوقت بقينا نتمرغ في التراب وأنا ألطم وأركل وأعضّ وأبصق على وجهه، وهو من تحت يتشبّث بقميصي وبشعري ويتململ ويتخبط، وأنا ألطم وجهه لطمات متلاحقة سريعة وركبتي محكمة على بطنه، وكلما تماديت في لطمه ازداد الخوف تأججا في جوفي. كنت مصرا على البقاء فوقه إلى ما لانهاية، أو حتى يموت. أن أظلّ محكما ركبتي بقوة على بطنه؛ لو استطاع الافلات من قبضتي ربما سيقتلني. كنت مورطا ولا

خلاص لي سوى في مواصلة ضربه، حتى شعرت بقبضة قوية تسجنني  
من كتفي، وشتيمة: لعنة الله عليكم يا كلاب! ما تحشموش!

فتحت عيني فوجدت نفسي واقفا أرتجف أمام كهل قد يكون في  
الأربعين يمسك بي من ياقة قميصي ويشتمني ويأمرني بالانصراف. أما  
الطفل فقد تبخر ولا أدري أي أرض ابتلعتة.

نمت نوما ممزقا بالأحلام المرعبة في تلك الليلة. رأيت نفسي تائها  
في سبخة الملاسين أحاول التقدم ولا أستطيع أن أرفع قدمي وأخلصها  
من أحوال المستنقع. أحيانا يخيل إلي أنني أتقدم لكنني كلما خطوت  
خطوة إلا وازدادت الضفة ابتعادا وازدادت أعضائي تيبسا. ثم وجدتني  
مقيدا إلى عمود كهرباء والأولاد يرشقونني بالحجارة، بينما أبي يقف  
عند زاوية الزقاق يدخن وينظر إلي ويقهقهه: خليهم يقتلوك يا ولد  
القحبة! لينقض عني كلب من عائلة الخراء! أتململ ولا أستطيع تحريك  
عضو واحد من أعضائي الموثوقة بحبل غليظ إلى العمود، أشعر  
بالاختناق، وإذا أنا بين فخذني عمتي صلوحة التي تضغط علي بركبتيها  
بكل قواها ولا تريد أن تنهض من فوقي وأنفاسي تكاد تنقطع ولا أقدر  
حتى على الصراخ.

بعد يومين أو ثلاثة أيام اعترضني مع طفلين آخرين على تخوم  
حومتنا. أتذكر أنني رأيت ثلاثة أطفال يتخفون وراء منعرج، يطلون  
برؤوسهم ثم يختبؤون. ثم رأيتهم ثانية وأنا أنحدر من الربوة التي تفصل  
حي السيدة عن مونفلوري، واختفوا مجددا. في زاوية من شارع ضيق،  
وأنا أهتم بالعبور فاجأتني اللطمة على قفائي، ثم انهالوا علي، لكنني  
نجوت من قبضتهم بسرعة وتمكنت من الاحتماء داخل دكان حلاق  
قريب.

منذ ذلك اليوم صار لي أعداء ظلّوا يتكاثرون وخصوماتي تتكاثر  
بتكاثرهم وليس لي من صديق غير حزام سروالي في البداية، ثم سلسلة  
درّاجة كنت أخبؤها تحت ملابسني مثل حزام.

لم يعد يهمني الآن ماذا يحدث في البيت. أمي غدت تضرب أبي  
يوميًا تقريبًا. تجرّه من عنقه مثل جزو لتقذف به خارج البيت. أختي  
حميدة التي بدت لي كما لو أنها كبرت فجأة في الأثناء غدت تساعدها،  
أحيانًا بيديها، وفي بعض الأحيان بلسانها فقط. تعرّيان رأسه، ترميان  
بشاشيته في مجرى المياه الوسخة. تنتفان شاربيه النحيلين، تبصقان عليه  
وهما تجرجرانه في ساحة البيت وتنعنانه بالطحّان والهامل الفاسد، وهو  
يصرخ ويولول بأعلى صوته، يكاد ينتحب كما لو كان يسعى لاستدرار  
عطف الجيران: يا فاسدات، يا قحاب! وأنتِ يا عاهرة ما تحشميش  
تمدّي يديك على بوك! وكانتا تردّان عليه معاً: ياطحّان، لو كنت راجل  
يستاهل الاحترام ما كنت تتركنا نقحب كي نفق عليك. ثم تقذفان به في  
الشارع على مرأى من كلّ الجيران. في المساء يعود متذللاً، يرتجف من  
البرد والجوع. تتركانه يدخل الحوش الضيق بعد أن يموت توسلاً  
وتغلقان باب الغرفة في وجهه. يقضي ليلته في زاوية من الحوش ملفوفًا  
داخل بطانية قديمة مهترئة، مدممًا شاتما متوعداً.

صرت أحتقره، وداخّلني إحساس بالقرف لا مثيل له تجاه أمي  
وأختي. أصبح الشارع بيتي، لا أعود إلى ذلك البيت الذي غدا حفرة  
تفوح عفونة إلا عندما يرغمني الجوع، أو لتغيير ملابسني. لم يعد يهمني  
كثيرًا ما يحدث بينهم. احتقار تجاه أبي ومزيج من قرف وحقد على أمي  
وأختي. ذلك كلّ ما في الأمر.

وراء بيتنا، بل يمكن أن نقول فوّه كانت هناك عمارة جديدة تقع في

أعلى الربوة على الحدّ الفاصل بين حيّ حفرة قرّيش الغارق في الأحوال شتاء وفي الغبار والبعوض والذباب صيفًا وحيّ مونفلوري بفيلاته الفاخرة وشوارعه المعبّدة والمضاءة. في الطابق الثالث لتلك العمارة كان يسكن معلّم شابّ رأيته العديد من المرّات يتلصّص على بيتنا من إحدى النوافذ، وكان بالطبع بإمكانه أن يرى من هناك كلّ ما يجري في بيتنا الذي يقع تحت أنفه مباشرة. فاجأته مرّتين وهو يومئ لأختي ويخاطبها بحركات من يديه.

صعدت إلى شقّته ذات يوم، ودون مقدّمات طلبت منه دينارًا. دون استفسار أو نقاش سحب محفظة نقوده تحت مفعول المفاجأة، أو لأنّه قد يكون خمن أنّ تلك بالتأكيد إشارة من أختي، وإعلانًا عن موافقتي على إشارتها. بدا لي مفاجأ إلى حدّ ما، ومسروّرًا شيئًا ما، وشاردًا أو مذهولًا. صفعته بغتة على وجهه واختطفت حافظة النقود بكاملها من يده، ثمّ نزلت الدرج مسرعًا. كان في الحقيبة ثلاثون دينارًا. مبلغ لا يستهان به في ذلك الزمن. ربما كان ذلك مجمل مرتبه.

منذ ذلك اليوم غادرت البيت ولم أعد إليه. كان عمري آنذاك حوالي أربع عشرة سنة.

أوووف! الله يسامحك يا عادل يا خويا، برّبي أش مرّجعنا ننبش في ها المزبلة والعفن!



## حانة برناديت

جزّني علي مرّة أخرى إلى حانة برناديت. واحدة من أحقر الحانات الشعبية في سان دني لم نكن ندخلها إلا نادرًا. تنقلنا في تلك الليلة بين حانات عديدة وشربنا كثيرًا. كان مزاج مدام روز غير معتدل، تدخّن كثيرًا ولا تكاد تردّ حتى على تحيّات الحرفاء، وتقدّم الطلبات بطريقة آلية جافّة. غادرنا بعد الكأس الأولى ورحنا نركض من بار إلى بار؛ نشرب كأسًا أو كأسين ويلعب علي لعبة على آلة الفليبير بطريقة متوتّرة وغير مركّزة، وعندما يخسر يركل الآلة ثم يدفع الحساب ونخرج. يبدو أنّ مزاج مدام روز قد انتقل بطريقة العدوى إلى علي فغدا بدوره صامتًا طوال الوقت تقريبًا، وإن نطق بشيء فبشّيمة يوجهها إلى آلة الفليبير وهو يركلها برجله أو يبصق جانبًا، متجاهلاً تدمر أصحاب المحلّات أو استنكارهم لتعامله العنيف مع آلاتهم.

لم أتفاءل خيرًا بدخولنا حانة Chez Bernadette في تلك الليلة. لثلاث مرّات انتهت سهرتنا هناك بخصوصية. وفي كلّ مرّة أقسم بأن لن تطأ قدمي تلك الحفرة الكريهة بعدها أبدًا. علي أيضًا يقرر في كلّ مرّة وهو يلعن برناديت وحانتها وينعتها بقحبة النازيين وفضلة الألمان أن لن يعود أبدًا إلى ذلك الماخور النتن. لكنّه يعود دائمًا. «شي برناديت» بار صغير معتمّ يقع على التخوم الفاصلة بين سان دني وكليشي، غير بعيد من ساحة بلاييل، مما يعني أنّ الوصول إليه يتطلّب المرور بما لا يقلّ عن

عشر حانات أخرى والتزود خلال تلك الرحلة بكمية محترمة من الكحول، ويكون الواحد قد وصل إلى هناك وهو في وضع يتطلب من صاحبه الإسراع إلى الفراش، إن كان في دماغه مقدار ذرة من العقل طبعاً. برناديت بهيأة دبة ثقيلة، صدر ضخيم يتقدم جسدها يكاد يلغيه، ومؤخرة بحجم برمبل، وهي بالرغم من تجاوزها سن الخمسين التي تسعى لإخفائها تحت كميات من الأصباغ والمساحيق ما تزال متصابية متفتحة. وكعاهرة متمرسة محنكة ماتزال قادرة على جلب الانتباه، أو لنقل على جعل أي رجل تناول أكثر من ثلاثة كؤوس من الكونياك الرديء يطمع في التحكك بها ومدّ يده إلى صدرها الوافر وأليتها السخية التي لا تبخل بتحريكها حركات داعرة كلما خبطت خطوتين، أو حتى وهي تقف منتصبية مثل تمثال للعهر وراء المقصف. وهي بحق جديرة بأن تكون تمثالاً للقطب بعد التجربة الثرية والمتنوعة التي تراكمت بين أفخاذها منذ صعودها وهي في سن السابعة عشرة على متن عربة جيب لأعوان الSS<sup>(1)</sup> الألمان وانطلاقها في رحلة طويلة عبر أرجاء البلاد، إلى أن استقرّ بها المقام في سان دني ذات ربيع من سنة ١٩٤٣ بعد أن أهداها ضباط الـآس آس ذلك البار الذي كان على ملك أحد الشيوعيين الذي زجّ به في أحد المعتقلات، ثم نُقل للعمل الإجباري في مصانع ألمانيا ولم يُسمع عنه أيّ خبر منذ ذلك اليوم.

الشيوعيون القدامى من سكان سان دني كلهم يعرفون تفاصيل قصة برناديت، وعدد غير قليل منهم قد عرف المعتقلات النازية بفضل خدماتها الإعلامية التي كانت تؤذيها مرفوعة الساقين في فراش هذا الضابط أو ذاك من أعوان الـآس آس. إلا أنها ظلت بالرغم من ذلك في

(١) فرقة آس آس SS، أو البوليس السياسي للحكم النازي.

مأمن من كل أعمال الانتقام بعد تحرر فرنسا وهزيمة الألمان، ذلك أن غريزة دعاتها المتأصلة قد أفادتها على ما يبدو في اكتساب حاسة شتم دقيقة جعلتها قادرة على اشتمام تبدل اتجاه رياح التاريخ في الوقت المناسب، فكانت أول من غادر باريس متجهة إلى النورموندي موطن ولادتها ونشأتها، لترتمي بكل حماس ونخوة ووطنية في أحضان جنود الأميركيين النازلين هناك في مهمة تحرير سامية ومخلصة. كانت برناديت من أولى ثمار الجثة الفرنسية التي حظي بها جنود الخلاص الأميركيون ودخلت باريس فوق إحدى دباباتهم ملوحة بتنورتها الشفافة في سماء الشانزليزي قبل أن تنطلق معهم في رحلة طويلة انتهت بها إلى برلين حيث انتقلت في ليلة سعيدة وعلى إثر حفل راقص من القطاع الأميركي إلى قطاع الفرنسيين بدائرة تيغل على متن عربة عسكرية فرنسية هذه المرة.

عادت برناديت إلى باريس بعد غياب دام حوالي ستة أشهر وفي حقيبتها شهادة اعتراف بخدمات ووطنية من درجة أولى تحمل ختم السلطة العسكرية الفرنسية ببرلين.

رأها سكان سان دني في صبيحة يوم أحد مشمس تنزل أمام الكنيسة من عربة سيتروان دي أس سوداء، من الباب الخلفي الذي فتحه لها سائق بزّي رسمي وهو يعدد الانحناءات حتى يكاد أنفه يلامس حذاءها، والسيدة برناديت التي كانت تعتمر قبعة سوداء ينحدر منها على نصف وجهها برقع من الدانتيل، تقف منتصبه مثل تمثال لمدام بومبادور منتظرة ذراع الضابط الذي نزل من الباب الخلفي الثاني لسيارة السيتروان ليقودها بخطى مضبوطة الإيقاع وهامة منتصبه إلى مدخل الكنيسة في ساعة قداس الأحد. رأى سكان سان دني السيدة الوقورة بمعطف الفرو الطويل والقبعة الأنيقة والحذاء ذي الكعب العالي وعلى صدر معطفها

الشريط الحريري ثلاثي الألوان الذي تخصص به الجمهورية الأبطال  
وقدماء المحاربين المكملين بالمجد عادة. رأوا ذلك وهم يقفون فاغري  
الأفواه أمام مدرج الكنيسة في تلك الصبيحة الربيعية المشمسة،  
تتناهشهم الحيرة بين تصديق وعدم تصديق ما كانت عيونهم تنقل إلى  
أدمغتهم المتبلدة بهول المفاجأة: برناديت! برناديت عاهرة النازيين!  
وهم على أية حال لم يروا بعد شهادة الخدمات الوطنية من درجة أولى  
التي كانت في حقيبتها. تلك الشهادة التي ما تزال معلقة داخل إطار  
مذهب في حانة شي برناديت بسان دني تفقأ عيون الشيوعيين  
والفوضويين وكل المناوئين للجنرال دي غول واليمين الفرنسي عامة.  
ليس غريباً إذن أن تجتمع في بار برناديت زمرة من الأوغاد تضم  
محاربين قدامى بالجزائر والهند الصينية، و«بيي نوار»<sup>(١)</sup> ومخبرين  
وقوادين وعاهرات على وشك التقاعد، وحتى بعض الذين ينتمون أو  
يتعاطفون مع قوى اليمين المتطرف الجديد التي يقودها أزرع أعور  
وبذيء يدعى لو بان. لا أحد غير هذا الرهط من السفلة يدخل بار  
برناديت. وكثيراً ما رأى الناس على يافطة البار عبارة LA PUTE DES  
SS<sup>(٢)</sup> مرسومة بالصباغ الأسود مباشرة تحت اسم برناديت. رأيت ذلك  
بعيني ذات يوم بينما كنت ماراً صدفة من هناك، بينما كان أحد الحرفاء  
من القوادين معلقاً فوق سلم وهو يجتهد في محو تلك الكتابة وبرناديت  
تقف أمام باب الحانة وهي ترفع ثورتها حتى مستوى الحزام مؤدية

(١) Pieds noirs، أو ما يعني حرفياً: «الأقدام السود»، لقب يطلق في فرنسا على فرنسيي  
المستعمرات (الجزائر وتونس والمغرب على وجه الخصوص) الذين عادوا إلى فرنسا بعد  
انتهاء الفترة الاستعمارية.

(٢) قجة أعوان ال آس آس.

حركات بذیئة بنصفها الأسفل وتصیح بصوتها الذي یغلب علیه شيء من البحة التي یخلفها الكحول والتبغ لدى العاهرات عادة:

*le voilà mon con; regardez le bien. c'est ça qui vous fait languir de jalousie?*

*Le voilà donc mon con qui vous dérange tant; regardez le bien!!<sup>(1)</sup>*

وهي على آية حال على حق في ذلك، إذ فرجها هذا الذي تستعرضه الآن بتحدّ هو ما ظلّ يزعج الجميع في سان دني منذ أن وظفته في خدمة النازية، ثم بعد أن غدا فرجاً وطنياً منخرطاً بكلّ تفان في خدمة الأمن ومصالح المخابرات بشتى أنواعها. لكنها ليست على حق عندما تدّعي أنه هو الذي یجلب إليها الحسد، إذ هو لا یجلب إليها سوى الكراهية والاحتقار بسبب الدور الشنيع الذي قام به طوال مسيرة وظيفته السياسيّة القائمة على القحّب والوشاية.

لا أدري لماذا یصرّ علي على العودة من حين لآخر إلى هذا البار. أظنّ أنه لا یذهب إلى هناك إلاّ عندما يكون متوتّراً وفي حالة من الهيجان الداخلي تدفعه دفعاً إلى أماكن المشاكل والخصومات. هناك یجد أعداء من النوع الذي یسمح لسمومه الداخليّة بالتدفق. یمضي إلى هناك وهو یعرف أنه غير مرغوب فيه. یتصیّد الفرص للانقضاض على أول من یجرؤ على التفوّه بعبارة كریهة تجاهه أو بتلميحات عنصريّة، أو حتى من ینظر إليه مجرد نظرة لا تعجبه. والنظرات هنا على آية حال ليست بريئة، ولا هي خالية من تعابیر الحقد أو الاحتقار. نظراتهم بتلك العيون الشبيهة بعيون كلاب مصابة هي ما یستفزّ علي، وإن غدوا جميعهم يتلافون التورط في أيّ اشتباك معه بعد الخصومة التي كسر فيها

---

(1) «هاهو فرّجی! أنظروا إليه جيذا! هذا هو الذي یقتلكم حسداً؟ هاهو إذن فرّجی الذي یزعجكم كل هذا الإزعاج؛ أنظروا إليه جيذاً!».

نصف الحانة وخروجه من هناك ببعض رضوض وخدوش لا غير، ثم بعد انقضاؤه ذات ليلة على أحد الحرفاء القارين في زقاق معتم بالقرب من ساحة الكنيسة حيث أشبعه ضرباً ثم أوثقه بحزام سرواله إلى سياج حديدي متوعداً إياه وهو يلوح في وجهه بسكين مخيفة بالقتل ويقطع الخصيتين إن هو حدثه نفسه بمحاولة الانتقام ذات يوم، أو بأن يشتكيه للبوليس. لكن يبدو أن ما حسم الأمر نهائياً لصالحه هو ترويعه لبرناديت نفسها وبطريقة مباشرة وواضحة على إثر خروجه من السجن عقب تكسيره نصف المحل. يبدو أنه قد تأكد لها بعد تلك الواقعة أن لا شيء سيرده عنها وأن السجن لن يردعه. بل إنه جعلها تشعر بأنها مدينة له بحياتها بعد أن لامست شفرة السكين رقبها في تلك الليلة التي فاجأها فيها تخرج لوحدها قبيل الفجر من البار فدفعها بعنف إلى الداخل ثم أقفل الباب وحشرها في ركن مظلم وراء آلات الألعاب الإلكترونية وأطلعها على زاوية من زوايا الجحيم الذي ينتظرها على حد السكين، ثم أطلقها بعد أن قضت له وعداً بأن تتجنب شره في المستقبل، وبالطريقة التي يراها ملائمة.

قال لي مزهواً عندما التقيته بعد يومين من حدوث تلك الواقعة: لقد مرغت «قوس النصر» في الخراء. انتهى، لن تفتح فمها القدر بالشتائم والاستفزازات بعد اليوم.

كان يحلو لبرناديت عندما يتعتها السكر وتنتشي بتتهيج حرفائها من بقايا الليف الأجنبي وحطام معارك فرنسا الخاسرة، أن تدفع بصدرها إلى الأمام رافعة كأسها باليد اليمنى بينما اليسرى محكمة على خاصرتها على طريقة جنرال عسكري يرقب جريان المعركة من فوق تلة: أنا تمثال الأمة! أنا جان دارك! وأحياناً تصعد فوق طاولة أو يحملها المعجبون بين أذرعهم لتنتصب فوق الطاولة في حركة مسرحية فاجرة: هنا قوس

النصر، مشيرة إلى ما بين فخذيهما وهي ترفع تنورتها. فوق هذين النهدين جرت معارك وحروب، ومن تحت هذا القوس مرّت فيالق من عساكر الألمان وضباط الSS ووحدات المارينز؛ بيض وسود على حدّ السواء - أنا الحرية، أنا المساواة؛ الإعلان الكوني لحقوق الإنسان هنا! وتستدير بمؤخرتها الضخمة لجمهورها المعربد تصفيقًا وصراخًا وهتافات بمئة حياة وحياة لبرناديت، بينما هي تحتقن وتضطرم بذكري معارك جيش التحرير الفرنسي: النورمندي، برلين تيغل، فيدينغ، فايدمانسلوست، راينيكندورف شارلوتنبورغ كلها معارك مظفرة مدوّنة على هذا السجلّ، وتشير من جديد إلى ما بين فخذيهما - حتى زنوج السنغال مزوا من هنا؛ كنت أحسبهم أميركان، لكن لا يهم. فقط العرب، العرب لا. أبدًا، أبدًا - *Les bougnouls, jamais!* الجزائرّيون؟ بأشداقهم المليئة بتبغ السعوط، ورائحة أتياس الماعز التي تفوح منهم على الدوام! لا، أنا لم أنحط إلى هذا المستوى؛ نياكوا النياق، ومغتصبو المعيز؟ أبدًا، ولو اقتضى الأمر حربًا عالمية أخرى. ثمّ يقال إنهم يحبّون إتيان النساء من الخلف. كلا، مؤخرتي هذه قد كتبت عليها منذ تيغل: *"Réserve à la Nation française"*<sup>(1)</sup>. انتهى عهد المسيرة الأممية. هكذا! بعد أن أغرقت بارجات الألمان في هذا المحيط (وتضرب بكفها على أسفل بطنها) وهبت صدري للأميركان؛ أوه، لكم كانوا يحبّون التمرغ برؤوسهم على نهديّ مثل أطفال مدّلعين، أطفال أولئك الأميركيين، كلهم ما زالوا يحنّون إلى حلّات أمهاتهم. لكن هذا... هذا، وتشير إلى مؤخرتها، هذا سرج الوطن، وفرنسا فقط. أما العرب فلهم قدمي هذه في مؤخراتهم. تلك كانت خطبها الحماسية قبل حادثة كسر المحل.

(1) خصّصت به الأمة الفرنسية وحدها.

عندما وطأت قدمانا عتبة البار ساد صمت عدواني لبضع ثوان. التوث الرقاب للحظة باتجاهنا ثم استدارت عنّا بسرعة. تظاهر الجميع بالانشغال عنّا بالعودة إلى الحديث مع بعضهم، لكن بأصوات خافتة هذه المرة. وظلّت برناديت ترمقنا بصمت منتظرة أن ننطق بطلبنا. عيناها متحجرتان على تعبير مبهم؛ ليس محايداً، لكنه خال من علامات الكراهية أو الحقد التي ترشح بهما عيناها في العادة. شيء شبيه بالتبرّم المربك المتردد المتعثر في خليط من أحاسيس متضاربة، غير واضحة. هل كانت خائفة؟ أم ممتعضة باستسلام؟ مكرهة؟

- بيرتان! قال علي بجفاف.

حلّ عقال برناديت. تحركت بطريقة آلية باتجاه صنوبر البيرة، وبنفس الآلية شرعت تملأ الكأسين.

- *Allez, à la santé de tous les conards, et des pouffiasses!*<sup>(1)</sup>

قال علي وهو يرفع كأسه بطريقة المسرحيّة التي لا يجيدها غيره. حدث شيء من التمللمل الصامت تموج توتره عبر فضاء البار الذي غدا الآن بثقل الرصاص، وتظاهرت برناديت بالانشغال بتنظيف زاوية بعيدة، ثم بتلميع الكؤوس مولية لنا ظهرها العريض، وكانت مؤخرتها ترتعش وترجرج مع كلّ حركة من حركات يديها، بينما عينا علي تشتعلان الآن ببريق حادّ وقد غدنا تتراقصان في حركة متوترة وعنيفة. اشتممت رائحة حادثة كريهة في الهواء ولذت بدوري بالصمت الجنائزي الذي غدا يلفّ بالبار. وقع كأس من يد برناديت أحدث انكساره على الأرضيّة المجلّزة رنيناً حاداً تبعته قهقهة علي المجلجلة في فضاء القاعة الصامتة:

(١) لنشرب نخب كل الأوغاد وكل العاهرات!



لم تردّ برناديت بكلمة واحدة. لكنّ واحدة من مجموعة الواقفين إلى المقصف هي التي ردّت محتجّة على ذلك التعليق الذي لا موجب له، ولم أكن سريعاً بما فيه الكفاية كي أمسك يد علي التي قذفت بكلّ عنف بمحتوى كأسه باتجاه المرأة المحتجّة. ولم أفلح إلاّ بعد جهد في دفعه من كتفيه خارج البار تاركين وراءنا غمغمة غامضة سرعان ما تحوّلت إلى أصوات متداخلة بالشتائم والاحتجاجات وتوغّعات وتهديدات. لكنّ أحدًا لم يتبعنا خارج البار لحسن الحظّ.

فرصة أخرى لخصومة جديدة مع علي.

- إنها تذكرني بواحدة قحبة أكرهها منذ الصغر، قال فجأة ونحن نتمشّى مترنّحين في طريقنا إلى البيت.

- من؟ برناديت؟

- برناخزية! قحبة مثلها. هيأتها مثلها، ضحككتها مثلها، حركاتها مثلها. عندما أسمعها تضحك بصوتها الفاجر تأخذني الرغبة في أن أغرز في حلقها السكّين. وعندما تحرك أليتها العريضة... ألم تر كيف كانت تفعل ذلك وهي تتظاهر بتلميع الكؤوس؟ عاهرة...

- تغرز في حلقها سكّينًا! ولماذا لم تفعل ذلك ليلة اختليتّ بها قبيل الفجر في البار؟

- لأنها خافت، العاهرة! رأيت الرّعب في عينيها. لم تنطق بكلمة، لم تصرخ، بل جحظت عيناها واصفرتّ وفغرتّ فاها بطريقة بشعة. لم تعد عاهرة، بل بقرة مريضة محتضرة. فعفّتها.

(١) لو كان أيرا لما تركته يقع من يدك بسهولة، أيتها العاهرة!

بعد أسبوع تقريباً أومأت لي مدام روز وأنا أمرّ أمام البار الذي كان مقفراً في تلك الساعة من العشيّة. قدّمت لي بيّرة ثمّ قالت لي إنّها لم تعد ترغب في رؤية علي في حانيتها؛ فليذهب إلى قعبة النازيين! أنا لا أسمح لأحد من الأوغاد الذين يتردّدون على حفرتها العفنة بأن تطأ قدماه عتبة حانتي النظيفة. حانتي أنشأتها بالكّد والجهد والوسائل الشريفة، وليس بفتح فخذيّ لعساكر البوش النازيين. أنت تعرف أنّهم جميعاً نازيون وعنصريّون هناك. ثمّ إنّ الأدهى من ذلك أنّه صار من عشاقها بعد أن تسيّبت في دخوله إلى السجن. هل هو كلب ذليل أم ماذا؟

- من عشاقها؟ أنت تبالغين يا مدام روز! صحيح أنّ ذهابه إلى هناك مجرد تصرّف متهوّر، وبلادة لا موجب لها ولا داع غير حبّ التحرّش والمناوشات، وأنّني بدوري لا أحبّ ذلك، ولا أحبّ خصوماته الدائمة مع أوغاد ذلك البار. لكن أن تفكّري بأنّه صار من عشاق تلك البقرة فهذه مبالغة لا مبرّر لها.

- مبالغة؟ مبالغة؟ ظلّت مدام روز تصرخ بحنق. مبالغة لا مبرّر لها؟ أكذب عينيّ؟ بعيني هذه رأيتّه معها في آخر الليل داخل البار قبل أربعة... لا، قبل خمسة أيّام... يوم الإثنين الماضي... أجل، قبل خمسة أيّام. أتريد أن أقول لك في أيّ وضع؟ أتريد رسمًا كي تفهم؟

كان البار مقفلاً في حدود الساعة الرابعة صباحاً بينما كانت روز في طريقها إلى البيت، وعندما بلغت حانة «شي برنادات» ألقت نظرة من فجوة صغيرة في الستارة المسحوبة على الباب، هكذا لمجرّد فضول، كما تؤكّد هي على الأقلّ. - وماذا رأيت؟ أتريد أن أقول لك ماذا رأيت؟ صديقك واقف إلى البار، متكىّ بمرفقيه على تابوريه وتلك العاهرة جاثية على ركبتيها أمامه و... أتريد رسمًا كي تفهم البقيّة؟ أي نعم...

رأيت ذلك بعيني. فلاًفقاً إذن هذه العين إن كانت مخطئة. وإن لم تصدقني فلتراقبه خفية. مُرّ من هناك في آخر الليل وسترى بنفسك. لا، أنا لست حمقاء مجنونة.

لم أعد أفهم شيئاً. علي؟ مع برناديت التي يمقتها مثل الموت؟ برناديت التي تذكّره بواحدة يكرهها ولا يتمنى لها سوى غرس السكين في حلقها؟

اختلطت كلّ الأوراق في ذهني، ولم أعد أفهم شيئاً.

## عودة السندباد

المولدي في باريس بعد غياب طويل. التقيناه قرب حديقة اللوكسمبورغ. توقفنا معه طويلا أمام مقهى الديبار. مثل عادته، يغيب لمدة تطول أو تقصر ويعود فجأة محملا بشتى الحكايات. لا يهتم ما قدر الصحيح منها من المتخيل. المهم أنها شيقة كلها وممتعة مثل نسمة بحرية منعشة تهب على جفاف الروتين الذي كان يحملنا داخل سيله الرتيب. عائد من البحر هذه المرة، حسب ادعائه طبعاً، بعد أن طاف بالدنيا على متن باخرة تجارية كان يعمل مساعداً في مطبخها. حكى لنا عن الفيلبّين وهونغ كونغ وأندونيسيا وكوريا وسنغافورة والموانئ الهولندية راطنا بأغنية شهيرة لجاك برال:

*Dans le port d'Amsterdam il y a des marins qui chantent!*<sup>(1)</sup>

- دعونا من ليسكوليه ومن مقاهي هذا الحي اللاتيني المقرف. سأخذكم اليوم إلى حانة شي موريس.. موريس بيبي نوار<sup>(2)</sup> عنصري، لكنه لذيذ وصديقي. هناك يمكن أن أشرب بالدين. لكن أرجوكم أن لا تكشفوا مخبئي الآمن هذا لأحد من رفاقكم.

(1) في ميناء أمستردام هناك بحّارون يغنون.

(2) Pieds noirs تسمية تطلق في فرنسا على فرنسيي المستعمرات من شمال إفريقيا وإفريقيا عامة، الذين عادوا إلى فرنسا بعد استقلال تلك البلدان.

ونحن في طريقنا إلى حانته السرية في الدائرة الرابعة عشر حكى لنا عن قِرْدَة ضاحكة وبيغاوات معلقة في أقفاص بيوت مومسات بومباي تلهج بكلّ اللغات، عن الأجساد النحاسية للفتيات الفيلبينيّات، عن شفاهنّ الطرية وتفانيهنّ بطريقة دينية تعبديّة في الفراش، عن صحب ليالي هونغ كونغ، عن شجاراته العاتية مع صعاليك حانات مانिला، عن القيلولات المنقّعة في خدر القاثُ بعدن، والمسهرات الصاخبة في كباريهات الاسكندرية وحانات الدار البيضاء وطنجة، عن الشاي الأخضر المننع ومعجون الحشيش واستفاقة في اليوم الموالي في غرفة باردة ببيت مهجور بمدينة طنجة، وكان شبه عار وقد اختفت حقيبة نقوده وآلة التصوير التي ترافقه دومًا، فكان عليه أن يهرع في كلصون/ كلسون وقميص داخليّ منحدرًا مثل المعتوه عبر دروب القصبه الضيقة باتجاه الميناء حيث كانت أبواق السفينة تزعق والجسور قد رفعت. ولم يتمكن من الصعود بعد أن تعرّف عليه أحد الملاحين إلّا مرفوعًا بحبل.

ما ظل يحيرني دوما هو أن المولدي يغيب لمدة قد تتجاوز سنة أحيانا ثم يبرز فجأة وهو عارف بكلّ ما حصل أثناء غيابه من نزاعات وشجارات وصراعات بين مختلف تيارات اليسار التونسيّ والفرنسيّ، والحركات اليسارية العالميّة عامّة. - قيل لي إنّ الجلسة العامة السنوية لهيئة فرع باريس للاتحاد العام لطلبة تونس قد تواصلت لأكثر من ثلاثة أشهر. هل هذا صحيح؟ صراعات خطية؟ أنور خوجة أعلن انفصاله عن خطّ الحزب الشيوعيّ الصيني. انشقاق جديد في الحركة الشيوعيّة العالميّة. ما هو موقفكم من هذا الصراع؟ يبدو أنّ العدّ التنازلي قد بدأ بالنسبة للشيوعيّة. لكن، ثلاثة أشهر بأكملها! أليس هذا كثيرًا على شبه مؤتمر طلابيّ؟ ثلاثة أشهر بأكملها، هل هذا صحيح؟

- نعم.

- ويومياً؟

- تقريبا.

- وماذا كنتم تناقشون، أو لنقل حول ماذا كنتم تتخاصمون خلال كل هذا الوقت؟

- كل شيء. لم نترك شيئاً مما يدور في العالم لم نناقشه ونحرق في شأنه لائحة: ثورة ظفار، أريتريا، حركات التحرر في أنغولا والموزمبيق، مسألة الصحراء (غربية أم مغربية؟)...

- وهل أرسلتم هذه اللوائح إلى منظمة الأمم المتحدة؟ ربما ستساعدونها على حل بعض النزاعات العالمية المعقدة! والآن، ما قولكما؟ أليس جيداً هذا النيذ الأحمر عند موريس؟ وبسعر زهيد علاوة على ذلك. هذه حانة لن ينتبه إليها أحد من خفافيش اليساريين التونسيين، حذار لا تدلا أحداً عليها! اتفقنا؟ دعوهم يتعفنون في الحي الجامعي وفي كافتيريات الجامعات! ثم مالنا ومالهم؟ أولئك عساكر لهم ثكناتهم ونحن أحرار لنا كل باريس، أليس كذلك؟ ثلاثة أشهر من الجدالات البيزنطية المتواصلة؛ إنها علامة تعفن.

- لكن، لكن يا مولدي...

- لا لكن ولا لعل، أنا أؤكد لكم إنكم تمضون بخطى حثيثة نحو انحطاط سيأتي على الأخضر واليابس. ثلاثة أشهر تتخاصمون فيها وتتقاتلون من أجل تحرير لوائح تتوهمون أنكم ستحلون بها كل مشاكل العالم! خمسة أو ستة كنائس وراء كل واحدة عشر شياه مؤمنة إيماناً أعمى بأنها هي وحدها التي تملك الحقيقة. انتبهوا، إن أمركم حقا على غاية من الخطورة!

- لاتوعية ولا تثقيف ولا تسييس ولاهم يحزنون! يصرخ المولدي.

هذا ترويض. إعداد جيوش من رؤوس الإسمنت المسلح لمستقبل كرهه. رؤوس قرع، بغال للحرث وعساكر للفتك والإبادة والدمار. انتبهوا وأفيقوا من غفلتكم. اقرأوا فيلهلم رايش، وحنأ أرنلدت. اقرأوا دوستوفسكي وكافكا، استمعوا إلى جيمي هندريكس وجيم موريسون، ما هذا الشيخ وزّة الذي لا تستمعون لغيره: «جيفارا مات! آآه جيفارا مات!» هذه مناحة، جنازة، مآتم، كآبة وحزن وهمّ وخراء، كل ما تريد عدا موسيقى! استمعوا إلى موزارت وبرليوتز وفيفالدي و.. سيّد درويش وفيروز أيضًا لم لا؟ لكن أغانيها الحلوة اللطيفة المفعمة بالحياة والفرح لا مناحة «الإبن في المغارة وأمّه مريم وجهان يبكيان»... يكفينا بكاء ونواحا يا إلهي! كلّ هذه الكآبة وهذا الحزن هو بالضبط ما يلزم لإعداد جيش الدمار والخراب. اسمعوا مثلاً سيدي علي: «أنا كالطير فوق غصني نغني/ عايش في خير اشكون احسن متي!» إذا امتلأتم بالبهجة ستحبّون الحياة وتسعون إلى التغيير الحقيقي، لا تغييرات الديكور والبيادق. عندها تغدون ثوريتين حقيقتين، بالبهجة والفرح.

إنّه بالضبط كلام ذلك الشاب الذي جاء مؤخرًا من تونس، ولا يتحدث إلا عن الشعر والمسرح! فكرت في ما بيني وقلت من الأفضل ألا نعرّفه على المولدي.

كلام المولدي العائد محتملاً مثل عاداته بأفكار غريبة، جديدة وجريئة، مثل ضربة فأس تهوي فجأة على الرأس. لكنّها ضربة لها حلاوة ما في مكان خفي من لاشعورنا، أو في المكبوت من أحاسيسنا. ولها مرارة طعم مسبق للهزيمة أيضاً.

أنا وحسني من القلائل الذين يمكنهم الاستماع إلى المولدي دون رغبة في قتله مباشرة. نستطرف أفكاره التي تبدو لنا غريبة حيناً، مضحكة

حيناً، جريئة أكثر مما ينبغي ومخيفة أحياناً. هناك ما يشبه كدمات سرية في الوعي، أحاسيس نتكتم عليها ولا نفسح لها مجالاً للتعبير عن نفسها، وأحياناً نراودها خلسة وبحذر شديد. لكن المزعج دوماً هو أن يأتي أحد ويعري لك ما كنت تستتر عليه، تكتمه وتعيق طلوعه إلى سطح الوعي. كنت أعرف أنني لست في مأمن من التصدعات. يتراءى لي أحياناً أننا غدونا مثل المجانين؛ مضحكين إلى حد ما ونحن نصرخ، نتحمس، نشعل، نلوح بقبضاتنا بتشنج يكاد يفلق صدورنا؛ هكذا في وجه لا أحد - في وجه عدو نتوهم وجوده أمامنا هنا في قاعة «الموتياتي» الفسيحة، أو في شارع روششوار، وشارع بلفيل، وشارع ماجنتا التي كانت تشهد العديد من فصول مهزلتنا في مظاهرات صاحبة زاعقة تزداد صخباً وزعيقاً كلما مررنا أمام دكان عربي أو مقهى من مقاهي المهاجرين المغاربيين، والناس ينظرون إلينا بشيء من الحيرة، بل هناك من يشير إلينا بيده أو بالسبابة التي يحكمها على صدغه ليقول لنا إننا مجانين. أخجل، أختبئ في الصفوف الوسطى للمظاهرة، أخبئ رأسي كي لا يراني أحد ممن أعرفهم خارج أوساط الطلاب والثوريين. أهرب إلى سان دني لأغمس دماغي في صخب آخر، لكنني أعود. أصبحت مدمناً.

- ما اسمه هذا الشاب المغرم بالمسرح؟ صابر؟ عرّفوني عليه فوراً. هذا هو الذي سيعينني على حفر أدمغتك وتجليّة الغبار والنفايات عنها. من الأفضل أن لا نعرّفه عليه، قلت لحسني، كي لا يخربنا معاً ما بدأ يهدد هنا وهناك بالتداعي؛ هناك تصدّعات تحدث سرا في الداخل، بعض الشقوق بدأت تظهر على الواجهة أيضاً. يبدو أنّ فترة الحماس الأعمى قد بدأت تفسح المجال لشيء من الملل. المقولات التي نرددها منذ سنين مثل آيات منزلة بدأ يطراً عليها ضرب من الشحوب في أذهان



عدد غير قليل منا. رغبة خفية في فرك الأفكار، وضعها على محك المراجعة والتثبت؛ كأننا بدأنا نشعر أنّ بعض الأفكار لا بد أن تتغير مثل الملابس، لأنها تهترئ لكثرة الاستعمال هي أيضاً. قد يصبح الأمر خطيراً؛ ليس لنا من ضمان بأن يصمد الكثيرون أمام الهزات. كل ما يمكن أن يثير البلبلة ويحدث تصدعات لا بد من تلافيه. مروان وفتحي أراهما يترنحان، تغلب عليهما الخفة، وحب الدعابة يجرحهما شيئاً فشيئاً إلى الاستهتار. صابر هذا القادم الجديد من تونس والذي لا يهذي إلا بالمرح والشعر، ويتحدث عن دور الفرد. قلنا له: اقرأ نصّ بليخانوف عن دور الفرد في التاريخ. ضحك وقال لنا لم لا تقرأ أبو نواس؟ لم لا تقرأ أشعار المتصوفة؟

- المتصوفة؟ هل جنتت؟ - هل قرأتم نيتشة؟ - نيتشة؟!

المولدي يتحمس ويقول صارخاً: أبوه، نيتشة أيضاً، وهربرت ماركوز!

شرعت في قراءة فيلهلم رايش وهربرت ماركوز سراً. فيلهلم رايش راح يبعث فيّ شيئاً من الشكوك الشبيهة بحكاك في الدماغ. شيء شبيه بنسمة تمرد! وأنا لست في موقع جيد؛ ملازم لجماعة الشباب المائع، كثير الاختلاط بأرهاط متنوعة ليست محل ثقة ولا توحى بالارتياح لدى كل الرفاق. جلدتي اهترأت من حصص النقد والنقد الذاتي، وإن غدوت الآن في مأمن نسبياً بسبب كثرة نشاطاتي وتنوعها: جمعية هنا، ولجنة هناك، تعليم أطفال المهاجرين، تنشيط ناد للأطفال والشباب، فرقة مسرح، ركض بين أحياء العمال المهاجرين. بعض الرفاق لا يتردد في نقد هذه «الحركية التي لا تخلو من عفوية»؛ «لا ينبغي أن تتجاوز أنشطة المناضل الأطر التي يشرف عليها التنظيم»... لا ينبغي للسيل الصغير أن يفيض على النهر. الفرس الذي يبتعد كثيراً عن الكوكبة يهدد بالانفلات

والتيه. «إحذر الفردية يارفيق!» الاختلاط بالطالبات التروتسكيات ليس بالأمر المحبذ هو أيضاً.

- لا بد أن تعرّفني على هذا الشخص الذي قلت لي أنه يحب المسرح والفنون وينفر من الإيديولوجيا الجافة.

- دع هذه المسألة إلى أن يأتي أوانها يا مولدي.

- خائف؟ أقنعوك بأنك ما زالت هشاً طري العود؟ خائف من الهرطقة؟ ألا ترى أنكم قد حولتم الفكرة الثورية من فكرة مغامرة تقلب وتنسف وتقوض إلى ديانة مقفلة وصرتم لا تتحركون إلا داخل حيز المباح والممنوع؟ حذار يا صديقي العزيز! تزمتَ ينجب تزمتا، وتعصّب يفرّخ مائة لون من التعصّب؛ ألوان فقط، مجرد ألوان والأمر هو نفسه بالنهاية. ديكتاتورية البروليتاريا، ديكتاتورية البروليتاريا كبديل عن ديكتاتورية الطبقات المهيمنة حالياً. ديكتاتورية محلّ ديكتاتورية وكفى الله المؤمنين شرّ الجدال. ما من تعب هناك، ولا إجهاد للنفس، أو دربة شاقّة على نظام سلوك جديد. إيمان محلّ إيمان، كتاب محلّ كتاب، ألواح محلّ ألواح، وإلى الأمام! المزيد من القمع والإقصاء والتنكيل والحزّ والبتر: قتال، وربما قتل وذبح ونفي في معتقلات الأعمال الشاقّة، من أجل حقيقة مطلقة واحدة صافية ونقية. الوحدانية! هو ذا عمق المسألة وجوهرها وسرّها المكنون: مخّ الهذرة، إن أردت بالتونسي وبالفلاقي

- موريس، إلينا بإبريق آخر من خمرك اللذيذة يا صديقي، ربما تساعد في ترطيب هذه الأدمغة المقدّدة تحت رياح الإيديولوجيا الصحراوية. ثم ملتفتا إلينا وقد بدأت عيناه تبرقان بذلك البريق الذي يعلن عن طبي صفحة النقاشات الجديدة: طيب، والآن كيف هي شؤونكم الجنسية؟ متماسكون؟ متوازنون؟

## فطيمة الزهراء

يأتي علي بين حين وآخر لزيارتي في الفندق الذي كنت أعمل فيه ليلاً بالاستقبال. نجلس ساعات طويلة في المطبخ الصغير، نتحدث ونتجادل ونتخاصم ونمزح، وأحياناً تُقاسمنا السهرة واحدة أو اثنتان من نزيلات الفندق من اللاتي لا يرغبن في الخروج لكنهن لا يستطعن النوم مبكراً. هذه المرّة كانت هناك فتاة جزائرية جميلة تلقائية ولطيفة، مرحة وفكهة. فطيمة الزهراء تدرس الطب في سنتها الثانية بجامعة الجزائر. ساقها اليسرى مصابة بشلل طرأ عليها في الطفولة ولم ينجح الأطباء في معالجته. بالرغم من الجمال الفائق لفطيمة الذي جعل مدام بيزول تصبح إعجاباً: *Mais elle est très très belle, monsieur Adel!*<sup>(١)</sup>، فإنه لا يمكن للمرء أن لا ينظر إلى تلك الإعاقة. وكلما حاول الواحد تفادي النظر إليها رآها أكثر. شتيمة فوق جسدها، شيء شبيه بشماتة عديمة الذوق تجعل الناظر إليها يودّ لو يصرخ بحنق ومرارة أمام هذه الإعاقة التي تشبه خدشاً وقحا فوق لوحة فائقة الجمال.

فطيمة من عائلة ثرية، أبوها ضابط سام في الجيش. تأتي إلى باريس مرتين في السنة لإجراء فحوص واقتناء الأحذية الطبية. لكتها هذه المرّة جاءت وفي رأسها تحوم فكرة البقاء ومواصلة دراستها في إحدى

(١) إنها فائقة الجمال، مسيو عادل!

جامعات باريس. مرت على إقامتها في الفندق ثلاثة أو أربعة أيام. ومنذ اليوم الأول نشأت بيننا مودة لطيفة ورقيقة. تعود دوما في حوالي الساعة التاسعة مساءً، أي ساعة فقط بعد استلامي لحصة دوامي الليلي. لا أدري ما هو السبب الحقيقي لعزوفها عن الخروج مساءً. هل هو نوع من الاستسلام، وإقرار بأن الليل والسهرات ليست من شأنها، لأنها لا تدري ما الذي تفعله في مدينة باريس التي تتحوّل ليلاً إلى حفل صاحب هازج معربد راقص تفصلها عنه حواجز تلك الإعاقة؟ أم أنها فقط لا تجرؤ على اقتحام أجواء ليلية تحوّل المدينة إلى كائن غريب وغامض، وأحياناً مليء مخاطر ومفاجآت ليست سارة بالضرورة؟ هكذا هي المدن الغربية في بعض الأحيان بالنسبة للغرباء؛ نهارها مثل غرفة الجلوس أو باحة البيت، مفتوحة لكلّ الضيوف، وليالها أشبه بالمناطق الحميمة التي لا يلجها المرء إلاّ عندما يكون من أهلها. أو على المرء أن يكون مغامراً.

لم أسأل فطيمة إن كانت لا تشعر برغبة في الخروج مساءً ومشاهدة الوجه الآخر لباريس. كنت أرغب في أن أسألها، لكن كان يصدني الحرج. سهرنا معاً في مطبخ الفندق حتى ساعة متأخرة جداً، وكان علي ليلتها ودوداً وفكهاً وتلقائياً أكثر من المعتاد. في البداية ولمدة ربع ساعة تقريباً ظلّ شبه لا يبدٍ في مكانه متمسكاً بحدود لياقة محايدة؛ لا هي من تلك اللامبالاة الباردة الشبيهة بالإهمال التي غالباً ما يبديها تجاه كلّ من لا يعرفه، ولا هي من نوع التوتر الذي يجعله شبيهاً بقنفذ أمام من لا يأنس إليهم. لكن سرعان ما انقشعت قشرة الجليد الشفافة بينهما. تلقائياً مرحة من الجانبين. سلاسة في الحديث لم تتطلب منهما أية جهود للمؤاهلة. تحدّثت فطيمة بكثير من الفكاهة عن كلوشارات باريس الذين

تستسيغ ملاحظتهم وسخرياتهم اللاذعة الظريفة، وعن الوتيرة السريعة لتحركات الناس في الشوارع وفي ممزات المترو التي تجعل المدينة تبدو كما لو كانت تعيش حالة من الهلع والهروب الدائم. انطلق عندها لسان عليّ بسخرياته اللاذعة وتهكمه من العمال المهاجرين المغاربيين: مشيتهم، هيئاتهم الفجة حيناً والمتسللة بذلّ وامتحاء أحياناً، لباسهم، نظراتهم الشبيهة بنظرات البلهى، بهتتهم الدائمة «مثل بقر يرقب مرور قطار» حسب تعبيره المفضل، جهلهم، انغلاقهم وانطواؤهم على أنفسهم، لغتهم الرثة، لهجتهم الحادة وطريقة مخاطبتهم الغليظة. حكى الكثير من النكات والمداعبات الساخرة، وتفلسف وتأتق في الكلام بلغته الفرنسية المنتقاة، وسبّ، وشم وعربد كعاداته وأكثر بقليل وهو يرى فطيمة تضحك وتطرب لذلك الدفق المتواصل من النكات والفلسفة المرحة الظريفة، والداعرة.

بدا لي خفيفاً خفة لا معهودة هذه الأمسية، وكانت عيناه تشعان ببريق لطيف رطبته ضحكات فطيمة وتراقص المرح في عينيها السوداوين الواسعتين. عينا فطيمة جميلتان جمالا ساحرا حتى وهما تذبلان قليلا في بعض الأحيان تحت غشاوة رقيقة دقيقة وشفافة من حزن طفيف لا يكاد يلمح إلا كستارة من الدنتيل الرفيع. مشرقتان تشعان ببريق بهيج عندما تضحك. سكران غدا عليّ بعيني فطيمة المرحتين وبتلقائيتها الطروب. سكران طرباً حتى أنّ شتائه وسبابه لم تعد تفوح بتلك الرائحة الكريهة التي غالباً ما تفوح بها في خصومات البارات مثلاً، بل غدت أشبه ببهار طيب يغمر نكاته ومزاحاته وحتى أحاديثه الجدّية؛ تفلسفاته. ركلا وخبطاً بالقدمين يتفلسف عليّ في أغلب الأحيان، لكنّه خبط لطيف لا يملك الواحد إلا أن يستعذبه ويصغي إليه بكثير من المتعة. شيء شبيه برقصة

زنجية تتواتر فيها الحركات العنيفة بالتواءات إيقاعات مفاجئة مرنة وطرية - *c'est un petit Zorba très sympathique* علقت فطيمة في ما بعد بنبرة طافحة بالإعجاب؛ كما لو كانت تغني بتلك الكلمات.

شعرت بشيء يخزني سرا في جوفي وأنا أرى عيني فطيمة تتعلّقان بكلّ حركة وكلّ كلمة تصدر عن عليّ كما لو كانت تشاهد عرضاً مسرحياً شيئاً تنشدّ إليه بكلّ كيانهما.

\*

فوجئت بعدم عودة فطيمة إلى الفندق في حوالي الساعة التاسعة مثلما تعودت أن تفعل كلّ يوم طوال إقامتها هنا. كان مفتاح الغرفة معلقاً في الخانة الصغيرة الخاصة به: رقم ٢٤، واسمها ما يزال مسجلاً على قائمة الضيوف في الخانة الموافقة لرقم ٢٤. مرّت الساعة العاشرة... ثم الحادية عشرة، وهي لم تعد بعد. في الأماسي السابقة كنت أفرح لرؤيتها تعود مبكراً؛ أعرف أنّها ستضع حقيبتها وتستريح قليلاً ثم تنزل لنجلس معاً في المطبخ. لكنّ شيئاً من الألم كان يخزني عندما أفكر أنّها الضيفة الوحيدة تقريباً التي لا تسهر في المدينة أبداً، وأنّ ذلك مما يجعلها بالتأكيد تشعر بشيء - قليل أو كثير - من الغبن. كنت أعرف أنّ لها في النهار مواعيد فحوص طبية وأشياء من هذا القبيل. لكن لا أظنّ أنّها تقضي كامل اليوم في مثل هذه الشؤون. ما الذي فعله؟ أين تذهب؟ وكيف تنتقل؟ حدّثني بأنّها زارت اللوفر ومتحف أورساي وتجوّلت في حديقة التويلري وزارت معرضاً للرسم بالقرب من معهد الفنون الجميلة بالحيّ اللاتيني. لم أرها البتّة تدخل محمّلة بأكياس المشتريات مثل أغلب النزلاء وخاصة أولئك الذين يأتون من بلدان المغرب والمشرق العربيين، ولم تسألني مثلهم عن محلات البضاعة الرخيصة. لم أسألها

أو أعرض عليها أن نلتقي في مكان ما بالنهار، لا لأنني لم أفكر في ذلك، لا، بل كلما فكّرت في ذلك إلا ودفعت عني تلك الفكرة بشيء من الحرج والقلق. أقول لنفسني إنها بالتأكيد ستأول الأمر على أنه جراءة غير عادية وتجاوز لحدود اللياقة، أو أنها ستأخذها كاستنقاص أو استسهال ما كان لي أن أجرؤ عليه لولا إعاقتها. أحياناً أخمن أنها ستعبر ولو تلميحاً عن رغبتها في أن نلتقي خارج الفندق إن كانت لها مثل تلك الرغبة. وعلى العموم لم تكن رغبتني في ملاقاتها من ذلك النوع الذي يخضني في العادة ويجعلني لا أهدأ وأحياناً أتحامق وأتسرّع وأستعمل كل ما بحوزتي من أساليب الإغراء والمرادة. بل كانت فقط شيئاً شبيهاً بشعور بضرورة أداء واجب ما، أو عمل طيب، لا أكثر. وهو أيضاً أمر كرهه ومزعج.

أحياناً أضببط نفسي متلبساً بإحساس آخر يتسلل خفية ولا يومئ بوجوده إلا باحتشام. إحساس لم أستطع، أو لم أجرؤ على تبين ملامحه بوضوح. أعرف فقط أنني أرتاح لمجالسة فطيمة، بل أكثر من ذلك أنتظر مجيئها بكثير من الفرح. أبتهج للنظر إلى وجهها الجميل وعينيها السوداوين الواسعتين، وأجد متعة في النظر إلى فمها عندما تبتسم. أعرف أنني أحب حديثها ومزاحاتها وخاصة تلك الطريقة التي لديها في التندر بأسلوبها الساخر الذي يجعلني في بعض الأحيان أتساءل إن كانت تنظر إلى الأشياء والناس من وجهة نظر امرأة جريئة، أم من زاوية محايدة؛ لا هي زاوية نظر الرجال ولا هي زاوية الفتيات اللاتي غالباً ما يتناولن الأشياء ضمن استراتيجيّة مدارات وإيحاءات وتضمينات ظاهرها تحفظ وباطنها رغبات مروّعة وشبق مقنّع. أقول لنفسني: إنّ فطيمة امرأة، وامرأة جميلة جداً علاوة على ذلك، وهي بالتالي لا يمكن أن تكون مجردة من طابعها الأنوثي و...و... (هكذا أتلعثم في تفكيري

وأعترت... ومن رغباتها ككلّ امرأة. لا بدّ أنّها تُسرّ بما يسرّ كل أنثى في هذه الدنيا! إطراء ما، مجاملة رقيقة على حافة المغازلة. بل بالمغازلة أيضًا! أضبط نفسي متلبسًا مرّة أخرى. متلبسا بأمرين: أنّي أفكر في فطيمة كما أفكر في كل امرأة تعجبني، وهو ما لا أريد أن أقرّ به علنا وبصراحة. والأمر الثاني هو ذلك الحرج الذي أشعر به لمجرد أن أفكر بأن لي رغبة من هذا النوع تجاهها - تجاهها هي بالذات. عندما أضبط نفسي متلبسا يبقى الهروب هو الحلّ الأسهل: سأتصرّف كجنتلمان في علاقة صداقة نقيّة أخويّة، لا غير. ذلك هو المنفذ الذي أجده؛ مخرج النجدة!

قبيل منتصف الليل توقفت سيارة تاكسي أمام الفندق، ونزلت فطيمة. كانت مرحة، أكثر من العادة بقليل. جلسنا في المطبخ وعرضت عليها زجاجة الكولا المعتادة.

- آ، كيف كانت باريس الليلية؟

- جميلة. أجابت باقتضاب وبدون فائض تعليق، وصمتت. لا حظت أنّ حمرة طفيفة قد تخللت وجهها وتركزت على وجنتيها للحظة، ثم انقشعت.

دخل أحد النزلاء فنهضت لأسلمه مفتاح غرفته، وبعد أن أغلقت وراءه باب المصعد عدت إلى المطبخ. كانت فطيمة تدخّن وتنظر إلى السقف. عندما جلست قالت: قضيت سهرة جميلة مع عليّ. تعشينا في مطعم بساحة كليشي ثم تمشينا حتى الأوبرا ثم بولفار الإيطاليين. حكى لي عن الدنيا والعالمين وضحكنا كما ينبغي. إنه فعلا رجل لطيف عليّ.

ها ها! لماذا ارتجف شيء في داخلي؟ لماذا ابتلعت ريقى بصعوبة



وأحسست بدقات قلبي تتسارع؟ ثم ما هذا الإحساس الغريب الذي أحس به لأول مرة به تجاه عليّ؟ أهو شيء من الكراهية؟ غيرة؟ أم ماذا؟

لم أعلّق بشيء. بل ويبدو أنني قد نجحت في قمع كلّ رغبة في التعليق حتّى في ما بيني وبين نفسي. وأنا شبه متأكد أن ذلك لم يخف عن فطيمة، وأنها قد تساءلت بالتأكيد عن سرّ عدم تعليقي بشيء على خروجهما معاً. أكيد أنها لمحت رفيف تلك التعليقات المكبوتة في عينيّ، ولعل وجهي قد احمرّ أيضاً. لكنني كنت متأكداً من أنني قد نجحت في قمع تلك الرغبة (الولد قد أتقن أفانين التمسك بالانضباط؛ التربية الحزبية قد أتت أكلها على ما يبدو! نفاق؟ كذب على النفس؟ إخرس، أيها الذاتيّ، البرجوازي الصغير المعقّن!).

## خروطو

أحياناً لا تصدق أنك حقا في باريس. بل غالبا ما تنسى أنك في باريس. عندما تنغلق حلقة الغيتو على أهلها ينسون المكان ويصبحون مثل كائنات خرافية تسبح في لا مكان. والمدينة على أية حال مثل كائن خرافي متعدّد الوجوه. باريس الشانزليزي التويلري وريفولي وسان جرمان وحي الأوبرا وبولفار مونمارتر. وباريس هي حيّ بارباس المتوغّل في قتامة أوساخه وتداعي بنياته القديمة والحركة الكابوسية لمتساكنيه: جزائريون يتسلّلون بخطوات ثقيلة، أذرع تتحرّك في كل الاتجاهات وأصوات ملعلة مثل طلق المدافع. الجزائريون يبدوون على الدوام في حالة خصام حتى وهم يمزحون أو يدعون بعضهم على شراب أو يسألون عن الأحوال. مغاربة يقفون في شارع la goutte d'or مستندين بظهورهم إلى الجدار داخل جلايبهم القاتمة الطويلة بطرايشها مخروطية الشكل المسدلة على جباههم لا يكاد المرء يلمح غير بريق غامض من أعينهم الصغيرة الحادة؛ يدعون المازّة إلى الاقتراب بطريقة مريبة تبعث على الحذر: أزواخ آل الشريف! أزواخ! يعرضون موادّ غريبة للبيع: أدوية من أعشاب صحراوية - حسب زعمهم -، مراهم غامضة وزجاجات صغيرة من زيوت وأدهان كلّها نافعة للتهييج وتمتين الذكر واستمالة القلوب، منهم من يدعي قراءة المستقبل، لا في الكف، بل على ورقة نقدية بعشرة فرنك تخرج دافئة من جيب صاحبها، آخرون يعرضون بالنيابة عن مولاي ادريس وسيدى بن عيسى وسيدى علي بن

حمدوش كراماتٍ وإتيان خوارق شتى، ومنهم أيضًا باعة السجّاد والجلابيب والطرابيش الذين يحملون دكاكينهم على أكتافهم وهي حمولة يمكن أن تدمر ظهر بغل يتنقلون بها من شارع إلى شارع ومن حيّ إلى حيّ بصبر وعناد نادرين. جنبًا إلى جنب مع المداوين وأصحاب الكرامات يقف أفارقة سود، طوال نحاف مثل أعواد أنبوس بعيون بزّاقة مثل الودع وأسنانٍ خناجر تبرق في العتمة، في أيديهم أنياب فيلة وقلائد من الودع والعنبر وعظام طيور دقيقة وأحزمة من جلد الثعابين والنمور، آخرون يقفون حلقات في جلبة صاخبة حول واحد يقرفص على الأرض ويحرك بسرعة خيالية مجموعة من أوراق اللعب يخلطها ثم يوزعها على الأرض صفّين متوازيين ثلاثًا ثلاثًا، يعيد خلطها ثم توزيعها بسرعة مرّات متتالية بيد، بينما الثانية تقبض من الأيدي الممدودة من فوق رأسه أوراق العشرة فرنك وهو يصيح كمن يستغيث ويستحثّ:

*allez y frères! allez y, allez y, allez y, dix francs, allez y ;dix francs ,  
qui dit encore? qui dit encore? les jeux sont faits!*

غير بعيد من هناك طوابير الرجال الواقفين في صمت جنازتي أمام أبواب صغيرة يميلون برؤوسهم ليطلّوا من موقعهم على الباب المفتوح، أو نصف المفتوح على ممرّ شبه داكن تقف فيه واحدة، اثنتان أو أكثر من نساء نصف عاريات في هيئة تحاول قدر الإمكان أن تكون مثيرة وبوجوه محايدة لا أثر فيها لشيء من تعبيرات التودّد أو الاستمالة، ولا حاجة لهنّ للاستمالة على أية حال فالطابور طويل والأعناق ممدودة والأيدي تشتغل في الجيوب تدلك أو تحاول تهدئة النمور المتهيجّة داخل السراويل والعيون تكاد تخرج من مآقيها؛ يتقدّمون ببطء، الواحد تلو الآخر، ومع دخول كلّ واحد تختفي امرأة من الواقفات، بينما

المتبقية تستحث الآخرين: *avancez, circulez!* - تقدموا، تحركوا! والأيدي تعمل بنشاط في جيوب البنطلونات، تفرك، تدعك، تدلك؛ الوجوه مستديرة قليلا باتجاه الجدار كما لو كانت تتحاشى أنظار المارة، يندفع الواحد بسرعة اللصّ الموارب إلى الداخل، يخرج بعد دقائق معدودات مطأطئ الرأس مندفعًا هاربًا ليتعد بسرعة عن المكان، ويدخل الموالي، وهكذا دواليك... تونسيون، جزائريون، مغاربة، ماليون؛ عساكر الشمال الإفريقي تتقدم، بأيديهم الرماح، خناجر مسنونة، سيوف محمّاة، عيونهم جمر على الربى والكثبان، ولا غالب إلا الله! بارباس مكان شبيه في قمامته وذبول هيأته وحركيته المضطربة بالعالم السفلي، الذي لم نره طبعًا، لكن هكذا نتخيّله عندما تنعتق الفنتازيا مغتذية بمخاوفنا ورعبنا أمام المجهول الذي وراء الموت. باريس هي أيضًا بالفيل التي كئنا نراها تنسلخ رويدًا رويدًا عن طابعها الفرنسي متشحة بألوان شمال إفريقيّة بعضها مشعّ وبعضها في قتامة الديكور الهادسي لبارباس؛ محلات تجارية تونسيّة تنبعث منها روائح الكزبرة والكمون وبهارات أخرى عديدة، مجازر لحم مذبوح حلال، مطاعم اليهود التونسيين العائدين بعد مغامرة في أرض الله الموعودة، إليها شدوا الرحال ذات سنة حالمين بمملكة المجد الموعود، ثم عادوا منها منكسرين ليحطوا رحالهم في هذه المنطقة البين - بين، لا هم يجروون على العودة إلى هذه البلاد ولا إلى تلك، فظلّوا يقضون شوقهم إلى موطن ولادتهم ونشأتهم بمزيج من الحنين والحسرة، يخطّون ذلك الحنين على يافطات محلاتهم مثل همس سرّي أو نحيب مكتوم:

أو <sup>(١)</sup>، *la Rose de Djerba, l'Etoile du Sud, La Sirène de La Goulette*

(١) وردة جربة، نجمة الجنوب، عروس حلق الواد.

يستدرجون الذكرى في هذيان مطبخي يصتفونه أطباقا وألوانا من الأكلات التونسية العريقة التي يجيدونها كما لا يجيدها أحد مثلهم مع شراب «البوخا» الحاد الذي يعبق بمذاق التين. منطقة بين - بين؛ بين أرض الميعاد التي ولّوا عنها منكسفين وتونس التي لن يعودوا إليها. منطقة بين بارباس الموغلة في القتامة وشرق يحاذي منيلموثون ذات النكهة الباريسية العريقة. منطقة للعبور أو للانتقال من حال إلى حال، ومن حسرة إلى شوق كما لو أنّها البرزخ الذي يصوّره خيال دانتي. وباريس هي الحيّ اللاتيني، وهي أيضاً مونمارتر ومونبارناس وسان جرمان والماربه: مقاهي فاخرة، كتاب وشعراء وفنانون، وأرهاط أخرى غريبة من فيالق المتملقين والمتحذلقين الملتصقين على الدوام بتلابيب الفنانين والأدباء مثل القراد الذي لا يفارق مؤخرات الدواب. باريس هي الشانزليزي، الأضواء، المحلات الفاخرة، الأناقة، المفتعل منها والأصيل؛ وهي التويلري واللوفر القصور المعالم المجد الذي يجثم بوقار على كتفي تاريخ البشرية. وهي أحياء الضواحي الشبيهة بمراقد شاسعة؛ صناديق معلقة تكوّن غابات من الإسمنت المسلح، لكنّها خلافاً لما نعرف من الغابات تعرض للعين منظر صحراء أو أكداسا من الجبال الصخرية الجرداء تتحرك داخلها كائنات باهتة، مثل لعبة إلكترونية شرع فيها طفل ثم غفل عنها وتركها تتابع مسلسل تحركاتها برتابة آلية لا فحوى لها ولا مسوغ. باريس هي كلّ هذا وأكثر. ألم نقل إنّنا نأتيها جميعاً حالمين؟ الحالم بالفرار من جحيم بؤس الأرياف الإفريقية وجحود الهضاب الجرداء القاحلة والصحاري التي تهدّد بالموت، والحالم بجنة الله الموعودة فيها أنهار الخمر والحواريات الحسان، والحالم بأنوار الفكر والفنون وإشعاعات الحرية. الحالم بالتمرد والحالم بالتشرد والحالم بالجنون الذي كسر العنان والحالم بأن يتيه هنا في

باريس ويحلّم ويحلّم ويحلّم، ولا يعود. علي التومي الفاز بجلده من حيّ «حفرة قرّيش» الأسنة وما ترسّب من أحوالها في قاع روحه مستعصيًا على كلّ موادّ التنظيف، ورشيد بوراس الماكرو - قواد المومسات في شارع موغادور، الذي ينتقم للّحظات التي ربض فيها على ركبتيه وقبّل باستسلام أن يطلع فوقه هذا أو ذاك من لواطى مبيت الثانوية، وظلّ كلّ سعيه للتخفيف من وطأة وضعية المركوب بمحاولة ركوب كائنات أخرى أكثر ضعفًا منه لا تفلح في رتق الحزّ الذي لا يريد أن يندمل؛ العرفاوي الذي ينتقم لطفولته البائسة، من أيام المبيت ولياليه المنقّعة في البؤس ورعدة الخوف الدائمة، ومن الحفاء الأبدّي لأمه حدة. ثم هؤلاء الذين رأوا حظّهم، هكذا بمحض صدفة في أغلب الأحيان أو رمية نرد موقّعة، يربو قليلا على حظّ الآخرين فدخلوا الجامعات وتفتّحت عيونهم على معارف ونظريات واقعة على حافة الهذيان الخرافي تقريبًا ... غير أن الكثيرين منا قد نسوا مع ذلك أنهم في باريس؛ الذي يدب من الظلام إلى الظلام بين حفرة في بارباس ومصنع في الضواحي الشماليّة، والذي تقوّع على هذيانه الثوري الذي بدأ حلما لذيذًا مشعًا بنار الرغبة في التجاوز والتمرد والتحدّي وحرق السفن، ثمّ راح، كما لو أنّه بدأ يتنكّر لوعوده الأولى، يتوغّل بأصحابه في نفق التوقّع على حالة من الاستمناء الدائم: غيتو آخر لا يختلف كثيرًا عن بارباس وأحياء الرقاد المترامية كالجرب على أطراف باريس. حسن الفيلسوف يقول إنهم حاقدون على المدينة، لن يتصالحوا معها أبدًا ولا شيء يغريهم أكثر من تدمير المدينة. احذروا البدو، يحبّ أن يرذد، ألا تراهم كيف يحملون حتّى على الفكر يرتفونه.

ب، بآ. بقّر..

دخلوا مدارس الاستقلال وقد تركوا وراءهم الكتاب وعصا المؤدّب

والقرآن وراحوا يتهجّون حروف الأبجدية من جديد في كتب ملوّنة  
ومزدانة بالصور: بَ، با.. بابٌ، بقَرّ...

وذاك الجدّ يضرب كفًا بكفّ وحفيده الذي غادر الكتاب ليدخل  
«كوليج» الرّوامة قابع أمامه يستعرض عليه ما حفظه في يومه الأوّل  
بالمدرسة:

بَ، بَ، با... بابٌ، بقَرّ.

- يا كلب يا ابن الكلب! ألم أقل لكم إنّها مدرسة فجّار؟ صرفتم  
الطفل عن الكتاب وعن كلام الله ونبية الكريم ليتعلّم بعبعة الغنم: با با  
با!

من كان منهم يسمع باسم باريس حتّى مجرّد سماع في ذلك الزّمن  
البعيد؟ أو لعلّهم قد سمعوا الاسم عدّة مرّات ولم ينتبهوا إليه، لأنّه لم  
يكن ليعني لهم شيئًا. وقد يكون اسمها ورد مرّة أو مرّتين في واحد من  
نصوص الكتب المدرسيّة لكنّهم لم ينتبهوا إليه. تكفيهم على أية حال  
تلك الأعاجيب التي قرأوها في نص «علي يزور تونس» وما كانوا  
ليصدقوا أنّها حقًا ليست من بنات خيال مصنفي الكتب والأكاذيب!  
أكاذيب شيقة تجعل صور المدينة تبرق في مخيلاتهم مثل أحلام اليقظة،  
وربما يجرّو حتّى بعض الجسورين منهم على الطمع في أن تطأها قدماه  
ذات يوم، لم لا؟

عندما يكون الحال متيسّرًا يرافقون أباءهم إلى مدن صغيرة مجاورة  
أيّام السوق الأسبوعيّة. في الهزيع الأخير من الليل ينحدرون عبر دروب  
الجبّال ملتحفين بالظلمة يلكزون دوابّهم ويتحدّثون بأصوات عالية تتناهى  
إلى الأذنين في العتمة. مثل مسامرات الجنّ والشياطين والأرواح الهائمة  
في الخلاء. تجولوا بأفواه مفتوحة مجرّجين أقدامهم المغبرة النحيلة

وراء آبائهم عبر شوارع فيها كل ما تشتهي العين وما تريد، فيها واجهات تعرض ملابس جديدة بدت لهم أنيقة، فيها محلات الأكل من كل نوع وصنف، الشواؤون، الجزارون، صواني الفطائر والزلابية، التي تعترضهم روائحها المثيرة منذ مدخل المدينة منتصرة على روائح روث الخيول وزبل الابقار وبعر الغنم والماعز المحتشدة داخل سوق الدواب التي نسميها الرحبة؛ أطباق الحلوى الزاهية بألوان بديعة، باعة متنقلون يدفعون عربات مزدانة بالأعلام وصور مشاهير المغنين ولاعبي كرة القدم وفوقها جميعاً صورة الزعيم؛ سيارة تمضي عبر الشوارع وتلف حول سوق الدواب ببوق يفلق طبلة الأذن: عربي فرنجي تركي عجمي/ بيلطش تلطيش/ محسوب الدراويش عالبورقية يعيش! حكومة الاستقلال تعلن حملتها على الخرافات والشعوذة والتشرد وأضرحة الأولياء والمتطبيين والعزافات والدراويش والقمل والفرطس والرمذ والجدرى والحتمى الصفراء وتعدّد الزوجات (الرجل أصابه كلب والعياذ بالله، يقول سالم بن مصباح، يلعنه هو ودولته الفاجرة ويرمي بعكازه على الطفل الذي كان يطنّ غير بعيد منه:

*Travaillez prenez de la peine!*<sup>(1)</sup>

السوق الأسبوعية تبلغ ذروة تهيجها والفلاحون يتدافعون بالمناكب ويتعثرون في قشاياتهم الصوفية الطويلة؛ مشروبات غازية متنوعة: سيدر خروب أسود، كازوز ليموناضة أبيض، كازوز برتقال، كازوز أصفر، كازوز أخضر، كازوز أحمر والبائع يدفع عربته ويدندن: «ما اشريش الشاي، أشرب قازوزة أنا». بائع الأيس كريم بصندوقه المغلق الغامض

(1) اعملوا كدوا واجتهدوا (البيت الأول من قصيدة «المزارع وأبناؤه» للشاعر الفرنسي لافونتين).



يركض طوال النهار ويصيح: فريكولو، فريكولو! جيرفي، جيلاط، فريكولو! أصوات متغنية بنغمات متنوعة تنوع البضائع المتغنى بها، تتبارى تتداخل تتقاطع: فريكولو، كازوز بارد، برّد يا عطشان، خبز طابونة جبن،، بيض مسلوق، افرز والبس يا بو العيلة يامسكين: كنزات، قمصان، جوارب، بنطلونات دجينز، جاكيتات، معاطف، قمصان مزدانة بصور عجيبة وحروف لاتينية تهجوها متعثرين لا يفقهون فحواها، أكداس وأكداس؛ الخمسة بدينار يا بو العيلة يا زوالي يا مسكين! الدنيا كلّها أصوات، وجوه، أقدام تتحرّك في جميع الاتجاهات: انتبه ولا تشرد مثل العجل! الدنيا كلّها أقدام من حولك، انتبه يارأس القرع! السيد الأب الشاطر النبيه يجذبك من يدك بحدّة وهو يتتهرك؛ طبعاً لست وحدك في الشارع الصاخب والدنيا كلّها سيارات من حولك، أبواق تزعق، سيل متدفّق، ولا يهتمّ إن كانت في أغلبها قديمة عتيقة قد كلّت محرّكاتها وغدت تبعث شخيراً ونفيراً وسعالاً معدنياً وحشرجات ودخاناً داكناً يقطع الأنفاس، المهمّ أنّها سيارات كثيرة وكلّها تتحرّك تسير تدبّ تنطّ؛ سيل هادر، زعيق، تبويق، شيء شبيه بحفل كبير، كرنفال، شاحنات محمّلة بالخضار والفواكه، شاحنات رصفت فوقها بنايات شاهقة من أكياس القمح والدقيق والسكر، صناديق مشروبات، صفائح زيت، موادّ تنظيف، ستائف صابون، معلّبات شتى، كراتين ملابس وأحذية، سطور تتدلّى على الجنبات، أواني بلاستيك بألوان زاهية، إطارات مطاطية، أكداس بطاطا، برتقال، ليمون، بصل، شرائط ثوم، صفائح فلي تو كس الزرق المزوّقة بخطوط بيض مبيد للذباب والبعوض والبق والبرغوث وجميع الحشرات، كرايزاي، والدفق متواصل لا ينقطع، كبد وطحال وعناقيد سجع المرقاز معلّقة على أبواب المجازر وفي واجهات زجاجية، شارع المطاعم؛ بعضها يعلّق سبورات

كبيرة عليها قائمات العروض ولائحة الأسعار والآخر يكتفي بصوت الجرسون الذي يتلو على الحرفاء سلسلة الأطباق الطويلة بسرعة غريبة لا يكاد الواحد يتبعه في الزقاق الموالي محلات الأكلات السريعة؛ كسكروت بالتن (قال معلّم العربيّة كسكروت كلمة فرنسيّة دخيلة وسندويتش أميركيّة إنكليزيّة، أما العربيّة فبعد أن بعثت عماتها وحكّت رأسها حتى كادت تثقبها فقد اهتدت بالنهاية إلى هذا الإسم الغريب: شاطرّ ومشطورّ وما بينهما كامخ - آآي! ما أطولها كلمة! قلنا، الواحد ستطلع روحه قبل أن ينال هذه اللقمة! - احتفظنا إذن بالكسكروت وليشنتق معلّم العربيّة نفسه!)، كسكروت بالسردين، كسكروت مرقاز، كفتاجي بالعظمة، كفتاجي بالكبد، كفتاجي عادي بلا بيض ولا كبد، صحن تونسي بالسلطة والتنّ، صحاف بلّور مصطفة كما لو كانت في معرض إشهار لجناح من أجنحة الجنة: بطاطا مسلوقة، تنّ منقّع في الزيت، سلطة طماطم وخيار، سلطة جزر، طرشي لفت مخلّل، فجل، فلفل بزّ العبيد الصغير الحارّ، مقلّيات شتى من فلفل وبطاطا وكوسة وقرع وطماطم... وهذا سوق العطريّة، أكداس من البهارات: فلفل أسود، كمون، كزبرة، كرويّة، مسحوق الفلفل الأحمر المسمّى هنا زيّانة، جوز المسك، كركم، زعفران، صفائح زيت الصوجا الأميركي (سمعوا في الراديو خبيرًا صحيحًا يردّد أنّ زيت الزيتون مهيج للقمل فقرّرت الحكومة وسقه إلى الخارج؛ - ليأكلهم القمل أولاد الكلب الكفّار!)، كافور، قطران... وهذه أكياس من مسحوق دي دي تي قاطع ضدّ القمل والبرغوث والنمل والبعوض. فوق مصطبة الحلواني تحوم جيوش من الذباب، الحلواني لا يكفّ عن تحريك منديله في الهواء والذباب لا يردعه المنديل، بينما عيون الأطفال كويرات زجاجيّة تختطفها الألوان الزاهية للحلوى المعروضة نهبًا للذباب؛! المدينة كدسّ

ضخم من الحلوى؛ أطفال الأرياف يتعثرون في بهتة شهواتهم، يسيل لعابهم، يشردون، تضطرب خطاهم «قلت لك لا تشرد هكذا مثل العجل يا ولدا!» بينما أطفال المدينة يتسللون مثل القطط، حركاتهم خفيفة وأيديهم أكثر خفة تمتد بسرعة مثل لسان السحلية تختطف وتفرّ والحلواني يشتم فروج أمهاتهم، ينعتهم باللقطاء وأولاد الحرام ويتوعد جلودهم. الريفى لا يستطيع أن يمدّ يده بتلك الخفة؛ عيناه تتعثران فوق الأشياء ويده مشلولتان من فرط البهتة. ليس كذبًا ذلك الكلام الذي قلته ذات يوم لصديقتي أنّ ماري الفوضوية التي تؤمن بأن الملكية هي السرقة: الريفى لا يسرق إلا في بساتين ريفه، هناك يغدو قطًا خفيفًا رشيق الحركة يتسلق الأسيجة مثل القرد، يراوغ حواجز صبار الهندي والأشواك وينفذ مثل القنفذ إلى شجرة التين أو الخوخ. روائح الزلابية وفطائر الإسفنج في مباراة مفتوحة مع روائح القطران والبنزين والفلي - توكس والبهارات وعطورات دكاكين الحلاقين وصابون المسك والكافور، روائح حديد مصهود قادمة من دكاكين الحدادين، روائح اللوز وبزار عبّاد الشمس والقرع المحمّصة، روائح الجاوي والنّد واللبان الذكر، مساحيق وأعشاب غريبة ومراهم عدّة على طاولة المغربي؛ هذا لفتح الأبواب، وهذا لإعماء البصيرة وذهاب الشيرة، هذا لعودة الزوج الضالّ، وهذا لتسهيل الإنجاب وإخصاب العاقر... وكلّه نافع إن شاء الله.

المدينة هي الجنة! ولا جنة هناك غيرها. يشرد الواحد، يذهل، يندھش، ينتشي، يدوخ يترنّح، يتعثّر في خطاه حتى تجذبه يد الأب بعنف تعيده إلى اليقظة: قلت لك انتبه ولا تشرد هكذا يا رأس العجل! العجول والخرفان والحمير والبغال والخيول توسق فوق عربات الشحن العالية، مسافرة بلا تذاكر، هي أيضًا تتغيّر هيئاتها فوق العربات وتغدو

نوعًا من المسافرين الغامضين، كائنات أخرى غير تلك الشياہ والعجول التي تُرى في الحقول. الأبقار تلوك علفها في صمت، والعجول ترقب الدنيا بكثير من الدهشة أو اللامبالاة. الأغنام لا تكفّ عن الثغاء، شيء شبيه بمناحة جماعية والرقبة قد غدت الآن على موعد شبه متأكد مع سكاكين الجزّارين. البغال واجمة مثل جنود ينتظرون في استعداد وقنوط إشارة الانطلاق. البغال في أيّ موضع ومكان تتخيل نفسها دومًا مشدودة إلى المحارث والعربات؛ بغال للحراثة! والدجاج الملقى على الأرض مكتوف القوائم، أو الرابض في الأقفاص يسدل جفونه فيبدو غافيًا لا يهتم من أمر الدنيا من حوله شيء، كأنه ومنذ خرج من بيضته لا يفعل سوى انتظار تلك اللحظة التي سيسلم فيها رقبتة للسكين. لكنّ تلك الجفون الوردية المسدلة على عينيه والتي تبدو شفافة إلى حدّ ما تدفع إلى الاعتقاد بأنه يرى من خلالها ويراقب كلّ ما يدور من حوله، وهو ليس بنائم أو غاف، بل يتبهّنس متظاهرًا بالغياب وعدم الاكتراث. أما الماعز فلا تكفّ عن الشيطنة، بنت الحرام، حتى وهي معروضة للبيع! حدقاتها الواسعة ذات الإشعاع الخبيث تلتهم الدنيا من حولها بفصول يقظ، تراها على استعداد دائم للانقضاض على أيّ غصن أو قبضة معدنوس تطلّ من قفّة إحدى المتسوّقات. الحمير وحدها براقبها الطويلة المحنيّة دومًا باتجاه الأرض تجسّد الضجر في هيئة بانسة تبعث على الحزن. الحمير من بين الحيوانات النادرة التي تعرف الضجر إلى جانب القردة - والإنسان طبعًا!

لكن ها أنّ حمازًا يبدو غير مكترث بالمصير الذي ينتظره بعد سفرة فوق شاحنة مزدحمة بالحمير والبغال، يقف الآن بالقرب من الشاحنة وشيؤه يتدلّى أسود طويلًا يكاد يلامس الأرض، وإنّث الحمير في وجومها الجنائزي لا يعينها الأمر. فقط ثلاث نساء خارجات من السوق

البلدية المسقفة ارتطمت عيونهنّ بالمشهد العجّب يقرقرن ضاحكات  
ويتظاهرن بإخفاء عيونهنّ بأيديهنّ أو بطرف السفاري الحريرّي الأبيض  
ويسترقن النظر ملتفتات متعجّبات لهول الآلة المتدلّية: ووه! ووه!  
ياشومي مالاً همّ! - لا همّ ولا غمّ، بل هو الذي يجليّ الكرب والهمّ. -  
لا يا وخيتي اللي عند رجالنا يكفيننا! ديك يرفع صوته من داخل قفص  
مليء بالدجاج، وكما لو أنّه ذكرّ إمام الجامع غير البعيد فصعد صوته هو  
أيضاً من صومعته: إمامان في المدينة، خير من الله وفضل كريم! قال  
أحد السكّيرين وهو يجزّ رجليه مترنّحاً في الزحام. الديك يظّل ديكاً  
حتّى ورقبته على بعد شبر من حدّ السكّين!

لم يشرد الطفل المسكين مثل العجل ولا هو سها فترنّحت خطاه  
واضطربت وراء أبيه - أووه من هذا الأب الذي وحده يعرف كيف  
يمشي، ووحده يعرف كيف يتسلل بين الزحام، ووحده الشاطر الماكر  
الذئب اليقظ الذكيّ «المزور»، الذي لا يبهت ولا يشرد ولا يتعثّر! - لا  
يا سيدي، لم يبهت ولم يشرد ولم يتبهّل، بل هو يلتفت الآن إلى  
الوراء لأنّ يدّاً صفعته على قفاه صفقة سريعة خاطفة ولعثت أمام جبينه  
وميضاً حاداً نزت له عيناه.. ملاعين أولاد المدينة! لا شيء يحلو لهم  
مثل الضحك على أبناء الأرياف المتعثّرين في الدهشة أمام غرابة  
الكرنفال الذي يجري من حولهم؛ يتبعونهم ضاحكين من مظهرهم  
الغامض مزيج من الخشونة والسذاجة الحائرة، يسحبون هذا من طرف  
ثوبه، وذا من أذنه، يركلون ذا أو يصفعونه من الخلف ويفزّون  
ضاحكين. أولاد «الملاحي» من أبناء العائلات النازحة من الأرياف قبل  
بضع سنوات، هم أيضاً عانيّين حياتهم داخل بيوت شبيهة بالحفر  
الضيقّة التي لا يلجؤون إليها إلاّ ساعات الأكل والنوم، تماماً مثل  
القطط، الشارع فسحتهم ويوم السوق الأسبوعيّة حفلهم الدوري،

كرنفال أو كاراكوز ينتظرونه هم أيضًا بشوق، يتسلّون فيه بالسرقات الصغيرة والنشل والضحك على أولاد العربان - الذين هم في أغلبهم أبناء أعمام وأخوال لهم لم يتبعوهم إلى حفر ملاجئ المدن ومجاريها العارية التنتة -، شيء من التسلية والسلوان، في انتظار أن يكبر هؤلاء ويكونوا بدورهم عصابات تتجول مجموعات بأكملها تصادم وتعارك وترذ الضرب والصفع والركل، وقد تحلو لها وتروقها نشوة الانتصار فتصبح هي التي تبادر بالهجوم والاعتداءات. انتهى الدرس يا غبّي! وانهض لنفسك كن ذنبًا كي لا تفتسك الذئاب!

كبر أطفال القشابييات المهترئة وأحذية الكاوتشوك والقمصان المصنوعة من أكياس الدقيق الأميركي:

«هدية من شعب الولايات المتحدة الأميركية

ليس للبيع أو المبادلة»

كبروا. حفظوا الدرس عن ظهر قلب ثم نسوه. يذرعون شوارع باريس الآن، يخطّون بالحبر الأحمر على جدران السوربون: انتهى الدرس يا غبّي! وعلى جدران خرائب بارباس:

*UNE SEULE SOLUTION, LA REVOLUTION!*<sup>(1)</sup>

أي نعم، انتهى الدرس. عرفنا اللعبة من أولها إلى آخرها. لا يا سيّدي، *les Gaulois* ليسوا أجدادنا. أجدادنا الهالتيون أبو زيد وذياب والجازية. أجدادنا بربر الجبال، ماسينيسا ويوغرطة وكسيلة، والقرامطة والشطار والعيّارون. اللوفر وفرساي والتويلري معالم مخضبة بدماء الفقراء والمستضعفين، عمارة الإقطاع وفنون الإقطاع ورجال اللاهوت.

(1) ما من حلّ إلا الثورة.

الكنيسة مضاصة دماء والذين أفيون الشعوب، سنهدم أجتة الأكاذيب  
كلها منذ حمورابي صاحب الثلاثة آلاف قانون المدبرة لقطع دابر الشعب  
مروزا بالاسكندر الذي سنقتلع قرنيه وقصر الرّوم وهارون الرشيد  
وحكام الأندلس، بنو الأحمر والأصفر والمعتمد والمعتمد والمعتضد والمعتصم  
وزيد والوليد... كلها للهدم، للنسف، للحرق؛ فؤوس ومناجل  
ومعاول: لا travaillez، ولا prenez de la peine اعملوا وكدوا بعد الآن:  
يا عمّال العالم اتحدوا!

- اهدأ. اهدأ يا ولدا! أنسيت درسك الأول: بَ بَا، بَ بَا.. بقر؟

«خوروطو»! يقول علي الفنان. «خوروطو»، يقول كل مهاجر وهو  
يشتم بقية المهاجرين جميعا، وقد نحتوا لأنفسهم عبارة شتيمتهم  
الخاصة لبني جنسهم ضاربين عرض الحائط بعبارات «بونيول» و«بيكو»  
التي ابتدعها لهم الفرنسيون. همج، عربان الأحراش والفيافي الجدباء،  
يقول حسن الفيلسوف المرابط بمقهى ليسكوليه بساحة السوربون مصرا  
على مقولته التي لا يكل عن ترديدها: «البدو حقودون، لا شيء يحلو  
لهم مثل تدمير المدينة والانتقام من المدينة. لست بحاجة للذهاب إلى  
بارباس ولا إلى تونس التي تريفت وغدت قرية بائسة أو جثة عمرانئة  
محاصرة بالقرى والأرياف، بل لتتظر فقط هنا من حولك، هنا في الحي  
اللاتيني. هنا يجلسون في قلب باريس النابض بين الجامعات والمكتبات  
والمعالم الكبرى وينظرون ل: «محاصرة المدن من جهة الأرياف». أنا  
أقول لكم احذروا كل ريفي وكل فكر مريّف!

أسأل المولدي: ألم تقل لي إنه من مدينة من جنوب البلاد؟ فما  
الذي يجعله يبدي كل هذا الاحتقار لأبناء الأرياف والقرى، كما لو أنه

من أرسطراطي العاصمة؟ هل سلوكه هذا من باب ضغينة معكوسة، أي أنه ينتقم لنفسه من أصوله؟  
- لا أدري... ربما، ربما. حقا لا أدري  
- حسن هذا عدمي مستهتر وليس وراء عدميته واستهتاره من محتوى يعول عليه!



## علي العاشق

توالت الجولات المسائية لعلي وفتيمة. أحيانًا يرافقها إلى الفندق لنتم السهرة في المطبخ كالمعتاد. علي يتفتق الآن عن بهجة لم أعرفها فيه من قبل. ذات ليلة قال لي قبل أن يغادر الفندق إنه يريد أن يلتقيني يوم غد على انفراد لأمر مهم.

عندما التقينا بإحدى مقاهي ساحة كليشي بدا لي مضطربًا ومترددًا شيئًا ما. ظلّ لما يقلّ عن ربع ساعة يدخن بصمت، وبدا لي كما لو أنه كان غارقًا في مونولوج صامت. وعندما نظقت أخيرًا أسأله عن الموضوع الذي يريد أن يحدثني فيه تطلّع في بامعان ثم قال وعلى شفته تلك الابتسامة الخفيفة الماكرة التي يحاول غالبًا أن يغطي بها حرجه:

- ما رأيك في فتيمة؟

- بنت لطيفة وذكية جدًا.

- لا، أعني... يعني... لطيفة وذكية فقط؟ قصدي، هل بينكما شيء؟

- طبعًا لا. قلت بلهجة واثقة وثابتة، بينما كانت تتخللني في الحقيقة رعدة فجئية لم أدر ما هو سببها.

- عادل! بصراحة... البنت... أعني، هناك شيء لا أدري ما هو في هذه البنت أعجبني... أقصد أحببته... شيء غير واضح. قلت لك لا

أدري ما هو. هذه الفتاة فيها شيء جميل جداً، لا تحاول أن تتفلسف مثل عادتك، ولا تسألني ما هو. فيها شيء، وانتهى الموضوع.

- من منا المتفلسف الآن؟ أنا أم أنت بشيء - ك هذا؟ أنطق، ماذا تريد أن تقول؟ هل حصل شيء بينكما؟

- لا، أبداً. لكن، لكن هناك شيء... كيف سافسر لك هذا؟

- اسمع يا علي، احذر أن يكون الأمر مجرد نزوة من نزواتك العابرة، أو شفقة أو شيئاً من هذا القبيل. الشفقة سرعان ما تزول، وبمجرد أن ترتخي التوترات التي يحدثها التشويق ويبدأ الملل يطلع وجهها الثاني البشع: الاحتقار والإهانة.

- أية شفقة يا رجل؟ هل رأيتني يوماً أشفق على أحد؟ أية شفقة يا رجل؟ أنا أقول لك هذه البنات فيها شيء، لا أدري ما هو، لا أستطيع... ولا أريد أن أعرفه... لا شفقة ولا أدري ماذا من تلك الخرافات البائسة. فيها شيء أحببته، وانتهى..

- لكن، لكن يا علي، البنات، وبقطع النظر عن كل شيء، عن جمالها وذكائها وعواطفك أنت وهذا الشيء أوداك، معاقبة. لا تنس ذلك. إنه ليس بالأمر السهل أن تكون امرأة مشوهة في جمالها، وبصفة خاصة إذا ما كانت جميلة؛ الألم سيكون مضاعفاً في مثل هذه الحالة، وبالتالي الحساسية والتأذي سيكونان أكبر بكثير. ألا تريد أن تفهم؟

- ياسيدي، يا ذكيتي، يا فاهم، يا حساس، أتعتقد أنّ الناس الطيبين الحساسين مثلك سيحسنون إليها بتجاهل جمالها... أتعتقد أنّها سعيدة برؤية الناس لا ينظرون إليها كامرأة، بل فقط كمعاقبة: شيء محايد لا يثير ولا يُستثار؟ قالت لي إنها عافت الحياة في الجزائر لذلك تريد أن تسجل بالجامعة هنا. أتدري لماذا؟ أنا أقول لك لماذا: لأنهم هناك لا

ينظرون إليها إلا كعاقبة، موضوع شفقة لا غير. بل لعلهم يسخرون منها أيضاً. أنت تعرف عقلية الناس هناك، في تلك البلدان العربية المتخلفة؛ الإعاقة لديهم نقيصة وعار. ألا يعيرون الناس بعاهااتهم؟ ألا يلقّبون كلّ ذي عاهة بعاهته: فلان الأعمى، العايب، الأعور، الأطرش، الأفحج، السمين ... هناك، في «بلاد الرحمة»، «بلاد الإيمان»، «بلاد الأخوة» كما يحلو لكم أن تدّعوا جميعاً، تصبح الإعاقة هوية للمعاق، ويصبح المعاق محبوباً داخل إعاقته ومختزلاً بكليته في إعاقته؛ لا شيء غير أعرج، لا شيء غير أعمى، لا شيء غير معاق. لذلك قالت إنها عافت الحياة هناك. أكيد أنهم ينظرون إليها ويحدّقون فيها وهي تمرّ أمامهم بأعين لا تعرف لياقة أو تحفظاً، مثل البلهى يحدّقون بإصرار في عاهة المعاق كي يشعروه بأنهم يرونها، ومن حين لآخر تدفع واحدة عاهرة بزفرة مفتعلة: «مسكينة!»، وبصوت مسموع حتى تُسمعها أنها تشفق عليها. إنها تريد أن تهرب من ذلك الجحيم. وماذا تفعل حضرتك؟ تريد أن لا تنظر إليها إلا كعاقبة، «مسكينة»!

ها أن السماء قد جادت علينا بسبب إضافتي لخصومات جديدة! قلت لنفسي ممتعضاً. ولم أضف كلمة.

قبل أن يغادر المقهى قال لي: أتفقت مع فرنسواز أن تنتقل فطيمة للسكن معها لمدة من الزمن حتى نجد لها غرفة في مكان آخر، لأنها لن تستطيع تحمّل تكاليف غرفة في فندق لمدة طويلة من الزمن، خاصة وهي لا تنوي العودة إلى الجزائر كما قالت، وقد يسحب أبوها عنها كل دعم مادي كي يضغط عليها ويعيدها إلى هناك.

\*

غادرت فطيمة الفندق. جاءت فرنسواز لتأخذها بسيارتها إلى سان دني.

سان دني! ذلك العالم العجيب! البارات الشعبيّة، حرفاء من العاطلين عن العمل وبقايا عساكر الحروب الكولونيبالية، نساء منقعات في الكحول منذ عشرات السنين، العيون المتورّمة بطول السهر وكثرة النوم نهاراً، النظرات المائهة وراء الستارة الوردية التي تغطى المقل على الدوام، الصراخ والزعيق وتبادل الشتائم والمداعبات الفاجرة. برافو! الجثة الجديدة التي سيذف علي بفطيمة بين غياضها!

كالمتني بعد يومين. كانت مرحة ومبتهجة! قالت إنّ فرنسواز امرأة لطيفة جداً وأنها ذهبت معها إلى كلية الطبّ بباريس واستفسرتا معاً عن إمكانية التسجيل. الأمور ليست بالسهولة التي كانت تتوقّعها. لا بدّ من معادلة شهاداتها المدرسيّة والجامعيّة وأن تسجل أولاً على قائمة الانتظار. قد يجرى عليها اختبار خاصّ بالأجانب إذا ما أرادت أن يعترف لها بمستوى المرحلة الدراسيّة الأولى التي اجتازتها بالجامعة الجزائريّة. بعض تعقيدات عادية، لكن فطيمة تبدو متحمّسة ومبتهجة.

- وعلي؟

- كما تعرفه. سهرنا البارحة في بار عجيب. كلّهم يعرفونه هناك؛ إنّه في بيته. عالم غريب لكنّه طريف. ضحكنا كثيراً مع مدام روز وواحدة ضخمة الجثة لكنّها مرحة وكثيرة المشاكسات والتحرّش بالرجال، تدعى جانيت. متى ستأتي لزيارتنا في سان دني؟

عملها المجنون والله، قلت لنفسي. أخذها إلى بار مدام روز!

\*

جاؤوا ثلاثتهم معاً إلى الفندق. لأول مرّة تأتي فرنسواز إلى هنا.

كانت تبدو شاردة في بعض الأحيان. تنظر إلى ساعتها كل عشر دقائق تقريباً. ليس من عاداتها أن تسهر خارج بيتها، وإن حصل ذلك ففي بيت بعض الأصدقاء، وغالباً ما يكون ذلك في سان دني. استطبت فكرة مجيء فرنسواز، لأنها سترغمهم على العودة مبكراً نسبياً إلى البيت. هكذا لن يقتل علي فطيمة بطول السهر والتنقل من بار إلى بار. وبالفعل، وبالرغم من احتجاجات علي وتهكمه من «الراهبة التي تأتي إلى الفراش منذ الغروب مثل الدجاجة» فقد غادروا الفندق قبل منتصف الليل. قبلتني فطيمة لأول مرة قبلتين حارّتين وقالت بصوتها المرح: الآن صرت نصف باريسية، لا أنام في فندق. لا بدّ أن تأتي لزيارتنا في سان دني، أو لنلتق في باريس نهاراً؟ ثم التفتت إلى عليّ: علي، ما رأيك؟

غدت تستشيرته... أو تطلب إذنه!

ذهبت لزيارتهم في سان دني بعد أسبوع. تعشينا في بيت علي. كانت فرنسواز أيضاً هناك. البيت مرتّب كما لم أعهد ذلك من قبل أبداً. اختفت أوراق الرسم وعلب الصباغ وقوارير البيزة. علي يبدو متوازناً ومرحاً حتى مع فرنسواز التي كانت تساعده في المطبخ. قالت لي فطيمة إنه قلل من الخروج والسكر، وهو يفكر في العودة إلى العمل.

- هل رأيت لوحاته؟

- *C'est très fort!* - شيء قوي، قوي جداً! قالت بحماس. لكن لا أدري لماذا يبدو كما لو أنه لا يأخذ الأمر بجدية. لا يستعمل القماش، ولا يرسم إلاّ على الورق. ثم يرمي بكلّ شيء في زاوية وينساه. كأنها مجرد لعبة. خسارة! لا بدّ أن نحته...

- لكنك قلت إنه ينوي العودة إلى العمل. لعله تاب عن عبثه الطفولي. أشعر أنّ شيئاً مهماً، أعني تغييراً مهماً بدأ يطرأ عليه. كأنه بصدد طي صفحة والاستعداد لفتح صفحة جديدة.

- أعتقد ذلك؟ طبعًا أنت تعرفه أكثر مني.

صمتت فطيمة بعدها وظلت تدخن ساهمة. بعد أن أطفأت سيجارتها وهي تديرها ببطء داخل المنفضة، قالت دون أن ترفع رأسها، أو أن تنظر إليّ: لا بد أن يغيّر الإنسان مجرى حياته من حين لآخر، وبصفة فجئية وجذرية في بعض الأحيان على طريقة الانقلاب. أن ينقلب الواحد على نفسه وعلى ما ظلّ يعتقد أنه القدر، أو المصير المحتوم. ألا تعتقد؟ لماذا نرغم الحياة على السير دومًا في مسرب واحد يبدو لنا آمنًا، أو كأنه الطريق الوحيدة، بينما الأمر كلّ مجرد تعود وكسل. أليس كذلك؟

- لا أدري. الأمر يظلّ حسب رأيي مرتبطًا بنوعية الطريق الجديدة، والاتجاه الجديد...

- لكنّ كلّ جديد غير معروف، وليست له ضمانات كما نمتى، فقط لأنه جديد. ألسنت مغامرًا؟ شباب بلادنا، لا يحبّون المغامرة. يفضّلون الراحة على حبّ الاطلاع، والتعقّن في الكسل والروتين على المغامرة وتحملّ المسؤولية. أمهاتنا مثل دجاجات لا تتخلى عن فراخها، لا تتركها تسلك طريقها وحدها، يركن فوقها حتّى يجدن لها دجاجات أخرى تحتضنها وهكذا دواليك... تظل دائرة الخمول متواصلة، وليس هناك غير أقلية قليلة من المجانين والمغامرين هم الذين يكسرون هذه الدائرة الرتيبة. ألا ترى أنّ الناس يشيخون بسرعة داخل هذا الركود؟ ليست هناك حياة.

بعد أن أشعلت سيجارة ثانية وسحبت نفسين متتاليتين، نظرت إليّ مبتسمة وقالت: عادل، أنا سعيدة بأنني التقيت بكما. لقد بعث في لقاءكما دفعا جديداً. حيوية بدأت تتحرّك في داخلي. لذلك لن أعود إلى الجزائر حتّى وإن اقتضى مني الأمر أن أضحي بسنة من الانتظار قبل

الدخول إلى الجامعة. سأحاول أن أقنع عائلتي، وأنا متأكدة أنهم سيوافقون عندما يجدون أنفسهم أمام الأمر الواقع. وهم يعرفون على أية حال أنني عنيدة، وأتني أنجح دائما في فرض إرادتي واختياري. هذه من فضائل إعاقتي، إذ هم لن يُبدوا شيئا ولو ضئيلا من هذا التسامح تجاه أختي مثلا. ليست هناك عدالة في الدنيا. ماذا تريد أن تفعل؟ لناخذ الأمور كما جاءت ولنحاول فقط أن نظفر منها بأكثر ما يمكن من الإيجابيات، لا أكثر ولا أقل. الحياة هكذا وليست شيئا آخر. علي أيضا هكذا. أما أنت فإنك تفكر كثيرا. ألا تفكر أكثر مما ينبغي في بعض الأحيان؟ أضافت وهي تبتسم وتنظر إليّ بشيء من المكر.

- قد يكون... لا أدري... أحببت مرتبكا شيئا ما، كما لو كنت أتعثر في حاجز أو عقبة وضعتها عمدا أمامي... قد يكون.

- لا يهم. لا تشغل نفسك بهذه الفكرة الطائشة، كي لا تجعل منها موضوعا لتفكير طويل آخر قد يأخذك منا خلال هذه السهرة.

\*

مروان بدأ يجلب الانتباه في المدة الأخيرة ويستثير حفيظة عدد غير قليل من الرفاق بمزاجه الموغل في الخفة واستهتاره بالجديّة وهتكه للممنوعات عامة وكلّ ما له هيئة المقدسات خاصّة. هو الذي غدا يسلم على الرفاق وسؤاله الأول: كيف أخبارك الجنسيّة يا رفيق؟ أمورك واضحة جنسيّا وإيديولوجيّا يا رفيق؟ لم تكن تلك المزاحات تُتقبل دون امتعاض وتقطيب من قبل الرفاق، واختلاج عضلات الفكّين وشيء من صرير أسنان. أغلب الرفاق مكبوتون جنسيّا. لا صديقات ولا عشيقات، ولا هم يرتادون حتّى المواخير ولا يتجرّؤون على مومسات الشوارع. أحيانا نتندر خلصة فيما بيننا حول ترمتهم الرهباني، وأحيانا يحلو لمروان

أن يشاكس حميد وهو يتناول يده ويفتعل تفحص باطن كفه باهتمام:  
أوو، يقول مفتعلا القلق، كفك ستذوب من كثرة الفك الإديولوجي  
السري يا رفيق!

تعرف مروان على مجموعة من الممرضات أثناء إقامته في المستشفى  
الجامعي بسبب عملية جراحية أجريت له على عينه. استأنسن بسرعة إلى  
مزاجه المرح ومداعباته الفاجرة ومدّ يديه إلى صدورهن. علمهنّ لعبة  
الورق التونسية المسماة «شكّبة» وغدا يقضي السهرة معهنّ في غرفة  
المدّامة الليلية، يلعب معهنّ الشكّبة وأحياناً يعزف على العود، ثم  
يضاجع إحداهنّ. بعد مغادرته المستشفى أصبحت بعض الممرضات  
يزرنه في بيته حيث تلتقي المجموعة بكاملها، ولم يكن أحد لا من  
الرفاق ولا من الممرضات يرى مانعاً في اقتسام كلّ شيء؛ الأكل  
والشراب والفرّاش والأصدقاء. وكانت أكثرهنّ ترددا على بيت مروان  
واحدة تدعى جانين. جانين من اللاتي لا يرتوين ولا يتعبن من طلب  
المزيد. حصل ذات مرّة أن جاءت فجأة إلى بيته مساء وكان لسبب ما قد  
دعا يومها مجموعة كبيرة من الرفاق، أو أنهم قد تجمّعوا هكذا عنده  
دون سبب وبمحض صدفة لاغير. عندما ولجت جانين عتبة البيت ورأت  
ما لا يقلّ عن اثني عشر شاباً، الجالس على السرير والمستلقي على  
الموكيت والمتستند بظهره إلى الحائط والمتكئ على مرفقه، انبعثت منها  
صيحة تعجب، أو مفاجأة، أو فرح:

*Nom de Dieu! j'ai jamais couché avec autant de tunisiens à la fois.*

*C'est certainement beau, mais comment je vais faire?*<sup>(1)</sup>

(١) يا إلهي! لم يحدث لي أن نمت مع مثل هذا العدد من التونسيين. أكيد أنه أمر لذيذ... لكن  
كيف سافعل ذلك؟



لم يتناوب الرفاق على جانين مثلما كنت تعتقد. ولم تتنمر وتدخل في جلدة فرس نابليون. هكذا تسمي نفسها عندما تتوغل عميقا في تهيجها الشبقي وتغدو تحمحم مثل الفرس. انسحب أغلب الرفاق مستائين. كانت القطرة التي أفاضت الكأس، وجعلتهم يتخذون قرارا بعزل مروان نهائيا ويعطون أوامر صارمة بمقاطعته. ولم تنفع محاولاته تبرير سلوكه بأسلوبه العابث المشاكس. بل إن أسلوبه ذلك هو الذي أعطى الرفاق الحجّة الدامغة على انحلاله وتفسخه وفساد طبعه جملة وتفصيلا.

قال لهم بنبرة تفتعل الاستغراب والدهشة: لكننا اشتراكيون يا رفاق! ليس كذلك؟ أنا لا أؤمن بالملكيّة الفرديّة للأشياء، فما بالك بالتملك الفردي للمرأة! قالوا إنه لا يكفي بممارسة انحرافاته وتفسخه الأخلاقي، بل يحاول أن ينظر لذلك بطريقة لا تخلو من تهكم واستهتار. ولم تقنعهم أبدا حجّة أنّ جانين حرّة في التصرف في جسدها تفعل به ما تشاء، وأنّ أحدا لم يرغمها على ذلك، بل هي التي تحبّ ذلك الأمر وتنتشي به حتى تكاد تجن.

- إذا كانت الرفيقة لا مانع لديها في الاقتسام الجماعي للمتعة واللذة، فأين المشكلة؟ يقول مروان بكلّ تلقائية لبعض الرفاق المتهيجين الآن مثل فوج من الكلاب المستعرة برغبة العضّ والنهش وتمزيق الجلد واللحم.

- أية رفيقة؟ من وين رفيقة؟ كلّ الناس عندك رفاق، أم ماذا؟

- طبعا، لقد خلقنا الله رفاقا، لا فرق بين عربيّ وأعجميّ إلاّ بالوعي الطبقيّ يا رفيق، لكنّ الادبيولوجيا الإقطاعيّة والبرجوازية هي التي اختلقت هذه التفريقات بيننا يا رفيق.

اتضح للجماعة عمق فساد. الرجل مستهتر واع باستهتاره، ينظره ولا يتورع عن تبريره والدفاع عنه. عنصر خطير لا رجاء في إصلاحه، بل إن البعض راح يروج لكونه من المندسين، أو ربما من المتعاونين مع أعوان البوليس السياسي. لابد من فصله وإبعاده وعزله وتنقية الساحة الثورية الملتزمة المنضبطة من بذرة شروره. إنما هكذا تنشأ الأفكار المنحرفة والمتفسخة في صفوف المناضلين، تليها من بعد كل أشكال التنتع والخروج عن الخطّ وشتى الممارسات الذاتية والفردية والليبرالية سيئة الذكر.

فُصل مروان بقرار حازم صارم لا رجعة فيه. وأعطيت الأوامر الصارمة بعزله ونبذة والابتعاد عن مجالسه والتنديد العلني بانحرافه، وتمريغ سمعته وعرضه في البول والخراء.

\*

رأينا رفاقا كثيرين يعزلون، ويشطبون بجرّة قلم. يصبحون بين يوم وغده أعداء. لا أحد يقترب منهم. لا أحد يكلمهم. لا أحد يرذ على تحياتهم.

المنبوذ مثل الشاة الجرباء؛ كائن موبوء. نتعد عن طريقه، نسعى إلى نسيانه، نجعل منه مجرد بقعة سوداء في ذاكرتنا. وعندما يعترضنا صدفة لا نجرؤ على النظر في عينيه. نتمنى فقط لو أنّ الأرض تفتح لتبتلعنا وتحجبنا عنه وتحجب عن عينينا مشهد رؤيته. مشهد رؤيته؟ بل مشهد رؤية ارتباكنا واضطراب خطواتنا وارتعاش جسدنا بكلّيته أمام نظراته التي تبدو لنا مثل إبر محمّاة تخترقنا، تلوّمنّا، تؤنّبنا، تقول لنا إنّنا حقيرون، ضعفاء، لا ذوات ولا صفات.

رأيت مروان العديد من المرّات عقب حادثة فصله واتخاذ القرار

بعزله، يجلس وحيداً في مقهى le départ وهو يعرف أننا سنمرّ من هناك  
 حتماً في طريقنا إلى الحيّ الجامعي أو مطعم طلبة شمال افريقيا ببولفار  
 سان ميشال. رأيته يجلس ساهماً وراء الواجهة الزجاجيّة، مباشرة إلى  
 الرصيف، عيناه على الشارع، ينتظر، يقتنص، يترصد مرور أحدنا.  
 مرتين أو ثلاث مرّات تظاهرت بالنظر إلى وجهة أخرى وأنا أحثّ خطاي  
 كي أمرّ بسرعة. لكنني في كلّ مرّة كنت أشعر بعينيه تثقبان الزجاج  
 وتخرقان ظهري مثل سهمين من نار. أحسست بحرارتها تنفذان إلى  
 عظامي، وبوخز ما في أحشائي؛ شيء يشعرنني بالخجل من نفسي. مرّة  
 أو مرتين قذفت بشتيمة هكذا في الهواء: إنّه وقح وقليل حياء، يحاول  
 ابتزازنا وفرض وجوده علينا بهذه الطريقة المتبدلة المهينة. رخيص! لكنها  
 كانت كلمات جوفاء. كنت أشعر أنّها فقاقيع خاوية؛ في الواقع كنت  
 أحاول الاحتماء من خجلي من نفسي ومن سلوكي الجبان؛ لا أجرؤ  
 على النظر إليه في وجهه بينما عيناه تثقبان رأسي. أدير وجهي مثل أيّ  
 مدين متنكّر لدائنه. قرّرت أن أتلافى المرور من ذلك المكان كي أوفّر  
 على نفسي مثل هذا الحرج، فكان عليّ أن أصعد من ساحة السربون  
 عبر شارع سان جاك حتّى أتجاوز ساحة البنتيون ثمّ أنحدر في زقاق  
 ضيق جانبيّ باتجاه البولفار حيث محطة المترو مباشرة وراء ظهر مروان  
 الذي يجلس بالتأكيد في مكانه العاديّ في انتظار مرور أحدنا. لكنني  
 كلّما مررت من وراء ظهره متسلّلاً من ذلك الزقاق الضيق نحو مدخل  
 المترو كنت أشعر بوخز خجل أشدّ. قرّرت بعد بضعة أيام أن أتخلّى عن  
 هذه الخطة المداورة البائسة، وأن لا أسلك غير طريقي العاديّة دون لفّ  
 أو تخفّف، بل ودون أن أستدير بوجهي عن وجهه الذي غدا مثل صورة  
 ملتصقة بيّلور تلك الواجهة الزجاجيّة. سأنظر إليه مباشرة في عينيه وأمرّ،

حتى يعلم أنه لم يعد يمثل شيئاً بالنسبة لي، وأتني لا أخشى نظرات عينيه، ولا أنثني مثل غصن دقيق أمام ربح لومه وعتابه أو تملّقه.

مررت أمام مقهى الديبار بطريقة تحاول أن تكون عادية وتلقائية قدر الإمكان. رأيتَه. لم أدر وجهي عنه. ابتسم وأوماً لي بيده. ارتعشت، اصطكت ركبتي، سرت في جسمي كلّه حرارة غريبة. لكنني لم أردَ لا على ابتسامته ولا على إيماءته ومررت مسرعاً باتجاه مدخل المترو.

شعرت بقبضة صارمة ترجيني من كتفي. كان مروان قد اندفع مثل السهم من مكان جلوسه ونزل الدرج ينطّ نظماً ورائي حتى أدركني. عيناه في عيني، ويده ما تزال ممسكة بكتفي بشدّة.

- مالك؟ لن آكلك. ثمّ مالكم جميعاً؟ أجنّتم؟ ماذا فعلت لكم؟ ماذا فعلت لك أنت مثلاً؟ أنت بالذات؟ أبهذه السهولة تنتكرون؟ أسكر وحدي، أمشي في الشوارع وحدي. أجلس في المقاهي وحدي. آكل في المطعم الجامعي وحدي. أسمع الأخبار وأعلق عليها وحدي. سمعت بوفاة الشاعر المختار اللغماني وبكيت وحدي. قتلتموني يا أولاد القحبة! سمع البعثيون بقصّتي فاتصلوا بي، تمسّحوا بي، راودوني على نفسي وحاولوا إغرائي. كانوا بالفعل يراودوني كما يراود الواحد امرأة على نفسها. دعوني على شراب وسهرة. قلت لهم: ابتعدوا عني يرحم والديكم، ابتعدوا عني فأنا متهم ومشوّه بما فيه الكفاية. لا تشوّهوني أكثر... لا أحبّ البعثيين وتبجّحهم وشعاراتهم المججلة الخاوية، انغماسهم في المؤامرات والدسائس وتدبير المكائد؛ السياسة بالنسبة لهم دهاء وحيل ومكر ومكائد وانقلابات. يراودوني على نفسي مثل فتاة سائبة؛ قلت لهم ابتعدوا عني، إنني محصّن ولست طالقا، بل هجرني

في المجالس حتى أثوب إلى رشدي وأعود إلى سراط التنظيم. أي والله يارفيق، إنني نعجة ضالة وبي حسرة وندم، فلا تتركوني للذئاب. أريد رفاقي وأصدقائي الذين عاشرتهم لسنوات عديدة، سهرت معهم، وتجوّلت معهم، وتعلّمت معهم، وشربت معهم، وغثّيت معهم، وتحمّست معهم. هل هكذا، بجرة قلم تنهون العلاقات يا رفيق؟ أبهذه السهولة تفسخون شخصًا بأكمله من حياتكم؟ تلغونه، تشطبونه وهو حيّ يدبّ أمامكم، يتملّقكم، يتوسّل إليكم، ينظر إليكم بعينين ملوّهما الرجاء والطمع مثل كلب يتذلّل لصاحبه كي يعفو عنه. لو كنت كلبًا لما تركني صاحبي، لعفا عتي بعد يوم أو يومين وفتح لي باب بيته من جديد، وأطعمني ومسدّ على ظهري وهشّ لي. هل قلوبكم من حجر؟ أم ترى ليست لكم قلوب؟

لم أصعد معه لنجلس في مقهى الديبار كي نتصالح أو نتجادل ونتخاصم. عرف أنني لم أكن أنوي ذلك ولم يقل شيئًا. نظر إليّ وأنا أودّعه، أو أتخلّص منه، بعينين ليس فيهما لوم ولا حزن، بل محبة كانت تسعى إلى تخليد نفسها في لحظة وداع. قال لي وهو يرجّ يدي في يده: إذهب، فلا أنت آت معي ولا أنا عائد عن هذا الذي أنا فيه... «لو كنتُ صديقًا لصاحب الملكوت لصليت من أجل سلامك».

كنت أحبّ مروان وبه ربطتني مودة خاصة. تسكّعنا معًا. سهرنا معًا. نمنا في غرفة واحدة. غازلنا فتيات معًا. تناقشنا، تجادلنا، تحدثنا عن طفولتنا، عن أصدقاء طفولة، عن أيام الثانوية، عن تجربة مبيت الداخلية المقيّته، كلاً في مدينته، عن مغامراتنا، عن تهوّر أيام مراهقتنا، عن صبايا عشقناهنّ ولم نظفر منهنّ سوى بالوجع والحرقه والأمانى، عن

لوعات لم تخدم نارها في قلوبنا بعد. كان يجمعنا حبنا للشعر وتأقنا لعزوف رفاقنا عن كل ما له صلة بالأدب والفنون. انتقدنا همسا تكلس أرواحهم وتبلد أذهانهم. تحدثنا عن موقف الشيوعية من الأدب والفن، عن غوركوي وأيزنشتاين، عن مسرح وشعر بريشت، عن كافكا ودوستويفسكي، عن رامبو وبودلير والشابي ومحمود درويش وسميح القاسم ومعين بسيسو وغسان كنفاني، عن شعر الصعاليك وكيف يمكننا أن نعيد قراءته من وجهة نظر ثورية تقدمية، تناقشنا في إمكانية تحرير صفحة ثقافية في جريدة التنظيم، وأصبنا معاً بخيبة الأمل عندما قوبل مقترحنا بكثير من الفتور من طرف الرفاق.

هذا الرجل بكله وكليته، وتلك المعاشرة برمتها كان عليّ أن أفسخها، هكذا بجرة قلم، وفقاً لموقف سياسي وقرار اتخذ بعزله وعدم التعامل معه واعتباره ابتداءً من تلك اللحظة لا من المعادين للتنظيم فحسب، بل من المنحليين والمائعين والمعادين للثورة إجمالاً. اعتدى على المقدسات. تزندق وفسق وفتح بيته لمجالس المتعة والعلاقات المائعة. ولم يكتف بذلك بل يتناول على الكتاب وعلى شخص الرفيق ماو ومشاعر الملايين من الثوريين الذين يقدسون الرفيق ماو وفكره وعمله وإنجازاته. قال عنه إنه يبعث بالمتقفين والفنانين إلى مشاغل العمل الإجباري لأنه يغار منهم، وأنه مجرد معلّم أرياف، لذلك يتعاطف مع الفلاحين ويكره المثقفين.

عبثاً حاول من بعدها أن يقنع الرفاق بأنه مجرد مزاح وكلام يقال في جلسات الشراب لا أكثر: مزاح يارفاق! أقسم لكم بالماركسية اللينينية وفكر ماوتسي تونغ أنه مجرد مزاح. هل أصبحنا متزمتين إلى هذا الحد؟ ألا تعرف الثورة قليلاً من الفذلكة؟

قالوا له ابحث لك عن مواضيع أخرى للمزاح والفضلكة. فأجابهم:  
أية مواضيع أخرى؟ ومن أين لي بمثل تلك المواضيع؟ ألم ننظف  
رؤوسنا من كل شيء ولم نترك فيها سوى الماركسية اللينينية حتى أننا لم  
نعد قادرين على المزاح إلا من داخلها وبها ومعها؟ هل بقي لنا شيء  
آخر في رؤوسنا غير الماركسية اللينينية وفكر ماوتسي تونغ؟

## توتّر

التوتّرات العاديّة بين علي وفرنسواز تحتدّ. كثرت مشاجراتهما. ولم يفلحا في إخفاء ذلك عن فطيمة التي كانت على قدر من الحساسية التي تجعلها تشتمّ التوتّرات في الفضاء. غدت تشعر بالحرّج تجاه فرنسواز وعلي معًا. لا تدري لماذا. لكن شيئًا غامضًا وقائمًا بدأ يلفّ بالجماعة. علي يبدو مرّحًا بحضور فطيمة، لكنّه حالما يخلو بنفسه تعاوده كآبة ثقيلة. كثيرًا ما لاحظتْ غيابه في حالة من السهو والشروود. يدخّن بشراهة وحشيّة، وعاد إلى الإكثار من الشراب، لكن خفية هذه المرّة. بدأ يتحاشى الخروج مع أيّ كان. بعد أن يودّع فطيمة، يخلو بنفسه في أحد البارات، في أغلب الأحيان بارات جديدة ليس له فيها معارف ولا فرص للمشاكسات وهرج الخصومات.

لم يخف ذلك الأمر عن فطيمة طبعًا التي بدأت هي أيضًا تناوشه: لماذا يسكر خفية؟ ولماذا انقطع عن الرسم؟ عليه أن يهتمّ قليلا بنفسه، أن يقلّل من التدخين. ثمّ بدأ المرح الذي كان يرفرف بأجنحته الخفيفة فوق لقاءاتهما يتقلص، أو ينكمش. كثيرًا ما يجلسان صامتين، وحالما يبادر أحدهما بالكلام يبدأ شجار طفيف. توتّر يبحث له عن مخرج ويصطدم في أغلب الأحيان بجدار سميك. ذات ليلة أتت وحدها إلى الفندق. تحدثنا عن أشياء عديدة وقرأت لها بعض القصائد للوتريامون الذي تحبه. لاحظت فجأة أنّها تبكي فتوقّفت عن القراءة لأسألها إن كان



هناك شيء يزعجها؟ مشاكل ما مع فرنسواز؟ أو مع علي؟ لكنها ألحّت عليّ أن أوصل القراءة، ثمّ كفكفت دموعها وابتسمت: ليس هناك ما يمكنه أن يبكيني أكثر من لوتريامون. ثمّ وبتغيير مفاجئ للموضوع: ما هي علاقة علي بفرنسواز؟ إنها تبدو حزينة جدّاً في الأيام الأخيرة، وهناك شيء غامض وغير عاديّ في علاقتهما.

فاجأني سؤالها، ولم أدر بماذا أجيبها، لأنني لا أعرف أكثر ممّا تعرف عن علاقتهما، بل لعلّها بحكم معاشرتها لهما عن قرب قد غدت تعرف أكثر منّي. علي كتوم في هذه المسألة بالذات، وكلّما حاولت أن أفتح معه موضوع الحديث في هذا الأمر راوغ وتملّص وغير الموضوع بسرعة. في البداية، كان يبتسم ابتسامته الصفراء الماكرة ويقول: آ، تلك الإوزة الغبية؟ تلك من محظّيات المسيح أو حوريات الجنة. لكنّ عقبة علي غير هذا الرأي. قال لي ذات مرّة إنّه يحبها، لكنّه لا يجرؤ عليّ مفاتحتها.

- علي! علي لا يجرؤ علي مفاتحة امرأة؟ علي الذي نعاني الويلات من جرّأته الوقحة ويديه اللتين لا يعرف كيف يرذّهما عن أفخاذ ومؤخّرات كلّ حريفات الباربات! لعلّك تريد المزاح!

- أنا لا أمزح. علي يعاني من عقدة غامضة تجاه النساء العاديات إنّه جريء جرأة غير معهودة، لكن على العاهرات ونصف العاهرات ونساء الباربات فقط. لكنّه حالما يجد نفسه أمام امرأة لا تسكر ولا تعربد ولا تتعهر ولا تفجر بالكلام والحركات، يرتبك، يضطرب ويشعر بحاجز متين يفصله عن تلك المرأة. لقد لاحظت ذلك الأمر عندما كنّا معاً في خلية الحزب. لا يكاد يرفع عينيه في وجه آية واحدة من الرفيقات. جاكلين لاحظت ذلك أيضاً، وشعرت بميله الوحشيّ تجاهها. كان بوّده

لو يأخذها إلى بار من بارات سان دني ويسكرها حتى تغدو قادرة على الكلام بصوت مرتفع والضحك بعهر كي يستطيع أن يقترب منها... كانت تشعر بغريزة أنثى أنه يشتهيها بعنف فدبرت له أمر العلاقة مع فرنسواز.

- وفرنسواز؟ هل تحدّثت معها في الموضوع؟

- فرنسواز أكثر خجلا وتعقيدا منه.

فرنسواز فعلا أكثر تعقيدا من علي. إنها من ذلك النوع الذي لا يأنس للحالات الطبيعية العادية. لا تترتاح إلا للرجال الذين يبدوون لها في موضع من البؤس والشقاء يحيد شيئاً من ذكورتهم ويجعلهم فقط موضع شفقة. أولئك الذين يسمحون لها بمراوغة شرطها الأنثوي والاستعاضة عنه بالوظيفة الاجتماعية؛ وضع الكائن الخبير الذي يتدخل من علياء حياديته البيولوجية مساعداً ومنقذاً ومحسناً، وذلك بالضبط هو ما يثير سخط علي عليها.

تذكرت حادثة محاولة اغتصابها. قلت: فعلا إنها لا تريد أن تكون سوى محسنة. وعلي يريد لها امرأة، عاهرة. ولعلها ترغب فيه وبإمكانها أن تنام معه، لكن دوماً كمحسنة، أو على الأقل كمواطنة مسيحية مستقيمة وصالحة. وعلي يريد أن ينيكها كقحبة، أو كما يقول هو كبقرة، لا لشيء إلا لأنه لا يرى نفسه في مثل هذه الحالة إلا كثور يخور ويرفس وليس كخوريّ أو مواطن مستقيم.

- لا أدري، أجببت فطيمة مرتبكاً ومتعترّاً في تعقيدات وغموض هاتين الشخصيتين. علاقة صداقة؛ فرنسواز امرأة مثالية ورحيمة، ووفية. لكن علي صعب، مزاجي، حادّ أحياناً. فعلا، أنا لا أفهم سرّ علاقتهما. يطردها من بيته ويشتمها، لكنّها تعود. كثيراً ما تظلّ جالسة هناك

لساعات صامتة بينما هو يرسم أو يشرب ببيزته مستلق على الأريكة ويدخن. ساعدته كثيرًا، أمّا هو؟ لا أدري. عندما لا تأتي يشعر بالضيق ويغدو يتحدث عنها بشيء من الرقة، رقة أو حنان خفيّ على أية حال، أو متستّر ومكابّر... اعتقدت في وقت ما أنه يحبها. لكنّه أقسم لي أكثر من مرّة أن لا شيء من هذا القبيل يجول في نفسه.

- يكذب.

قالت فطيمة بوثوق.

- من أين لك هذه الثقة القاطعة في ما تقولين؟

- أنا متأكّدة من أنها تحبّه ولم تجرؤ أبدًا، أو لنقل أنّه لم يدع لها فرصة كي تعبّر له عن ذلك... وهو أيضًا يبدو مضطربًا بشعور مكبوت تجاهها. عليّ خجول في ما يبدو لي، أكثر مما يعتقد من لا يعرفه سوى معرفة سطحيّة.

\*

بدأت أسف فعلا لرحيل عقبة. كان سيقاسمني مشاقّ تحمّل عليّ وتقلبات مزاجه الدائمة، ويشغله عني بخصوصياتهما. وأنا أعرف على أية حال أنه يحبه أكثر مما أحبه دون شك، أو أنه على الأقل أكثر التزاما ومواظبة في محبته. طينة عقبة لم تلتوث كثيرا بثقافة الكتب، وتلقائيتها لم تشوشها النظريات بعد. كل أصدقائي الآخرين لا يحبّون عليّ ولا يحبّهم. هو يستمهم برؤوس القرع، وهم ينعتونه بالمتعفّن الذي لا رجاء فيه، ويحاولون إقناعي بالابتعاد عنه.

ارتحل عقبة إلى ليبيا منذ حوالي ستة أسابيع وقد بدا هذه المرّة مقرّرا العزم على عدم العودة إلى فرنسا. كان قراره ذلك فرصة لخصومة أخرى بينه وبين عليّ الذي تدفق سيل سبابه ضدّ العرب عامّة وهو ينعته

بالجنون؛ كيف يعقل أن يترك الواحد بلدًا ينعم فيه بالحرية بالرغم من كل شيء ليقذف بنفسه في جحيم من التخلف والهمجية والفوضى. كان عقبة مصرا على رأيه الثابت بأنّ الفرنسيين لا يريدوننا وأنه من حقهم ألا يريدوا من لا يحبون، كما أنه من واجب من يشعر بأنه غير مرغوب فيه أن يرتحل وينتقل كرامته، وأنّ ليبيا تظلّ في كلّ الأحوال بلدًا شقيقًا في حاجة إلى يد عاملة وخبرات، فلماذا نبخل بخبرتنا على الأشقاء ونمنحها للفرنسيين الذين يعاملوننا مثل قبائل من الهمج تهجم عليهم طمعًا في خيرات بلادهم؟ لكنّ علي مصرّ على أنّ عقبة هو الذي، مثله مثل جميع المهاجرين، يرفض التأقلم والاندماج، هو الذي لا يفعل سوى الانطواء على نفسه ويرفض التفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه حتى وإن كان ذلك يتطلب شيئًا من المواجهة.

تحوّل النقاش إلى خصومة عندما راح علي يتهمه بأنه بدوي لا يأنس إلا للتخلف والقبح والجفاف، ولا يرتاح إلى كلّ ما يمتّ إلى الحرية والجمال بصلة: لا يمرح ولا يرتاد البارات الليلية ولا المراقص، لا يجرؤ على التحرش بالنساء ومغازلة الفتيات، وينكمش أمام كلّ امرأة جميلة ومثيرة ويستنفر ويغدو بهيأة حيوان مذعور. لماذا؟ لأنّ النساء الباريسيات غولات مفترسات؟ هل كلّهنّ عنصريّات كما يدعي؟ بم يفسّر إذن ذلك العدد الكبير من المتزوجات بجزائريين وتونسيين ومغاربة أغلبهم جاء إلى هذه البلاد وهو لا يقدر حتى على الكلام بالفرنسية فحسب، بل حتى بلغة أهله؟ وبم يفسّر وجود تلك الأعداد الكبيرة من المتكالبات على مقاهي الجزائريين الصاخبة المكتظة بأرهاط شبيهة بالأتياس المتهيجة؟

توترت عقبة واشتعل بريق الغضب في عينيه وراح يقذف علي بالانفصام ويتهمه بالكذب على نفسه، وأنه لا يفعل غير توهم حرية هي

في الواقع بعيدة عنه، مستيجة بشتى العقبات التي يضعها هذا المجتمع أمام الغرباء بالتحديد، وأن ما يدعيه من غبطة وبهجة لا يتجاوز حشر يديه بين أفخاذ المومسات وشتى فضلات المجتمع المترسبة في البارات الليلية مثل حثالة كريمة الهيئة والرائحة: قل لي كم مرة تعرّفت على امرأة من غير المومسات والمتعفّات في اليأس والكحول؟

- المومسات أيضًا نساء، وسواء ضاجعت عاهرة أو سكريرة أو سكريتيرة أو طالبة أو مديرة مؤسسة فأنت لا تفعل سوى مضاجعة امرأة. المرأة امرأة وانتهى. والمومس على أية حال أفضل من الوحدة وقبضة يدك التي تنفّس بها عن كربك.

خرج عقبة وهو يطبق الباب بعنف مردّدًا بأنه لن يسمح لنفسه بعد اليوم بمعاشرة رجل منقسم متنكر لأصله وجذوره وغارق حتى العنق في الأوهام. بعدها بيومين حزم أمتعته القليلة واستقلّ الطائرة التي نقلته إلى طرابلس.

\*

أيقظني علي قبيل منتصف النهار. لم أكن أتوقّع مجيئه في تلك الساعة، لأنّه عادة ما يأتي لزيارتي مساءً في الفندق لعلمه بأنني إما أن أكون نائمًا في مثل تلك الساعة لتعويض سهر الدوام الليلي بالفندق، أو أكون في الجامعة لحضور الدروس. كان يرتدي طقمًا من قماش رفيع بلون القهوة الممزوجة بكثير من الحليب وقميصًا أبيض مفتوحا على مستوى العنق على طريقة موضة أواخر الستينات وبداية السبعينات وحذاء أحمر يبرق مثل الجمر، وهو أمر غير مألوف لدى عليّ الذي لا يكاد يفارق الجاكيّة الجلدية السوداء وينظفون الدجينز وجزمة الكاوبوي.

بدا لي بهيأة واحد من عازفي الجاز من نيو أورليانس أو شيكاغو؛ لم تكن تنقصه غير القبعة السوداء ليبدو بهيأة جون لي هوكر.

- عندك برنامج أوبرا هذا المساء؟

- أوبرا دبّ العود! «دبّ العود» هي عبارته الغريبة المبتجلة للتعبير عن استخفافه أو تهكمه من أيّ شيء.

كان مرحا ومتحمّساً حماساً بدا لي مريباً شيئاً ما. - يالله انهض إنك ستغدو خميرة من كثرة النوم! مزّة يحاول إزاحة الغطاء عني ومزّة يحاول معالجة آلة الأترفون المعطّبة، يتنقّل مثل نحلة أضاعت الاتجاهات بين المطبخ والنافذة، يسحب الستائر، يفتح حنفيّة الماء، يحرك كرسيّاً، يلعن شيئاً ما وهو يتعثّر في كومة كتب موضوعة على الأرض، يرطن بصوته النحاسي الذي يمكن أن يكون دقيقاً وحاداً حدّ الإزعاج:

*Nous avons toute la vie pour nous amuser;*

*Nous avons toute la mort pour nous reposer.<sup>(1)</sup>*

اللعنة! إذا اكتأب علي تعكّرت حياتنا وغدت جحيماً لا يطاق، وإذا كان طرباً قلّت راحتنا! كنت أعرف أنه لم يعد هناك من مجال للمماطلة، وأنه سيظلّ يطنّ حول رأسي مثل الذبابة ولن يتوقّف حتّى أنهض ولو كنت ميتاً تعباً.

كان يتمشّي داخل الغرفة الضيقة بشيء من الارتباك والتوتر كما لو أنّ ذلك الفضاء لم يكن ليُسع لهيأته الجديدة ولنسق الحركة غير المعتادة التي تفرضها عليه البدلة الأنيقة جدّاً والحقّ يقال.

- انهض! انهض ودعنا من تعليقاتك البائخة، سنتغدّى في ساحة

(1) لدينا كل الحياة من أجل أن نمرح/ ولنا كل الموت كي نستريح.

كليشي. أريد أن نحتفل اليوم ونعفس في الدنيا ونريها من نحن. تسلّمت مبلغ التعويض عن حادث الشغل الذي تعرّضت له قبل ثلاث سنوات، ولديّ الآن ما سيسمح لنا بالضحك على عفن الرأسمالية وخراء المصانع. يالله! يكفي من النوم والخمول.

صعدنا بولفار باتينيول مشيًا على الأقدام وكان علي يخطر في بذلته الجديدة مثل أمير نصّب للتوّ على جزيرة زنجييار! لا أدري لماذا خطرت لي زنجييار هكذا لوحدها من بين بلاد الله الواسعة وبدت لي المكان الوحيد المناسب لإمارة علي. ثم تخيلته، وأنا أراه الآن لا يركل الأرض بنعل الكاوبوي كما يفعل دوما، يخطر هناك في تلك الجزيرة البعيدة ممسكًا بذراع فطيمة الزهراء؛ هو في بدلته البيج الفاتحة وقميصه الأبيض الناصع وحذائه الأحمر الملتمع، وهي في ساري أصفر بلون الزعفران وعلى شعرها الأسود المعقود فوق رأسها على هيئة تاج من الدنتيل الأبيض منقّع في عطورات الجزيرة وأطياها!

أثناء الغداء كان علي غير عادته هادئًا هدوءً مشبوهًا. بل وبدا لي شاردًا شيئًا ما حتّى أنّه كان عليّ أن ألعب دور المهرّج؛ أعلّق على بذلته بكثير من الإعجاب حينًا، وبشيء من السخرية حينًا آخر، وكان هو لا يفعل سوى الابتسام باحتشام، أو بحرج غير معهود لديه.

أخيرًا نطق ونحن نتناول قهوة الإكسبريس مع الكونياك:

- اسمع ياسي بطيخة! أريد أن أتحدّث معك في مسألة جدية. لا تقاطعني، ولا تفلسف، ولا تعقّد عليّ الأمور. اتفقنا؟

- تفضّل يا أمير! نحن تحت أوامرك؛ لا مقاطعة ولا جدال ولا معارضة.

ثم اتخذت هيئة التلميذ الذي يستعدّ للإصغاء بكلّ أدب وقد أطفأت

سيجارتني واستقمت في جلستي وصالبت ذراعتي. عندها ضحك ضحكته الماكرة التي أعرفها جيداً لديه ساعات محاولاته مراوغة حياته أو حرجه، ثم ناولني سيجارة من علبة الجيتان - الشيء الوحيد الذي لم يغيره اليوم في مجمل حياته وسلوكه.

- اسمع، عندي مشكلة لم أستطع أن أجد لها حلاً وحدي. فطيمة. أنت تعرف أنني... أو أنك لا تعرف، أو لا تريد أن تعرف... المهم. لا أدري ماذا سأفعل مع هذه المرأة؟ أنا واثق تمامًا من شعوري، لكنني لا أجرؤ على مفاتها في الأمر. أخاف. بل أنت الذي خوّفتني بمسائل الإعاقة والعقد وجرح العواطف ولا أدري ماذا من تلك الحكايات التي ملأت بها رأسي. ترى كيف أنّ كلامك قد شوّش عليّ كلّ شيء ولم أعد أعرف ما الذي أفعله! فعلا أنا خائف من أن أقوم بحركة غير لائقة، أن أتسرّع. رأسي مليء بالخطط التي أعدها وأنسجها، ثم أنقضها وأعيد حبك نسيجها، لكن بمجرد أن أجد نفسي وجهاً لوجه معها تتبخّر كلّ خططي وأغدو أبكم، أدخن كثيرًا وأشرب ولا أقدر على قول أي شيء. أما هي فتلومني على كثرة التدخين والشراب ولا تدري ما الذي يضطرب في داخلي. بدأنا نتناوش من حين لآخر لأنفه الأسباب.

عدنا إلى مسألة الحرج، والإعاقة، وضرورة الحذر، وعدم التسرع، وكدنا نفترق في جدال يظل يدور حول نفسه دون مخرج. أخيراً ألقيت بالسؤال الذي بدا لي أنه يمكن أن يقودنا إلى مخرج ما:

- لكن هل أنت واثق؟ أعني، هل أنت واثق من مشاعرك.

- واثق! واثق، واثق! ومن هو الواصل من شيء؟ قل لي هل أنت واثق من كلّ شيء؟ عدا ثورتك هذه التي تدعي أنها حتمية تاريخية. وحتى هذه، هل أنت واثق منها حقاً؟ أنت مؤمن ولست واثقاً.



فجأة، قال وهو يرى أن كل نقاشاتنا لم تعد تفضي إلا إلى مزيد من التعقيم والتردد الذي لا فائدة من ورائه: سأعرض على فطيمة الزواج اليوم، وبحضورك أنت وفرنسواز. اندهشت لذلك القرار الذي بدا لي حازماً وصارماً أكثر من اللزوم، ومفاجئاً خاصة. حاولت أن أصدّه عن ذلك الأمر مبتينا له أنه تسرع لا مبرر له، عدا أنه سيكون عديم الذوق، لا لأنه سيحدث بحضورنا فحسب، بل لأنه لم يأت نتيجة لمفاتيح حميمية واقتراب وتوطئات ضرورية من شأنها أن تجعله قراراً متوجاً لسيرورة علاقة تطوّرت بما فيه الكفاية كي يصبح ذلك التتويج أمراً منطقياً ومقبولاً.

انتظرنا فطيمة وفرنسواز في محطة سان لازار. كان علي مضطرباً، قلقاً، وبالرغم من أننا وصلنا إلى مكان الموعد قبل الوقت المتفق عليه بما يزيد عن نصف ساعة، فإنه كان لا يكف عن النظر إلى ساعته بقلق والتمشي بخطى متوترة في بهو المحطة ممطّطاً عنقه باتجاه الممر الذي سيأتي منه القطار القادم من سان دني. ثم راودته فكرة أن يشتري زهوراً يستقبل بها فطيمة، لكنّه سرعان ما تراجع عنها مفضلاً قارورة عطر تراجع عنها بدورها ملوّحاً بيده بامتعاض: - لا زهور ولا هدايا، ولا دبّ العود! واستعاض عن ذلك كلّه باشتراء ولّاعة فضية من محلّ التبغ الذي في بهو المحطة وأراد أن يشتري لي واحدة مثلها فرفضت بشدة مدّعياً أنه لا فائدة من ذلك التبذير لأنني على أية حال سأضيعها بسرعة، لكن ذلك لم يقنعه فتوتّر وانتفض مهدداً برمي ولّاعته وتهشيمها على الحائط، ولم يهدأ إلا عندما وعدته بأنني سأقبل منه هدية أخرى سأختارها لنفسي فيما بعد.

نقلتنا سيارة تاكسي من محطة سان لازار إلى الحيّ اللاتيني بعد أن رفضت أن نطلّ بحيّ الأوبرا وأعربت كلّ من فرنسواز وفطيمة عن

تأففهما لفكرة العشاء والسهرة بشارع الشانزليزي. لم يكن علي الذي لا يرتاح إلا إلى بارات سان دني وساحة كليشي بين الحين والآخر، من المولعين بالشانزليزي وأضوائه ومحلاته الفاخرة، ولا كان ليرتاح لأجواء الحي اللاتيني لأنه حسب رأيه حفرة مليئة بالهبيين والطلاب وشتى الكذابين والإدعائيين من «الإنتلو» المزيفين؛ *Les faux* كما يحلو له أن يسمي المثقفين والفنانين. لكنه تنازل اليوم ولم يبد أي تعنت في الاعتراض، مجاملة لفطيمة طبعًا. ذهبنا إلى السنما بشارع سانت أندري ديزار. بعدها تعشينا معًا في مطعم مغربي يدعى «طاجين» بشارع «لاغيتيه» بالقرب من مونبرناس. تمشينا في شارع لاغيتيه، نظرنا إلى برنامج السهرة بقاعة بويينو فلم يعجبنا، ثم دخلنا شارع الغرب Rue de l'Ouest وكنت أريد أن نتوقف قليلاً أمام العمارة التي سأنقل للسكن فيها عن قريب، لكننا لم نفعل. كان مجرد مرورنا أمام حائتين من حانات الجزائريين فرصة كي ينطلق لسان علي بالسباب والشتائم وشتى التعليقات الخبيثة على تلك المقاهي وعلى المطاعم التونسية الصغيرة البائسة التي تعرض في واجهاتها كميات من الزلابية وحلويات ذات مظهر يوحي بأنها مصنوعة من التراب. كان يتوقف من حين لحين وهو ينظر بطريقة استفزازية واضحة معلقًا بصوت مسموع على التكادس الفوضوي للحلويات في الواجهات الزجاجية، وطاولات الفورميكا ذات الهيئة البائسة، والجراسين الذين يتنقلون وهم يسحبون أرجلهم سحبًا داخل تلك المحلات الصغيرة في هيئة كسولة كما لو كانوا مريضين أو ضجرين حدّ القرف من الحياة برمتها، ملفوفين في مناديل مبقعة بالمرق والدهن كانت في يوم ما بيضاً: «أنظر هؤلاء الحمير!» بدأ علي يزعم بصوت مرتفع. بعد أن شبعنا من الشتائم والسباب والتعليقات الخبيثة والطريفة في آن واحد، عدنا أدراجنا باتجاه بولفار مونبارناس حيث

جلسنا بمقهى *Le Select* لمواصلة السهرة. طلب علي زجاجة شمبانيا أمام بهتتنا واستغرابنا جميعًا لعلمنا بغلاء هذا المشروب، وفي ذلك المحلّ بالذات. لكنّ أحدًا لم يعترض أو يعلّق بشيء، ذلك أنّ هيئة علي داخل بذلته الجديدة كانت مبرّزًا كافيًا على ما يبدو لمثل هذا الترف. بل إنّ فطيمة أيضًا قد قبلت بقدرح من الشمبانيا، هي التي لا تشرب في العادة غير الكولا وعصير الفواكه. فرنسواز وحدها كانت تبدو نهبًا لشيء من الحيرة والذهول وكثير من الانزعاج. لعلّها كانت تتساءل من أين لعلي تلك الأموال التي جعلته يتصرّف خلال هذه الأمسية مثل أمير خليجي هي التي تعرف أنّه عاطل عن العمل لما لا يقلّ عن ثلاث سنوات ولا يعيش إلاّ على منحة المساعدة الاجتماعية منذ أن أوقفت عنه جرایة منحة العطالة منذ ما لا يقلّ عن سنة.

هل كان ذلك السلوك المبذر وحده هو مصدر ذهول فرنسواز وصمتها المتواصل خلال هذه السهرة حتّى غدت تبدو وهي تجلس واجمة بيننا شبيهة ببقعة من الظلّ داخل صورة مشعّة الألوان؟ بل إنّها لم تبد كثيرًا من الغبطة أو الانشراح حتّى عندما رفع عليّ كأسه نخب محكمة الشغل التي اعترفت له أخيرًا بحقه في منحة التعويض عن أضرار حادث الشغل التي ظلّ يطالب بها لما يزيد عن ثلاث سنوات، وقد ساهمت هي نفسها في تحرير العديد من رسائل الشكايات والاعتراض على الأحكام الأوليّة الصادرة في تلك القضية! وبعد أن ارتشفت كأسها بمثل كما لو كانت مرغمة على ذلك إرغامًا استأذنت بالانصراف لأنّ لها مواعيد عمل مهمّة وفي ساعة مبكرة في يوم الغد. تململت فطيمة أيضًا كما لو كانت تهتمّ بالنهوض هي الأخرى، وبدأت علامات التوتر ترتسم على وجه عليّ. ولاحظنا ذلك جميعًا فأقنعناها بالبقاء وألّحت فرنسواز بالذات على ذلك الأمر قائلة لها إنه ليس هناك من مبرّر كي تقطع

سهرتها الآن وأن لديها على أية حال مفتاحها الخاص ويمكنها الدخول والخروج في أية ساعة من الليل والنهار.

اصطحبت فرنسواز إلى محطة المترو، لا لأنها في حاجة لتلك المرافقة في شارع حافل بالمآزة طوال الليل والنهار، بل لأنها أردت أن أدع علي على انفراد مع فطيمة ولو لفترة وجيزة من الزمن. في طريقنا إلى محطة المترو قالت لي فرنسواز إنها لا تستطيع أن تفهم هذا السلوك الغريب لعلتي، عفويته الصبانية المبالغ فيها، تهوره وعدم قدرته على التحكم في ما في جيبه مؤكدة لي أنه سيعيش ليومين أو ثلاثة أيام مثل أمير ينفق خلالها كل المبلغ الذي حصل عليه بعد سنوات من الصراع والعناء، وبعدها سيجد نفسه مفلسًا من جديد لا يقدر حتى على شراء علبه من السجائر، وأنه رجل مهتز مثل مراهق، غير ناضج. مراهق، مراهق تتقاذفه الانفعالات وقد تودي به في يوم من الأيام إلى أعمال طائشة وخطيرة.

تركتُ فرنسواز تفرغ شحنة هواجسها ومخاوفها وانتقاداتها، وأحيانًا كنت أحاول تهدئتها وطمأنتها بكلام عمومي مفاده أنّ علي أكثر فطنة مما تتصوّر، وأنه وإن كان اندفاعيًا وفوضويًا فهو ذو فهم ثاقب وذكاء حاد، لكن كل ما ينقصه هو علاقة تشده قليلا إلى الأرض، امرأة تملأ قليلا فراغات روحه وتسدّ عليه منافذ القلق والاضطراب.

- لكنّه لا يفعل شيئًا من أجل ذلك! قالت فرنسواز فجأة وبنبرة حادة كما لو أنّ شيئًا قد قرصها في جوفها. ثم عدلت قليلا من نبرتها ومن حدة تلك الإجابة مضيئة: أعني أنّه لا يمكن أن تحصل له مثل هذه العلاقة وهو يعيش على هذا النمط الفوضوي وهذه الوتيرة الجنونية.

- لكن، ماذا فعلتِ أنتِ كي تسهلي عليه المرور إلى نمط ووتيرة آخرين؟

- أنا؟ ولم أنا بالذات؟ أنا..فعلت ما بوسعي، أنت تعرف ذلك، وعقبة كذلك.

- لا، أنا لا أعرف شيئاً... أم تراك تعنين زيارتك له، ونصائحك، وكتابة الرسائل الرسمية؟

- وماذا تراني أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك؟ بل أضف أيضاً غسل ملبسه، وتنظيف وترتيب بيته بين الحين والآخر عندما تغدو الفوضى باعثة على الجنون.

- لكن ألا تشعرين بشيء آخر غير الرأفة تجاه عليّ؟ شيء آخر قد يجعلك أكثر نجاعة في مساعدته؟

- لا...لا أفهم ما الذي تقصده. عليّ أن أسرع الآن كي لا أفوت القطار الأخير.

وهبطت الدرج مسرعة كما لو كانت تريد الهروب من شيء مخيف طلع لها من كلماتي الأخيرة.

عندما عدت إلى المقهى كان علي وفطيمة جالسين في صمت. يدخنان وينظران إلى الشارع في شرود.

هل تخصصا؟ هل فاتحها عليّ بشيء؟

كانت فطيمة مرحة طوال العشاء. لكن خلال السهرة، وبالتحديد بعد خروجنا من السينما بدأ مزحها يخف شيئاً ما، لكنها لم تكن تبدي شيئاً من كآبة أو تجهم. فقط كانت بين الحين والحين تسرح بعيداً كما لو كان ذلك يحدث في غفلة منها. عندما تفاجئ نفسها متلبسة بالشرود تلتفت

إلينا فجأة وتبتسم، كما لو كانت تعتذر بصمت. لكنها الآن غدت كثيبة بوضوح.

ابتسمت فطيمة عندما دخلت. ابتسامة حزينة لها تضاريس ابتسامة مجاملة، أو اعتذار كما لو كانت هي التي عادت أخيراً بعد فترة من الغياب. أما علي فكان يبدو كما لو أنه لم يلاحظ عودتي البتة، يتلهى بدفع كأسه على الطاولة يمينًا وشمالاً مثل لاعب شطرنج يتردد في تحريك بيدق على الرقعة، ينظر إلى الشارع في صمت وينفث الدخان دفعات متتالية من شقّ فمه. عندما وقع رماد السيجارة على جاكيتة الأنيقة استيقظ من غفوته. نفض الرماد عن الجاكيت بحركة من إصبعه (الوسطى) ثم أطفأ السيجارة ونظر إليّ بنصف عين: ذهبت الراهبة؟ إنها لا تجيد سوى تنغيص البهجة على الآخرين؟ هل هذه هي رسالة ديانتها؟ يابسة مثل الحطبة، جافة ليس في جسمها كلة قطرة واحدة من الدم... لا شيء غير كلام الإنجيل. مثل عقبة ذلك المتمزمت الآخر. كلكم هكذا. أنت أيضًا مثلهما في بعض الأحيان. هل حملكم الله وملائكته أو شياطينه بمهمة نشر رسالة البؤس والكآبة على الأرض؟ لا تستطيع أن تفرح ولا تعرف سوى تنغيص فرح الناس. يا سيدي هي لديها مسيح قتله لها اليهود، أو صلب بسبب خطاياها، وأنا مالي؟ لا صلب من أجلي أحد، ولا حملت خطاياي أحداً على الصليب؟

فطيمة صامتة. كما لو كانت تتهياً لاندلاع عاصفة باتت شبه متأكدة.

- علي! يكفي من الهديان الفارغ. من متا يريد أن يحول بهجة السهرة إلى دمار؟ أنت تعرف فرنسواز، إنها لا تستطيع السهر وقد فعلت ما بوسعها لمجاملتنا والبقاء معنا حتى هذه الساعة. ماذا تريد منها أكثر؟ أما نحن فما زلنا معك، ومستعدون فوق ذلك لمواصلة السهرة معك حتى

نقع على وجوهنا من التعب، إن لم تعكرها طبعاً بمزاجك القاتم هذا.  
أليس كذلك يا فطيمة؟

- عليّ يحب يدايز. قالت فطيمة ولم تضيف شيئاً.

- عليّ يحبّ يدايز؟ لا يا سيّدتني، عليّ يحبّ يفرح ويتمتّع بما تمنحه لنا الحياة، وهؤلاء لا يفوتون فرصة كي ينغصوا عليه فرحته. تلك الراهبة إنما ذهبت فقط كي تقول لي بصفة غير مباشرة: يكفي! إنك تسرف في المرح! لا أكثر ولا أقل. أنا أعرفها أكثر منكما.

- طيب، وأنتما، هل تخاصمتما خلال غيابي؟ قلت ملتفتاً إلى فطيمة.

- لا، قالت فطيمة.

- بلى! أجاب عليّ.

- حرام عليك يا عليّ. كيفاش تدايزنا؟ هل قلت لك شيئاً؟

- بالضبط، لم تقولي شيئاً، فتخاصمنا بصمت. بل أنتِ التي تخاصمتِ معي بصمت، أما أنا فكنت طوال الوقت أنتظر منك كلمة.. أن تقولي أيّ شيء، أن تغضبي، أو تستنكري أو تعلّقي بشيء. لكنك لم تفعلي.

- شوف آ سيدي راهو باغي يدايز بأيّ ثمن! إذا قلنا شيء تخاصمنا معه، وإذا لم نقل شيئاً تخاصمنا معه أيضاً... آش نديرو معاه آ سيدي؟

- جرسون، شامبانيا رجاء!

ثم التفت إلينا وابتسم: سنتراضي الآن. عندما نشرب شامبانيا لا نتخاصم. أليس كذلك يا فطيمة؟ سنشرب الآن نخب الذين لا يتخاصمون أبداً، اللي ما يتدايزوش قاع، ونخب الذين لا يقولون ماذا

يريدون، والذين يقولون ما لا يريدون، والذين يريدون ما لا يقولون، وكلّ الغامضين والمترددين والممتلكين وغير الواثقين من شيء. هكذا كي نغرق ترددهم وتلكؤهم وغموضهم في الشمبانيا، وسنرى مالذي سيحصل بعدها.

بعد أن أفرغنا زجاجة الشمبانيا الثانية تمشينا في بولفار مونبارناس ثم بولفار راسبيل حتى سان جرمان. كان الهواء جميلا صافيا ومنعشا بعد يوم من الحرارة غير المعهودة والشوارع شبه خالية وصامتة، وكانت فطيمة تبدو كما لو أنها استعادت مرحها فانطلقت تغني بصوت عذب دقيق لكنه مترع بشيء من الحزن الشفاف؛ أغنية لإيديت بياف:

نبرة متوجعة متخللة بنوع من التهكم، أو التشفي.

*Non Jhonny, t' es pas un ange*<sup>(١)</sup> ممدة للحروف مرسله صوتها في

عندما بلغنا ساحة سان جيرمان وكنا نهم بدخول أول بار وجدنا مفتوحا في تلك الساعة قررت فطيمة العودة إلى البيت، وأصرت أن تذهب وحدها.

أصرت على العودة وحدها كي لا تحرمننا من مواصلة سهرتنا، وأصرت علي بدوره على أن نرافقها لكنها رفضت مدعية أنها فعلا بحاجة لتلك الرحلة الليلية وحدها في سيارة تاكسي كي تتمكن من ترتيب بعض الأشياء في ذهنها، ورجتنا بمودة أن نتيح لها مثل تلك الفرصة النادرة. وافقنا.

- هل فاتحتها في شيء؟ سألت علي متلهفا لمجرد أن وجدنا نفسنا وحدها.

(١) كلاً، لست ملاكا يا جوني.



- لم أستطع. قال بشيء من الامتعاض والمرارة.

- لقد أطلت الحديث مع فرنسواز عمدا كي أترك لك فرصة للاختلاء  
بفطيمة. لماذا لم تفعل؟

- لمحت لها بأشياء، أردت أن أقول لها إنني أشعر بسعادة غير  
معهودة منذ تعرّفت عليها، وقلت لها إنني بدأت أفكر في العودة إلى  
العمل وتهئية نفسي للاستقرار، وأن شيئاً ما بدأ يملأ حياتي بمعنى  
جديد. لكنني لم أستطع أن أمضي أكثر من هذا الحد. أردت أن أفتح لها  
مجالاً كي تعبر هي أيضاً عن شيء ما قد يكون مشجعاً. لكنها ظلت  
مغلقة، ولم تردّ على كلامي إلا بكلمات غامضة وعمومية من نوع:  
الحياة تستأهل أن يفعل المرء شيئاً من حين لآخر لجعلها مستساغة وأكثر  
بهجة، ومن لا يفعل ذلك فهو ليس جديراً بها... ثم صمتت وانغلقت  
من جديد وبقينا على تلك الحالة التي وجدتنا عليها عندما عدت إلى  
المقهى. صحيح أنني لم أكن واضحاً بما فيه الكفاية، لكنها ذكية  
وحساسة بما فيه الكفاية كي يمكنها أن تدرك الفحوى الخفي لكلامي،  
أليس كذلك؟

الحياة تستأهل! إيه طيب، وبعد؟ الحياة! الحياة! كلام فارغ لواحد  
يريد أن يستهزئ، أو يراوغ، أو لا أدري ماذا! وإلا فما معنى الحياة  
تستأهل؟ أية حياة؟ أأستأهل أنا الذي أستأهل؟ أليست هي التي تستأهل؟  
لماذا هذا الكلام الفضفاض عن الحياة؟ فلتذهب إلى الجحيم إذن!

- لكنك تحبها وتريدها، أليس كذلك؟

- لا أدري.

- كيف لا تدري؟ ألم تكن طوال النهار تهذي بحبك لها؟ ألم تكن  
مقرا العزم على مفاتها وطلب يدها دفعة واحدة؟

- يا أخي قلت لك لا أدري، يعني لا أدري. هل هذه أيضاً مشكلة  
ستجعل لي منها جدالاً فلسفياً؟

\*

بعد يومين وجدت علي جالسا وحيداً في المقهى المحاذي لبيته. كان  
متوترًا وحزينًا حزنا ثقيلا. لاحظت احمرار عينيه وتورّما طفيفًا. هل كان  
بيكي؟

- ما لك، علي؟

- لا شيء.

ثم صمت لبضع دقائق.

الجوّ ثقيل من حولنا. البار خال من الحرفاء سوى واحد كان يلعب  
الفليبير ويحدث بتلك الآلة الالكترونية طقطقات حادة تدقّ صمت علي  
مثل المطرقة...

فجأة وضع رأسه بين كفيه وشهق بالبكاء مردّدا بين الشهقات  
والغصص: فطيمة.. فطيمة...

- ما لها؟ ما الذي حدث لها؟

- سافرت.

- متى؟ وإلى أين؟

- إلى أين؟ إلى أين؟ إلى الجزائر. قرّرت فجأة أن تعود إلى هناك.  
أصرت على أن لا يرافقها أحد إلى المطار، ولا حتى فرنسواز. قالت  
إنها تكره طقوس الوداع. هذه رسالة تركتها لنا عند فرنسواز.

العزیزان عین وعین،

معدرة عن هذا الرحيل المفاجئ. لقد فكّرت في الأمر ملياً خلال الأيام الأخيرة ووجدت أنه من الأفضل لي أن أعود إلى الجزائر كي لا أضيع سنة أو سنتين في انتظار أن يتمّ قبولي بالجامعة هنا. المسألة معقدة أكثر ممّا كنت أعتقد. إنّه الحلّ الأكثر أماناً. لست مغامرة بما فيه الكفاية، ولا أنا شجاعة. أرجو أن تتفهّما هذا الرحيل المفاجئ. خفت أن أتردّد إن فاتحتكما في الأمر وناقشناه معاً، أو أن ترتخي صرامة قراري أمام ما تحدّثه طقوس الوداع من ضعف.

تحياتي وقبلاتي، وشكراً على الأوقات الممتعة التي قضيتها معكما.

فطيمة

## كل شيء في الماء؟

من وراء زجاج الواجهة الذي كان مبرقعا ببقايا قطرات المطر التي كفت عن النزول قبل بضع دقائق، كانت ملامحه غائمة، فقط شارباه الكشان يبرزان مقطعين لكنهما ثابتان مثل لمسة فرشاة فوق لوحة لم تخرج بعد من تحت الخلفية الرمادية التي وضعها الرسام. نط كعادته وهو يراني ألج عتبة المقهى، لكن شيئاً في تقاسيم وجهه، كما في هياته وتقوس كتفيه، كان يدل على أن المولدي اليوم، وعلى غير عادته، يبدو مثقلاً بشيء ما يجعله أقل خفة ومرحاً.

- مولدي، شببك خويا ماكش قد بغضك اليوم؟

- لا، حتى شي. سرحت شوية، لا أكثر ولا أقل.

- وين؟ في البر، أم في البحر؟

- تريد الحقيقة؟ لا في البر ولا في البحر، في شيء كأنه بينهما.

باريس لم تعد باريس، يقول متأقفاً. مرة يتذمر من تفاهة الفرنسيين القادمين على باريس من الآفاق، ومرة يشتم المظهر الكريه للمهاجرين الأجانب «المتسللين بين الأزقة الخربة بهيأة كلاب مشردة». يشتم البورجوازية الأوروبية التي حولت المدن بجشعها وتكالبها على مراكمة فائض القيمة إلى مقابر للأحياء وغابات إسمنت بلا روح. يدعك ويدوس بقدميه نظريات ريكاردو وآدم سميث وكاينز ويمرغ مقولات

رايمون آرون وجون فوراستيه عن التقدم والرفاه في الأحوال. ثم يصمت طويلاً. فواصل صمت لم أعهداها في لقاءاتي به سابقاً. - في البحر يذهب يقينك إلى الجحيم، قال لي، كما لو كان يخاطب نفسه في الحقيقة وهو ينظر بعيداً عبر زجاج النافذة، أبعد من الطرف الآخر لساحة السوربون، أبعد من البناية المقابلة، أبعد من سان ميشال ومن الطرف الأقصى لباريس. يكذب من يدعي أنه رأى شيئاً في عرض البحر. ليس هناك سوى هوة سوداء لا نهاية لها. هناك الشك. الشك وحده. في البحر لا سند لك. هناك من يذهب في رحلة بحرية طويلة ليفكر، أو ليكتب! قد يكون. أما أنا فقد كنت كتلة من الفراغ. لم أستطع أن أفكر في شيء. حاولت مرّات عديدة، لكنني كنت أرتطم دومًا بذلك الفراغ الأسود. في البحر ليست هناك أفكار. لا أرض ولا سماء. جلست مرّات على الجسر ليلاً وشرعت أحاول عدّ النجوم. هل يمكن عدّ النجوم؟ وأسماك البحر؟ قالوا لنا إننا نعبر المحيط الهندي. لم يكن ذلك ليعني لي أي شيء. يبدو أنني نسيت حتى الجغرافيا. هناك الماء؛ ماء. ماء... حتى تنسى أنه ماء. ننزوي إلى الحجرات السفلية، نلعب الورق ونسكر ونهذي ونتخاصم، لكننا كنا كلاً بمفرده. هناك طبعاً شيء من التقارب شبيه بنوع من الوّد في بعض الأحيان، نوع من التواطؤ فقط. تواطؤ على كذبة مشتركة نحاول جميعاً أن نصدّقها؛ أن نصدّق بأنّ الباخرة تتحرّك وأنّ السرعة شيء موجود بالفعل، وأنها ذات معنى وهدف: أننا سنصل. لا بدّ أن يغدو الوصول شيئاً شبيهاً بإيمان أعمى - إيمان عجائز لا شيء يبرزه غير الإيمان؛ لأنّ آخرين، هنا، الآن، وأمّس، ومنذ مئات آلاف السنين ما انفكوا يركبون البحر ثم يصلون لكنهم جميعاً يعلمون أنّ هناك سندباداً واحداً هو الذي ينجو دومًا من الهلاك عندما ينقلب البحر على راكميه. وكلّ من ركب البحر يحلم أنه

هو ذلك السندباد. الأنانية قابعة في الظل، لكنها تطهى على نار هادئة. في البحر هناك الوحدة المطلقة. عندما رسونا في بومباي وغادرنا الباخرة لبضع ساعات بدا لي كأنني قادم إلى كوكب غريب تتحرك فوقه كائنات لا تذكّرني بشيء. بعد الكأس الثالثة أو الرابعة بدأت أدرك أنّ تلك الفتيات المزقزقات من حولنا: *Hallo Sir! Do you need something Sir!* كنّ يعرضن علينا أن نمزح معهنّ ونداعبهنّ ونجلسهنّ في حجرنا. يتحرك الإدراك، وكذلك الرغبات في الداخل مثل انسراب الحرارة في جسم قادم من الصقيع. في بومباي تذكّرت باريس لأول مرّة، لكنها بدت لي بعيدة في الزمن. قرونًا عديدة إلى الوراء. في بومباي ضحكت من باريس ومن كلّ أعمال الطائشة. تهاوت كلّ يقينياتي وثوابتي القديمة، بل يبدو أنني هناك قد تفتنت إلى فقدانها كما لو أنها وقعت متي في مياه المحيط في غفلة مني. في بومباي انتبهت لذلك. شعرت بشيء من الذعر في البداية.

عندما تعود إلى الأرض بعد رحلة طويلة في فراغ المحيط تكون فعلا قد اغتسلت. هكذا شعرت بنفسي وأنا أدخل باريس بعد رحلتي هذه: صافي الذهن، لكنني غريب عن كل الأشياء من حولي. كلّ الأشياء بدت لي كما لو أنّها هي الخارجة للتوّ من تحت الماء، لكنه ماء فيضانات، موحل كدير، أو كأنّها خلقت للتوّ، قبل لحظات قليلة ولم تجد بعد وقتًا لكي تتشكل في هيئات ثابتة وواضحة. أحيانا أشعر بها ثقيلة، ممتلئة حدّ الانفجار، مشحونة بكثير من الزوائد وأشياء لا لزوم لها. يبدو لك أنّك تعرف هذه المدينة ولا تعرفها؛ أليفة لديك وغريبة في نفس الوقت. جديدة وكدرّة في الآن نفسه. إمّا أن تعدّل رأسك ومشاعرك عليها، أو أن تدخل في مصادمة معها، تحاول تعديلها على فراغك الداخلي، تغسلها، تفركها، تلمعها. هكذا وجدّني أسير في الشوارع

وأرى إلى حياتي الماضية مثل لباس قديم نسيته هنا منذ عدة سنوات؛  
باهت، مدعوك، عطن. لم يعد يتسع لي. كأنتي انتفخت في المياه فلم  
تعد المدينة تتسع لي.

في البحر ألقيت بكلّ قناعاتي القديمة. اغتسلت. والآن؟ ما العمل  
الآن؟ ذلك ما كنت أفكر فيه عند قدومك.

\*

وراء الرجل الذي ولج قاعة الاستقبال كان جسد فتاة يتبعه كما لو  
كان يتسلل متخفياً بجسده. أكيد أنها واحدة جديدة، لأنّ اللاتي نعرفهنّ  
ويعرفننا يدخلن هنّ أيضاً متسللات وراء حرفائهنّ، لكنهن يملن عادة  
برؤوسهنّ من وراء الحريف ويحيين بإشارة أو حركة ما. تلك هي  
الطريقة المتفق عليها بغية التستر. لكنّ هذه لم تطلّ برأسها ولم توميّ.  
إنّها بالتأكيد واحدة جديدة. عندما رفعت رأسي عن دفتر التسجيل بعد أن  
تثبتّ في المربعات الخاوية التي تشير إلى الغرف الشاغرة، رأيتها  
تنسحب باتجاه الباب من وراء ظهر حريفها، ثمّ فتحت الباب وانزلقت  
إلى الخارج كالقارّ من شيء مفزع. أظنّ أنّي عرفتها بالرغم من أنّي لم  
أجد وقتاً كافياً للنظر إلى وجهها. قفزت خارجاً وراءها وتركت ذلك  
الرجل الغريب يقف مندهشاً لا يدري ما الذي كان يجري من حوله. لا  
بأس، فليندهش أو ليذهب إلى الجحيم، فقد تسلمت منه أجرة الغرفة  
ولن ينصرف الآن. رأيتها وقد ابتعدت حوالي عشرة أمتار، تسير بخطى  
حثيثة، تكاد تركض؛ هاربة فعلاً! ناديتها: جوزيفين! جوزيفين!  
وركضت وراءها. أمسكت بها من ذراعها فالتفتت دون أن تتوقّف:  
دعني. ماذا تريد منّي؟ هل تعرفني؟

- جوزيفين، كفي عن هذه البلادة وعودي حالاً، الرجل ينتظرك. لن

أدعك تذهيبين. أنت تعملين، وأنا أيضًا أعمل، وكلّ منا حرّ في ما يفعل بحياته. عودي إذن، إنّه ينتظرك. ثمّ تركت يدها وعدت إلى الفندق مسرعًا.

بعد أقلّ من ربع ساعة نزل الرجل وحده من المصعد الكهربائي وغادر محيّيًا بشيء من الارتباك والحرص مثل أغلب الذين يأتون مع المومسات. ربع ساعة كانت بالنسبة لي أكثر من خمس ساعات من الانتظار. لم أكن قادرًا على الجلوس، أذرع قاعة الاستقبال بعصبية. إنها هي! جوزيفين أصبحت محترفة. ضحكت عليّ وعادت إلى رشيد بعد اختفائها من بيت فرنسواز؟ كانت فرنسواز على حقّ إذن! ثبتت صحة تحليلها. المهمّ أنها ضحكت عليّ، العاهرة!

سمعت خطوات تنزل الدرج. عدت إلى مقعدي وراء مبسط الاستقبال وتظاهرت بتصفّح جريدة.

- تريد أن تعمل؟ وأن تكسب من وراء قهبي؟ خذ!

رمت بورقة الخمسين فرنكا على وجهي تقريبًا وخرجت ترفس أرضية القاعة بكعبي نعلها بعنف. ارتعشت، اضطربت، هممت بالوقوف والخروج وراءها، لكن رجليّ لم تستجيبا. ركلت ورقة الخمسين فرنكًا بقدمي، نهضت، تمشيت بعصبية جيئة وذهابًا داخل بهو الاستقبال، دحّنت، فتحت زجاجة بييرة، وواحدة ثانية، ثمّ التقطت الورقة النقدية، وضعتها في جيبي وعدت إلى الجلوس.

بعد يومين، وفي حوالي منتصف الليل دخلت. لكنها وحدها هذه المرّة. وقفت أمام المبسط وفتحت حقيبتها لتخرج منها زجاجة شمبانيا.

- معذرة عن سلوكي المجنون أول أمس. ثمّ مدّت يدها لمصافحتي. مددت يدي بحركة آلية، وكان شيء ما ينتفض في صدري والدم يصعد



الآن بغزارة وسرعة إلى رأسي، أشعر بحرارة تغمرنني وشيء من اصطكاك في الركبتين.

- جوزيفين!

- هل تسمح لي أن أجلس قليلاً؟

أشرت إلى المطبخ.

- ضع الزجاجاة في الثلاجة، قالت وهي تسحب كرسيًا وتجلس.

كأنني ما زلت لم أصدق. بقينا صامتين بضع دقائق. وجدنا مهرباً في إشعال سيجارتين، ورحنا نسحب الأنفاس بصمت. ثم غدا الصمت أكثر من ثقيل. شيء محرج. كنت أتعثّر في تخميناتي باحثاً عن شيء يمكن أن يقال في مثل تلك اللحظة، ولم أجد شيئاً.

- عادل! نطقت جوزيفين أخيراً وهي تسحق نصف سيجارتها في المنفضة وعيناها مركزتان على حركة إصبعيها وهما يبالغان في سحق ما لم يعد يتطلب أي سحق. أريد أن أشرح لك المسألة في كلمتين. كان عليّ أن أختار بين الخراء والكافيار كما قالت لي تلك العاهرة، أتذكر؟ اخترت الكافيار مع قليل من الخراء من حين لآخر. هذا كلّ ما في الأمر. لقد كنت فعلاً لطيفاً وودوداً، لكنني لم أستطع ... كيف أفسّر لك ذلك؟ كنت أعاف نفسي في ذلك الحين، شيء شبيه بالقرف من نفسي هو الذي دفعني إلى الهروب. أردت أن أجد طريقي، غادرت باريس إلى سترازبورغ، ثم إلى ليل، ليون، تولوز، نيس. رحلة طويلة بالأوتوستوب تعلمت خلالها أنني لن أحصل على شيء دون أن أقدم جسدي مقابلاً لذلك. سائقو الشاحنات الذين يلتقطونني في الطريق يعرفون جيداً الفتيات اللاتي في مثل وضعي، لا مال، لا بيت، لا أكل. قانون اللعبة واضح. حيثما ذهب ارتطمت بالقانون نفسه، اللعبة ذاتها. أخيراً قلت

لنفسى بما أن الأمر هكذا، فلاشتغل إذن وأكسب المال من ذلك بدلا من أن أظلّ أمنح جسدي مقابل رحلة على متن شاحنة وعشاء في مطعم من مطاعم الطريق السريعة. عدت إلى باريس. عدت إلى رشيد، لأنه لا يمكن لفتاة أن تقف في الشارع وتعمل هكذا لحسابها الخاص، كما لو أن الشوارع والدنيا ملك مشاع لها. هذه هي كلّ القصة. أرجو أن تفهمني، وحتى إن كنت تحتقرنى أن تغفر لي.

فتحنا زجاجة الشمبانيا لنختم بها على المصالحة، أو على توضيح علاقتنا بما كانت جوزيفين تعتقد أنه كاف لتوضيحها. ثم رجتني أن أتفهم موقفها إن هي لم تعد إلى الفندق مرة أخرى، ربما تأتي كزائرة من حين لآخر، لكن كمومس أبداً. هناك فنادق أخرى عديدة، لا أريد أن أشعر بالحرَج في كلّ مرة أدخل فيها أمامك مع حريف، كما لا أريد أن يدخل جيبك شيء من مردود عملي بهذه الطريقة الفجة. مع أنك فعلتَ معي في المرة الماضية مثل ما فعله معي رشيد في البداية. لا تنس ذلك.

قالت إنها تحاول أن تجمع مبلغا كافيا من المال كي تشتري في يوم ما مقهى أو مطعمًا أو تفتح دكانا في مكان ما وتنقطع نهائياً عن هذا العمل. نفس الكلام الذي سمعته من مومسات أخريات كثيرات، بعضهن يرددنه منذ عشرين سنة وأكثر. حكّت عن مشاريع كثيرة تتزاحم في رأسها أغلبها ممّا يمكن اعتباره مجرد أحلام وخيالات كانت تشغل بها فكرها وتؤثت بها أفق المستقبل، وربما لكي تجعل حياتها الحالية أقلّ مرارة وأكثر قابلية للتحمّل. قالت وهي تمازحني: عندما يصبح لدي ما يكفي من المال سأغدو شريفة، وعندها يمكننا أن نتزوج. هل تقبل بالزواج من واحدة قضت سنوات في ممارسة العهر. لا أعني العهر العادي الذي تمارسه كلّ النساء، بل مومسا محترفة؟ هل تستطيع ذلك؟

لا أدري كيف انفلتت كلّ مشاعري المكبوتة دفعة واحدة مثل كيس انفتح فجأة وانفرت محتواه. يبدو أنني تحوّلت فجأة إلى قدّيس مشبع بالشفقة والرحمة والتسامح، ومشاعر أخرى غامضة لزجة من نوع: من لم يخطئ منكم فليرمها بحجرا! ولأنني غالبًا ما كنت أخلط بين صفات التقدّمي ودور المخلّص، كدت أرتمي في أحضانها، أذرف أنا، لا هي، دموع التوبة وأقسم لها أيمان الوفاء. ولعلّني كنت على وشك أن أطلب يدها في تلك اللحظة لولا أنّها لم تعد إلى شيء من الجدّ وهي تقول لي: عادل، هذه كلّها خرافات، يمكن أن تكون موضوعًا لفلم عاطفيّ مثاليّ رقيق ولطيف، لكنّ الحياة ليست هكذا. إنسّ إذن هذا المزاج أرجوك. أنت أمامك الحياة بكلّيتها، أمّا أنا فقط دعكت جزءاً غير قليل من حياتي، ومهما فعلت لن أعيد البريق إلى ذلك الجزء، وخاصةً أمام واحد مثلك.

عندما تعانقنا طويلا وهي توذّعني عرفت أنّها لن تعود ثانية.

لا أظنّ أنّني كنت أحبّ جوزيفين. وكنت مع ذلك أحبّها. يعني أنني في تلك اللحظة كنت أحبّها، وكنت مقتنعا أنّني لم أكن أحبّ غيرها طوال السنوات الأربع التي غابت عني خلالها. نسيت من أجلها أنّ ماري، جريت مثل الكلب عبر شوارع باريس كلّها متشمّما رائحتها في محطّات المترو، في الحدائق، في محطّات الأرتال، في المقاهي والبارات. نسيت أنّ أنّ ماري انفصلت عني، أو فصلتني عنها، وكذلك بريجيت، وجميلة الجزائرية التي غدت تمازحني بلقب القدّيس عادل. نسيت مشاكل السكن والنوم في مدارج العمارات والسهر ليلا في محطّات المترو مع الكلوشارات تفاديا للبرد. لم يكن في رأسي غيرها هي. جوزيفين كانت فرصتي على ما يبدو، فرصتي الأولى والأخيرة لإتيان عمل يستحقّ الذكر - هكذا بدا لنفسي العقيمة آنذاك - ؛ نوع من

التحدّي كنت بحاجة إليه. تحدّي ماذا؟ ومن؟ لا أدري. لعله رشيد، أعني ضربة الرأس، أو لعلها تلك الجملة الكريهة «لا تشرّد هكذا مثل العجل يا ضايح، يا خامل، يا بارد». كان عليّ دين قديم لنفسي لم أسدّه بعد. وكانت جوزيفين، جوزيفين وحدها، لا الثورة ولا الدراسة ولا أيّ شيء آخر، جوزيفين هي فرصتي لتسديد ذلك الدّين. كيف أقبل بهذه الهزيمة إذن؟ لا بدّ من فعلة كبيرة، درامية، شبه بطوليّة، مجنونة خرقاء. لكن ماذا؟ وكيف؟

\*

## ضربة رأس!

عندما دخلت حانة موغادور وأنا في شبه غيبوبة تقريباً، وأمسكت بها من ذراعها ودفعتها باتجاه الباب ثم حشرتها غصباً داخل سيارة التاكسي التي كانت تنتظر، لم أكن أفكر في شيء في تلك اللحظة. كانت هناك آلة خفية قد انطلقت في الاشتغال بصفة دقيقة منظمة منذ حوالي ساعتين؛ منذ هاتف أحد أصدقائي توصلت إليه أن يأتي حالاً ليعوّضني في الفندق لساعتين أو ثلاث ساعات بسبب شأن مهم جداً يتطلب مني الخروج، ثم الطريقة التي مشطت بها كل الشوارع والأزقة المجاورة للفندق من بولفار هوسمان مروراً بشوارع لافايات حتى محطة سان لازار؛ طريقة منهجية دقيقة لا تترك سوى مجال ضيق جداً لاحتمال تفويت رؤية الشخص الذي نبحث عنه. كل ذلك دون تفكير منظم بوعي. كل شيء كان يحدث أو يتدفق من داخلي بطريقة لا واعية، كما لو كنت في غيبوبة. لأنني لو كنت واعياً حقاً وفكرت لعشر ثانية فقط لما تجرأت على مثل تلك الفعلة الخرقاء التي لم أكن أملك لها ما يكفي لا من القوة الجسدية ولا من الحنكة والتمرس في مثل هذه الأعمال، ولا حتى الشجاعة الكافية في الحقيقة. لو أنني فكرت لعشر ثانية فقط لما تجرأت حتى على مجرد دخول مثل ذلك البار الذي يعج بأرهاب من القوادين والمجرمين واللصوص ومرّوجي المخدرات. لكن لا وعيي هو الذي تسلّم مقاليد الأمور. غصة قديمة متكررة في الحلق منذ سنوات

عديدة هي التي أرادت أن تقذف بمرارتها المترسبة عميقًا في حركة بطولية تحاكي في تهورها وإرادة العنف التي تعتمل فيها عنف رشيد بوراس وأمثاله؛ تحاكيها وتنشد مناطقتها وتحديها.

- ابق مكانك! لا شيء هناك. إنه من عائلتي، لا شيء، سأعود بعد قليل، قالت جوزيفين لآوية عنقها إلى الورا باتجاه الأشخاص الذين تململوا، أو اندفعوا مسرعين ورانا بينما أنا أدفعها بعنف باتجاه سيارة التاكسي الواقفة أمام الباب مباشرة. لم أر بوضوح ما الذي حصل بالضبط، لكنني أذكر بعض الوجوه التي لمحتها بسرعة عند دخولي البار؛ وجوهاً أعرفها كلها تقريبًا لمروري يوميًا أمام ذلك المحل في طريقي إلى الفندق؛ وجوه قاسية الملامح، بعيون متورمة حمر على الدوام، رؤوس ضخمة وأذرع غليظة مزوقة بحرث من الأوشام: ثعابين ومخاطيف مراسي سفن وسلاسل وسهام تخترق قلوبًا. أذكر أن تململا حدث ورائي، وأنتني سمعت صوتًا غليظًا عنيفًا وراء ظهري. ولا أذكر شيئًا آخر. بعد أن اصطفق الباب وتحركت سيارة التاكسي شعرت بحرارة غريبة تخترق جسми كله واصطكاك في الركبتين.

بعد أول منعرج أخذته سيارة التاكسي طلبت جوزيفين من السائق أن يتوقف ففعل. انسحبت إلى الورا وهي تضع إصبعها على صدري: لا تفعلها ثانية! هذه المرة أنقذت مؤخرتك من أصدقائي الذين لا يتحملون مثل هذا المزاح البليد وهذه المسرحية الركيكة وعديمة الذوق التي قمت بها الآن. في المرة القادمة سيكون عليك أن تتدبر أمرك بنفسك. ثم فتحت الباب ونزلت.

والتاكسي على أهبة الانطلاق ضربت جوزيفين على زجاج النافذة. أنزلت الزجاج. كلمة أخيرة: أتدري أنك ستظل في عيني كما كنت دائما

طالباً مهذباً ولطيفاً، لكن ليس أكثر؟ لتظل إذن كما أنت ولتدع عنك هذا الغرور الذي ليس على مقاسك.

انطلقت سيارة التاكسي، وأنا متكور على نفسي في المقعد الخلفي مثل قط مبلل يرتجف برداً.

مالذي كانت تعنيه بقولها إنني سأظل في عينيها طالباً مهذباً ولطيفاً؟ لماذا أصرت على تقول لي هذه الكلمة الأخيرة؟ «...لكن ليس أكثر». ليس أكثر! أية رسالة كانت تريد أن تبلغها لي؟

أتعني بذلك: أقل من الرجل الذي تريده أو تتصوره لنفسها؟ طفل خجول قابع في ظل هذا الأب أو ذاك من كل هؤلاء الذين يعرضون أنفسهم عليّ أولياءً نعمة، حماةً، مرتبين: العرفاوي، علي، رفاق التنظيم الذين يرومون تربيتي جلدًا بحصص النقد والنقد الذاتي، آن ماري التي سعت هي أيضاً بطريقتها الساخرة المستفزة إلى أن تجعل مني الثوري الفوضوي الذي كانت تتمنى أن أصيره (شنطتي قرب الباب: «عفوا! لقد عاد صديقي اليوم من هولندا بعد غياب طويل... أهه!»)، جميلة الجزائرية: راك باش تولي بباص آسي عاديلا! - «حشام؟ مد يدك مع الناس يا ولد بلادي»، يقول لي العرفاوي وهو يدفع بي إلى حلبة المنافسة الساخنة من أجل الإناث. لم أمدّ يدي كما كانوا يفعلون. لم أرفع صوتي وأضرب بعنف على الطاولة. كنت مثل القط الذي يلتقط طعامه مما يقع تحت مائدة الخوان الباذخ، أو يختطف شيئاً ويفر. كان عليّ أن أنتزع حصتي مواجهةً، صداماً ولم أفعل. لذلك عافتني جوزيفين؟ وبحاسة أنثى أدركت اليوم أن هجومي المفتعل لم يكن سوى حركة مسرحية بائسة، حركة قط وليست هجمة أسد.

هذه خبطة رأس ليس مثلها خبطة. ها أنا أعود إلى نقطة البدء، وأنا

لم أسدد بعد ذلك الدين الذي عليّ لنفسي: المبيت الداخلي، الأب الزاجر، العاتب دوما، الساحق باعتداده بنفسه وبنفسه فقط، لسانه الذي لا يرحم؛ الطفل الذي كان يفعل كل ما بوسعه لينال رضاه، يقتلع منه كلمة ثناء، اعترافاً ما، مرةً واحدةً فقط، بأنه يفعل ما بوسعه لكي يكون كما يريد كِبشًا ذكرًا حازًا، لا نعجة بين التعاج. لا الكدمات الزرق تحت العين، ولا الخدوش الأبدية على الرقبة وفوق الجبين، نياشيني الوحيدة التي أخرج بها من جل معاركي، لا شهادة السيزيام، ولا الباكلوريا، ولا دخول الجامعة، ولا الانخراط في أعمال النضال الطلابي والارتقاء في أحضان عمل محفوف بالمخاطر، لا مغامرة الهجرة، مواجهة المجهول، النوم في الشوارع والحدائق العمومية، السرقة من المحلات التجارية، العمل في المصانع ومحطات شحن البضائع وفي المطابخ، لا الأفكار الثورية الجديدة المللعة في سماء باريس، ولا النقاشات الساخنة ومجادلة أساتذة جامعة السوربون في مسائل نظرية معقدة، لا عربدة بارات سان دني والخصومات المتكررة مع أرهاط من سفلة الرعاع الفرنسيين، لا شيء من كل هذا استطاع أن يلوح لي ببارقة نجاح في تسديد ذلك الدين القديم. جوزيفين كانت فرصتي الأولى الحقيقية، وربما الأخيرة لتحقيق ذلك؛ جوزيفين التي خسرتها في أول مباراة صامتة وخفية مع رشيد بوراس.

ضربة رأس أقوى من تلك التي لطختني بها قبل حوالي عشر سنوات

يا رشيد يا ابن القحبة!



## بداية العدّ التنازلي

انقطعت لعدة أشهر عن الذهاب إلى سان دني. لم يكن ذلك بسبب انشغالي بالحجّي الجامعي وجدالاته هذه المرة، فقد شرع حماسي لتلك المجالس في التراخي منذ ما لا يقلّ عن سنة أو أكثر. كنت في مكان عميق من نفسي أستعيد كلام علي وسخريته من هرج أوساط الطلاب والمناضلين السياسيين. هنالك شخص خفيّ قابع في داخلي كان يقلّب في السرّ تلك الجدالات التي كانت تحدث بيننا، وفي السرّ يستعيد تلك المواجهات، لكن بشيء من الهدوء. أنا أعرف أنني أميل بالفطرة إلى مناوشات علي وأحبّ الطابع الساخر والمستهتر لكلّ آرائه، وذلك النمط من العيش والسهرات الصاخبة والمزاحات الداعرة، ونساء بارات سان دني الشعبيّة. فقط وعيي هو الذي يظلّ يمانع ويواجه، أو يكابر، لكن حالما أنسحب وأبتعد عنه تشرع كلماته في الاشتغال في داخلي بصمت، ولا أشعر بعد مدّة إلاّ ببعض تأثيراتها الخفيّة، محتشمة في البداية في شكل تبرّم من الجدالات الفوقيّة وكثرة اللغظ الأديولوجي النظري الجافّ؛ أفكار وأحاديث بلا لحم ولا دم، مثل صوارٍ من البخار منتصبه في خلاء لا يعمره الأحياء. أفكار بطعم الكاغذ، علاوة على كونها تفتقر إلى جانب ذلك إلى أسس فلسفيّة عميقة ترفدها. بدأت أشعر بالملل من عمليّات تفشير الكتب الأديولوجيّة وانحباس تفكيرنا داخل ذلك الأفق الضيق الذي جعلنا نسخر من كلّ الكتب والأفكار التي لا تباركها

الأديولوجيا الماركسية، بل الماركسية اللينينية، بل الماوية حصراً بالنسبة للبعض، والتروتسكية بالنسبة للبعض الآخر. نستهزئ بالمجلات العلمية والدراسات الفلسفية والأدبية، نسخر من الفن، ومن الأساتذة الذين لا يشاركوننا الانحباس داخل المجال الضيق لمنهجنا ورؤيتنا. ذات يوم نظرت حولي فإذا شيء شبيه بالخراب يحيط بي. خرابات متداعية بدت كل تلك الكتب التي قرأتها قبل عشر سنوات وأكثر بلهفة وشغف: رأيتني وأنا أتذكر ذلك الكم الهائل من المؤلفات التي أصبحت تمثل لدينا أكواما من «الهذر البرجوازي» و«الفكر الرجعي»، كما لو كنت أمشي داخل مقبرة، بل لعلّي أنا المقبرة وأنا التائه في خلاء صنغته لنفسي. لم أكن بالرغم من ذلك قد انتهيت إلى قناعة واضحة وثابتة بأنني قد توغلت بعيدا في الخطأ. لكنّ قلّقا ما قد انبثق في داخلي مثل وخز الإبر. قلق وشيء من الخوف بدا طالعا لي من تلك الخرابات المتكادسة من حولي. شكّ ما زال يعتمل بتردد واحتشام، لكنني أحس بتسرّبه ببطء ووثوق إلى كلّ كياني. عدت إلى قراءة بعض الكتب الأدبية غير تلك التي كانت تباركها لنا الأيديولوجيا. في نوع من السرية كانت البداية، وبشعور مزيج من اللذة والخوف كمن يقدم على فعلة شائنة، أو أيّ تجاوز مربك.

عاودتني رغبتني التي نسيته منذ سنوات في الكتابة. كتابة نصّ أدبيّ ما. قصة قصيرة، أو رواية! فجأة اكتشفت أنّ لديّ موضوعا مهمّا، ومن صميم التجربة الواقعية فوق ذلك: علي التومي الذي نسّميه بعلي الفنان. لكن، ماذا سأكتب عنه؟ هل سأكتب أنّه كان عاملا مهاجرا قادما من وسط اجتماعي فقير ومتدهور، ثم ترك المصنع والعمل والعمّال وتحول إلى رسّام؟ أم أقدمه كضحية لتفاعل ملابسات اجتماعية بعينها لا تنتج غير العاهات؟ لكن علي ليس بعاهة، ثمّ إنه صديقي، وأنا لا أعتبره

نموذجاً لفساد العامل، بل إنني معجب بالكثير من أفكاره وسلوكه، وأحياناً ببعض مما يبديه من احتقار تجاه ما يسميه بقطيع البقر الذي يساق إلى العمل ثم العلف والتناسل والنوم في كل يوم. يبدو أن الإديولوجيا ما تزال جاثمة على صدري وعقلي بثقلٍ رصاصي. ضباب يسد الأفق ولا يدع مجالاً للاندفاع. قفص ضيق يضطرب داخله طائر الرغبة بجناحين مخدولين. لكنني كنت الطائر الذي دخل بمحض إرادته إلى القفص. أنا الذي ساهمت بقسط وافر في وضع القضبان. قلت لنفسي: السجين المَجْبَر على سجنه يظلّ خارج زنزانته وهو داخلها، إنه يتخطى بالرغبة والحلم والخيال كلّ القضبان والأبواب والجدران والأسيجة ليمرح في الفضاء الرحب الذي ما زال يحتفظ به في داخله. لكنّ السجين الطوعي معوق؛ وهم الاختيار طواعيةً هو الذي يعوق حركته ويشلّ خياله. لو فُتح لي القفص الآن، ربما لن أستطيع الخروج. لكن لأحاول، إذ أنني بدأت أرى في ما وراء السياج.

هكذا شرعت في كتابة قصة «علي الفنان».

\*

المولدي ألقى بقناعاته في مياه المحيط. اغتسل في البحر وعاد يكرز بأفكار جديدة. أما أنا فلم أركب البحر، ولم أغادر باريس منذ أكثر من ست سنوات. كدت أنسى أن وراء باريس عالمًا موجوداً بالفعل، ويمكن للمرء أن يراه ويلمسه. شيء شبيه بغيوبة طويلة، لذيدة إلى حدّ ما. لكن ها أن أشياء تحدث هنا وهناك حتى داخل هذه الحياة المنغلقة على هذيانها الحالم. رفاق أقصوا من حياتنا، أو بُتروا منا كما لو أننا نحن الذين بُترنا من عضو من جسدنا. عمليّات حزّ متكررة لكلّ واحدة منها مذاق شيء شبيه بمرارة فراق، وأحياناً بنوع من الحداد. بدأنا نكبر على

ما يبدو، والحياة، حتى وهي تسير ببطء داخل هذه البوتقة الضيقة التي أحكمنا إغلاقها على أنفسنا، الحياة التي تستنكف من الفراغ وتملّ التكرار وبرودة الروتين، بدأت تطرح علينا أسئلة جديدة. محيرة أحيانًا. في مواجهتنا لهذه الأسئلة الجديدة بدأنا نتصادم. كل سؤال يحرك الركود الذي نغفو داخله مثل مادة من الجيلاتين تحيط بقطعة من اللحم المعقم، يربكننا، يصدم البعض منا، يثير القلق لدى البعض الآخر وفزعًا لدى عدد غير قليل. هل كان أمرًا صائبًا كل هذا الذي نحن بصدده منذ سنوات؟ ها أنتك بدأت تترنح يا رفيق! قناعاتك تترج. - ألسنا بصدد الحلم داخل علبة مغلقة؟ إنك تشكك في رؤيتنا القائمة على تحليل إديولوجي علمي صارم؛ لكأنك بدأت تتعب يارفيق! - هل كان صحيحًا هذا الإقصاء الصارم الذي أجريناه على الكثير من الأفكار والفلسفات والآداب والفنون التي ختمنا عليها بالشمع الأحمر كنتاجات رجعية ثم رمينا بها في مزبلة التاريخ وانتهينا منها؟ الرفيقة سامية أصبحت تبدي ولعًا بالمسرح والسنما وتريد أن تسمع موسيقى كلاسيكية من حين لآخر. الرفيق محمود زوجها البروليتاري ثوري صلب يستطيع أن يهدم سور الصين بقناعاته الثورية، قنوع متكشف تكفيه وجبة متواضعة من دفاتر ماو تسي تونغ يلحقها بلقمة من مقالات بعض الصحف اليسارية الفرنسية أو صحيفة «أخبار بيكين»، وكلّ ما عدا ذلك فهو مجرد تبذير وترف برجوازي لا فائدة من ورائه. والحق يقال، إنّ الرفيق محمود الذي التقطه التنظيم ذات يوم من أحد أحياء العمّال المهاجرين قد حقق ما يشبه معجزة بتوصله إلى قراءة مثل هذه الأشياء، هو الذي لم يعرف ذهنه حتى ساعة لقائه بالتنظيم غير بعض صفحات الرياضة وقضايا الإجرام في صحيفة تونسية تصل إلى فرنسا بعد ثلاثة أيام من صدورها. سامية المتخرجة لتوها من شعبة الحقوق قد اقترنت به في لحظة وجد

إديولوجيًّا؛ سكرة استبدت بها وهي ترى لأول مرة عاملاً بروليتاريًّا لحمًا ودمًا يقف أمامها ويبدي حماسة ملتهبة للثورة وقلب الدنيا رأسًا على عقب. حماسة لا يمكن أن تتألق بمثل ذلك العنف والتصميم إلا لدى واحد ظلّ لسنوات عديدة من عمره يعمل مثل دابة ولا يرى إلى حرثه اليومي وشقاء منزلته ونعيم الآخرين إلا كقسمة ونصيب ومصير محتوم، ثمّ ما هو يلتقي فجأةً بأناس متعلّمين يقولون له إنّما هي أشياء مدبّرة من قبل أياد وعقول بشرية خبيثة وجشعة، وأنّ أمر تغيير هذا الوضع غير العاديّ ممكن ومتيسّر. بل ويؤكدون له أنّه هو العنصر الفعّال وخالق الحدث والمحرّك الأساسيّ لعجلة التاريخ. كيف لا يتحمّس إذن، ولا يلتهب ويتقدّ ويتألّق في التوقّد والحماسة؟ الفكرة المجرّدة الشبيهة بحلم رومانسي تتوهّج به صفحات الكتب والمنشورات الثورية تغدو حالةً واقعيةً متحقّقة أمام عيني الرفيقة سامية طالبة الحقوق وأصيلة عائلة عريقة في الشراء. إنّهُ حلمها هي، لا كمناضلة يسارية تقدّمية فحسب، بل كفتاة تسكن قلبها ومخيلتها في ما وراء القناعات الثورية أحلام أخرى ورغبات ونزوات لا يخلو منها قلب فتاة. والفتاة سامية جميلة ورقيقة ناعمة بالرغم من بعض مسحات التصلب التي كانت تبرقع بها سحتها كماكياج ضروري لفتاة تريد أن تكون ثورية ومتجاوزة لكلّ الاعتبارات والمقاييس الجماليّة التقليديّة البرجوازيّة؛ تلك الوردة المنكرة في هيئة غيضة مليئة أشواكًا. والرفيق محمود البروليتاري لحمًا ودمًا يتحرّك أمام عينيها بكلّ جسده مثل كتلة ثقيلة، يحرك يديه ويلوح بذراعيه وهو يتكلّم كما لو كان يضرب أو يدفع أشياء ثقيلة؛ يتكلّم ويضحك بصوت مجلجل مدوّ؛ يناقش كما لو كان يخاصم، ويحاجج كما لو كان يقذف منجنيقات من الشنائم. والطالبة الرقيقة تذوب وجدًا - ليس إديولوجيًّا خالصًا - فيما الكتلة البروليتاريّة تقتحم بصخبها الهادر كلّ

خلايا جسدها وتبعث في رأسها بخارًا دسمًا مدوّخًا إلى حدّ ما. لقاؤها الأول به كان في إحدى الأسواق عندما كانت توزع منشور سياسي بصحبة رفيقين آخرين. توقف الرجل ممسكًا بالمنشور في يده لم يقرأه بعد وانطلق الحديث؛ سؤال، جواب، تعليق، وإذا الرجل شعلة من الحماس. تنظر إلى كفيه الغليظتين وقدميه اللتين كانتا ترفسان الأرض مثل حصان يريد الانطلاق، ومنخرية الذين يضطربان بأنفاس قوية مثل نافوخي محرقة. تخيلت تلك الأنفاس بحرارة الجمر، وبدا لها رفيقاها الآخران مثل دميتين من الطين وقد انطفأ الآن كليًا في ظل الكائن البروليتاري الذي يخبط الآن أمامها ويرفس ويعد بفصول قادمة مليئة بالرفس والخبط والصكّ والدهس، وبصيف ملتهب لا يعرف الاعتدال.

تكررت اللقاءات مع البروليتاري الذي كان يفيض حماسًا، يكاد ينفجر. راحت سامية الآن تحاول تهذيب ذلك التوقّد وتشدّبه. فسرت له قوانين الانتاج والربح وفائض القيمة، وقالت له أنت القيمة، وأنت خالق فائض القيمة، وكان فيض في داخله يقول له إنه على استعداد لكي يفيض بكل ما تريد الفرخة الطرية من الفوائض. يرى نفسه يسهو قليلا عن القيمة وفائض القيمة وقوانين الربح والتراكم وهو يرفع هذه القطة المتوتّبة بين ذراعيه، يرمي بها فوق كتفيه وينطلق بها عبر الفجاج. يضع جسمه الصلب وذراعيه وكتفيه تحت تصرف حماسها الثوري الملهب حالما بلهب آخر يصعد من جوف القطة المتوتّبة عندما ستتلوى بين ذراعيه. ذلك هو ما سيتحقق له يوم رأيناه لأول مرة في اجتماع عمومي يرفع قبضته ويرعد والرفيقة تتابع انفجاراته مذهولة تكاد تذوب أمام أعيننا.

تهذبت طباع الرفيق محمود في الأثناء إلى حدّ ما، تأنّق في الهندام والخطاب وأصبح يجيد استعمال الحجّة الإيدولوجيّة ومعالجة الجدل

والمراوغة اللفظية والأساليب الدماغوجية، وهدأت حركات يديه وذراعيه قليلا ولم يعد يستعمل قبضتيه إلا في حالات محدودة عندما تستدعي حاجة التنظيم ذلك لإرهاب خصم غدا مقلقا أو تأديب عنصر قديم مبعّد بدأ يسيء أو يهدّد بالإساءة. بل إنّ الرفيق محمود وهو يتهدّب ويتأقّد قد انفصل حتى عن أعمال المصانع ومشاغل البناء وغدا يكتفي ببعض الأعمال البسيطة التي تعدّ من اختصاصات الطلبة عادة، كحراسة عمارة أو الجلوس في استقبال الفنادق ليومين في الأسبوع. لكن... الموسيقى الكلاسيكية! الأوبرا والمسرح والسنما! ما نفع كلّ هذا؟ وما الغاية منه؟ ألم نقل إنّنا حسمنا في نتاجات الفكر البرجوازي والفنّ البرجوازي الذي يغتذي من فائض قيمة رأس المال ويعكس رؤية الطبقات الرجعية المسيطرة؟ - لكنّ الفنّ فنّ! ستحاول سامية بكثير من العناء ودون جدوى أن تدخل هذه المسألة في دماغ الرفيق محمود. - آ، الفنّ للفنّ؟ يردّ عليها بكثير من الاشمئزاز كما لو كان مجرد النطق بتلك العبارات يلوّث فمه. هكذا يبدأ الفكر البرجوازي بالتسرّب إلى العقول.

- لا بدّ من تكثيف التكوين الإيديولوجي يا رفاق، وإعادة التكوين الإيديولوجي. كان يصيح كمن يستغيث ويستنجد وقد بدأت تعاوده نبرة حماسه الخام الأولى، تلك التي دوّخت سامية ذات سنة بعيدة وفتحت كلّ مسامّ جسدها ورطبّت مواقع جافة في داخلها وحرّكت غدداً كانت غافية فيها. الرفيق محمود يستغيث فعلا وهو يستشعر الآن بغريزة حيوان مهذّب بدايات تبخّر مفعول الوجد الإيديولوجي الذي فتح له في أمسية سعيدة بعيدة قلب الرفيقة وأبواب روضها العاطر. رواسب التفكير البرجوازي لا تمّحي بسهولة. - الرفيقة سامية لم يتمّ تطهيرها إيديولوجياً كما ينبغي. منبتها الطبقي ما يزال راسخاً في أعماقها. ذئب البراري لم يفته أيضاً أنها غدت تبدي شيئاً من ميل غير مريح لرفيق قياديّ ناعم شيئاً

ما، مشدّب الحواف، يعرف كيف يمزج خمرة الإيدولوجية ويخففها؛ ذئب هو أيضاً، لكن من ذئاب الصالونات، تلك التي ترعرعت تحت الأضواء وتعرف كيف تمتص الضوء، تسترقه من الآخرين عندما تقتضي الحاجة وتستدرج تسليط البروجكتورات عليها وحدها دون الآخرين. كيف لا يصرخ محمود إذن ويولول ويستغيث معلناً حالة الفزع والطوارئ؟

حالات مشابهة من التملل راحت تبرز هنا وهناك وتنتشر على ما يبدو. نجيب يرتبط بواحدة تروتسكية! وتلك الفتاة التي إسمها مامية وتدعي أنها فنانة مولعة بالمسرح والسنا وتتحرك داخل أوساط من الفنانين الفرنسيين المائعين، رأوها العديد من المرات تجلس في مقاهي الماريه وتحضر حفلات تدشين معارض الرسم وتشرب شمبانيا، هاهي قد أصبحت تجالس الرفيقة سامية، وربما رافقتها أيضاً إلى عروض مسرحية وسهرات فنانين خليعين. وصابر هذا الشاب القادم للتو من تونس ولا يهذي سوى بمسرح أنطونين آرتو وبيكيت. من هما آرتو وبيكيت؟ لا أثر للالتزام في مسرحهما العبيّ. يحب بريشت أيضاً! لكنه لا يحبّه كرسالة ثورية، بل كمسرح وركح فقط. هذا أيضاً ينبغي الانتباه إليه. يكثر من الاختلاط بالرفاق ويطيل الحديث عن الفن والشكل والجمالية، ويريد تكوين فرقة مسرحية. يقال إنه يجالس المولدي الداعر وحسن المستهتر أيضاً. قال لهم صابر: حسن فيلسوف وليس بمستهتر، وحتى إن كان مستهتراً فذلك من حقّه. إنه رجل يفكر بصفة مستقلة. - يفكر بصفة مستقلة! - ومن هو حتى يسمح لنفسه بالتفكير بصفة مستقلة؟ وماذا يعني التفكير بصفة مستقلة إن لم يكن نزوعاً إلى الفوضوية وإلغاء للمشروع الشامل للتغيير؟ - لكنّه لا يناصركم العداء. إنه يكفي بعزلته، ويفكر. أليس مهماً أن يكون هناك واحد يفكر منعزلاً؟ أحد رفاقنا، لا



أريد أن أذكر إسمه الآن، يضيف محمود، غدا هو أيضاً يكثر من مجالسة هذا الشاب وبصحبة المولدي، ذلك التروتسكي الفوضوي المخزّب. يتحدثون الآن عن بدعة جديدة يسمونها «اليسار الذكي».

آخر خبر: شوهد صابر مع سامية في أحد مقاهي الماريه.

ألم نقل لكم إنه فنان بورجوازي مائع؟

في الفنّ، كما في الفلسفة ليست هناك ميوعة، أجا بهم صابر، هناك الفنّ أولاً وقبل كل شيء.

- وما هو هذا الفنّ؟

- رؤية جماليّة للعالم والإنسان. الفنان يبحث عن حقيقته الخاصّة دون اعتبارات مسبقة ومحدّدة بفكر ما، لكنّه يهفو إلى الجمال المطلق والحقيقة المطلقة. وبما أنّه لن يدركهما فسيظلّ يحترق دوماً بالأسئلة.

- هذر ولغو. ترف برجوازي. العمل الثوري بحاجة إلى يقين أولاً وقبل كلّ شيء وإلاّ تاه في دوامة الأسئلة وإعادة طرح الأسئلة..

- أنا لا أنكر على السياسيّين ضرورة التمتع بشيء من اليقين، لكنّ مهمّة الفنان تختلف عن مهمّة السياسي. على الفنّان أن يكون قلقاً وحذراً ويقظاً على الدوام. لذلك يظلّ الفنّ خالداً في حين تتغير الإيديولوجيات والأفكار والسياسات وتندثر.

كلام أدخل كثيراً من القلق والذعر على الرفاق. خطاب يدعو إلى البعثرة والتخريب. وهو علاوة على ذلك يتمتّع بنوع من البريق الذي يبدو أنه بدأ يمارس على بعض الرفاق شيئاً من السحر وقد يغويهم ويحيد بهم عن الالتزام. هناك مجموعة من الرفاق تحبّ مجالسته وتبدو مفتونة بسحر كلامه الغريب وطبعه الخفيف. خفيف أكثر من اللزوم. هذا الرجل خطير.

أدعى مرة أخرى إلى حصة نقد ونقد ذاتي. الرفاق غير مرتاحين لنشاطاتي المتفرقة والمبعثرة خارجاً عن المراقبة المباشرة للتنظيم. مراقبة فرقة المسرح بصفة خاصة. التحذير من كثرة الاختلاط بهذا الشاب الذي يدعى صابر. منذ ما لا يقل عن سنة لم أقدم تقريراً عن نشاطاتي مع أبناء المهاجرين في الضاحية الجنوبية. يقال إنني صرت أنادم بعضاً من الأولياء أيضاً. - صحيح. - في أي إطار؟ وضمن أي نوع من العلاقات؟ - علاقات ذاتية بحتة! - علاقات ذاتية أيضاً مع شخص يقال إن له علاقات مشبوهة مع ودادية المهاجرين التونسيين التابعة للقنصلية في ضاحية ماسي؟ - صحيح. - اش معناها؟ - معناها أنه ينقل إليهم ما يستطيع أن يحصل عليه من أخبار عني، وينقل لي الكثير من أخبارهم وما يقولونه عني. - وماذا عن التنظيم في هذا كله؟ - ما دخل التنظيم؟ أنا هناك مجرد مواطن تونسي لا غير.

بعد هذا الاستجواب المطول شبت نقدًا ولم أرذ بكلمة واحدة. لم أعلق، ولم أبرر، ولم أعارض أو أناقش. راحت الجلسة تدور في مجملها حول علاقة الذاتي بالموضوعي، وضرورة نبذ الذاتية. تكررت مرات عديدة تلك العبارة الكريهة التي أصبحت أشعر بالغيثان عند سماعها: أنت تذييت. ذيت، يذيت، تذييت؛ يا لهذا الاشتقاق البائس!

كنت أريد أن أقول لهم أنا لا أؤمن بالموضوعية المطلقة ولم أقل. وكنت أريد أن أقول لهم أنا ذات أولاً وقبل كل شيء، وعلى أية حال لم أعد أرى إلى نفسي كموضوع، ولم أقل. كنت أرغب فقط في أن أرى تلك الجلسة تنتهي في أقرب وقت، وأن أغادر المكان وأقذف بنفسي في أول حانة أو ماخور، وأسكر حتى أتقياً مع الشراب كل تلك الجلسة «الموضوعية» حتى آخر نقطة فيها وفاصلة! في الحقيقة كنت أريد أن أتقياً سبع سنوات من الاغتراب عن نفسي في دوامة من الهذيان

الأحمق بمقولات شبيهة بتعاويز الكهنة والفقهاء المتزمتين. يا دين أمي! فقط لأن الواحد يتجرأ ويقول أنا ذات، ولا شيء غير ذات، تجنّد له جحافل من الفقهاء ورجال الدين والوعاظ الأخلاقيين، والفلاسفة الأخلاقانيين، والدعاة الأديولوجيين والسياسيين! جيش عرمرم من دعاة نكران الذات، والمتأففين بعبارة «أعوذ بالله من كلمة أنا»، وآخرهم المناضلون التقدميون - الثوريون علاوة على ذلك! كل هذا الجيش لمواجهة فرد أعزل وحيد منعزل قال: يا أبناء الحلال أنا فرد ذات ولا أستطيع أن أجعل من نفسي برغيًا، دولابًا، أنوبًا، سدادة مطاطية في آلة كبيرة معقدة! يا سيدي أنا ذات، وأذيت، وسأذيت أكثر، واللي ما عجوش هاهو نهر السين أمامه!

تركتهم إذن يجلدونني بحصة طويلة من السياط اللاذعة للنقد، واكتفيت بالصمت هذه المرة. امتقع بعض الرفاق، وارتبك آخرون. وخرجنا من الجلسة بما يشبه خصومة مكتومة وكثير من البرودة والحذر. محمود غدا متفرغا الآن لمتابعة أخبار سامية وجلساتها التي تكاثرت مع كل من صابر ومامية، وأصبحت تفضل ارتياد مقاهي الماريه عن الظهور في حلقات الحي الجامعي ومقاهي بولفار سان ميشال.

- من هو هذا الخرية الذي يدعى صابر؟

قالوا له إنه يمكنه أن يعثر عليه بين الحين والآخر في مقهى السوفلو أو مقهى le Gamin de Paris. بحث عنه ووجده في مجموعة من الرفاق وغير الرفاق ورفاق سابقين من المغضوب عليهم والمنبوذين. كان هناك أيضاً مروان، وفتحي، وكان النقاش يدور حول الفن والمسرح والأدب. الرفيق محمود يضيف إسما جديدا، إسمين، ثلاثة إلى القائمة التي كان يسجلها في ذاكرته: المرشحون بامتياز لمزارع البصل والبطاطا في

مشاغل الثورة الثقافية الشاملة. في مقهى السوفلو قال كلمته التي جاء ليقولها أمام زمرة الملعونين. حكى عن الفن المانع والفكر البرجوازي الذي يخرب عقول المناضلين الملتزمين، وعن عفونات الأفكار الرجعية والبذخ الفكري البورجوازي. وكان طوال الوقت يرشق صابر بعينين ملتهبتين بينما رغوة بيضاء بدأت تتجمع على زاويتي فمه وذراعه تضطربان وأحيانا يضرب بكفه على الطاولة بعنف. ثم هدّد الجميع متوعدا إياهم وغيرهم بأيام وفصول من الكد في أرياف البلاد وفجاجها الخالية حيث لا مسارح ولا نوادٍ للهراء، ولا شيء غير حقول البطاطا واللفت السكّري وأدغال الأشواك والصحاري والثعابين والعفران.

- مروان: لكننا نظل جميعنا من المتممين إلى عائلة اليسار يا محمود.  
- مفهومنا لليسر الذكيّ يتمثل فقط في أننا نريده أن يكون متجاوزًا للحدود الضيقة للصراع الطبقي وحده، كي يتسنى له أن يطوّر فلسفة تحررية شاملة. وهذا بالضبط ما يجعلنا في خط التعارض مع الرجعية ونظامها الذي يعتبر أن حركة التحرر قد أنجزت واكتملت وتوقفت مسيرتها يوم حصلت البلاد على استقلالها السياسي. وبما أنه لا يمكنني أن أكون مبدعًا خارج إشكاليات وحساسيات عصري، فإنه لا يمكنني إلا أن أكون يساريًا.

- محمود: تنفي الصراع الطبقي وتدعي مع ذلك أنك يساري! عن أي يسار تتحدث؟ يسار الفنانين البرجوازيين المائعين في حي لو ماريه؟ يسار المثليين الجنسيين والسحاقيات ودعاة الدعارة والتفسخ؟ هذه هي رسالتك المسمومة التي أتيت تدعو إليها بين صفوف رفاقنا؟  
ثم هوى على صابر بضربة رأس مفاجئة أطارت نظارتيه وجعلت أنفه يتدفق بتسبقة أولية من ضريبة الدم التي تفرضها الثورة من أجل التطهير والتنقية وإحلال سلام الوحدة الإيديولوجية والتناغم الثقافي.

## سما صافية فوق نهر السين

السما صافية على ضفاف السين والجو بارد. ذلك هو ما يجعل التمشي هنا بعيدًا عن لغط الشوارع المزدهمة شيئًا ممتعًا. تتحرك القدمان بخفة. البرد منشط وأشعة الشمس، حتى وإن لم تكن دافئة، تبعث الانسراح وتجعل مياه السين الصفراء الكدرة عادة أكثر صفاء. الأفكار تتحرك أيضًا بأكثر نشاط كما لو كانت تحاكي حركة القدمين، وشيء من الصفاء يشبه صفاء السما يشع في الداخل. السين جميل، قلت لنفسى وكأني أراه لأول مرة. كاتدرائية نوتردام بدت لي أيضًا جميلة جمالا غير معهود وهي تمتد بصومعتها في الفضاء على خلفية زرقاء ناصعة صافية. باريس كلها جميلة في هذا اليوم كما لو أنها خارجة للتو من حمام أزال عنها الغبار والكدر. قلت سأظل أتمشى هكذا على ضفاف السين حتى محطة أوسترليتز، ثم بيرسي. منذ مدة طويلة لم أتمش هكذا دون هدف. لن أفكر في شيء سوى في باريس. سأنظر بانتباه إلى مياه السين والسفن التي تمخره جيثة وذهابًا، والقوارب الصغيرة، والصيادين، والمباني العتيقة والكنائس، سأنتبه أكثر إلى السيدات الأنيقات ووجوه الفتيات الجميلات. غالبًا ما أنسى الانتباه إلى هذه الأشياء الجميلة من حولي خاصة عندما لا أعبر الشوارع وحدي بل برفقة واحد أو اثنين من الأصدقاء. كثيرًا ما يشغلنا الحديث وتلك النقاشات الجدية، فلا نرى شيئًا من العالم الذي حولنا. إننا غالبًا ما نمشي على الأرض

كالمسزمنين. نائمين. غافلين. والأيام تمرّ والسنوات ... العمر يمرّ وها نحن قد كبرنا بسرعة في باريس كما لو أنّ هذه السنوات قد انقضت في غفلة منّا، تسلّلت هكذا هاربة من بين أيدينا. ترى كم من الأشياء الجميلة قد فوّتنا التمتع برؤيتها ونحن منغمسون في غيابنا، ساهمون، عابرون هكذا مثل أطياف؟ هذه البناية مثلا، بأقواسها العالية وبابها الحديدي الضخم وأفاريز بلكوناتها، لا أذكر أنّي رأيتها من قبل والحال أنّي مررت مئات المرّات من هنا. ثمّ كم مرّة انتبهت إلى جزيرة سان لوي وأنا أمرّ قبالتها؟ وكم مرّة انتبهت إلى كاتدرائية نوتردام وأنا أعبّر ساحتها باتجاه الأوتيل دو فيل؟ تذكّرت الرفيق حميد الذي سألنا ذات مرّة: هل تعرفون البانثيون يارفاق؟ إنني أسمع دائما بهذا البانثيون، كلّ الناس تحكي عن البانثيون ولم أره إلى حدّ الآن! ضحكنا ووعدناه بمرافقته توجّأ إلى البانثيون، والحال أنّه يسكن بشارع سان جاك غير بعيد من ساحة البانثيون، وهو كلّما خرج من شارع سان جاك ومضى سواء باتجاه شارع سان ميشال أو في الإتجاه المعاكس يكون مبنى البانثيون دائما قبالة، وهو يمرّ يوميا في الزقاق المحاذي لبناية البانثيون في ذهابه إلى جامعة سونسييه أو في عودته منها. ليس حميد وحده هو الذي ظلّ لسنوات عديدة يمرّ إلى جانب الأشياء ولا يراها. كلّنا، وإن بدرجات متفاوتة نمرّ على الدنيا في نوع من الذهول والعماء. كم مرّة انتبهت فعلا إلى بناية كاتدرائية المادلين التي أمرّ من أمامها ليلا في طريق عودتي من الحيّ اللاتيني إلى الدائرة السابعة عشرة البعيدة بعد أن يتوقف سير المترو؟ يمكنني حتى الآن أن أسلك تلك الطريق مغمض العينين لكثرة ما سلكتها من قبل، - لأنني مغمض العينين دوّمًا كنت أمرّ على الأشياء. كم مرّة تنزهت هكذا دون غرض؟ كنت متسكّعا من درجة أولى وكان بإمكانني في تلك الفترة إرشاد الناس إلى أيّ شارع صغير يبحثون عنه

مما كان يثير دهشة سائليّ في بعض الأحيان. لكن تسكعاتي تلك كانت غالباً ما تهمل المهمّ، لا المعالم الكبرى والقصور والمتاحف الشهيرة، فتلك تفرض نفسها على الجميع تقريباً بحضورها المشهدي، لكن تلك الغالريات الصغيرة والجزئيات الدقيقة المتخفية عن العين المتعجّلة؛ نقش على باب أو بلكون، تمثال متوار قليلاً، أقواس جسر، نوعيّة الأشجار هنا أو هناك إن كانت بلوطاً أو حورّاً أو كستناء، الزهور المتنوعة التي تتفتّح وتذبل وتسقط وتتفتّح من جديد ولا نراها - كما لو كنّا في مباراة عنيدة معها؛ هي تصرّ على الظهور والعودة محاولة أن تفتقأ أعيننا كي نراها، لأنّها هنا من أجل أن نراها، ونحن نصرّ على ذهولنا وتجاهلنا لوجودها كما لو كان ذلك ضرباً من التشفيّ والشماتة.

ما نفع كلّ هذه الأشياء وهذه الجزئيات؟ إن كانت لهذه المعالم المعمارية من فائدة ممكنة قال الرفيق الحبيب مرّة، فهي أن تظلّ تذكّرنا بإسراف الطبقات الإقطاعيّة المهيمنة ومدى الاستغلال الوحشي الذي كانت تمارسه على طبقات العمال والفلاحين؛ إنها شاهد على إجرام الطبقات المهيمنة، لا أكثر. كم من الأجساد تدمرت على أحجار هذه المعالم؟ وكم من الأنفس والأرواح زهقت كي يرتفع مبنى قصر أو كنيسة أو كاتدرائيّة؟ - هذا جانب من الحقيقة يا سيّ الحبيب، أجابه صابر، لكنّ شعوب الدنيا قاطبة منذ أن تعلّم الإنسان معالجة الحجر ثم الحديد وبقية المعادن حاولت أن تترك على الأرض بصمات لخيالها وصوراً متفاوتة الأحجام ومتنوعة الأشكال عن مقدّسها؛ عن مخاوفها وآمالها. إنّها حاجة إنسانيّة اكتشفها الإنسان البدائيّ وهو ما يزال في طور العيش على ممارسة الصيد وقطف الثمار؛ كان يجلس مساء داخل مغارته ويشرع في رسم صور، رموزاً لمخاوفه وآماله وأحلامه.

- لكنّ هذه الحاجة البدائيّة البريئة تحولت إلى فساد وآلة استغلال

مفرط؛ كم من ملايين الأرواح قد تمت التضحية بها من أجل بناء مجد  
الفراعنة في تلك الأهرامات مثلاً!

- هذا أيضًا صحيح، وهو أمر عنيف ولا أحد يدعو للإبقاء عليه  
اليوم. لكنه الآن ماضٍ، وكل ما تبقى من ذلك الماضي هو هذه الصور  
والرموز التي تشهد للحياة ببعده ملحميٍ بديع ومذهل. إنها حلقات  
الوصل الدائم التي تجعلنا لا نتذكرهم ونعجب بهم فحسب، بل نستعيد  
حضورهم ونجلهم، ومن خلال إجلالنا لهم نجل الحياة كصيرورة من  
التواصلات. ثم، لا تنس يا سي الحبيب أنه ليس بالخبز وحده يحيا  
الإنسان.

- هذه فلسفة ترف لا تسمن ولا تغني من جوع، قال الرفيق الحبيب  
بكثير من الاشمزاز قبل أن ينهض منتفضًا كما لو كان ينفض يديه من  
هذا الشخص الذي لا يرى غير الرموز ولا يسبح إلا بالبعد الجمالي  
للأشياء. بعدها بقليل سيسري الحديث هنا وهناك بأن هذا الشخص غير  
مرغوب في صحبته. - أسمعت يا رفيق عادل؟

أؤمن بالتليباتي ولا أؤمن بها. المهم هو أنّ يدًا سحبتني من الخلف  
وأيقظتني من هذا الحوار الصامت الذي انغمست فيه حتى بدأت أنسى  
زهرتي التي كنت أودها خالية من أي تفكير.

- صابر! أردت اليوم أن أقوم بنزهة مجانية، هكذا لمجرد التسكع  
والنظر إلى الأشياء دون هدف محدد، لكنك أفسدت عليّ هذا  
المشروع.

- أوه، عفوًا، عفوًا! لن أستوقفك طويلا. أردت فقط أن أسلم عليك  
وقد رأيتك تمشي شاردًا نوعًا ما، فقلت لا بأس من تحية، أرجو  
المعذرة إن كنت ...



- لا، لا، إنما أردت أن أقول إنني أنا الذي أفسدت على نفسي مشروع نزهتي، لأنني في اللحظة التي بدأت أتمتع فيها بمجانية هذا التسكع برزت لي أفكار من بينها أشياء لها علاقة بك وبأفكارك ورؤيتك للأشياء.

- وقد أشبعني شتائم دون شك، لكن ما رأيك في بيّرة هنا على عتبة هذا المقهى الصغير الجميل وفي مثل هذا اليوم المشمس وباريس أمامنا مثل عروس؟

جلسنا في زاوية جنب الواجهة المطلّة على نهر السين.

- كنت تنوي القيام بنزهة خالية من كل تفكير، هذا شيء جميل! لكنك وبدون شعور منك رحت تفكر. وبماذا؟ بالثورة طبعًا، أليس كذلك؟ لصابر ضحكة لذيذة مليئة حبورًا وبهجة. لا يبدو متوترًا بالجديّة المفرطة التي ترسم ملامح قاتمة على وجوه أغلب الرفاق. بل يمكن القول إن وجه صابر بكليّته؛ شكله البيضويّ الأسمر وجبينه المتقدّم شيئًا ما، لكن دون إفراط بحيث يبدو منبت الشعر على مقدّمة رأسه بعيدًا عن حاجبيه، عيناه اللوزيتان، وأنفه المستقيم، ثم تلك الغمازة الطفيفة التي ترتسم بين زاوية الفم والخدّ عندما يبتسم؛ تلك الأشياء كلّها في تعاضدها وتفاعلها هي التي تضيفي على وجهه دومًا ملامح حبور وخفّة، وحتى شيئًا من مسحة عابثة محبّبة تجعله يعطي على الدوام انطباعًا بأنه يمزح حتى وهو يتحدّث بمنتهى الجديّة.

- طيب، وكيف حال مشروعنا المسرحي؟

- لا أدري. أو بصراحة لا أظنّ أنه سيجد مناصرين، لأنّ الرفاق لا يؤمنون سوى بالمسرح الملتزم والدعائي المباشر، وأفكارك ليست مما يجلب الرضى في المدّة الأخيرة.

قطب صابر هذه المرة قليلاً. ثم ابتسم وقال: لكن ألا يمكن أن نشغل خارج حلقات الرفاق؟

- مع من؟ وأين؟ ولأي جمهور؟

- مع نفسنا ولنفسنا في البداية. يمكننا أن نشرع في العمل وحدنا؛ هناك مسرحيات بشخص واحد وبشخصين. نعمل في البداية دون هدف سوى العمل، ونتحدث عن ذلك في كل مكان، ثم سنرى ما الذي يحدث؟

- صابر، أنت تعرف أنّ لي حاليًا نشاطات كثيرة، ثم إنني لم أعود على العمل دون هدف محدد..

- تريد أن تقول دون إطار منظم؟

- ودون إطار أيضًا.

- لكن الفن لا يعرف الأطر يا صديقي، لماذا تريدون تأطير كل شيء؟ لم لا نشغل كلاً في ورشته، وكلاً بوسائله، ثم نلتقي بعد الإنتاج، وعندها يمكننا أن نتجادل ونتصادم ونتحاور ونتبادل الآراء والتجارب؟ عادل، أنت تبذد وقتك في الأعمال المنظمة والمؤطرة، وتهدر طاقاتك في نشاطات ليست لك في الواقع. أنا متأكد أنّ لك همومًا أخرى غير الجري بين الأحياء العمالية والجلوس ساعات طويلة في اجتماعات تعاد فيها نفس النقاشات للمرة الألف والمليون، نفس المصطلحات ونفس الأفكار، نفس الأفق، نفس الأسبجة. إنك، مثل الجماعة كلها، أشبه بجواد مقيد يرفس الأرض بحافره ويتخيل أنّه يسير وهو ثابت في مكانه. أنت تحبّ الأدب والشعر، وحكيت لي عن مشاريع كتابة طمرتها لسنوات عديدة، عليك أن تعود إلى هذه المشاريع، إنّنا ما زلنا شبابًا والحياة كلها أمامنا. يمكننا أن نتوقف، نغير

الاتجاه، نسلك طريقًا مغايرة وننطلق من جديد. عد إلى الكتابة أرجوك. حاول وسترى. قد تجد صعوبة في البداية، لكن يمكننا أن نتعاون على كتابة نصّ مسرحي مثلًا؛ نكتب ونخرج ونمثل معًا في نفس الوقت.

- لا أستطيع أن أفكر في هذا الأمر الآن. في ذهني أشياء عديدة متداخلة ولم تعد واضحة، عليّ أن أرتبها أولًا، لذلك أردت أن أذهب اليوم في نزهة خالية من كل تفكير؛ أن أرى باريس فقط. أن أنظر إلى السين وضافه والبنائيات والفتيات الجميلات وأملأ نفسي بأشياء أخرى حتى تتخمر بعض الأفكار في رأسي دون تدخل واع وقسريّ مني.

- هذا أمر جيّد، لأنه لا بدّ من التهوئة يا عزيزي، وهذا بالضبط هو ما يمكن أن تمنحك إياه الكتابة. كتابة شيء لا علاقة له بأهداف وأطر وأغراض بعينها. تمامًا مثلما تتمشى في باريس من أجل التمشي والنظر إلى باريس دون هدف محدّد، كذلك هي الكتابة. اكتب عن شيء لا غرض لك فيه ولا فائدة سياسية أو اجتماعية من ورائه.

- ذلك بالضبط هو ما يعيبه عليك الرفاق وهو الأمر الذي سيجعل كلّ عمل تقوم به، أو تقوم به معًا لا يلقى غير الرفض والمقاطعة.

## الإخوة الأعداء

بدأنا نتصادم. تحولت الصدمات إلى تقاتل. الشك يربح البعض منا ويلقي به في عراء أسئلة جديدة عنيدة وقاسية، بينما يدعم لدى الطرف الآخر يقينه. الشك والتساؤلات مثل جرثومة تسري في الجسد تستنفر لها قوى المناعة اليقينية، تترنح لدى البعض، بينما «المعاфон» يدعمون يقينهم بنبذ المصابين والابتعاد عنهم تدريجياً قبل أن تُضرب حولهم الكارنتينة. تصادمنا في ما بيننا في البداية بين جدران الغرف المغلقة، داخل خلايا التنظيم وأطره المغلقة. نزلت الكتب الإيديولوجية من الرفوف كما لو كنا نرفع المصاحف على السيوف، لكن ليس من أجل وقف التقاتل، بل لشحذ نار الفتنة. قلنا لنحسم الأمر هنا في ما بيننا ولتكن كتبنا الحكم الفيصل بيننا. لكن الكتب لا تستطيع أن تصمد أمام لهب الأسئلة التي لم تكن قد هيأت لها أجوبة مسبقة. هكذا هي الكتب، دوماً تخذلنا في اللحظة التي نكون في أشد الحاجة إليها. بدأنا نفهم ما كنا نقرؤه معاً كلاً بحسب تأويله الخاص وزاوية النظر التي اختارها. قلنا لم لا نسأل الواقع. لا واقع خارجاً عن النظرية العلمية. أهه! عدنا إذن إلى المقولة التي كنا نزعم تفنيدها «كل ما هو عقلي فهو واقعي، وكل ما هو واقعي فهو عقلي». قلنا لنسأل التاريخ. «كل ما هو تاريخي لا بد أن يكون مادياً». مادياً فقط؟ ألا يفلت شيء وإن بقدر قليل عن صرامة هذا القانون؟ قلنا لنسأل الثقافة. الثقافة هي نتاج الواقع المادي في مجال

البنى الفوقية. لكن، ألا يمكن للثقافة أن تراوغ وتتصل وتدخل في مواجهة مع البنى التحتية التي لا تستطيع أن ترفد اندفاعات حلمها؟ والميتافيزيقا، والديانات والأساطير وحب الغرابة والحلم والرغبة، هل هي كلها خاضعة ألياً لقانون مادي جبري صارم؟

حميد يسلم عليّ ببرودة الآن. مررت بمقهى الديبار ولم أجد أحداً. قال لي أحد الأصدقاء إن بعض الرفاق بدأوا يؤمنون مقهى السوفلو. البعض الآخر متمترس بموننتسوري بالقرب من الحي الجامعي. بدأت الخارطة تتغير. انقسمت المجموعة الكبرى إلى مجموعات صغيرة متناغمة إلى حد ما. بدايات النفور والقطيعة. في بهو الحي الجامعي اندلعت خصومة بين رفيقين تحوّلت إلى عراك بين مجموعتين متقابلتين. رفعت الكراسي وتجادب البعض من أطراف الملابس. اعترضني عبد الرحيم في شارع سان ميشال، حيّته فأدار وجهه ومرّ. اعترضني عبد الرحيم مرّة أخرى فأدرت وجهي ومررت. محمود وسامية يتخاصمان الآن علنا وفي الأماكن العمومية، محاولين كل من جهته أن يجعل تلك الخصومة تتخذ هيئة الصراع السياسي والإيدولوجي البحت. حديث يسري عن إمكانية انفصال، أو طلاق. ماهر وحليم اللذان ظلّ سنوات عديدة لا يفترقان تنابذا واحتدّت اللهجة بينهما في مقهى السوفلو أول أمس. قيل إنهما منذ أشهر يتخاصمان حول «نظرية العوالم الثلاثة» الجديدة التي طلع بها الحزب الشيوعي الصيني. مريم التي كانت مترددة بينهما اختارت ماهر. لكن يبدو أنّ اختيارها قد تمّ قبيل اندلاع المعركة الأيدولوجية المفتوحة بينهما، الأمر الذي أسرع بتأجيج فتيل الصراع الإيدولوجي.

توتّرت العلاقة بيني وبين حسني وبدأنا نتلافي حتى الالتقاء في

حصص الدروس والمحاضرات في الجامعة. جمع بيننا صديقنا مجيد ذات يوم من أجل المذاكرة في مادة الإحصائيات الديموغرافية التي يجيدها أكثر منا. كان اللقاء بارداً، لكنّها برودة تنطوي على كثير من التوتر والتشنج. بدأنا العمل فوراً كي نتجنب النقاشات والمصادمات. اختلفنا حول حلّ معادلة، كما يمكن أن يحدث في حالات عديدة. تمسك كلّ برأيه بتصلّب وعناد. لم نعد نستمع إلى مجيد الذي كان أشطر منا في هذه المادة. بدأنا نتحاجج بحجج غير رياضية ولا علمية، عيوننا ملتبهة، صوتانا يرتعشان، أحشاؤنا تضطرب. أيدينا ترفّ. انطلقت قبضاتنا كي ينفرج توتر ذلك الرفيف الشبيه بالارتعاشات اللامرئية لقوس مشدود. وخرجنا عدوين معلّنين بعد صداقة سبع سنوات.

برزت أحقاد لا ندري أين كنا نخبئوها. الكراهية والعداوة التي كنا نشحذ سكاكينها معاً ضدّ خصوم خارجيين كنا نسميهم أعداء انقلبت علينا الآن. السكاكين المحمّاة والخناجر التي كنا نصلقلها لسنوات عدّة في مواجهة الآخرين طلعت الآن لنواجه بها بعضنا. رفاق الأمس؛ إخوة تقاسموا الرغيف والسهرات والنقاشات ومواجهة الخصوم - أعداء اليوم. اكتشفنا أن لا محبة هناك. كنا طوال سنوات عديدة نتدرّب على الكراهية ونعمر قلوبنا بالجفوة والحقد على كلّ مخالف لنا - الحقد ولا شيء غير الحقد. قال لي المولدي ذات مرّة: إنكم تعدّون أنفسكم ليوم مشؤوم، ليوم ستتناحرون فيه كتلا وعصابات وتأتون على الأخضر واليابس. أتدري لماذا لا تنشأ سوى علاقات حبّ نادرة بين الرفاق والرفيقات؟ أتدري ما هو سرّ هذا التعقّف الظاهري المخادع؟ إنّما هو تكلس الروح وتيس في القلب. احذروا القلوب الجاقّة إنّها مصدر كلّ بلاء.

\*

كان النقاش صاحبًا في مقهى السوفلو. كل شيء من النبرة إلى ارتفاع الأصوات وحركات الأيدي ينبئ بقرب انفجار معركة، وصاحبة المقهى تنظر بعينين غير مطمئنتين إلى هذا الصخب الذي لم تعهده من هؤلاء الشبان من حرفائها القازين الذين تعرفهم واحدًا واحدًا تقريبًا. سمعت طرقات على البلور مباشرة خلف رأسي. التفت؛ صابر يومئ إليّ بيده يدعوني إلى الخروج. جذبني من ذراعي قائلاً: دع الموتى يدفنون موتاهم وتعال معي، سأسمعك شيئًا رائعًا اكتشفته قبل يومين فقط. تعال.

اقتنينا زجاجة نبيذ وذهبنا مباشرة إلى بيته في شارع مونج. كنت شبه متأكد أنه وقع على مقطوعة موسيقية لا يعرفها بعد. قلت لنفسني هذا الشيطان سيفغويني مرة أخرى بشيء جميل جديد. مع صابر بدأت أحب الجاز والبلوز، وإن كنت أستمع مع عليّ أيضًا إلى بيّلي هوليداي وإيلا فيتجيرالد، وخاصة مغني المفضل جون لي هوكر. في بيت صابر عرفت بيبي كينغ وداك إلينغتون وكولتراين ومايلس دايفس. ومعه أيضًا بدأت لأول مرة أذوق الموسيقى الكلاسيكية التي كانت تزعجني في ما مضى. صابر يعرف كيف يستمع وكيف يجعلك تحب ما يستمع إليه، بل كيف تصغي إلى الموسيقى بأذنك وقلبك متجردًا من كل الانتظارات المسبقة وعناصر التشويش الخارجية. مقطوعاته المفضلة إلى جانب الجاز والبلوز وجيمي هندريكس وجيم موريسون، هي «البوليو» لرافيل و«عرس الفيغارو» و«الناي السحري» لموزارت. صابر لا يستسيغ إلا الموسيقى التي فيها اندفاع وبهجة. البهجة هي التي تصنع عظمة الشعوب، يحب أن يردّد دائما. القتامة لا تولد غير البؤس والتحجر، القاتمون هم الذين لن يغيروهم أبدًا بهاء الحياة؛ منهم يطلع الطغاة والمستبدون والفاشيون. سترى يا عادل، الأيام بيننا وسترى ما الذي سيطلع من هؤلاء الذين لا يطربون إلا إلى المناحات التي تتغنى لهم بالآلام والبؤس والتجهّم.

قال، ونحن نستعدّ للجلوس: لنفتح هذه الزجاجة أولاً ونهتياً بكأس، ثم هذه قطعة من الجبن، وهذه بعض مخلّلات، وهذا قليل من بقايا سلمون مبخّر لأجل الشماتة في بؤس الطلبة الثوريين، قليل من صدر البطّة قطعاً لدابر الالتزام، وهذا قليل من مرق الهريسة شديدة الحرارة مع زيت زيتون وحامض وبعض حبات زيتون درءاً للمشاعر الغربية، ثم ستري أنّها ستكون ملائمة للموسيقى التي ستسمعها بعد حين، لأنّها ليست موسيقى بورجوازية ولا أرستقراطية كما يمكن أن يخيل إليك؛ بل هي مزيج غامض سحري.. ولا أقول لك أكثر من ذلك الآن.

كانت مقطوعة من ألوان متداخلة من الموسيقى في جوّ احتفالي كرنفاليّ، تتواتر فيها الأنغام كما الأصوات خفيفة هادئة هامسة في البداية، ثمّ هازجة، صاعدة، مرحة، عابثة، تتناظر وتتداخل، ثمّ تتبارى، تتحاور، تتجادل. شيء شبيه بأجواء كرنفال، مسرح وأوبرا، وكلّ شيء متجاور متداخل في جوّ من الحبور العابت والبهجة الطرية.

«كارمينا بورانا» لكارل أورف، قال لي صابر. فيها كلّ شيء. مهرجان موسيقيّ، وشعبيّ علاوة على ذلك. أتدري أنّ هذا العمل مؤلّف من مجموعة من أغاني شعبية من القرون الوسطى جمّعها هذا الفنان وكوّن منها عملاً فنياً من أروع الأعمال الموسيقية الحديثة؟ فيها كل شيء. هذا هو الفنّ حيث المتضادات والتعارض والتقابل تغدو متعانقة كلّها داخل نسيج واحد متعاقد. التناغم الأعظم الذي يقابل ويؤاخي بين المتناقضات.

أتدري بماذا أوحى لي هذه المقطوعة؟ بفكرة ستظلّ تؤرّقني طالما لم أنجزها: كتابة الكاراكوز. كاراكوز تتداخل فيه وتنداعى نتف من



قصص شعبية بدأت تذهب في طريق الاضمحلال مع حكايات أدبية قديمة، وشخصيات شهيرة من مختلف الفئات من أبي نواس إلى أشعب وعيسى بن هشام وهارون الرشيد والسندباد وشهرزاد والجازية الهلالية وعنترة وأبو زيد وأبو غضوان وعلي بن السلطان وخليفة الزناتي والدغاجي وقيس بن الملوّح وإيلي. يعني «خوضة» بالعبارة التونسية، لكنّها خوضة و«تشكشكة» فنية.

لم أحدث صابر عن مشروع القصة أو الرواية التي شرعت في كتابتها عن حياة علي التومي، ثم توقفت عنها. فكرت في أن أفاتحه بالأمر ثم عدلت عن ذلك. لكن يبدو أنه استشعر شيئاً، وإذا هو يسألني: لم لا تكتب شيئاً عن نفسك؟

- عن نفسي؟ وماذا يمكنني أن أكتب عن نفسي؟ تراءت لي حياتي فجأة مثل ثقب واسع، أو حفير بائس لا شيء في قاعه. حياة رتيبة وخالية من كل ما يمكن أن يجعل منها موضوعاً لنص ما. أي نصّ.

قال صابر وهو يقطع الصمت الذي تخلل تلك الدقائق القليلة التي تراءت لي خلالها حياتي خاوية وعديمة الأهمية: لسنوات وأنا أبحث عن نواة لقصة الكاراكوز. لكن يبدو لي أنني وجدتها الآن. لا بد أن أكون الشخصية المحورية للكاراكوز. الكاراكوز هو أنا، وكل ما يدور من أحداث، بما في ذلك تلك التي لها في الظاهر علاقة بشخصيات متعددة ومن فترات تاريخية متباعدة، إنما هي قصتي الخاصة؛ أو أن قصتي الخاصة ينبغي أن تكون النسيج الخلفي لهذا العمل. أما ماهي قصتي؟ فتلك هي المسألة الآن. أحياناً يخيل إلي أن ليست لي قصة يمكن أن يحاك حولها. نسيج عمل فني. لكن لكل منا قصته بالنهاية، وبالتالي لا بد أن تكون لي قصتي التي ما زلت لا أستطيع جمع شتات

عناصرها. إننا نبعث أنفسنا ونتفتت في العالم الخارجي وفي تفاصيل إشكالات العالم الخارجي، لذلك تضيع عنا ملامح قصتنا الخاصة، في حين أن العالم الخارجي بكليته ليس سوى حاصل قصصنا المفردة. إنه حصيلة وليس حقيقة متعالية.

تذكرت غضب علي عندما قرأت عليه مشروع قصته. ثم تذكرت محادثة لاحقة بعد أن نسينا كلانا ذلك المشروع والخصومة التي دارت حوله.

- أتدري لماذا انزعجت عندما قرأت لي ذلك النص قبل بضعة أسابيع؟ أنا لا يهمني كيف ترى الأشياء، وكيف تعيد روايتها بالطريقة التي تبدو لك ملائمة أو صحيحة، أو لا أدري ماذا... ما أزعجني هو أنك سطوت على حياتي وعلى قصتي وجعلت منها قصة ترويها أنت، وتتصرف فيها بالطريقة التي تريدها أنت. هل تفهم؟ إنها قصتي؛ قصتي أنا ولا يحق لأحد غيري أن يرويها عوضاً عني. أنا أسعى إلى التخلص منها بالألوان، أو إلى تدجينها أو قتلها، وأنت تحاصرني على الدوام ولا تكف عن محاصرتي ومضايقتي. تسطو عليّ وتحاول أن تفرغني من قصتي كما يفرغ كيس من محتواه. ثم ماذا ستفعل بي بعد أن تفرغني؟ وبالنهاية لم لا تكتب قصتك الخاصة؟ إن لديك بالتأكيد قصتك أنت أيضاً. لكل منا قصته، وعلى كل أن يروي قصته، وقصته فقط. دعني إذن يا سيدي لحالي، وارو قصتك الخاصة.

- نعم، أضاف صابر بعد لحظات من الصمت، الكاراكوز هي قصتي. الكاراكوز، تلك «الخوضة» الخليط الفوضوي والمتناغم في آن واحد الذي لا أدري من أين أبدأه. عمل ضخم لا يمكن للمسرح وحده إنجازه دون الاستعانة بموسيقار موهوب فوضويّ ومجنون. عمل

سيتطلب سنوات عديدة من البحث والتجميع والتوثيق والبناء والتفكيك وإعادة البناء. ها هو مشروع ثورة حقيقية يا صاحبي. وعندما تتبخر كلّ الاديولوجيات وتمحى آثار الثورات بثورات أخرى مناقضة تنقرض بدورها، لن يبقى غير هذا العمل. مشروع العمر يا صاحبي!

## الثعبان يغير قشرته

يوم شتائي بارد ونحن في منتصف فبراير. التقيت يوم أمس بمحرز صدفة بالقرب من ساحة السوربون، قال لي إنه سمع بخصوصيتي مع حسني التي آلت إلى استعمال اليدين. كانت عيناه تبرقان بنوع من الخبث من ذلك الذي تبرق به عين المتشفي لحظة تكون قدماء تغوصان في أوحال مستنقع بينما يقف هو على أرض صلبة يدخن سيجارته بمتعة وينتظر أن يرى ماذا سيكون مصيرك. أعرف محرز جيدا، وقد فترت علاقتي به منذ مدة طويلة لاختلاف اهتماماتنا ولكثرة تهكمه وسخريته من نشاطاتي السياسية التي يعتبرها عبث صبيان ومضيعة للوقت. لم تكن سخريته من ذلك النوع البريء الذي أستطيع أن أتحملة وأقبل به من علي مثلا، علاوة على أن علي الذي لم يدخل مدرسة ولا يعرف جامعات أذكي وأعمق بكثير من محرز الذي يمثل الطالب السطحي الوصولي الذي تنزلق الأفكار على عقله انزلاقا ولا تترك أي أثر منها على شخصيته. فاجأني هذا اليوم، ولأول مرة برغبة في الدخول في نقاش سياسي معي، ولم يُخف عني انحيازه إلى حسني في الصراع الذي كان يهز أركان الحركة السياسية إلى أن أفضى بالنهاية إلى الانشقاق. - لحظة، لحظة يا محرز، منذ متى أصبحت لك اهتمامات بهذا الشأن وتفقه في تفاصيل الخلافات السياسية والأديولوجية، أنت الذي لم تكن مشاغلك تتجاوز نوعية الملابس وأنواع السيارات وملاحقة

الفتيات؟ انتهى ذلك اللقاء بخصومة حادة تبادلنا فيها الشتائم والإهانات وخرجت منها برضوض معنوية جسيمة، لا لأنني كنت أولي اهتماما ما لآراء محرز الذي لا أكن له سوى الاحترار، بل ألمني كثيراً أن يكون الخلاف بيني وبين حسني قد بلغ هذا الحد من الحقد والعداوة الذي جعله يؤلب عليّ محرز، ويحاول أن يكسب نصرته، هو الذي يعرفه جيداً وظل دوما يشاطرنني احتقاري لسطحية وغبائه، ولم يتردد حتى في أن يعبر لي عن شكوكه في أن له علاقات مع جهات أمنية تونسية والإلحاح عليّ بالابتعاد عنه ومقاطعته. كانت خصومتي مع محرز في الحقيقة خصومة ثانية مع حسني أحسست أنني تلقيت فيها طعنة خنجر في الظهر. قضيت ليلة حزينة على إثر ذلك اللقاء متقلبا على سرير من أشواك الحزن والإحباط ولم يكد يغمض لي جفن إلا لسويغات قليلة وبصفة متقطعة. بلغنا نهاية الزقاق، كنت أردد لنفسي مهموما، ومجمل حصيلتنا من هذه السنوات من الركض والتهيج هي هذا الحقد. عنفنا الذي كنا نوجهه إلى الخارج، وتلك الكراهية التي كنا نغذيها تجاه كل من لا يوافقنا الرأي، أو من ينتمي إلى تنظيم أو حزب غير تنظيمنا، هو ذا ينقلب علينا اليوم، وهاهي ريح تعصبنا تعصف بنا الآن وتذرونا شتاتا. أبهذه السرعة يتحول حلمنا الجميل إلى هذا الكابوس؟

\*

خرجت من بيتي مبكرا كما لو كنت أطمع في الفرار من كوابيس تلك الليلة الثقيلة. همت على وجهي دون هدف طوال النهار. لم أكن قادراً على التفكير في شيء. لم أختربوعي أن لا أفكر في شيء من أجل الامتلاء بأشياء أخرى، بل كنت عاجزا عن التركيز على شيء محدد. في داخلي شيء شبيه بالفراغ. لكنّه ليس فراغاً مريحا. كتلة كثيفة تتكور في الأحشاء، أو في الرأس، أو لا أدري أين بالضبط. تضغط ولا

تفتت، مثل كآبة مجهولة المصدر والسبب. تفاديت مقاهي الحي اللاتيني كلها وتوغلت في شارع فوجيرار الطويل حتى وجدت نفسي في آخره وقد أشرفت على تجاوز Porte de Vanves. عدت متوغلاً في شوارع الدائرة الخامسة عشرة، ثم انحرفت يمينا قبل أن تقودني قدماي إلى شارع كومبرون حيث كان يسكن حسني لمدة طويلة وكنت كثيراً ما أزوره هناك ونقضي ليالي طويلة من النقاشات والمزاح، ثم انحرفت إلى اليمين ثانية راسماً نصف دائرة واسعة، وجهتي الآن «الأفنايد»، تمشيت كثيراً من قبل عبر هذه المنطقة، أحيانا مع حسني، وأحيانا وحدي في تلك السنة البعيدة التي كنت أذرع فيها شوارع المدينة بحثاً عن عمل، في هذه البناية الإدارية العالية كسبت الفرنكات الشحيحة الأولى من أول عمل أعر عليه في باريس كمنظف. مازلت أتذكر جيداً ممراتها الطويلة والمكاتب الكثيرة المصطفة على جانبيها وأنا أعبرها مجرراً آلة التنظيف الكهربائية لسحب الغبار، أتذكر بعض المكاتب، وخاصة إثنين منهما، واحد كنت أجد في درج من أدراج طاولته العريضة الفاخرة مجلات بها نساء عاريات كنت أقضي لحظات طويلة في تصفحها بنهم، والثاني، وهو مكتب امرأة كنت أسرق منه بعض قطع من الحلوى والشوكولاتة، وبين الحين والآخر سيجارة من السجائر النسوية الطويلة والدقيقة.

اخترقت الدائرة السابعة ورحت أتمشى في شارع Rue du bac باتجاه سان جرمان، ثم من هناك وعبر شارع سان بلاسيد باتجاه مونبرناس. كان المساء قد حلّ منذ ساعات عندما بلغت شارع لاغيتيه القريب من بيتي، لكنني تجاوزت شارع الغرب متوغلاً في الاتجاه المعاكس باتجاه برنيتي، ثم نحو حي لا أعرفه كثيراً. ربما كنت أبحث عن حانة شي موريس التي قادنا إليها المولدي ذات يوم، ولم أستطع العثور عليها. ولجت حانة أخرى كنت واثقا أنه لا يدخلها أحد ممن أعرفهم. قدماي

وحدهما كانتا تتحرّكان طوال العشيّة بينما بصري ووعبي ووعبي لا يتوقّفان على شيء. أذكر فقط أنني توقفت في بار بالدائرة الخامسة عشرة حيث شربت بيّرة ثمّ واصلت سيرتي. أشعر الآن بالجوع والعطش. لكن لا رغبة في تناول أي أكل. إنه جوع بائس لا يعبر عن نفسه رغبة حقيقية في الأكل. شيء مثل الخواء يخز الأمعاء ولا يستثير الشهية. بعد البيّرة الثانية اختفى ذلك الوحز الناجم عن خواء في المعدة. في الحانة نساء شبيهات بحريفات حانات سان دني، والنادلة التي تشتغل وراء البار. ذكّرني بيرناديت بصدورها الضخم وضحكتها المللعة بكثير من العهر. سان دني! لم أذهب إلى هناك منذ ما يقارب السنتين. انقطعت عني أخبار علي أيضًا. لم يأت لزيارتي منذ أن انتقلت إلى حيّ مونبارناس، ولا يعرف عنواني طبعًا، لكنّه يعرف أنّه بإمكانه أن يجدني في فندق السويس صافوا. لم أبحث عنه، وعقبة الذي كان يصل بيننا في فترات الانقطاع عاد الآن نهائيًا إلى تونس. عقبة أيضًا توترت علاقاتي به بعد عودته الخائبة من مغامرته الليلية بسبب الخلافات التي كانت تعصف بالحركة. تباعدت لقاءاتنا التي غدت متوترة وصاخبة أحيانًا، ولم نلتق قبل رحيله إلى تونس. حاولت أن أفهم ما الذي حصل لعلاقتي مع علي، لكنني لم أكن قادرًا على التركيز. تذكّرت فقط لقاءنا الأخير أمام مصنع سيتروان. كان ذلك قبل سنة تقريبًا. ذهبت إلى هناك مع رفيقين لتوزيع منشور يدعو إلى مظاهرة مساندة للحركة النقابية في تونس على إثر انتفاضة ٢٦ جانفي. لم أكن أعرف أنّه يعمل هناك، ولا كنت أعرف أنّه عاد إلى العمل أصلاً. رأيته بعد رحيل فطيمة مرتين أو ثلاث مرّات. كان يبالغ في السكر والمشاجرات ويهذي كثيرًا عن فطيمة وعن مشاريع رحيل إلى الجزائر، أو عن كسب أموال من أجل تأجير بيت لائق في باريس، وعن عودة فطيمة إلى باريس. لكن لا شيء في سكره المبالغ

فيه وفي مجمل سلوكه كان يدلّ على أنه سيقوم بخطوة واحدة في هذا الاتجاه. لا أدري هل غدا علي مملأ بالنسبة لي، أم أنني أنا الذي لم أعد قادرًا على التمتع بتلك الأجواء التي ينتعش فيها. الواضح هو أنّ آخر لقاء لي به في تلك الفترة كان باهتًا ومضجرًا إلى حدّ أننا لم نتخاصم ولم نتناوش، وحتى عندما أعربت عن رغبتني في الانصراف لم يمانع ولم يلح عليّ بأن أشرب كأسًا أخرى، بل مدّ لي يده بلامبالاة تقريبًا، أو أنها لامبالاة مفتعلة فيها شيء من السخرية المرة، ثم تلك العبارة التي تشبه وداع يأس وانكفاء على هزيمة ما: «تلقي الخير!» كأنها نوع من العتاب المستسلم لأمر مقضي: أنت الذي أردت ذلك، فلنمض كلاً إلى وجهته. - كان وداعًا حزينًا على أية حال. حزين ببرود. في هذه الليلة وأنا أجلس في زاوية قصيّة من بار لا أعرف فيه أحدًا، تذكّرت علي وسان دني وقلت لنفسني: إنني خائن، ولا بأس في ذلك، لأنّ كلّ شيء لا بد له من نهاية. قبلت بخيانتني لعلّي بنوع من استسلام الحكمة، كجزء من صيرورة الحياة. ثمّ تأكّدت لي صحّة ذلك القرار وأنا أتذكّر كيف التقيته صدفة أمام باب مصنع سيتروان وأنا أفق وقفة المحارب بين رفيقين متوتّرين بأحداث دمويّة هزّت البلاد قبل يوم فقط. لم يكن هناك من مجال لأية عواطف أخرى غير الغضب والتشنّج والنقمة. وهاهو وجه علي يطلع لي من بين الوجوه العديدة المتدفّقة من باب المصنع في الساعة الخامسة، وهي جميعها وجوه نكرة متشابهة في حياديّتها، أو في حيادنا تجاهها، نمذّ أيدينا نحوها بالورقة المطبوعة كما لو كنّا نناولها عبوات ناسفة. تناول بعض الأيدي أوراقنا بلامبالاة، البعض ينظر إليها بشيء قليل من الفضول ثمّ يتطلّع في وجوهنا بسرعة خاطفة ويمرّ، والبعض الآخر يمرّ وهو يراوغ الورقة الممدودة باتجاهه ممتعضًا، أو مغمغمًا بتبرّمات غامضة. وجه معروف أليف يتقدّم نحوي، لا يمدّ يده



للورقة، ترسم على شفته السفلى المتهدلة قليلا تعبيرة غامضة بين  
السخرية والعتاب: *(1) T'es encore là à faire la révolution, toi ?*

لم يقل هذه المرّة: يا هزاب، يا نكار العشرة! لم يعد يحيي ولا يعاتب. كما لو أنه قضى حداده وغسل يديه من فصل قد انقضى. - عدت إلى العمل؟ قلت له محاولا تحريك ركود ذلك الفتور الثقيل وأنا أمد يدي من دون ورقة. - البغل يبقى بغلا، أجباني وهو يصافحني، وليس للبغل سوى الحرث! ماذا تريد؟ إحساس بالخجل، وشعور بالذنب مثل كتلة صلبة كانت ساكنة وبدا لها أن تتحرك الآن داخل أمعائي. نسيت المناشير والأحداث ولم أعد أدري ماذا أقول إلى أن أخرجني هو من تلك الورطة أو الحرج وهو يسألني إن كان بوذي أن نشرب كأسا في البار المقابل. قبلت فورًا وأنا أشير برأسي إلى الرفيقين، لا أدري إن كنت أستسمح، أو أنني كنت أشير إلى لقاء مهم، فالرجل الذي يقف معي الآن عامل بروليتاري بالنهاية، ووجودنا هنا سببه العمال والحركة العمالية. سيظنون دون شك أنني وقعت على غنيمة سأمارس عليها مهمتي الدعائية والتحريرية بصفة مباشرة وأكثر نجاعة مما يمكن أن يجنيه جهدنا من خلال منشور يقرأه العامل وحده وقد لا يقرأه، وقد يقرأه ولا يفهم الكثير مما جاء فيه...

شربنا بيرتنا في جو من الفتور، وربما نوع من حرج لم تعرفه لقاءنا من قبل. سألته بغباء عن أحواله فردّ عليّ بما يناسب غباء سؤالي: ماشي الحال. أردت أن أسأله عن فطيمة ولم أسأله. وأردت أن أسأله عن سبب شحوبه وعن سنيّه المفقودتين اللتين كان يحاول إخفاءهما، أو إخفاء مكانهما الشاغر بيده ولم أسأله. ولعلّه هو أيضًا قد أراد أن يسألني أسئلة

---

(1) أما تزال عالقا في ثورتك؟

كثيرة ولم يسألني. أو لعلّه لم يرد أن يسألني عن أي شيء. شربنا بيرةً بنا بسرعة ولم نطلب بيرتين ثانيتين، لكنّ الوقت بدا لي طويلاً وعلي فاتر، بارد مثل كيس فارغ أو مجرد ظل لعلّي الذي كنت أعرفه. ليست برودة مقصودة تجاهي، بل كانت نوعاً من البرودة تجاه كلّ شيء. كأن لا شيء يعنيه ولا حتى البيرة التي أفرغها في جرعتين طويلتين، بلا مبالاة. فاتر في نظراته إلى ما حوله، فاتر في شرابه، فاتر في حركاته. قلت له: لا بدّ أن أعود لأنّ الزميلين - لم أقل الرفيقيين - في انتظاري. - أنا أيضاً لا بدّ أن أذهب، قال وهو يمدّ يده لمصافحتي، سان دني بعيدة من هنا... لأنني ما زلت أسكن في سان دني.

ما زلت أسكن في سان دني! قالها بنبرة شبيهة بصيغة تعجب مفتعل، كما لو كان يتعجب عوضاً عني: أما زلت تسكن هناك! أو لعله يتعجب لي: أنسيت ذلك؟ ولعلّه أراد أن يقول: ها الغيبة! لكنه لم يقلها. ولعلّه أراد أن يقول: يا نكار العشرة، أو هل ستأتي يوماً ما؟ أو متى ستأتي؟ لكنه لم يقلها. قال كلّ شيء دفعة واحدة ولم أسمع، أو أنني لم أرد أن أسمع. أو لعلّه لم يرد أن يقول أي شيء، وافترقنا على ذلك الغموض الواضح تماماً.

لم أعد أتذكر كم شربت من بيرة وكونياك وأنا أستعيد ذكرى ذلك اللقاء الأخير بعلي. تواترت علي صور مبعثرة سريعة من شريط السنوات السبع الأخيرة كلها، كانت تنهمر علي متلاحقة متدافعة كما لو أن مزقة كبيرة قد انفتحت في ذاكرتي فجأة وانفلتت منها وقائع كثيرة ووجوه متعددة: سان دني، أحياء المهاجرين في أوبرفيلبي ولاكورنيف، مظاهرات في شوارع بارباس وبلفيل وساحة ناسيون: لا مجاهد أكبر إلا الشعب! خبز، حرية، كرامة وطنية! الرحلة إلى مدينته ليل لحضور مقابلة ودية لكرة القدم بين المنتخب التونسي والمنتخب الفرنسي أثناء

الإعدادات لكأس العالم بالأرجنتين. حافظتان ممثلتان بالعمال التونسيين الذين التفوا حول اللجان العمالية لمساندة الاتحاد العام التونسي للشغل على إثر أحداث ٢٦ جانفي، حالة من الهيجان والحماس، لكنه حماس لذيذ مستحب هذه المرة على خلاف مظاهراتنا من قبل عندما كنا نعبر الشوارع مثل شردمة من الطلاب المشاغبين لا أحد يحفل بنا: «لجنة لجنة عمالية، سيب عليك من القنصلية!»، «يا حشاد يا حشاد عاش عاش الاتحاد!» لا أدري من أين انفجرت تلك الطاقات الحماسية لدى عمالنا المهاجرين فجأة، وتلك الروح الوطنية والطاقات النضالية العالية التي لم نكن نلمسها فيهم من قبل! مالذي قمنا به في هذه المرة حتى وجدنا هذا التجاوب الذي لم نكن نحلم به، بل وراح يراودنا اليأس منه؟ ما الذي كان خاطئا في ممارساتنا إلى حد الآن؟ الشريط يواصل انسيابه بسرعة ولا وقت للتفكير؛ شانزليزي، شارع ماربوف، حانات شارع تيلسيت وساحة كليشي، جوزيفين التي كان وجهها يفرّ من أمامي خلف زجاج سيارة التاكسي في شارع باتينيول، آن ماري وهي تضع شنطتي بالقرب من الباب وتعتذر عن قبولي في بيتها في تلك الليلة لأن صديقها قد عاد من هولندا بعد غياب طويل، دعك من هذه الخرافات الرومانسية المهترئة، أنا لست مُلكًا لك ولا لغيرك كما يزّين لك هذا الوهم الذي تسميه حبًا ووفاء! أنت فعلا بورجوازي صغير والهواء في دماغك راكّد عَطْرُنْ؛ الرفيق حميد وهو يلتقط حجرا لا أدري أين وجدته في شارع سان ميشال ويهم بأن يهوي به على رأس المولدي المتطاول على زعيم التنظيم الذي كان ينعتة بسلالة الاقطاع المنحط وبالبعثي الانقلابي؛ مصنع Paul et Roger وأنا أدب مثل القط بين الورشات الفسيحة وراء ليش كي، محطة بيرسي لشحن البضائع ودي ديه السكير العجوز الذي يدفع عربة البضائع بصعوبة ويصيح باتجاهي وهو يراني

C'est dur : الأصل متأخرا إلى العمل مضطرب الخطوات وقليل الحماس : *la vie d'artiste, mon petit!* <sup>(1)</sup> دي ديه، دي ديه، ذلك الرجل الوقح والطريف في الآن نفسه، الذي يبدأ صباحه بزجاجة النبيذ الرخيص وكلما رأني أشرب بيرة ينظر إلي باشمئزاز: أية لذة تجد في شراب الحمير هذا! وأحيانا يضيف: معك حق، نسيت أنك قادم من بلاد ليس فيها من شراب غير حليب الجمال! وعندما أقول له: يا دي ديه، يا أحق لقد عرفت بلادي الكروم والنبيذ قبل أن تعرفه فرنسا بعدة قرون، يضع إصبعه على صدغه ويجيبني: صحيح، وأنا أيضاً قد ولدت من حبل بلا دنس تماماً مثل يسوع ها ها ها!، أنا وحسني ونحن نرتمي على بعضنا لكمة ولطماً في خصومتنا الإيديولوجية المخبأة تحت الجلدة لأشهر عديدة، الانشقاق الذي فرقنا كتلاً متناحرة متعادية إلى الأبد...

عندما دفعت الحساب وخرجت شعرت أنني سكران وأن رجلي لا تستجيبان لإرادتي، بينما كل شيء من حولي بخار وضباب. كيف بلغت بولفار مونبارناس بعدها؟ ومن أين مررت؟ وهل توقفت في محلات أخرى وشربت؟ كل ما أتذكره هو أنني كنت في بولفار مونبارناس غير بعيد من مقهى الكوبول وكنت أبكي بصوت مسموع والشارع مقفر تقريباً وأنا أتحامل على نفسي لأقف وأواصل السير وأقع مجدداً. يبدو أنني بعد كل وقوع أظلّ ممدداً مدة من الوقت قبل أن أحاول النهوض من جديد. ربما فقدت الوعي، أو نمت على الرصيف. لا أتذكر أنني نمت، ولا أتذكر كيف استيقظت. أتذكر فقط رطوبة قارسة كانت تخترق الجلدة واللحم وتجعل عظامي ترتعد، وكان هناك ضباب يلف بشارع لاغيتيه. منذ مدة طويلة لم أبك هكذا في الشارع. ربما لم أبك أبداً بمثل

(1) قاسية حياة الفنانين يا صغيري!

تلك الحدة وبتلك المرارة. لا أدري إن كان ذلك على مرأى ومسمع من المازة أم أن الشارع كان مقفراً. المهم أن شيئاً كان متكوراً في داخلي قد انفجر فجأة في فضاء ليلة شتائية باردة في بولفار مونبارناس الواسع الذي يبدو ملائماً تماماً لمناحة عاتية.

\*

نمت كامل اليوم بعدها. استفتقت مساء لأشرب نصف زجاجة من الماء وأعود إلى النوم حتى فجر اليوم الموالي. كنت أركض في زقاق أو شارع ضيق بدا لي مثل شارع موغادور، ثلاثة أشخاص يركضون ورائي: هو *C'est lui, le petit enculé*، أنعرج شمالاً في شارع بروفانس، فندق سويس صافوا، أدفع الباب الزجاجي وأقذف بنفسني داخل المبنى؛ ساحة فسيحة، قاعة امتحانات، المقاعد شاغرة، يد تشير إلى طاولة في الزاوية اليسرى غير بعيد من السبورة، أهدق في الورقة، رأسي فارغ تماماً، وما من فكرة واحدة تحوم في ذهني. صوت أبي ضاحكا بسخرية: سنرى كيف ستخراً على حالك في امتحان البكالوريا! أنهض من مكاني لمغادرة قاعة الامتحان ملوحاً بورقة عريضة في وجه شخص يقف قرب السبورة: أنظر! إنها شهادة الليسانس من جامعة السوربون! رأيتها؟ تلك الورقة التي في يدك يمكنك أن تمسح بها الآن!

*Mais tu n'es pas que cela!* - أنت أكثر من كونك هكذا: صوت الأب فينيال أستاذ الفلسفة اليسوعي اللطيف، بتلك النغمة المترنمة الناعسة التي أعرفها فيه، والتي كنا نحب تقليدها! أستيقظ. أمد يدي إلى زجاجة الماء، أفرغ نصفها في جوفي كمن يطفئ حريقاً. الأب فينيال؟ أبتسم ثم أنهض وأنا أردد: لكنك أكثر من هذا! دون أن أنطق بها، كما لو كنت

أنفخ بها داخل صدري، أو لعلها هي التي كانت تهدر في داخلي: *Tu n'es pas que cela!*

\*

ساعود نهائياً إلى تونس. وأنا أعدّ قهوتي بيد مرتعشة طلعت الجملة فجأة، كما لو كانت تتمة لحوار لم ينته عند *Tu n'es pas que cela!* : سأعود نهائياً إلى تونس. وأنا أنحدر في شارع لاغيتيه باتجاه بولفار مونبارناس، وأنا أحاول قراءة صحيفة، في المترو، في بولفار سان ميشال، في مكتب استقبال فندق سويس صافوا مساءً، في طريقي إلى الجامعة، وأنا أتمشى في بيغال أمام المومسات الكثيرات صاعداً شارع *Rue des Abbesses* باتجاه ربوة مونمارتر... في كل مكان: سأعود نهائياً إلى تونس. ألغيت كل مواعيدي وانقطعت عن حلقات النقاشات وقاطعت الحي الجامعي نهائياً. اعتذرت لرفاقي عن عدم حضور الاجتماعات لأسباب لا أربغ في شرحها الآن. انفردت بنفسي وبهذه الجملة اللازمة حتى التقيت بصابر في شارع سانت أنطوان بحي الماريه. أول كلمة قلتها له: سأعود نهائياً إلى تونس.

- هل هذا قرار مباغت؟ مجرد نزوة، أم فورة غضب أو أي شيء؟ أم أنك فعلاً تريد ذلك عن روية؟

- أريد ذلك، والقرارات الهامة لا تحتاج إلى كثير تفكير وتمحيص وإرجاء. أنا هكذا، تطلع لي القرارات الهامة دوماً فجأة مثل عاصفة في يوم صحو، وتلك هي القرارات التي أثق فيها دوماً، وخاصة منها تلك التي أستفيق عليها صباحاً. رجوته أن لا نناقش الأمر أكثر، لأنه لا يتطلب أي نقاش، فقبل بذلك ولم نعد إلى الحديث في الموضوع.

لم تعد الجملة تطنّ في أذنيّ بعدها. لكنني أصبحت أدرك أنني قد اتخذت قرارى النهائي، وباريس الآن غدت مستنفدة باهتة أمام عينيّ، وكلّ ما كان يعني لي شيئاً ذا أهميّة غدا لا أهميّة له ولا طائل من ورائه. باريس الآن مرحلة انتقاليّة، وسأحاول بدءاً من الآن أن أعيشها كذلك. خيانة أخرى ضروريّة، لأنّ الشعبان قد بلغ الآن مرحلة تغيير قشرته، ولا مفرّ من الخيانات.

أنتقل الآن مثل سائح عبر شوارع باريس. حتى جلسات المولدي لم تعد تعني لي شيئاً هي أيضاً. لا أتحاشاه، لكنني لا أبحث عنه. الوحيد الذي سيغدو جليسي المفضل إلى جانب مروان المنبوذ هو صابر. مع صابر أحس بنوع من الدفء الهادئ والمريح. صابر لا ينهال عليك مثل المولدي بأسلوب عنيف، وإن كانت لذلك الأسلوب جوانبه الشيقّة أيضاً. مع صابر أشعر دوماً أنّ صوتاً أليفاً خافتاً وحميماً يخاطبني من داخلي وانطلاقاً من مواقع مهيبّة في صيرورة تحولاتي الباطنيّة ومراجعاتي الذهنيّة السريّة. باريس تبدو كما لو أنها تخرج أمامي مغتسلة الآن؛ نظيفة وجديدة في بعض المواقع؛ قديمة مترهلة في مواقع أخرى: الحي اللاتيني، الحي الجامعي الدولي، سان دني، شارع ماربوف... شيء شبيه بآثار مدينة عتيقة، وأحياناً مثل مقبرة. هكذا بدت باريس للمولدي بعد عودته من البحر، بكل تأكيد.

«دع الموتى يدفنون موتاهم...» صابر وحده هو الذي بقي مشرقاً متوهجاً بنضارة سنوات ما قبل باريس. كأنني أعود معه إلى زمن كان جميلاً ومليئاً وعوداً، لكنني أهملته وتناسيته دون أن تمّحي إشعاعاته من ذاكرتي. في الوقت نفسه نطلّ على زمن آخر قادم يتراءى لنا قريباً جداً ومشعاً بالوعود هو الآخر.

«دع الموتى يدفنون موتاهم وتعال معي!»

لكن إلى أين؟

صابر لا يستطيع هو أيضاً أن يقول لي إلى أين بالضبط. كل ما يعرفه أنّ في رأسه الآن مشروع الكاراكوز الذي لا يدري من أين سيبدأه ولا كيف ومتى: مشروع العمر.

إلى أين؟ قرار العودة النهائية واضح، لكنني أنتبه الآن إلى أمر مقلق. لم أعد أعرف تونس. لا أدري ماهي الآن.. ثم هل عرفتها من قبل حتى يمكنني أن أقول إنني سأتعرف عليها من جديد؟ ما الذي سأفعله هناك؟ من أين سألجها؟ والأصدقاء القدامى، ما الذي طرأ عليهم خلال هذه السنوات السبع الأخيرة؟ أين هم الآن؟ بماذا يحلمون؟ لم يخططون؟ وماذا يفعلون؟ هل سأجد أصدقاء حقا؟ هل يمكن للمرء أن يجمد أصدقاء ثم يخرجهم من الثلاجة متى يريد أن يجدهم مجددا؟

ما لم أعد أريده صرت أعرفه الآن، لكن ما أريده...

أو كي، لنبدأ من جديد، كل شيء من جديد، لم لا؟

وصلتني رسالة من عقبة. قال لي إنّ علي في السجن على إثر خصومة عنيفة في بار سحبت فيها السكاكين. توفي خصمه في المستشفى بجرح عميق في الكبد.

علي!

علي لم يتعد عني كثيراً في الحقيقة. انفصلنا جسدياً، وفي فترة ما ظننت أن علاقتنا قد اهترأت بما فيه الكفاية كي تنتهي. لكنني في جلستاتي مع صابر كنت غالباً ما أتذكره، وأحياناً أودّ لو أنني أعرفهما على بعضهما وكنت متأكداً تماماً أنّ صابر سيحبّ علي ويولع به، لكنني لم أكن متأكداً من ردة فعل علي.



راسله عقبه العديد من المرات دون أن يتصل منه برّد. التجأ بعدها إلى فرانسواز التي أعلمته بأنه في السجن. مزقت الرسالة فوراً قبل أن تقع عيني على السطر الذي يحمل عنوان السجن. قلت: لا فائدة. على الثعبان أن يغير جلده بالكامل.

\*

## كل شيء في الماء؟ كلا، كل شيء في السيل

لم ألق بحذائي في الماء هذه المرّة، وأنا أعرف، أو أحاول أن أذكر نفسي على الأقل بأنني بعد أربع وعشرين ساعة سأدخل ميناء حلق الوادي.

أنظر إلى الماء وقد توغلنا بعيدا في البحر وغاب كل أثر للساحل من ورائنا وأقول إنها مجرد بحيرة. لكنني كلما أمعنت النظر إلّا وأصبحت فكرة الوصول شيئًا شبيهاً بفكرة مجردة تستعصي على اللمس، أو التصوّر.

سنصل، أقول بصوت مرتفع وأنا أقف على جسر السفينة. أكيد أننا سنصل، فمن قبلنا ركب الآلاف من الناس البحر مثلنا الآن، ووصلوا جميعهم.

أردد لنفسني: إنها بحيرة. مجرد بحيرة. أحاول استحضار صورة الساحل التونسي: شيء مثل ضباب أو غيم كثيف يغمر التلال والأودية. لا تضاريس هناك. ضوء مكثف يجعل إدراك التضاريس والمتناقضات وفوارق الألوان أمرًا مستحيلًا. يبرز لي وجه علي وأنا أحاول أن أستحضر أشياء أخرى، الفتيات السمراوات الملوّحات بتئوراتهن في الفضاء مثلاً، أو كيف تدخل باخرة إلى الميناء، هرج العتالين، رائحة

الصيف القادمة من الأرض الملاصقة، الأهالي القادمون لاستقبال العائدين، أحاول استدراج تلك الصور لكن ذهني لا يستقر على صورة من كل الومضات التي تبرق، تلوح بطرف، تتداخل كلها وتختفي بسرعة. لا شيء غير الفراغ! وفي ذلك الفراغ ترسم أمام عيني صورة علي: اختلاج عضلات الفكين، عيناه الصغيرتان تبرقان ببريق عيني ذئب صحراوي، شفته السفلى المتهدلة قليلا من الجانب الأيسر لفته في تعبير صليبي مكابرٍ ساخر. أحاول أن أزيح الصورة التي غدت مرتسمة هناك متموجة على سطح الماء مثل إدانة: يا خائن، يا نكار العشرة! أستمه، أتبأ منه: سبيني، تروح تقوّد أنت وسان دني وبارناديت وعقبة والعرفاوي وكل الرفاق، وباريس كلها! مددت لك يدي فرفضتها مفضلا الانطواء على الصمت والمكابرة، تلوك أوجاعك القديمة، تحفظها في قاعك المظلم وتصونها فيما أنت تدعي نسيانها حيث ما من شيء ينسى، كل شيء لا بد أن يمرّ بمحرقة التجاوز؛ تدير وجهك ولا تريد أن تنظر إليه في المرأة، لتذهب إلى الجحيم! أصرخ بحدة في وجه الماء والفراغ، وفي داخلي شيء يتململ بقلق: ألا تراني أفعل مثل عليّ أنا أيضا؟ ألسنٌ بصدد الهروب؟ أليست هذه طريقة أخرى لإلقاء حذائي في الماء صائحا بتلك النبرة الظافرة الكاذبة: لن أعود؟ والأب فينيال؟ ماذا عن الأب فينيال الذي ظل يرجّني وهو يردد *Mais tu n'es pas que cela!* أتذكر ذلك الحلم بأكثر وضوح الآن: يده التي كانت ترجّ كتفي بصرامة كما لو كان يريد إيقافني: «نادرا ما يصبح المرء رجلا حقا قبل الأربعين يا ابني. أمامك الآن تمرين صعب شيق ومفيد للعشر سنوات القادمة. بدءا من الآن ستكون ابن نفسك وصنيعة نفسك. اذهب الآن، معك بركتي يا ابني! أحاول أن أستدعي صورًا أخرى: الساحل التونسي، ميناء حلق الوادي، مرتفعات قرطاج وسيدي بوسعيد، جبل بوقرنين،

ربوة سيدي بلحسن الشاذلي، البنايات البيض لمدينة تونس... لكن لا شيء من كل ذلك ينقاد إليّ. ومضات سريعة باهتة، ولا شيء هناك غير الماء».

«ماء ماء ماء،

حيثما قلبت وجهك هناك الماء!»

برلين - الجزور - شيانغ راي

(٢٠٠٣ - ٢٠١٤)

## الفهرس

- ٥ ..... مرسليليا ذات مساء
- ٨ ..... توريسك
- ١٣ ..... باريس
- ١٧ ..... "Paris est gris et plein de pigeons"
- ٢٢ ..... الرفرافي
- ٣٠ ..... مائدة البروليتاريا
- ٤٣ ..... سان دني
- ٥٠ ..... الحي الجامعي العالمي
- ٥٩ ..... وجه آخر لفونطوماس
- ٧٧ ..... الدوامة
- ٩٤ ..... العرفاوي
- ١٠٤ ..... وجه ثالث لفونطوماس
- ١١١ ..... شانزليزي. ماربوف

١١٨	جوزيفين
١٤٢	حرائق
١٥٢	مقهى ليسكوليه
١٦٢	القاع المظلم
١٦٩	لكن أين اختفت جوزيفين؟
١٧٢	فرنسواز
١٨٠	في المصنع
١٩٤	يومان لجوزيفين
٢١٥	زمرة الشياطين
٢٢١	زاوية أخرى من القاع المظلم
٢٣٣	حانة برناديت
٢٤٤	عودة السندباد
٢٥١	فطيمة الزهراء
٢٥٨	خوروطو
٢٧٣	علي العاشق
٢٨٨	توتّر
٣٠٨	كل شيء في الماء؟

- ٣١٧ ..... ضربة رأس!
- ٣٢١ ..... بداية العدّ التنازلي
- ٣٣٣ ..... سماء صافية فوق نهر السين
- ٣٤٠ ..... الإخوة الأعداء
- ٣٤٨ ..... الشعبان يغير قشرته
- ٣٦٢ ..... كل شيء في الماء؟ كلا، كل شيء في السيل

## هذا الكتاب

لم أتفاءل خيرًا بدخولنا حانة Chez Bernadette في تلك الليلة. ثلاث مرّات انتهت سهرتنا هناك بخصوصومة. وفي كلّ مرّة أقسم بأن لن تطأ قدمي تلك الحفرة الكريهة بعدها أبدًا. علي أيضًا يقرر في كلّ مرّة وهو يلعن برناديت وحانتها وينعتها بقحبة النازيين وفضلة الألمان أن لن يعود أبدًا إلى ذلك الماخور النتن. لكنّه يعود دائمًا. «شي برناديت» بار صغير معتم يقع على التخوم الفاصلة بين سان دني وكليشي، غير بعيد من ساحة بلاييل، مما يعني أنّ الوصول إليه يتطلّب المرور بما لا يقلّ عن عشر حانات أخرى والتزوّد خلال تلك الرحلة بكميّة محترمة من الكحول، ويكون الواحد قد وصل إلى هناك وهو في وضع يتطلّب من صاحبه الإسراع إلى الفراش، إن كان في دماغه مقدار ذرّة من العقل طبعًا.

ISBN 978-9933351199



9

